

الأمر
مكسيم جوركي

- ♦ المؤلف: مكسيم جوركي
- ♦ Author : Maxim Gorky
- ♦ العنوان: الأم
- ♦ Title: The Mother
- ♦ ترجمة: مازن الحسيني
- ♦ Translated by: Mazen Al Housiny
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
- ♦ Afaq's first edition: 2018
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ Cover Design by: Amr El Kafrawy
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ
- ♦ General Manager: Mostafa Alsheikh
- ♦ المحرر: طارق هاشم
- ♦ Editor: Tarek Hashim



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ١٥٩٥٠

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 117 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مكسيم جوركي

الأم

رواية

ترجمة

مازن الحسيني - إسماعيل عبد الرحمن

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جوركي، مكسيم.
الأم - رواية - ترجمة: مازن الحسيني - إسماعيل عبد الرحمن
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018
592 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 15950 / 2017
الترقيم الدولي 2 - 117 - 765 - 977 - 978
1 - الأدباء
2 - جوركي، مكسيم

القسم الأول

كانت صفارة المصنع تدوي مرتجفة، كل صباح في حي العمال الذي يسوده جو أغبر ثقيل، فيخرج، ملين طائعين لندائها، أناس يحثون الخطي، متجهمة وجوههم، أشبه بالصرابير المدعورة، أيقظوا من نومهم قبل أن تسترد عضلاتهم القوة والنشاط. كانوا ينطلقون من بيوت غرباء اللون في الفجر البارد المظلم، عبر الشارع غير المعبّد ميممين شطر حجرات المصنع الحجرية الشاهقة التي تنتظرهم في طمأنينة وبرود، وتضيء الطريق بعشرات من الأعين الزيتية المربعة. كان الوحل يسوخ تحت أقدامهم، وهم يصيحون بأصوات مبحوحة نائمة فيمزقون الجو بشتائم قبيحة، بينما كانت تتردد أصدااء ضجيج الآلات وصفير البخار فتبلغ آذانهم، وكانت المداخن القاتمة السوداء تشرف على الحي كأنها عُصي غليظة.

وفي المساء، حين كانت الشمس الغاربة تجد لها على زجاج نوافذ المنازل انعكاسات متهاكة، كان المصنع يتقيأ أولئك الناس من أحشائه الحجرية، وكأنهم فضلات، فيتسلقون الشارع من جديد، وجوههم قذرة

يلطخها السواد، وأسنانهم الجائعة تتألق وأجسادهم تفوح منها رائحة زيت الآلات اللزج. كانت أصواتهم الآن تنبض بالحيوية بل بالغبطة أيضًا، فقد انتهى العمل إلى يوم آخر، والعشاء والراحة ينتظرانهم في البيت.

لقد استهلك المصنع النهار كله، وامتصت آلاته من قوة العمال قدر ما تحتاج، وانقضى اليوم دون أن يترك أثرًا، وتقدم الإنسان خطوة أخرى نحو قبره، ولكنه كان يتوقع الآن من ذلك أن يستريح، وأن يستمتع بالجلوس في حانة يعبق الدخان جوها، ولذلك فهو سعيد....

وفي أيام الآحاد والإجازات، كان الناس ينامون حتى العاشرة، ثم يرتدي أصحاب الوجاهة المتزوجون منهم أفضل الثياب ويتجهون لحضور القداس وهم يعنفون الصغار لعدم مبالاتهم بأمور الدين، فإذا ما انتهى القداس قفلوا راجعين إلى بيوتهم، يأكلون الفطائر ثم ينامون من جديد حتى المساء.

إن التعب المتراكم عبر السنين أفقدهم شهيتهم، فليشيروها إذن بالشراب ولينشطوا المعدة بلذع القودكا الحارق.

وفي المساء كانوا يسيرون الهويناء في الشوارع، وقد انتعل بعضهم أحذية واقية من المطر، حتى ولو كانت الأرض جافة. أما أولئك الذين يملكون مظلات، فقد كانوا يحملونها وإن كان الجو جميلًا.

وإذا ما قابلوا أصحابهم، تحدثوا عن المصنع والآلات، وعن رؤسائهم، ولكنهم لم يفكروا في الحديث عن أمور لا تتعلق بهم، ونادرًا ما كانت ومضات ضئيلة من الأفكار المضطربة تخترق الملل الذي يسود أيامهم، وعندما يعود الرجال إلى بيوتهم كانوا يتشاجرون مع زوجاتهم،

وكثيرًا ما كانوا يضربونهن. أما الشبان فقد كانوا يذهبون إلى الحانات، أو إلى بيوت أصدقائهم، حيث يعزفون على «الأكورديون»، ويغنون أغاني خليعة، ويرقصون ويتبادلون الشتائم ويشملون، وسرعان ما كان الشراب يتسرب إلى رؤوسهم، وهم الذين أرهقهم العمل المضني الشاق، فيستعز في صدورهم هياج لا سبب له يطالب بمنفذ. لهذا كانوا ينتهزون أتفه الأسباب ليطلقوا العنان لمشاعرهم، فينقضون على بعضهم بعضًا بوحشية حيوانية مما يسفر عن مشاجرات دامية، وفي كثير من الأحيان كانت تؤدي إلى إصابات بالغة، وفي بعض الأحيان إلى القتل.

وكان الحقد الدفين يسيطر على علاقتهم الإنسانية، ذلك الشعور القديم قدم إنهاك عضلاتهم الذي لا سبيل إلى البرء منه، لقد ولد الناس وهذا المرض الروحي يعترئهم، ورثوه عن آبائهم، وكالشيخ الأسود، لازمهم حتى القبر، ودفعهم إلى ارتكاب أعمال تثير وحشيتها، التي لا معنى لها، الاشمئزاز والتقزز.

وفي أيام الأحاد كان الشبان يعودون إلى بيوتهم في ساعة متأخرة من الليل، ثيابهم ممزقة تعلوها القاذورات والأوحال، تحيط بعيونهم دوائر سوداء وأنوفهم دامية، يتباهون بحقد، في بعض الأحيان، بما كالوا لأصدقائهم من لكمات، أو عابسين في أحيان أخرى، ثائرين، أو باكين لما لحق بهم من إهانات. كانوا سكارى، مدعاة للشفقة، بائسين، يشرون الاشمئزاز، وكثيرًا ما كان الآباء والأمهات يجدون أبناءهم سكارى مستلقين في ظل حاجز أو على أرض الحانة، فيضربون أجسادهم المشبعة بالثودكا، ويعودون بهم إلى البيت، فيوسدونهم الفراش والهم

يملاً قلوبهم، ليوقظوهم في الصباح الباكر عندما تدوي صفارة المصنع في تيار مظلم خلال نور الفجر.

كانوا يلعنون أبناءهم ويضربونهم بلا رحمة، ولكن عراك الشبان وسكرهم اعتبراً أمرين لا مفر منهما، فحين كان الآباء شباباً كانوا يتشاجرون ويسكرون ويضربهم آبائهم وأمهاتهم... فالحياة كانت هكذا دائماً... تجري في تيار عارم يبطء وهدوء سنة بعد سنة. كل شيء كان مشدوداً إلى عادات وأفكار قديمة، فكانوا يفعلون الشيء ذاته يوماً بعد يوم.

وفي بعض الأحيان كان يأتي أناس جدد ليعيشوا في حي العمال، فكانوا يسترعون الانتباه لأول وهلة، لحدائثة مقامهم فقط. كان الاهتمام السطحي فيهم يستمر فترة بسبب ما يروونه عن الأماكن التي كانوا يعملون فيها، ولكن سرعان ما كانت تنتفي صبغة الجدة، ويعتاد الناس عليهم، ويكفون عن الشعور بوجودهم، وكان يتضح مما يرويه القادمون أن حياة العمال واحدة في كل مكان، وإذا صح هذا فما الذي تبقى للتحديث عنه؟

ولكن بعض القادمين كانوا يتحدثون عن أمور لم يسمع بها سكان حي العمال من قبل، فلا يناقشهم أحد، بل يصغون إليهم في شك وريبة. كان الحديث يكدر البعض، ويثير في آخرين ذعراً مبهمًا، ويبعث في نفوس فريق ثالث شبحاً هزياً من الأمل يزعجهم فيدفعهم إلى الشراب أكثر فأكثر ليطردوا مخاوفهم التي تزيد من تعقيد حياتهم.

وإذا لاحظ سكان الحي شيئاً غريباً في أمر أحد المهاجرين أخذوه عليه، وكانوا حذرين متيقظين من كل شخص دخل عليهم، كأنهم

يخشون أن يعكر عليهم مجرى حياتهم المملة، التي كانت - على الرغم من صعوبتها - هادئة على الأقل. لقد اعتاد الناس أن يشعروا بثقل الحياة متساوياً في كل الأوقات، وبعد أن فقدوا الأمل في تغيير أوضاعهم أصبحوا متأكدين أن أي تبادل سيزيد من شقائهم.

وأخذ العمال يتحاشون بهدوء كل من ينادي بأراء جديدة، وهكذا ذهب كثير من القادمين. أما في الحالات النادرة التي فضلوا فيها البقاء، فإما أصبحوا كزملائهم، أو عاشوا في عزلة منفردين...

وبعد مضي خمسين عامًا من مثل هذه الحياة، كان المرء يلقي حتفه.

- ٢ -

هكذا كان يعيش ميخائيل فلاسوف، وهو ميكانيكي مكتئب ذو شعر غزير، وعينين صغيرتين تومضان بارتياح وحقد وازدراء تحت حاجبيه الكثرين. كان أبرع ميكانيكي في المصنع، وأقوى رجل في الحي، ولكنه كان فظاً مع رؤسائه؛ ولهذا السبب لم يكسب إلا القليل من المال. في كل عطلة كان يضرب رجلاً، فهكذا أبغضه الجميع وخافوه، وباءت جميع محاولات رد العدوان إليه بالفشل، فكلما رأى الناس يتقدمون نحوه لمهاجمته التقط حجراً أو قطعة من الخشب أو قضيباً من الحديد وغرس قدميه متباعدتين في الأرض، وانتظر العدو في هدوء. كان منظر ساعديه المكسوين بالشعر ووجهه الكبير - من العينين حتى الرقبة - ولحيته السوداء الكثة كافياً لإلقاء الرعب في قلب أي إنسان، لكن الناس

كانوا يخافون، بصفة خاصة، عينيه الصغيرتين الحادتين اللتين كانتا تبدوان وكأنهما تنفذان إلى أغوار النفس، وكل من أطال النظر إليهما، شعر بأنه أمام قوة متوحشة، على استعداد لأن تضرب دون خوف أو رحمة.

كان يقول بفضاظة وأسنانه الصفراء الكبيرة تلمع من خلال لحيته:

- اغربوا عن وجهي، يا أبناء العاهرات.

فيغرب الناس عن وجهه، يقذفونه بسيل من الشتائم في جبن وخوف، وهم يتقهقرون، فيصيح في أثرهم وعيناه متقدتان حقًا كخنجرين مسلولين:

- يا أبناء العاهرات!

ثم يتبعهم وهو يصيح متحديًا:

- حسنًا، من منكم يريد الموت؟

ولم يشأ أحد أن يموت...

وقلما كان يتكلم، وكانت «يا أبناء العاهرات» جملة المأثورة التي يرددها دائمًا، ينعت بها رجال البوليس والحكومة ورؤساءه في المصنع. أما زوجته فقد كان يدعوها «بالعاهرة»، فيقول لها مثلًا:

- ألا ترين سراويلي ممزقة أيتها العاهرة؟

وحين كان ابنه، بافل، في الرابعة عشرة من عمره، حاول أن يمسك به من شعره، فالتقط بافل مطرقة ثقيلة وقال باقتضاب:

- ارفع يديك عني.

فسأل أبوه وهو يتقدم نحو ابنه الطويل النحيل مثل خيال سحابة تتقدم
نحو شجرة البتولا:

- ما هذا؟

فقال باقل:

- لقد تحملت ما فيه الكفاية، ولن أتحمل المزيد.

ورفع المطرقة عاليًا.

فنظر إليه أبوه نظرة واحدة، ثم أخفى يديه الكثتين وراء ظهره، وقال
بعد ضحكة مقتضبة:

- حسنًا!

وأضاف متنهّدًا:

- إنك بحق ابن عاهرة!

وبعد فترة من ذلك الحادث قال لزوجته:

- لا تطلبي نقودًا مني، إن باقل سيطعمك من الآن فصاعدًا.

فوجدت زوجته الشجاعة لتقول:

- وأنت ستصرف كل أجرك على الشراب على ما أظن!

- ليس هذا من شأنك أيتها العاهرة. سأأخذ لي خليعة إن شئت.

ولم يتخذ خليعة، ولكنه تجاهل ابنه منذ ذلك الحين إلى أن توفي بعد
عامين تقريبًا، ولم يكلمه طوال هذه المدة.

كان يملك كلبًا ضخّمًا، كث الشعر مثله، يتبعه إلى المصنع كل

صباح، وينتظره على الباب كل مساء. وكان فلاسوف يقضي أيام الإجازات متنقلاً بين الحانات، لا يكلم أحداً، ولكنه كان يتفرس في وجوه الناس كأنه يبحث عن شخص ما، والكلب يجرد ذيله الكث وراء صاحبه طيلة اليوم، وحين كان فلاسوف يعود ثملاً إلى البيت ويجلس ليتناول طعام العشاء، كان يطعم الكلب من صحنه، ولم يكن يلعنه أو يضربه، ولكنه لم يكن يدلله أبداً، وإذا تأخرت زوجته في تنظيف المائدة بعد العشاء ألقى بالصحون على الأرض، ووضع أمامه زجاجة من الفودكا وأسند ظهره إلى الحائط، ثم أغمض عينيه وفتح فمه، وأخذ يغني أغنية حزينة بصوت شبيه بالعويل. كان الصوت الكثيب القبيح يختلط بشاربه، فيخرج من لحيته ما علق بها من فتات الخبز، فيمسح الميكانيكي لحيته وشاربه بأصابعه الغليظة وهو يغني. كانت كلمات أغنيته مبهمة غامضة، أما اللحن فقد كان يذكر الإنسان بعواء الذئاب في الشتاء، وكان يغني إلى أن تفرغ زجاجة الفودكا، ثم يلقي بنفسه على المقعد أو يلقي برأسه على المائدة وينام إلى أن تدوي الصفارة، وكان الكلب ينام بجواره.

ومات بنزيف داخلي، ظل خمسة أيام يتقلب في سريريه، وقد اسود وجهه، وأغلق عينيه وحرّق أسنانه، وبين حين وآخر كان يقول لزوجته:

- أعطني بعض الزرنبيخ... سميني...

ووصف الطبيب له كمادات، وأضاف أنه لا بد من إجراء عملية جراحية لميخائيل، ونقله إلى المستشفى في اليوم ذاته، فقال ميخائيل بصوت لاهث:

- اذهب إلى الجحيم، سأموت بلا مساعدتك يا ابن العاهرة.

وعندما ذهب الطبيب ورجته زوجته أن يوافق على إجراء العملية،
لوح بقبضة يده في وجهها وقال:

- إذا ما شفيت فسيزداد حالك سوءاً.

ومات في الصباح حين دوت الصفارة، ورقد في فراشه فاغر الفم
وحاجباه مقطبان في استياء، وسار في جنازته زوجته وابنه وكلبه ودانيلو-
فيزوفشيكوف، (وهو لص قديم، وسكير طرد من المصنع)، وعدد من
متسولي الحي، وبكت زوجته قليلاً وبهدوء تام، ولكن باقل لم يبك،
أما سكان الحي الذين مروا بالجنازة، فقد كانوا يقفون ويرسمون إشارة
الصليب ويقولون:

- لا بد أن بيلاجيا سعيدة للغاية لموته.

ويقول البعض الآخر:

- لقد مات كلباً كما عاش.

ومضى الناس حين توارى النعش تحت التراب، ولكن الكلب ظل
جالساً على التراب الرطب، يشم القبر بسكون، وبعد بضعة أيام قتله أحد
الناس...

- ٣ -

عاد بافل فلاسوف إلى البيت فاقد الوعي من السكر ذات أحد، عقب
وفاة والده بأسبوعين، فدخل البيت مترنحاً وزحف إلى المقعد عند رأس
المائدة، وأخذ يضرب المائدة بقبضته، ويصيح بأمه:

- العشاء!

فجلست الأم بجوار ابنها، ولفت ذراعها حوله، وجذبت رأسه إلى صدرها، ولكنه أبعداً قائلاً:

- هيا يا أمه.. أسرع!

فقالت الأم في حزن وعطف وهي تبعد يده:

- أيها الولد الغرير!

فتمتم باقل وهو يحرك لسانه الغليظ بصعوبة:

- وسأدخن أيضًا... أعطني غليون أبي.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشمل فيها، فأنهكت الشودكا قواه، ولكنها لم تذهب بوعيه تمامًا، فراح هذا السؤال يتردد في رأسه:

- هل أنا سكران؟ هل أنا سكران؟

وارتبك من حنان أمه، وتأثر لمظاهر الأسى في عينيها، وشعر برغبة في البكاء، ولكنه حبس الدموع بالتظاهر بأنه أشد سكرًا مما هو عليه حقيقة، فداعت أمه شعره الرطب الأشعث، وقالت في هدوء:

- ما كان يجب أن تفعل هذا.

وابتدأ يشعر بالغثيان، وبعد نوبة شديدة من القيء وضعته أمه في الفراش، ووضعت قطعة مبللة من القماش على جبينه الشاحب، فأعاد إليه هذا بعض رشده، ولكنه استمر يشعر بدوار، وكانت جفونه ثقيلة لا يستطيع رفعها. ورمق وجه أمه الكبير من خلال أهدابه، وذلك الطعم الكريه في فمه، وفكر:

- يبدو أنني لا زلت صغيراً، إن الآخرين يشربون ولا يحدث لهم شيء، أما أنا فيصيبني الغثيان.

وجاءه صوت أمه الناعم من مكان بعيد:

- كيف تعولني إذا أخذت في تعاطي الخمر؟

فأجاب، وهو يغلق عينيه بشدة:

- الكل يشرب...

فتنهدت الأم، لقد كان مصيباً، فهي نفسها تعلم أن الحانة هي المكان الوحيد، حيث يستطيع الناس أن يعتصروا قطرة من السعادة... ولكنها قالت:

- ولكن يجب ألا تشرب. فوالدك شرب أكثر مما يكفي لكليكما، ألا يكفيني ما لقيت من الشقاء على يديه! ألا تستطيع أن ترحم أمك قليلاً؟
واتضح لبافل، وهو يصني لهذه الكلمات الهادئة الحزينة، أنه لم يشعر بوجود أمه إلا قليلاً أثناء حياة أبيه. لقد كانت هادئة جداً تعيش في خوف دائم من الضرب. كان هو نفسه يبقى خارج المنزل ما وسعه ذلك تحاشياً للقاء أبيه، فشب بعيداً عنهما، وما إن تاب إليه وعيه بالتدريج حتى أخذ يرقبها باهتمام:

كانت فارعة على شيء من الانحناء، يتحرك جسدها، الذي حطمه العمل الشاق والضرب الذي تلقتة من زوجها، بسكون واعوجاج كأنما تخشى أن تصطدم بشيء ما، وكانت تضيء وجهها العريض البضاوي الشكل المتورم المتجدع، عينان يملأهما الذعر والأسى، كعيون غالبية

نساء الحي، وكان فوق حاجبها الأيمن ندب غائر يرفع حاجبها قليلاً إلى أعلى ويوحي بأن أذنها اليمنى أعلى من اليسرى، وأضفى هذا على وجهها سيماء الحذر واليقظة دائماً، وكانت خيوط بيضاء تشع من شعرها الفاحم الغزير. لقد كانت كلها رقة وأسى وخنوعاً...

وأنسلت على خديها الدموع ببطء، فقال ابنها بهدوء:

- لا تبكي... اسقني.

- سأحضر لك بعض الماء المثلج.

ولكنه كان نائماً حين عادت، فوقفت تتأمله لفترة قصيرة والكوب المصنوع من الصفيح يرتعش في يدها، بينما الثلج يقرع جوانبه، فوضعتَه على المائدة، وجثت بهدوء على ركبتيها أمام الأيقونات. كانت الحياة الثملة في الخارج تقرع النافذة، وأكورديون يصرخ في ظلمة ليل الخريف الرطبة، وأحدهم يغني بصوت أجش، وآخر يتفوه بسيل من الشتائم البذيئة، وأصوات بعض النسوة المتعبة الثائرة الضجيرة...

ومرت الحياة في منزل عائلة فلاسوف الصغير أكثر هدوءاً وسكينة من قبل، وتختلف نوعاً ما عن الحياة في المنازل الأخرى. كان منزلهم يقع في آخر الحي فوق منحدر، إن لم يكن على هضبة عالية تؤدي إلى مستنقع، وكان المطبخ وغرفة صغيرة ملحقة تنام فيها الأم يشغلان ثلث المنزل، أما الثلثان الباقيان فكانا يؤلفان غرفة مربعة فيها نافذتان، وكان سرير بافل يشغل إحدى زواياها، ويحتل الزاوية الأخرى مائدة ومقعدان... أما بقية الأثاث فقد كان يتألف من عدة كراسي ومغسلة يعلوها مرآة، وحقيبة فيها بعض الملابس، وساعة على الحائط وأيقونتان في الزاوية.

وفعل باثل كل ما هو متوقع ممن في مثل سنه، فاشترى لنفسه
أكورديون وقمصًا ياقته منشية ورباط عنق زاهي اللون، وحذاء واقياً
من المطر، وعصا، وكان يذهب إلى الحفلات في المساء، وتعلم رقص
الكدريل والبولكا. كان يعود إلى البيت ثملاً أيام الأحاد، ولكن الفودكا
كانت تصيبه دائماً بالغثيان، فكان يستيقظ صباح أيام الإثنين يشكو من
صداع وعسر هضم، شاحب الوجه منهكاً.

وسألته أمه ذات مرة:

- هل قضيت وقتاً طيباً ليلة أمس؟

فأجاب بغضب وانفعال:

- بل وقتاً منكوداً... سأذهب في المرة القادمة لصيد السمك، أو قد
أشتري لنفسى بندقية وأذهب للصيد.

كان يعمل بجهد، ولم يتغيب يوماً واحداً عن العمل، ولم يدفع غرامة
لتأخره عن عمله. كان قليل الكلام وفي عينيه الواسعتين الزرقاوين سخط،
كذلك الذي يبدو في عيني أمه. لم يشتر لنفسه بندقية، ولم يخرج للصيد،
ولكن سرعان ما اتضح أنه حاد عن الدرب الذي يطؤه الجميع، فقل ذهابه
إلى الحفلات، وعلى الرغم من خروجه من البيت أيام الأحاد، إلا أنه كان
يعود إلى البيت دون أن يسكر، ورأت عينا أمه الحادثتان أن وجه ابنها بدأ
يهزل، وأن في عينيه جدية أكثر، وأن شفثيه مطبقتين بشدة تشكلان خطأً
قاسياً، فلا بد إذن أنه كان يعالج كرباً انتابه، أو أن الآفة هصرت عوده. كان
أصدقاؤه يقدون إليه بقصد الزيارة، ولكنهم كفوا عن المجيء بعد أن تبين
لهم أنه لا يلم بالبيت إلا نادراً، وكانت أمه مسرورة لأن ابنها يختلف عن

سائر شباب المصنع، ولكن مخاوف مبهمة انبعثت في نفسها وهي ترى المحاولات العنيدة التي يبذلها ليحول مجرى حياته عن المجرى المظلم لحياة العامة من الناس.

وكانت تسأله في بعض الأحيان:

- أو أائق أنت أنك على ما يرام يا باشا^(١)؟

فيجيب:

- على أحسن ما يرام.

فتتهد وتقول:

- ولكنك هزيل جدًا...

وابتداً يحضر كتباً إلى البيت، كان يقرأها خلصة، ويخفيها عندما ينتهي منها، وفي بعض الأحيان كان ينسخ بعض الفقرات ويخفي الورقة. كان لا يرى أمه إلا لماًحاً، فلا يتحدثان تقريباً، ففي الصباح كان يشرب الشاي في صمت ويذهب إلى العمل مباشرة ويعود للغداء في الظهر، وكانا يتبادلان حديثاً عارضاً على الغداء، وعندما ينتهي منه يختفي حتى الليل، وفي المساء كان يغتسل ويتناول طعام العشاء، ثم يجلس ويديه كتاب. في أيام الآحاد كان يغادر المنزل في الصباح، ليعود في ساعة متأخرة من الليل. كانت أمه تعلم أنه يذهب إلى المدينة، وبعض الأحيان يذهب إلى المسرح، ولكن لم يحضر أحد من المدينة لزيارته. بدا لها أنه بدأ يتكلم أقل فأقل، ولكنها لاحظت في الوقت ذاته أنه بدأ يستعمل ألفاظاً جديدة عجزت عن فهمها، وتخلي عن الألفاظ الجافة التي كان يستعملها

(١) باشا: اسم التدليل في الروسية لبافل - المعربان.

في الماضي. استرعى انتباهها تفصيلات كثيرة بدت في تصرفاته الجديدة: فهو لا يتأنق في لبسه، بل ابتداءً يهتم أكثر فأكثر بنظافة جسمه وهندامه، وأصبحت حركاته أكثر حرية، وسلوكه أبسط وأقل غلظة، ولكنها قلقت لهذا التغيير الذي لا تفسير له. تغيرت أخلاقه نحوها أيضًا، فكان ينظف الأرض في بعض الأحيان، ويرتب سريره أيام الأحاد، ويحاول بشتى الطرق أن يساعدها في أعمالها. لم يكن أحد في الحي بأسره يفعل هذا... وأحضر ذات يوم صورة إلى البيت وعلقها على الحائط، كانت صورة ثلاثة أشخاص منهمكين في النقاش وهم يسرون.

وفسر باقل لأمه:

- إنه المسيح بعث من جديد وهو في طريقه إلى عاموس^(١).

سرت أمه من الصورة، ولكنها فكرت:

- لماذا لا يذهب إلى الكنيسة إذا كان يحب المسيح إلى هذا الحد؟

وازداد عدد الكتب على الأرفف الأنيقة التي صنعها نجار كان باقل يصادقه، فاتخذت الغرفة مظهرًا مأنوسًا.

وكان يناديها «يا أمي» عادة، ولكنه كان يخاطبها في بعض الأحيان بحنان أكثر، فيقول لها مثلاً:

- لا تقلقي من أجلي يا أماه، سأعود الليلة في ساعة متأخرة.

كانت تحب ذلك، ولكنها شعرت في كلماته بشيء من الجد والصرامة.

(١) عاموس: قرية تبعد عن القدس عشرة أميال ظهر فيها المسيح بعد صلبه لاثنتين من حواريه في يوم عيد الفصح - المعبران.

وازدادت مخاوفها؛ ولكن أسبابها لم تزد وضوحًا، وازداد ثقل قلبها بشيء غامض بعيد عن المألوف، ولم تكن راضية في بعض الأحيان عن ابنها، ولكنها كانت تفكر: لماذا لا يستطيع التصرف مثل الناس الآخرين؟ إنه كالناسك، جاد للغاية، وهذا لا يلائم سنه، ثم تفكر:

– قد يكون لديه فتاة يحبها...

ولكن حب فتاة يتطلب الكثير من المال، وهو يعطيها كل أجره تقريبًا. وهكذا انقضت الأسابيع والأشهر، حتى مر عامان من هذه الحياة الغريبة الساكنة المليئة بالأفكار المبهمة والمخاوف المتزايدة.

– ٤ –

أسدل بافل ستائر النافذة ذات مساء عقب العشاء، وبعد أن علق المصباح الصفيحي فوق كرسيه جلس في الزاوية وبدأ يقرأ. خرجت أمه من المطبخ بعد تنظيف أواني الطعام، واقتربت منه ببطء رفعت رأسه، ونظر إليها متسائلًا:

– لا شيء يا باشا...

وهرولت إلى المطبخ، حاجباها يرتعشان بانفعال، ولكنها غسلت يديها بعد كفاح قصير مع أفكارها، وذهبت إليه ثانية وقالت بهدوء:

– كنت أود أن أسألك عما تقرأه طيلة الوقت.

فأقفل الكتاب وقال:

- اجلسي يا أماء.

جلست أمه بتشاكل ثم نصبت قامتها متهيئة لسماع أمر في غاية الأهمية.
تكلم باثل من غير أن ينظر إليها، بصوت خفيض جاف لسبب ما.
قال:

- إنني أقرأ كتبًا ممنوعة، وإذا وجدوها معي سيلقون بي في السجن،
في السجن لأنني أريد معرفة الحقيقة. هل تفهمين؟

وفجأة وجدت صعوبة في التنفس، وفتحت عينيها ونظرت إلى
ابنها، وشعرت بأنها لا تعرفه، فصوته مختلف: أعمق وأغنى وأكثر رنينًا.
أمسك بشاربه الناعم الجميل، وחדق بغرابة في الزاوية من تحت حاجبين
مقطبين. كانت خائفة من أجله، شفقًا عليه، فسألته:

- لماذا تفعل هذا يا باشا؟

فأجاب بهدوء وسكينة:

- لأنني أريد أن أعرف الحقيقة.

كان صوته رقيقًا، ولكن حازمًا، وكانت في عينيها ومضات عنيدة.
أدركت أن ابنها قد نذر نفسه إلى الأبد لشيء سري ومخيف، وكانت قد
اعتادت أن تقبل كل شيء في الحياة كأمر محتوم لا مفر منه وأن تدعن بلا
تساؤل، فبكت بهدوء، وقد حطمها الحزن والأسى إلى حد لم تجد معه ما
تقول، فقال باثل بحنان وعطف:

- لا تبكي.

فشعرت كأنه يقول لها الوداع.

وأضاف يقول:

- فكري في الحياة التي نعيشها. ها أنت بلغت الأربعين من عمرك، فما الذي عرفته؟ كان أبي يضربك، وأنا أدرك الآن أنه كان ينفس عن متاعبه فيك، كل مرارة حياته. كان هناك ما يضغط عليه ويرهقه باستمرار دون أن يدري من أين يأتي، لقد كان يعمل كالعبد هناك طوال ثلاثين عامًا، بدأ يعمل يوم أن كان المصنع عمارتين، أما الآن فقد أصبح المصنع سبع عمائر.

كانت تصغي إليه في لهفة، مشوبة بالخوف. كانت عينا ابنها تشعان بنور حبيب، وأسند صدره إلى المائدة، واقترب من وجهها المخضل بالدموع، وتحدث لأول مرة عن الحقيقة التي تبينها أخيرًا، تحدث عن الأشياء التي اتضحت له بكل قوى الشباب حماسة الطالب المتباهي بعلمه، المؤمن به كلية. كان يتحدث ليختبر نفسه أكثر من أن يقنع أمه، ويتوقف حين تعوزه الكلمات، وإذ ذاك يحس بوجود ذلك الوجه المتألم الذي أمامه، وتلك العينين اللتين تشعان من خلال غشاوة من الدموع وتنظران إليه في خشية وتعجب. كان حزينًا من أجل أمه، وعندما ابتداء يتحدث من جديد، كان يتحدث عنها وعن حياتها، فسألها:

- ما هي المتعة التي شعرت بها طيلة حياتك؟ ما هي الذكريات الطيبة التي تحتفظين بها؟

أصغت إليه وهي تحرك رأسها في أسى، تملأ نفسها مشاعر جديدة غريبة هي مزيج من الفرح والحزن كمن يمسح برفق على قلبها المكلوم. لم يحدث أن تكلم إليها أحد من قبل عنها وعن حياتها، فأيقظت الكلمات

فيها أفكارًا مبهمه نسيته منذ زمن بعيد، وأحيت شعورًا خامدًا بالسخط على الحياة، أفكار الشباب الغابر ومشاعره، ففي شبابها كانت تتحدث إلى معارفها من الفتيات عن الحياة، كانت تتحدث بإسهاب عن كل شيء، ولكن كل صديقاتها، وحتى هي نفسها، كن يتذمرن دون البحث عن تفسير لشقاء حياتهن. لكن الآن ها هو ابنها يجلس أمامها، وكل ما تعبر عنه عيناه ووجهه وكلماته يمس شغاف قلبها ويجعلها تته فخرًا بابنها الذي يفهم حياة أمه فهمًا جيدًا ويتحدث إليها عن آلامها ويعطف عليها.

قلما يعطف أحد على الأمهات. كانت تعرف ذلك، فكل ما قاله عن حياة النساء كان الحقيقة المرة المألوفة، التي أثارت مشاعر مختلطة أذابت رقتها الغريبة قلبها. فسألته مقاطعة:

- وما الذي تنوي عمله؟

- الدراسة أولاً ثم أعلم الآخرين. إننا نحن العمال يجب أن ندرس، يجب أن نبحث عن سبب شقاء حياتنا ونفهمه.

كانت سعيدة لرؤية عينيه الزرقاوين وقد تخلت عنهما صرامتهما وقسوتهما فامتلاًناً الآن بنور رقيق لطيف، ومست شفيتها ابتسامة خافتة على الرغم من أن الدموع كانت ترتعش على غضون خديها. كان يتنازعها شعور الزهو بابنها الذين تبين مرارة الحياة جيداً، وإدراكها أنه لا يزال صغيراً، وأنه بحديثه يختلف عن الآخرين، وأنه أخذ على عاتقه وحده مهمة الصراع ضد حياة اعتبرها الجميع، حتى هي، أمراً واقعياً لا مفر منه، وكانت تود أن تقول له:

- ما الذي تستطيع أن تقوم به بنفسك يا حبيبي؟

ولكنها كانت تخشى أن تفقد بعض الإعجاب الذي تشعر به نحوه.
هذا الابن الذي أثبت فجأة أنه ذكي وأنها أعجز من أن تفهمه.

رأى بافل الابتسامة على شفتي أمه، ودلائل التفكير على وجهها،
والحب في عينيها، وشعر بأنه نجح في حملها على فهم الحقيقة التي
ينادي بها، فقوي اعتزاز الشباب في قوة كلماته إيمانه بنفسه. كان يتحدث
بانفعال، فتارة يبتسم، وتارة يعبس، وفي بعض الأحيان كانت كلماته
مشبعة بالحقد، فترتعد الأم عند سماعها، وكانت قاسية رنانة، فتهرز رأسها
وتسأل ابنها برقة:

- هل هذا ممكن يا باشا؟

فيجب بعزم:

- نعم إنه ممكن.

ثم يحدثها عن أناس يتوقون لعمل الخير فيبدرون بذور الحقيقة بين
الجماهير، العمل الذي من أجله يضطادهم أعداء الحياة كما يضطادون
الوحوش ويلقون بهم في السجن ويحكمون عليهم بالأشغال الشاقة.
وهتف بحماس:

- إنني أعرف هؤلاء الناس، إنهم ملح الأرض^(١).

أجفلت لدى التفكير في هؤلاء الناس، وودت لو سألته مرة أخرى إذا
كان هذا ممكناً، ولكنها لم تجرؤ، فأصغت، حابسة النفس مبهورة، إلى

(١) آية من الإنجيل جاءت في موعظة المسيح على الجبل وهو يعلم تلاميذه بقوله: «أنتم ملح الأرض
فإذا فسد الملح، فماذا يملح؟». فعني أنهم الطيبون الذين يتعين عليهم توجيه الناس وإرشادهم-
المعربان.

قصص عن رجال لا تستطيع فهمهم، ولكن علّموا ابنها أشياء خطيرة يفكر بها، وأخيرًا قالت له:

- أوشك الصبح أن ينبلع، فمن الأفضل أن تذهب إلى فراشك لتنام قليلًا.

فانحنى عليها وقال:

- سأذهب الآن، ولكن هل فهمت ما قلت؟

أجابت متنهدة:

- نعم.

وانهمرت دموعها مرة أخرى، وصاحت فجأة:

- إن هذا سيؤول بك إلى الدمار.

فنهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم قال:

- حسنًا، إنك تعرفين الآن ما أفعل وإلى أين أذهب، لقد قلت لك كل شيء. فإذا كنت تحبينني أرجوك يا أماه ألا تعترضني طريقي.

فصاحت:

- أواه! يا بني، يا حبيبي!... ربما... ربما كان من الأفضل ألا تقول

لي...

فأمسك بيدها وضغطها بقوة.

غمرها الدفء الذي لفظ به كلمة «يا أماه»، وذلك الضغط الغريب

غير المألوف على يدها، فقالت بصوت متهدج:

- لن أعرض سبيلك. ولكن احترس... أرجوك أن تحترس.

ثم أضافت بحزن وهي تشعر شعورًا مبهمًا بالخطر الذي يحيق به:

- إنك تزداد نحولاً...

وتفحصت جسده القوي الفارع بنظرة مليئة بالحب والحنان، وقالت:

- عش كما يحلو لك، ولن أكون أنا التي ستعرض سبيلك، ولكنني

أطلب منك شيئاً واحداً: احترس واختر من تحدثه. يجب أن يكون الخوف

من الناس في نفسك، إنهم يكرهون بعضهم بعضاً، وهم يعيشون في

طمع وحسد، ويحبون أن يؤذي بعضهم بعضاً، وإذا ما بدأت تشير إليهم

وتتهمهم، فسيبغضونك ويحطمونك.

كان ابنها يقف بالباب يصغي إلى كلماتها المعذبة، وعندما انتهت

ابتسم وقال:

- إنك على حق، فالناس أشرار، ولكن حين تعلمت أن هناك شيئاً

اسمه الحقيقة بدا الناس أفضل من ذلك.

ثم ابتسم وأضاف:

- لست أدري كيف كان ذلك، فحين كنت صغيراً كنت أهرب كل

إنسان، البعض لو حشيتهم، والآخرين لا أعرف لماذا، ولكن هكذا. أما

الآن فكل شيء يبدو مختلفاً، ربما لأنني أشعر بالشفقة على الناس. لقد رق

قلبي بطريقة ما عندما أدركت أنهم ليسوا مسئولين دائماً عن وحشيتهم...

وتوقف عن الكلام كأنه يصغي لصوت في داخله، ثم استطرد بهدوء

وتفكير:

- هذا هو ما تفعله الحقيقة لك .

فتنهدت، وقالت وهي تنظر إليه:

- آه... أيها المسيح العزيز! لقد اعتراك يا بني تغيير خطير .

وعندما استغرق في النوم، انسلت من فراشها بهدوء وذهبت إليه .

كان بافل نائماً على ظهره، ووجهه المستدير الصارم الممتلئ عزماً يبدو بحدة على الوسادة البيضاء . وقفت أمه حافية القدمين في قميص النوم، ويداه مضمومتان إلى صدرها وشفتاهما تتحركان بصمت، ودموع كبيرة تندرج ببطء على خديها .

- ٥ -

ومرة أخرى عادا إلى حياتهما الصامتة، متباعدين، ولكنهما متلاصقان في الوقت ذاته .

وذات عطلة في منتصف الأسبوع، التفت بافل إلى أمه وهو على وشك مغادرة المنزل وقال:

- سيزورني يوم السبت بعض الناس من المدينة .

فرددت أمه متسائلة:

- من المدينة؟

وبدأت تنتحب فجأة، فسأل بافل متعجباً:

- ما الذي حدث يا أماه؟

فمسحت عينيها بمبذلها وقالت متنهدة:

- لا أدري... لا شيء خاص...

- أخائفة؟

فقال متعرفة:

- نعم.

مال عليها وأخذ يتكلم بخشونة أبيه:

- إن الخوف هو الذي يدمرنا، ورؤساؤنا يستغلون خوفنا فيستمرون

في استعبادنا.

فقال أمه بحزن والنحيب يخنقها:

- لا تغضب. كيف بوسعي ألا أخاف؟ لقد كنت خائفة طيلة حياتي.

إن روحي شبت مشبعة بالخوف.

فقال في لهجة أعذب وأرق:

- إنني آسف، ولكن هذا هو السبيل الوحيد.

ومضى.

وعاشت الأم ثلاثة أيام في خوف ترتعد، وترتجف كل مرة تتذكر فيها

أن أولئك الغرباء المخيفين سيحضرون إلى بيتها، الذين دلوا ابنها على

الطريق الذي يسلكه...

عاد باثلاً مساء السبت من المصنع، فاغتسل واستبدل ملابسه، ثم

خرج بعد أن قال لأمه دون أن يلقي عليها نظرة:

- إذا أتى أحد فقولي له إني سأعود حالاً، ودعي مخاوفك.
فترأخت بضعف على المقعد. نظر إليها باثل مكتئباً واقترح قائلاً:
- ربما تودين الذهاب إلى مكان ما الليلة؟
فألتمتها كلماته... وقالت:

- كلا، ما الذي يدعوني للخروج؟
كان ذلك في أواخر نوفمبر، وقد تساقط ثلج ناعم جاف على الأرض
المتجمدة خلال النهار، تستطيع سماع تكسره تحت أقدام ابنها وهو
يسير، وشعرت بأن أحدهم يتلصص حول البيت وأن أصابع ما تتحسس
الجدران.

وسمعت شخصاً يصفر لحناً ما، وانساب الصوت برقة في الظلام
والسكون حزيناً متناسقاً، كأنه يبحث عن شيء ما، ثم أخذ يقترب. وفجأة
انقطع وراء النافذة تماماً كأنه دفن في خشب الحائط.
وتردد وقع أقدام مضطربة على المصطبة، فأجفلت وهبت واقفة وقد
ارتفع حاجباها باضطراب.

وفتح الباب، وظهر في الباب المنخفض أولاً رأس تغطيه قبعة كبيرة
مصنوعة من الفرو، ثم جسم طويل، وتنهد الزائر ورفع يده اليمنى محيياً.
قال بصوت عميق أجش:
- مساء الخير.

انحنى الأم دون أن تجيب.
وسأل:

- هل باقل في البيت؟

وخلع الزائر سترته المصنوعة من الفرو ببطء، ورفع إحدى ساقيه ليزيل بقبعته الثلج الذي علق بحذائه، وقام بالعمل ذاته بالنسبة لساقه الأخرى، ثم ألقى بقبعته في الزاوية وأخذ يذرع أرض الغرفة. تفحص أحد المقاعد كأنه يؤكد لنفسه أن المقعد سيحمله، ثم جلس وتشاءب مغطياً فمه بإحدى يديه. كان رأسه حسن التكوين، مستدير الشكل، ووجهه حليقاً باستثناء شاربته المسترسل، وأخذ يتفحص الغرفة بدقة بعينين واسعتين رماديتين، ثم سأل الأم وهو يضع ساقاً على ساق ويهتز إلى الأمام والخلف في مقعده:

- هل الكوخ ملككما أم تستأجرانه؟

فأجابت الأم وقد كانت تجلس قبالة:

- إننا نستأجره.

فعلق قائلاً:

- إنه ليس بالمكان الجميل.

- سيعود باشا عما قريب، فانتظره فترة.

فأجاب الرجل الكبير بهدوء:

- هذا ما أنا فاعله.

أعاد إليها هدوءه وصوته الرقيق ومحياه البسيط شجاعته. كانت نظراته صريحة وودية، وشرارات من المرح ترقص في أعماق عينيه الصافيتين. كان هناك ما يسترعي الانتباه في جسده المنحني الذابل، وساقيه

الطويلتين. كان يرتدي قميصًا أزرق، وسروالًا أسود عريضًا مدسوسًا في
حذائه. كانت تود أن تسأله عن شخصيته، ومن أين هو قادم، وهل يعرف
ابنها منذ زمن طويل، ولكنه التفت إليها فجأة وبأدبها سائلًا:

- من الذي ضربك هكذا على رأسك يا نينكو^(١).

فسألته بأدب بارد، من خلال شفتين مقفلتين:

- وما شأنك أيها الشاب؟

قال منحنيًا في اتجاهها بكل جسمه:

- لا تغضبي. لقد سألتك ذلك لأن أُمي التي تبتتني كان في رأسها
ندبة مماثلة، وكان السبب في ذلك الرجل الذي كانت تعيش معه، لقد كان
إسكافيًا، وكانت هي غسالة، فضربها بقالب الأحذية. لقد التقطته في مكان
ما لسوء حظها- ذلك السكير الذي لا يصلح لشيء، وكان ذلك عقب أن
تبتتني. ما أكثر ما كان يضربها...! كانت عيناى تجحطان من مآقيهما من
شدة الخوف.

وأربكتها ثقته فيها، فبدأت تخاف أن يغضب بافل لأنها أجابت الزائر
بحدة، فقالت بابتسامة مذبذبة:

- إنني لم أغضب حقًا، ولكنك سألتني بغتة. إن زوجي هو الذي
سبب لي هذه الندبة، ليرحمه الله. هل أنت تري؟

هز الرجل ساقيه وضحك حتى اهتزت أذناه، ثم قال وقد استعاد
رزانته:

(١) نينكو: اسم التدليل لأماه في أوكرانيا- المعربان.

- كلا لم أصبح كذلك بعد.

فقالت الأم مبتسمة لنكتته:

- إن لهجتك ليست روسية.

قال الضيف بسرور:

- إنها أفضل من الروسية... أنا أوكرايني من مدينة كييف.

- وهل أنت هنا منذ زمن طويل؟

فقال وهو يفتل شاربه:

- لقد عشت في المدينة زهاء عام، ثم التحقت بالمصنع منذ شهر تقريباً، إن هنا بعض الناس الطيبين - ابنك وبعض الآخرين. أعتقد أنني سأبقى هنا.

أحبه وأرادت أن تكافئه على الكلمات الطيبة التي قالها عن ابنها
فسألته:

- هل شربت قدحاً من الشاي؟

فأجاب هارزاً كتفيه:

- لوحدي! انتظري حتى يأتي الباقون، ثم تدعينا جميعاً.

وذكرتها كلماته بمخاوفها فأخذت تفكر:

- لو أن الباقيين مثله!

وسمعت وقع أقدام على المصطبة مرة أخرى، ودفع الباب بقوة،
فهبت الأم واقفة ثانية، ولعظيم دهشتها دخلت فتاة المطبخ. كانت صغيرة

ضئيلة، ذات وجه بسيط كوجوه الفلاحين، وقد جمعت شعرها الأشقر في جديلة غليظة واحدة.

سألت الفتاة برقة:

- هل تأخرت؟

فأجاب الأوكراني ناظرًا إلى الباب:

- كلا، هل جئت سيرًا على الأقدام؟

- بالطبع. هل أنت أم بافل ميخائيلوفيتش؟ مساء الخير. اسمي ناتاشا.

فسألت الأم:

- ولقبك؟

- فاسيليثنا، وأنت ما اسمك؟

- نيلوفنا، بيلاجيا نيلوفنا.

- ها نحن نعرفنا بعضنا على بعض.

فقالت الأم كاتمة أنفاسها بعض الشيء مبتسمة للفتاة:

- أجل.

وسأل الأوكراني وهو يساعد الفتاة على خلع معطفها:

- هل الجو بارد؟

- جدًا. إن الرياح تعصف في الحقول.

كان صوتها غنيًا صافيًا، وفمها صغيرًا، وشفثاها ممتلئتين، وبالإجمال كانت مستديرة نضرة كالخوخة، وبعد أن خلعت معطفها دلت خديها

المتوردين بيدين محمرتين من البرد، ثم دخلت الغرفة المجاورة بسرعة وهي تفرع الأرض بكعب حذائها في حدة:

وقالت الأم في نفسها:

- إنها لا تلبس حذاءً واقياً من المطر.

وقالت الفتاة مرتجفة:

- بر... ر... ر... إنني متجمدة حتى لا أكاد أشعر بشيء.

فقال الأم مهرولة إلى المطبخ:

- لحظة وسأعد الساموفار.

شعرت بأنها تعرف الفتاة منذ زمن طويل، فأحببتها بكل حب الأم المنزه وحنانها، وأخذت الابتسامة تداعب شفيتها وهي تصغي إلى الحديث في الغرفة المجاورة.

قالت الفتاة:

- لم أنت مقطب يا ناخودكا؟

فأجاب الأوكراني بهدوء:

- لا لشيء خاص. إن للأرملة عيوناً جميلة. كنت أفكر ربما لأمي نفس العينين. كثيراً ما أفكر في أُمي. إن لديَّ شعور بأنها لا تزال حية.

- ولكنك قلت إنها توفيت.

- كانت تلك التي تبنتني. إنني أتحدث عن أُمي! لا ريب أنها تتسول في أحد شوارع كييف الآن وتشرب الشودكا، فيضربها رجال البوليس على

وجهها كلما ثملت...

ففكرت الأم متنهدة:

- يا للصبي المسكين!

وقالت ناتاشا شيئاً ما بسرعة ورقة وتأثر. رن صوت الأوكراني مرة أخرى، فقال:

- إنك لا زلت صغيرة لم تأكلي ما فيه الكفاية من البصل^(١). إن من الصعب أن يولد إنسان في العالم، وأصعب منه أن ينشأ تنشئة كريمة.

- يا إلهي!

حدثت الأم نفسها متعجبة وهي تشعر برغبة تدفعها لمواساة الأوكراني، ولكن الباب فتح ببطء ودخل نيقولاي فيزوفشيكوف، ابن اللص القديم دانيلو. كان نيقولاي مشهوراً في الحي لافتقاره إلى الروح الاجتماعية، وكان دائم الابتعاد والعزلة عن الناس فكانوا يعبرونه بذلك.

فسألته متعجبة:

- ماذا تريد يا نيقولاي؟

فقال دون أن يحييها وهو يمسح وجهه العريض الذي تعلوه آثار الجدرى براحة يده:

- هل بافل في البيت؟

- كلا.

(١) تعبير روسي يعني لم تختبر الحياة كفاية - المعبران.

فألقي نظرة على الغرفة ثم دخل . قال :

- مساء الخير يا رفاق .

وفكرت الأم في استنكار :

- أهو منهم أيضًا ؟

وازداد عجبها حين رأت ناتاشا تمد يدها إليه كأنها سعيدة لرؤيته .

وتبع نيقولا ي اثنان - كلاهما صبيان - كانت الأم تعرف أحدهما وهو فتى قاسي القسّات، أجمع الشعر عريض الجبهة يدعى فيودور، وهو ابن شقيق سيزوف، مساعد رئيس العمال في المصنع . أما الثاني فقد كان خجولاً ذا شعر ناعم مصقول، ولم تكن تعرفه، ولكنه بدا لا يثير الرعب والمتاعب .

وأخيرًا ظهر بافل يصحبه اثنان من عمال المصنع تعرفهما، فسألها بلطف :

- هل تعدين الساموفار ؟ شكرًا .

فقالت وهي تفكر كيف باستطاعتها أن تعبر عن امتنانها لشيء غامض لا تستطيع تحديده :

- هل أذهب لشراء بعض القودكا ؟

فقال بافل وهو يبتسم بحنان :

- كلا إننا لا نشرب .

وخطر لها فجأة أن ابنها بالغ في وصف هذا الاجتماع حتى يهزأ منها،

فسألته بصوت خافت:

- أهؤلاء الناس... الخطرون؟

فقال باقل وهو ينسل إلى الغرفة المجاورة:

- هم أنفسهم.

فهتفت خلفه بحنان:

- إنك لا تعني ذلك حقاً؟

ثم فكرت في تواضع:

- إنه لا يزال طفلاً...

- ٦ -

عندما تم إعداد الساموفار، حملته الأم إلى الغرفة. كان الضيوف جلوساً حول المائدة، بينما كانت ناتاشا جالسة في الزاوية تحت المصباح وفي يدها كتاب تقول:

- كي نفهم سبب قساوة حياة الناس...

فأضاف الأوكراني قائلاً:

- والسبب في أنهم قساة أنفسهم...

- لا بد من إلقاء نظرة على جذورهم الاجتماعية...

فقالت الأم وهي تعد الشاي:

- ألقوا نظرة على ذلك يا أعزائي ... هيا انظروا...

فصمت الجميع وسأل بافل مقطب الحاجيين:

- ما الأمر يا أماه؟

- ما الأمر؟

ونظرت إليهم فرأت الجميع ينظرون إليها فغمغت بارتباك:

- أواه! لقد كنت أحدث نفسي وأفكر لماذا لا تلقون نظرة إن أردتم.

فضحكت ناتاشا وابتسم بافل وقال الأوكراني:

- شكرًا للشاي يا نينكو.

قالت الأم:

- من الأفضل أن تمسك عن إطرائه إلى أن تتذوقه.

ثم نظرت إلى ابنها وقالت:

- ربما يزعجكم وجودي.

فقالت ناتاشا:

- كيف يمكن أن يزعج وجود المضيفة ضيوفها. أرجوك أن تسرعني

فتعطيني بعض الشاي، إن كل جسمي يرتجف وأطرافي أصبحت كالجليد.

كان صوتها شاكيًا كصوت الأطفال، فقالت الأم متعجلة:

- حالاً.. حالاً..

وعندما شربت ناتاشا الشاي تنهدت بصوت عال، وألقت بجديلتها

وراء ظهرها وأخذت تقرأ من الكتاب المصور ذي الغلاف الأصفر.

حاولت الأم أن لا تثير ضجة وهي تصب الشاي وتصغي. كان صوت الفتاة الرنان يمتزج بهمهمة الساموفار المتأملة بينما كان يتردد في أرجاء الغرفة شريط من القصص عن رجال متوحشين كانوا يقطنون الكهوف ويصطادون بالحجارة، فبدت كأنها قصص خرافية، والأم تسترق النظر دون انقطاع إلى ابنها وهي تود أن تسأله لِمَ تُمنع هذه القصص، ولكن سرعان ما سأمت متابعة الاستماع لما يقرأ وبدأت تدرس الضيوف خلصة حتى لا يلاحظوا، أو يلاحظ ابنها ذلك.

كان بافل يجلس بجانب ناتاشا وكان أجملهم جميعاً. كانت ناتاشا، المنكبة على الكتاب، تدفع خصلات الشعر التي تنزلق على صدغيها إلى الوراء، وبين حين وآخر كانت تدلي بتعليقاتها هازة رأسها مخفضة صوتها دون أن تنظر إلى الكتاب وهي تتطلع بحنان إلى الوجوه المحيطة بها، وكان الأوكراني قد استند إلى المائدة وأخذ ينظر إلى أرنبه أنفه عليه يستطيع رؤية أطراف شاربه الذي كان يفتله، وكان فيزوفشيكوف يجلس على مقعده منتصباً كالعصا، وراحته على ركبتيه، ووجهه عديم الحاجبين، تعلوه آثار الجدرى، رقيق الشفتين، خالي التعبير كالقناع، وسدد نظراته دون انقطاع ودون أن يطرف له جفن، إلى صورة وجهه المنعكسة على نحاس الساموفار اللامع، كان يبدو أنه قلما يتنفس. أما فيودور الصغير فقد كان يحرك شفثيه في صمت وهو يصغي لما يقرأ، كأنه يردد في نفسه كلمات الكتاب، بينما كان صديقه يجلس منحنيًا، مرفقاه على ركبتيه، ووجنتاه في راحتيه، وابتسامة تفكير وتأمل تعلو شفثيه.

وكان أحد الشابين اللذين حضرا مع بافل ذا شعر أحمر أجعد وعينين

خضراوين مرحتين، ولم ينقطع عن التملل على مقعده كأنه يريد أن يقول شيئاً ما. أما الشخص الآخر فقد كان ذا شعر أشقر مقصوص، يمر بيده على رأسه دون انقطاع وينظر إلى الأرض، بحيث لم تستطع الأم رؤية وجهه. كان جو الغرفة أليفاً غريباً على الأم، وتذكرت - وناشاً تقرأ - الحفلات الصاخبة أيام شبابها، ولهجة الفتیان الخشنة ونكاتهم اللاذعة وأنفاسهم التي تفوح منها رائحة القودكا. وإذ تذكرت هذه الأشياء انقبض قلبها شفقة وحرناً على نفسها.

تذكرت كيف تمت خطوبتها لزوجها... لقد أمسك بها في إحدى هذه الحفلات وضغط جسمه إلى جسمها على الحائط ثم سألها بخشونة: - هل ستتزوجيني؟

لقد آلمها ذلك وأغضبها، ولكنه استمر يضغط ثديها بأصابعه في شدة ويصب أنفاسه الحارة الرطبة على وجهها، فانفلتت من يده محاولة تخليص نفسها من قبضته، فزمجر قائلاً:

- كفي.. أجيبني.. هل تسمعين؟

لم تستطع التقاط أنفاسها من الخزي والحياء، ولم تحر جواباً، ثم فتح شخص الباب فخفف من قبضته وقال:

- سأرسل الوسيط يوم الأحد.

وبالفعل أرسله.

أغلقت الأم عينيها وتنهدت من أعماق قلبها... وسمعت صوت فيز وفشيكوف محتجاً:

- أريد أن أعرف كيف يجب أن يعيش الناس، لا كيف كانوا يعيشون.
فقال ذو الشعر الأحمر ناهضًا:

- هذا صحيح.

فصاح فيودور:

- أوه!.. كلا.

ونشب نقاش تناثرت فيه الكلمات كألسنة اللهب، ولم تدرك الأم
سبب نقاشهم. وتوردت جميع الوجوه حدة، ولكن واحدًا منهم لم يفقد
أعصابه أو يستعمل ألفاظًا نابية كالتي اعتادت سماعها.

فقررت في قرارة نفسها:

- لا بد أنهم يخجلون من استعمالها أمام الفتاة.

وراق لها التعبير الجاد على وجه ناتاشا وهي تراقب كل واحد فيهم
باهتمام كأنهم مجرد أطفال صغار، ثم صاحت فجأة:

- كفوا لحظة يا رفاق.

فكفوا عن النقاش جميعًا والتفتوا إليها.

- إن من يقولون إنه يجب علينا أن نعرف كل شيء على حق. يجب
علينا أن نوقد في أنفسنا نور العقل ليراه أولئك الذين يكافحون في الظلام.
يجب أن يكون لدينا جواب أمين وصحيح لكل شيء... وأن نعرف كل
الحقيقة وكل البهتان...

كان الأوكراني يصغي ويهز رأسه موافقًا بطريقة تتناسق مع كلماتها.

أما فيزوفشيكوف وذو الشعر الأحمر وأحد الشابين اللذين يعملان في المصنع واللذين كانا قد جاءا مع بافل قد نهضوا وكونوا من أنفسهم فريقاً، وشعرت الأم، لسبب ما، أنها لا تحبهم.

وعندما انتهت ناتاشا من كلامها نهض بافل وقال في هدوء وهو ينظر إلى ثلاثتهم:

- هل نريد معدة ممتلئة فقط؟ كلا. لا شيء من هذا القبيل. يجب أن نبين لأولئك الذين يعتلون ظهورنا ويضعون الغشاوات على أعيننا أننا نرى كل شيء. لسنا أغبياء، كما أننا لسنا حيوانات لا نريد سوى معدة ممتلئة، إننا نريد أن نعيش حياة جديرة بالبشر. يجب أن نثبت لأعدائنا أن حياة العبودية التي ألجمونا بها لا تعوقنا من أن نكون أكفاء لهم من الناحية الفكرية بل إننا سنتفوق عليهم.

وانبعث شعور بالفخر في صدر الأم وهي تصغي إليه. ما أجمل حديثه!

وقال الأوكراني:

- هناك عدد كبير من الناس يحصلون على ما يكفيهم من الطعام، ولكن قلة منهم هم الشرفاء. يجب أن نبني جسراً فوق مستنقعات هذه الحياة الوحشية يقودنا إلى مملكة المستقبل، مملكة الأخوة الإنسانية. إن هذا هو الواجب الذي يواجهنا أيها الرفاق.

فقال فيزوفشيكوف بخشونة محتجاً:

- ما دام وقت القتال قد حان فلماذا نجلس مكتوفي الأيدي؟

وانفض الاجتماع عقب منتصف الليل، وكان فيزوفشيكوف وذو
الشعر الأحمر أول من غادر المكان، فأحنق الأم هذا.

فكرت وهي تنحني لهما في جفاء:

- لشد ما هما على عجل!

قالت ناتاشا:

- هلا صحبتني إلى المنزل يا ناخودكا؟

فأجاب الأوكراني:

- بالطبع سأصحبك.

وقالت الأم لناتاشا وهي ترتدي ثيابها في المطبخ:

- إن جواربك رقيقة لمثل هذا الجو، فهل تسمحين لي أن أنسج لك
زوجًا من الصوف؟

فأجابت ناتاشا:

- شكرًا يا بيلاجيا نيلوفنا، ولكن الجوارب الصوفية تؤلم.

فقالت الأم:

- سأنسجها من النوع الذي لا يؤلم.

نظرت ناتاشا إليها بثبات من خلال عيين نصف مغلقتين مما جعل
الأم ترتبك فأضافت بهدوء:

- يجب أن تغفري لي حماقتي، لقد قلت لك ذلك من صميم قلبي.

فأجابت ناتاشا بهدوء وهي تضغط يدي الأم لا شعوريًا:

- يا لك من امرأة عزيزة!

وقال الأوكراني وهو يسترق النظر إلى عينيها حانئاً رأسه خارجاً من الباب خلف ناتاشا:

- طبت مساء يا نينكو.

نظرت الأم إلى ابنها وهو يقف بالباب مبتسمًا وقالت في ارتباك:

- ما الذي يدعوك إلى الابتسام؟

- لا شيء على وجه التحديد، إنني مسرور.

فقالت في بعض الخشونة:

- قد أكون عجوزًا حمقاء، ولكنني أستطيع تمييز الطيب من الرديء.

فقال:

- إنني مسرور لذلك، ولكن ألا تعتقدين أن من الأفضل أن تذهبي

إلى فراشك؟

- سأذهب حالاً.

وأخذت تلف حول المائدة، ترفع عنها أواني الشاي وهي سعيدة

للمغاية مسرورة بحيث أن العرق غطى جسمها، كانت سعيدة لأن كل شيء

كان جميلاً وانقضى بسلام، وقالت:

- لقد صنعت طيباً بدعوتهم يا باشا، فالأوكراني لطيف جداً والفتاة..

يا لها من شيء جميل صغير! من هي؟

فأجاب باقل باقتضاب وهو يذرع الغرفة:

- إنها معلمة.

- لا بد أنها فقيرة جدًا، فثيابها رديئة جدًا، والإصابة بالبرد لا تتطلب كثيرًا! أين والدها؟

أجاب باثل:

- في موسكو.

ثم توقف أمام أمه وقال في رقة ولكن بلهجة جدية:

- إن أباه غني وهو من المساهمين في صناعة الحديد ويملك عقارات كثيرة ولكنه نبذها لأنها اختارت هذا السبيل في الحياة، وقد شبت في حبوكة من العيش واعتادت أن تحصل على ما تريد. أما الآن فإنها تسير سبعة فراسخ في الليل بمفردها.

ذهلت أمه لهذا الخبر ووقفت في وسط الغرفة، جفناها يرتجفان تنظر إلى ابنها. ثم سأله في هدوء:

- هل ذهبت إلى المدينة؟

- نعم.

- يا إلهي! ألا تخاف؟

فضحك باثل وقال:

- في استطاعتك أن تتأكدي بنفسك أنها لا تخاف.

- لماذا ذهبت إذن؟ كان في وسعها أن تقضي الليلة هنا وتنام؟

- ولكن هذا لا ينفع؛ قد يراها أحد هنا في الصباح، وذلك ما لا نريده.

وتطلعت الأم عبر النافذة وقد بدت عليها علائم التفكير وقالت برقة:
- إنني لا أرى يا بافل ما هو محذور وخطر في ذلك. إنكم لا ترتكبون
خطأ، أليس كذلك؟

كان ذلك هو ما يشغل بالها وكانت تريد أن تطمئن.

نظر بافل إلى عينيها وقال في هدوء:

- إننا لا نرتكب أي خطأ على الإطلاق، ومع هذا، سنجد أنفسنا
جميعاً، يوماً ما في السجن، يجب أن تعرفي ذلك.

فارتعشت يداها وقالت بصوت خفيض:

- ربما، بمشيئة الله، ستفرون منه بطريقة ما.

فأجابها ابنها في رقة:

- كلا، لا أريد أن أخدعك، فلا مفر من ذلك.

وابتسم وقال:

- والآن اذهبي إلى فراشك فأنت منهكة القوى، طابت ليلتك.

عندما خلت لنفسها ذهبت إلى النافذة وأخذت تنظر من خلالها. كان
الجو بارداً مكفهرًا في الخارج والريح تعصف فتسقط الثلج من أسطح
المنازل الصغيرة الناعسة، وتلطم الجدران بعنف وحدة، وتصفر غضبي
وهي تنقض على الأرض مطاردة غيوماً شفافاً من ندف الثلج عبر الشارع.

وهمست الأم في رقة:

- ارحمنا أيها المسيح العزيز!

وازدحمت الدموع في قلبها، واضطرب في صدرها شعور أعمى
بالكارثة التي تحدث عنها ابنها بثقة وهدوء، كرفرة الفراشة في الليل،
وبدا لها كأنها ترى أمامها سهلاً تغطيه الثلوج تعربد فوقه ريح بيضاء تزار
بصوت خافت، وفي وسط السهل كان يترنح شبح صغير أسود لفتاة. كانت
الريح تعصف حول قدميها فترتفع ثيابها وتقذف بالثلج اللاذع في وجهها،
فتتقدم الفتاة بصعوبة، وقدماهما الصغيرتان تغوصان في كتل الثلج. كان
البرد قارساً، والظلام مفزعاً رهيباً، وجسدها ينحني إلى الأمام كعود وحيد
من العشب ينحني تحت وطأة ريح الخريف العاتية، وعن يمينها كانت
ترتفع جدران الغابة من المستنقع حيث تتهامس أشجار البتولا النحيلة
والحور العارية بتخاذل، وأمامها بعيداً جداً كانت أنوار المدينة تتلألأ...

وهمست مرتعدة:

- أيها المنقذ العزيز رحمة بنا!

- ٧ -

ومرت الأيام تلو بعضها بعضاً، كحبات المسبحة، تبني الأسابيع
والأشهر، وفي كل يوم سبت كان أصدقاء بافل يجتمعون في بيته، وكل
اجتماع كان خطوة جديدة في الطريق الطويل الصاعد الذي يتسلقه الشعب
ببطء نحو هدف بعيد...

وانضم أناس جدد إلى القدماء، وأصبحت الغرفة الصغيرة في بيت
عائلة فلاسوف مكتظة بهم، وكانت ناتاشا، عندما تأتي، دائماً متعبة

متجمدة، ولكن دائمة المرح، ونسجت أم بافل لها زوجًا من الجوارب وضعته هي بنفسها في قدمي الفتاة الصغيرتين، فضحكت ناتاشا، ولكنها هدأت بغتة وأخذت تفكر وقالت في رقة:

- كان لي، ذات يوم، مربية، كانت هي الأخرى، لطيفة للغاية. ما أغرب ذلك يا بيلاجيا نيلوفنا! إن حياة العمال شاقة مجحفة، ومع ذلك فهم أرق قلبًا من الناس الآخرين.

وكانت تشير بذلك إلى أناس بعيدين، بعيدين جدًا عنها.

فقالت بيلاجيا:

- يا لك من فتاة...! بعيدة عن والديك و...

وتنهدت ثم صمتت عاجزة عن التعبير عن أفكارها، ولكن حين نظرت إلى وجه ناتاشا أحست ثنائية بشعور من الامتنان لشيء ما، لم تستطع تحديده، فجلست على الأرض أمام الفتاة التي كانت تبتسم مفكرة مطرقة الرأس.

ورددت الفتاة:

- بلا والدي؟ إن هذا لا يهم. إن أبي رجل فظ وكذلك أخي، وهو سكير أيضًا، وأختي الكبرى تعسة، فقد تزوجت رجلًا يكبرها بسنين عديدة، ثري جدًا وطماع، ولكنني أشفق على أمي، فهي امرأة بسيطة، مثلك صغيرة الحجم كالفار، وتركض بسرعة كالفار، وتخاف من كل الناس. في بعض الأحيان أحن إلى رؤياها. أواه! أحن كثيرًا.

فقالت الأم هازة رأسها في حزن:

- أيتها العزيزة المسكينة!

فرفعت الفتاة رأسها بسرعة ومدت يدها كأنها تبعد شيئاً ما:

- أوه! .. كلا.. إنني سعيدة في بعض الأحيان، سعيدة للغاية.

وغاض اللون من وجهها وانتقدت عيناها الزرقاوان ووضعت يدها على كتفي الأم وقالت في رفق وتأثر:

- لو أنك تعرفين، لو أن في وسعك أن تفهمي العمل العظيم الذي نقوم به.

فمس قلب بيلاجيا نيلوفنا شيء يكاد يكون حسد، وقالت في شوق ناهضة عن الأرض:

- إنني عجوز لا أصلح لذلك.. وأمية...

وكان بافل يتحدث الآن أكثر من ذي قبل، ولفترات أطول، وفي حماسة أشد، وكان يزداد نحولاً، وبدأ لأنه أنه حين ينظر إلى ناتاشا ويحدثها يرق تعبير وجهه القاسي كما يرق صوته ويتخلى عن بعض أخلاقه الخسنة. وفكرت الأم:

- ليساعدنا الرب على أن يكون الأمر كذلك!

وعندما كانت تشتد المناقشات في اجتماعاتهم وتصبح عاصفة، كان الأوكراني يقف متمائلاً إلى الأمام والخلف كمطرقة الجرس ويقول عدة كلمات رقيقة بسيطة كانت تعيد الرشد والهدوء إلى كل واحد منهم. كان فيزوفشيكوف العبوس يحث الآخرين دائماً على القيام بعمل ما، وكان هو وذو الشعر الأحمر الذي كانوا يدعونه صامويلوف، يثيران جميع

المناقشات ويؤيدهما إيثان بوكين، ذو الرأس الكبير، الذي كان مظهره يدل على أنه اتغسل بماء القلي، أما ياكوف سوموف، الحليق الوجه، النظيف الثياب، فقد كان يتحدث قليلاً ولكن في حماس شديد، وكان هو وفيودور مازن ذو الحاجب العريض، ينحازان إلى صف بافل والأوكراني.

وفي بعض الأحيان كان نيقولا إيفانوفيتش يحتل مكان ناتاشا، وهو رجل يضع نظارة طبية وذو لحية صغيرة شقراء، ولد في إقليم بعيد، الأمر الذي يفسر نطقه الغريب لحرف «ه». وبالإجمال كان «بعيداً» غريباً يتحدث عن أبسط الأشياء - عن الحياة العائلية والأطفال والتجارة والبوليس وسعر الخبز واللحم - جميع الأشياء التي تؤلف حياة الناس اليومية. وفي عمله هذا كان يبين كل ما هو باطل وغير منطقي، كل ما هو سخيف ومضحك، ولكنه مضر بجموع الشعب. تخيلت الأم أنه قدم من مكان بعيد للغاية، من جهة مختلفة، وفي الواقع من حيث يعيش كل الناس حياة مريحة شريفة، فكل شيء هنا غريب بالنسبة له وهو لا يستطيع التعود على هذه الحياة أو حتى قبولها، فكان يكرهها، وأثار هذا الكره في نفسه رغبة هادئة ملحة لتغييرها بطريقته الخاصة. كان له وجه شاحب تعلوه خطوط دقيقة حول العينين، وصوت رقيق، أما يده فقد كانتا دائماً دافئتين، وعندما كان يحيي بيلاجيا نيلوفنا، كان يقبض على يدها بقوة فترتاح لذلك.

وقدم إلى هذه الاجتماعات أشخاص آخرون من المدينة، وفي معظم الأوقات فتاة طويلة نحيلة ذات وجه شاحب فيه عينا كبرتان وتدعى ساشا، في سيرها وحركاتها بعض دلائل الرجولة. كانت دائمة التقطيب ترعش فتحتا أنفها المستقيم عندما تتكلم.

وكانت أول من أعلن بصوت عال حاد:

- نحن اشتراكيون.

حدقت الأم في الفتاة في رعب لدى سماع ذلك، فقد كانت بيلاجيا قد سمعت أن الاشتراكيين قتلوا القيصر، كان ذلك أيام شبابها وكانت قد انتشرت في ذلك الوقت الإشاعات أن الذوات من أصحاب الأراضي أقسموا - رغبة في الانتقام لأنفسهم من القيصر الذي حرر الأفنان^(١) - أن لا يحلقوا شعرهم حتى يقتلوه، ولهذا نعتوا بالاشتراكيين. أما الآن فكانت بيلاجيا حائرة في أمر ابنها وأصدقائه، ولم تفهم لماذا يسمون أنفسهم اشتراكيين.

وعندما ذهب الجميع إلى بيوتهم، تقدمت من بافل وسألته:

- هل أنت اشتراكي يا بافل؟

فأجاب واقفًا أمامها قويًا مستقيمًا كعهده:

- نعم، لماذا؟

وزفرت الأم زفرة عميقة وخفضت بصرها:

- أحقًا يا بافل؟ ولكنهم ضد القيصر، وقد قتلوا أحد القياصرة!

عبر بافل الغرفة وهو يفرك وجنته بيده، وقال في ضحكة مقتضبة:

- إننا لا نحتاج لعمل أشياء كهذه.

ثم حدثها لفترة طويلة بصوت هادئ وقور، وفكرت وهي تنظر إلى

وجهه:

(١) القن «عبد» الأرض يفلحها وتنقل ملكيته معها - المعربان.

- إنه لن يرتكب أي خطأ، إنه لا يستطيع.

وبعد ذلك رُددت الكلمة المربعة مرة وتكرارًا، إلى أن زالت حدتها واعتادت أذنها عليها، كما اعتادت على عشرات الكلمات الغريبة التي كانوا يستعملونها، ولكنها لم تكن تحب ساشا، وكانت تشعر بالاضطراب وعدم الارتياح في وجودها.

و ذات يوم تحدثت إلى الأوكراني بشأنها، زامة شفيتها في استياء:

- يا لها من فتاة قاسية تلقي الأوامر على الجميع - افعل هذا، وافعل ذاك.

فضحك الأوكراني من أعماق قلبه وقال:

- لقد أصبت الموضع الحساس يا نينكو. ما رأيك في ذلك يا باقل؟

وأضاف غامزًا الأم وعيناه تشعان:

- هذا هو النبل بعينه!

فقال باقل في جفاء:

- إنها فتاة طيبة.

قال الأوكراني مؤيدًا:

- إنها طيبة، ولكنها لا تدرك شيئًا واحدًا، فبالنسبة لها كل أمر يجب،

وبالنسبة لنا من «الممكن» أو «نحن نريده».

وبدأوا يتناقشون في أمر ليس في متناول إدراك الأم وفهمها.

ولاحظت أن ساشا كانت أكثرهم شدة تجاه باقل، وكانت تصرخ، في

بعض الأحيان، في وجهه، وفي هذه الأوقات كان باقل يلتزم الصمت. كان يضحك فقط، وينظر إلى وجه الفتاة بنفس النظرة الرقيقة التي ألقاها ذات مرة على ناتاشا. ولم يعجب الأم ذلك.

كانت بيلاجيا تعجب، في بعض الأحيان، للروح المرحية التي كانت تسيطر عليهم، وكان هذا، عادة يحدث في الأمسيات التي كانوا يقرأون فيها أخبار الحركة العمالية في الخارج، فتشع عيونهم، ويتملكهم الفرح بشكل غريب كالأطفال، ويضحكون ضحكات صافية مضيئة ويربتون على أكتاف بعضهم بعضًا في حنان.

ويصبح أحدهم كأنه ثمل من الفرح:

- مرحى لرفاقنا الألمان!

وفي مناسبة أخرى كانوا يهتفون:

- مرحى للعمال الإيطاليين

وإذا كانوا يبعثون بهتافاتهم إلى العمال في بلاد بعيدة لا يعرفونهم ولا حتى يستطيعون فهم لغتهم، كانوا يبدون متأكدين أن هؤلاء الناس المجهولين سمعوهم وقدروا فرحهم.

وقال الأوكراني وعينه تشعان بنور رؤوف في حنان:

- أليست فكرة طيبة أن نكتب إليهم ليعرفوا أن لهم أصدقاء يعيشون في روسيا ينادون بالمبدأ ذاته وينشرونه، ويعيشون لنفس الهدف ويفرحون للانتصارات ذاتها.

كانوا يتحدثون عن الفرنسيين والإنجليز والسويديين ووجوههم

تشع، كأن هؤلاء أصدقاءهم، وأناس قريبون من قلوبهم يحترمونهم ويشاركونهم أفراحهم وأحزانهم.

وولد في هذه الغرفة الصغيرة الخائقة شعور علاقة روحية مع عمال العالم كله، وقد شعر بها الجميع حتى الأم- وعلى الرغم من أنها لم تع معناها، إلا أنها أدركت قوتها- المليئة بالشباب، المفرحة حتى الثمالة، المفعمة بالأمل.

وقالت للأوكراني ذات يوم:

- ألقوا نظرة على أنفسكم، كل الناس رفاقكم- اليهود والأرمن والنمساويون- تفرحون وتأسفون لهم جميعًا.

فقال الأوكراني:

- لهم جميعًا يا نينكو! لهم جميعًا! إننا لا نعرف قبائل أو شعوبًا، بل رفاقًا وأعداء فقط. كل العمال رفاقنا، وكل الأغنياء والحكومات أعداؤنا، حين تلقي نظرة على الأرض وترين عددنا نحن العمال وقوتنا لن يكون هناك حد لفرحك والسرور في قلبك. إن الرجلين الفرنسي والألماني يشعران بنفس الشعور حين ينظران إلى هذه الأشياء يا نينكو، وكذلك الإيطالي. إننا جميعًا أطفال أم واحدة، كلنا تدفعنا عقيدة لا تقهر وإيمان بأخوة العمال في كل العالم. إن هذه الفكرة تبعث الدفء في قلوبنا، هي الشمس التي تشرق في جنة عادلة، إن كل من يسمي نفسه اشتراكياً أخونا الروحي في كل الأوقات والأزمنة، بالأمس واليوم، وإلى الأبد.

وتجلى ذلك الإيمان الطفولي، القوي، بينهم أكثر فأكثر وفي شكل أشد، ناميًا إلى قوة عظيمة، وحين رأت الأم ذلك شعرت بغريزتها أن العالم

قد أنجب أشياء عظيمة وطيبة، مثل الشمس، تستطيع رؤيتها بعينها.

وكانوا غالبًا يغنون في أصوات عالية مرحة، يغنون الأغاني البسيطة التي يعرفها الجميع، ولكن في بعض الأحيان كانوا يغنون أغاني جديدة، ذات تناسق جميل ولكن بالحن غير مألوفة، كانوا يغنونها بأصوات خفيفة، كأنهم يرتلون ألحانًا كنائسية، وكانت وجوه المغنين تتورد ثم تشحب، وتنفض الكلمات القوية بقوة هائلة.

وكانت الأم تضطرب لدى سماع إحدى الأغنيات الجديدة، التي لم تكن تعبر عن التفكير المؤلم لشخص جريح ظل وحيدًا عبر متاهات الشك والريبة، كما أنها لم تعكس شكوى مخلوقات مجردة من أي لون أو كيان حطمتها الفاقة، وقهرها الخوف.

ولم يكن يسمع فيها تنهيدات حزينة لقوة عمياء تتلمس في الفضاء، ولا صيحات تحد مغامر مقدام، على استعداد لأن يقذف بنفسه في الخير والشر على حد سواء، ولم يكن يتردد في تلك الأغنية ذلك الشعور المبهم بالأذى والتعطش للانتقام القادر على التحطيم ولكنه عاجز عن البناء، ولم يكن فيها أي شيء من عالم العبودية القديم.

ولم ترق للأمم كلماتها القاسية ولحنها الجاف، ولكن الكلمات واللحن كانا ينطويان على شيء عظيم أغرق الكلمات واللحن، وأثار شعورًا بشيء أوسع من أن يستوعبه العقل والتفكير. كانت ترى هذا الشيء في عين الشباب ووجوههم، وتشعر بأنه يعيش في داخلهم.

وأصغت، مذعنة لقوة تغمر الكلمات والموسيقى، بانتباه أكثر وهياج أعمق لهذه الأغنية منها لأي أغنية أخرى.

كانوا يغنونها بصوت أرق من الأخريات، ولكنها كانت تتردد بقوة أكثر وأشد، وتغشي الناس كنسيم يوم من أيام شهر مارس، أول يوم من أيام الربيع المقبل.

وكان فيزوفشيكوف يقول بصراحة:

- لقد حان الوقت لأن نغني هذه الأغنية في الشوارع.

وحين أُلقي بوالده في السجن في آخر حادث سرقة قام به، قال فيزوفشيكوف لرفاقه:

- باستطاعتنا الآن أن نجتمع في بيتي.

وفي كل مساء تقريباً، كان أحد أصدقاء بافل يأتي معه إلى البيت عقب انتهاء العمل، فيقرآن ويدونان بعض الملاحظات على عجل، مستغرقين كلية بحيث إنهما لا يجدان متسعاً للاغتسال. كانا يتناولان طعام العشاء ويشربان الشاي والكتب في أيديهما، وأصبح من العسير جدًّا على الأم أن تفهم فيم يتحدثان.

وكان بافل دائم القول:

- يجب أن نصدر صحيفة.

وتملك الحياة سرعة أكثر وحمى أشد، وأخذ الناس يتحركون بسرعة من كتاب لآخر كالنحل ينطلق من زهرة إلى أخرى.

وقال فيزوفشيكوف:

- لقد بدأوا يتهامسون عنا، سيبدأون في إلقاء القبض علينا قريباً.

فعقب الأوكراني قائلاً:

- ما ولدت السمكة إلا لتقع في الشبكة.

وازداد حب الأم للأوكراني يوماً بعد يوم، فحين كان يدعوها «نينكو» كانت تشعر كأن يد طفل تحسست خدها. وإذا حدث وكان بافل مشغولاً ذات أحد كان الأوكراني يقطع الخشب. وذات يوم أتى إلى البيت يحمل لوحاً من الخشب على كتفه، فتناول البلطة وفي سرعة ومهارة بنى درجة جديدة للمصطبة بدلاً من الدرجة المتآكلة، وفي مرة أخرى أصلح الحاجز المتهاالك، وعندما كان يعمل كان يصفر لحناً جميلاً حزيناً.

وقالت الأم لابنها ذات يوم:

- لنأخذ الأوكراني ليعيش معنا، فسيكون هذا أفضل لكليكما، فلن تضطرا إلى التنقل بين بيتكما.

فأجاب بافل هازاً كتفيه:

- ولم تصعبين الأمور على نفسك؟

فقالت:

- هراء! إن حياتي كانت كلها صعبة، لا من أجل شيء طيب، فلتصعب من أجل رجل طيب مثله.

قال ابنها:

- كما تقولين، سأسر إذا أتى.

وهكذا أتى الأوكراني ليعيش معهما.

وجذب البيت الصغير الواقع في أقصى الحي الأنظار، وحاولت عشرات الأعين الفضولية أن تخترق جدرانه، وراحت أجنحة الإشاعات المغرضة ترفرف باضطراب فوقه، وحاول الناس أن يعرفوا الشيء الغامض الذي شعروا بأنه يختفي داخل ذلك المنزل الواقع على حافة الهاوية، وفي الليل كانوا يسترقون النظر عبر النافذة، أو يقرعون زجاجها، ولكن لينطلقوا هاربين في دعر وخوف.

و ذات يوم أوقف بيجتسووف صاحب الحانة، بيلاجيا، كان مسنناً بهي الطلعة يرتدي دائماً صدرية قرمزية داكنة، ويربط حول رقبته المترهلة الحمراء وشاحاً من الحرير الأسود، وكانت تعتلي أنفه المدبب اللامع نظارة مصنوعة من الباعة، وأكسبه هذا لقب ذي العينين العظيمتين.

وقبل أن يسترد أنفاسه أو يترقب إجابة، أمطر الأم بكلمات شديدة كالبرد:

- كيف حالك يا بلاجيا نيلوفثنا؟ وابنك؟ ألا يفكر في الزواج؟ يبدو لي أنه في سن مناسبة. كلما أسرع الأبناء في الزواج، خففوا عن والديهم. إن الرجل يكتسب صحة وروحاً في جو العائلة، مثله مثل عشب الغراب في الخل، لو كنت في مكانك لزوجته، فالظروف تتطلب عيناً ساهرة تراقب تصرفات الرجل. لقد بدأ الناس يعيشون كما يحلو لهم، وانحلت أفكارهم وأفعالهم ولم يعودوا يذهبون إلى بيت الرب، وأخذوا يتعدون

عن الأماكن العامة لينسلوا إلى زوايا مظلمة يهمسون فيها بأسرارهم، لماذا الهمس؟ أريد أن أعرف؟ لماذا تحاشي الناس؟ ما الذي يخاف أن يقوله الإنسان في الأماكن العامة، كالحانة مثلاً؟ أسرار؟ إن المكان الوحيد للأسرار هو كنيسة الرسولية المقدسة. إن الأسرار التي يُهمس بها في الزوايا تأتي من عقول مشوشة. أتمنى لك صحة طيبة يا بلاجيا نيلوفنا.

ورفع قبعته ولوح بها في الهواء، ثم مضى تاركاً الأم في حيرة.
وفي مرة أخرى التفتت ماريا كيرسونوفا، جارة عائلة فلاسوف وأرملة حداد كانت تكسب قوتها من بيع الطعام على أبواب المصنع، إلى بلاجيا في السوق وقالت لها:

- راقبي ابنك يا بلاجيا!

- ما الذي تعنيه؟

قالت ماريا في تكتم:

- إن الإشاعات تنتشر، إشاعات سيئة وأماه. إنهم يقولون إنه يؤلف طائفة سرية كطائفة المتسوطيين وإنهم سيجلدون بعضهم بعضاً بالسوط كالمِتسوطيين^(١).

- هراء وسخافة يا ماريا!

فعلقت البائعة بقولها:

- لا يوجد دخان دون نار!

(١) المتسوطيين: كلمة مشتقة من السوط وهي طائفة دينية كان أعضاؤها يجلدون أنفسهم بالسوط لنيل رضى الرب - المعربان.

ونقلت الأم هذا الكلام إلى ابنها فهز كتفيه فقط، أما الأوكراني فقد ضحك بطريقته العميقة الناعمة.

وأضافت تقول:

- والفتيات حانقات أيضًا؛ فأنتم طيبون، تصلحون للزواج من أي فتاة، تعملون بجد ولا تسكرون، ومع ذلك لا تعيرونهن انتباهًا، ويقولون إن فتيات معوجات السيرة يحضرن من المدينة لرؤيتكم.

فقال باثل معبسًا باشمئزاز:

- أوه! كفى...

فقال الأوكراني متنهّدًا:

- كل ما في المستنقع ينضح برائحة كريهة! ستفعلين حسنًا لو فسرت لهؤلاء المجنونات الصغيرات ما هي الحياة الزوجية يا نينكو، وعندئذ لن يكن على عجل لدق رقابهن.

قالت الأم:

- يا إلهي! إنهن يحسنّ الحكم على الأشياء ويفهمن، فما الذي يستطعن عمله أيضًا؟

فقال باثل:

- إذا كن يفهمن فسيجدن أشياء أخرى يفعلنها.

ألقت الأم نظرة على وجهه الصارم وقالت:

- لماذا لا تعلمونهن، اطلبوا من الذكيات الحضور إلى هنا.

فقال بافل في جفاء:

- إن هذا لن ينفع.

وقال الأوكراني:

- ماذا لو حاولنا؟

صمت بافل قبل أن يجيب قائلاً:

- سيدأون في الخروج أزواجاً من هنا، وسيتزوج بعضهم، وستكون هذه نهايتها.

وأخذت الأم تفكر، لقد أفلقتها صرامة بافل التقشفية، ورأت أن كل واحد منهم، بما فيهم رفاقه الكبار كالأوكراني كان يستمع لنصيحته، ولكنه بدا لها أنهم جميعاً يخافونه، وليس من واحد يحبه بسبب قسوته.

وحين آوت إلى فراشها، ذات مساء، بينما كان ابنها والأوكراني لا يزالان يقرآن، بلغت أصواتهما الخافتة سمعها عبر الفاصل الرقيق.

قال الأوكراني بغتة:

- إنني أحب ناتاشا تلك...

فأجاب بافل بعد فترة قصيرة:

- أعرف ذلك.

سمعت الأوكراني ينهض ببطء، ويذرع الغرفة حافي القدمين، وبدأ يصفر برقة ويأس، ثم قطع صفيحه ليتكلم مرة أخرى بصوت خافت:

- هل يا ترى لاحظت ذلك؟

لم يحر بافل أي جواب.

فسأل الأوكراني بصوت يكاد يكون همساً:

- ما رأيك؟

أجاب بافل:

- لقد لاحظت، ولهذا السبب توقفت عن المجيء إلى هنا.

وجر جر الأوكراني قدميه بثقل على الأرض، وتردد من جديد صفيره في الغرفة، ثم تساءل:

- ما الذي سيحدث لو قلت لها؟

- قلت لها ماذا؟

وابتداً الأوكراني يقول في رقة:

- أقول لها... إنني....

فقاطعه بافل قائلاً:

- ولماذا تقول لها؟

سمعت الأم الأوكراني يتوقف، وشعرت بأنه يبتسم.

- إنني أعتقد لو كنت تحب فتاة وجب عليك أن تخبرها، وإلا فلن

يسفر ذلك عن شيء.

صفق بافل كتابه وسأل:

- ما الذي تريد أن يسفر عنه؟

وصمت كلاهما لفترة طويلة، ثم سأل الأوكراني:

- حسنًا!

فقال بافل ببطء:

- يجب أن يكون لديك فكرة واضحة عما تريد يا أندري. لنفرض أنها تحبك - وأنا أشك في ذلك ولكن لنفرض - وتزوجتما، فيا له من زواج موفق! هي مثقفة وأنت عامل، وستنجبان أطفالاً وعندها ستضطر أن تعمل كالعبد ليل نهار لتعولهم، وستصبح الحياة كالطاحونة من أجل رغيف الخبز، من أجل الأطفال وأجرة البيت، وستخسر القضية، بل ستخسر كما.

وخيمت فترة صمت، ثم تكلم بافل ثانية، وبدت لهجته أقل وضوحًا:

- من الأفضل أن تتخلي عن كل ذلك يا أندري، لا تثقل عليها.

وساد الصمت، وسمع رقاص الساعة بوضوح يحدد الثواني، وقال الأوكراني:

- نصف قلبي يحب والنصف الآخر يكره! أتسمى ذلك قلبًا؟

وسمعت الأم صوت تقليب صفحات كتاب، لا بد أن بافل عاد إلى القراءة. كانت مستلقية وعيناها مغلقتان، خائفة حتى أن تتنفس. رثت للأوكراني من كل قلبها، ولكنها رثت لابنها أكثر وفكرت:

- يا لابني المسكين!

وانفجر الأوكراني فجأة سائلًا:

- أعتقد أنه يجب عليّ أن لا أقول لها شيئًا؟

فقال بافل بهدوء:

- كلا، يجب أن لا تقول لها.

فقال الأوكراني:

- لن أقول.

ثم أضاف بعد بضعة ثوان:

- سيكون من الصعب عليك يا باثل عندما تصل إلى هذا الحال.

- إن الحال صعبة الآن.

ولطمت الريح الجدران، واستمر رقاص الساعة يحدد مرور الزمن.

وقال الأوكراني ببطء:

- ليس هذا مزاحًا!

ودفنت الأم وجهها في الوسادة، وبكت في صمت..

وفي الصباح خيل لها أن أندري تضاءل وأصبح أكثر قبولاً في النفس،
وكان ابنها مستقيماً، نحيلًا، وصامتًا كما كان دائمًا، ولم يحدث أنها دعت
الأوكراني من قبل بغير أندري أونيسيموفيتش، ولكنها لا شعوريًا قالت له
اليوم:

- من الأفضل أن تصلح حذاءك يا أندروشا وإلا فسيصيبك البرد.

فأجاب ضاحكًا:

- سأشتري حذاء جديدًا بأول أجر أتقاضاه.

ثم لف ذراعه حول كتفها وقال:

- ربما أنت أُمي الحقيقية، ولكنك لا تريدين أن تعترفي بذلك لقباحة

وجهي، أليس الأمر كذلك؟

ربتت على يده دون أن تجيبه. كانت تريد أن تقوله له كلمات حنونة عديدة، ولكن قلبها كان متصلبًا من الشفقة، والكلمات لا تريد الخروج من بين شفثتها.

- ٩ -

وبدأ الناس في الحي يتحدثون عن الاشتراكيين الذين كانوا يوزعون منشورات مكتوبة بحبر أزرق، وكانت هذه المنشورات تنتقد إدارة المصنع بشدة، وتحدث عن إضرابات في بطرسبرج وجنوب روسيا وتدعو العمال إلى الاتحاد دفاعًا عن مصالحهم.

وغضب الكهول الذين كانوا يتقاضون أجرًا طيبة في المصنع. كانوا يقولون:

- مثيرو شغب! يجب أن تحطم أفواههم بسبب هذه الأشياء.

وحملوا المنشورات إلى رؤسائهم.

ولكن الشبان قرأوها في حماس، أما رد الفعل لدى غالبية العمال، الذين أنهكتهم طاحونة العمل اليومي، فقد كان انعدام الاكتراث:

- لن تسفر عن أي شيء، إنه من المستحيل.

إلا أن المنشورات تسببت في هياج وحركة، وعندما لم يظهر عدد جديد منها لمدة أسبوع كان العمال يقولون لبعضهم بعضًا:

- يبدو أنهم توقفوا عن طبعها.

ولكن في يوم الإثنين التالي كان يصدر عدد جديد، فيبدأ العمال يتهامسون من جديد.

وظهر في المصنع وفي الحانة أناس لا يعرفهم أحد، أخذوا يراقبون ويشمون ويوجهون الأسئلة، فيثيرون الشك في الحال، إما نتيجة لحرصهم الزائد أو بسبب تدخلهم في شئون كل الناس.

وأدركت الأم أن كل هذا الاضطراب ناتج عن نشاط ابنها وأعماله، ورأت هؤلاء الناس يتجهون إليه واختلط فخرها بالقلق على مصيره.

وذات مساء، قرعت ماريا كورسونوفا نافذة عائلة فلاسوف وقالت للأم عندما فتحت النافذة في همس عال:

- خذي حذرك يا بيلاجيا! قد انتهى اللعب؛ سيفتشون بيتك الليلة وبيت عائلة مازن وبيت عائلة فيزوفشيوكوف.

وانطبقت شفتاي ماريا في عجل، واستنشقت عبر أنفها الكبير، ثم رمشت ونظرت إلى أحد الجوانب ثم إلى الآخر، وسددت نظرها إلى شخص ما في الشارع، وقالت:

- إنني لا أعرف شيئاً ولم أقل لك شيئاً ولا حتى رأيتك اليوم، هل سمعت؟

ومضت.

أغلقت الأم النافذة ثم تهالكت على المقعد ببطء، ولكن إدراكها للخطر الذي يهدد ابنها جعلها تهب واقفة. ارتدت ملابسها على عجل ثم

لفت رأسها بشال وركضت إلى بيت فيودور مازن، كان مريضاً لم يذهب إلى المصنع، وكان جالساً بالقرب من النافذة حين دخلت يقرأ كتاباً ويعالج يده اليمنى، التي كان إبهامها بارزاً بشكل غير طبيعي. شحب لونه لدى سماع النبأ ثم غمغم:

- فكري في ذلك!

فسألت بيلاجيا وهي تمسح العرق عن حاجبيها بيد مرتجفة:

- ماذا سنفعل؟

قال فيودور وهو يدفع شعره الأجمع بيده السليمة:

- انتظري برهة، ولا تخافي.

فصاحت:

- لِمَ؟ أنت نفسك خائف.

قال وقد توردت وجنتاه مبتسماً:

- أنا؟ ... هم ... م... لتحل اللعنة!... يجب أن أخبر بافل، سأرسل له شخصاً، أما أنت فاذهبي إلى البيت ولا تقلقي، إنهم لن يضرّبونا. هل سيضرّبوننا؟

عندما عادت إلى البيت جمعت كل الكتب، وأخذت تذرّع الغرفة ضامة الكتب إلى صدرها ناظرة إلى الفرن وما تحته، وحتى إلى برميل الماء، وتصورت أن بافل سيهرع إلى البيت فوراً من المصنع، ولكنه لم يأت. أخيراً، جلست على المقعد في المطبخ متعبة والكتب تحتها. وظلت هناك خائفة أن تتحرك، إلى أن عاد بافل والأوكراني.

فصاحت دون أن تقف:

- هل سمعت؟

قال بافل مبتسمًا:

- نعم. هل أنت خائفة؟

- للغاية...

فقال الأوكراني:

- يجب أن لا تخافي... إن الخوف لن يساعد.

وقال بافل:

- إنها لم تشعل الساموفار أيضًا.

قالت الأم شاعرة بذنبها، واقفة ومشيرة إلى الكتب:

- بسبب هذه...

وانفجر ابنها والأوكراني ضاحكين، فهدأ هذا من روعها. اختار بافل عددًا من الكتب وأخذها إلى الخارج ليخبئها.

وقال الأوكراني وهو يشعل الساموفار:

- ليس هناك ما يدعو إلى الخوف على الإطلاق يا نينكو، إن من العار فقط أن يضيع الناس وقتهم في مثل هذ السخافات - رجال كبار يتمنطقون بالسيوف، ويضعون المهاميز في أحذيتهم، سيأتون إلى هنا ويعبثون بكل شيء - يبعثون تحت السرير، والفرن، وينزلون إلى القبو، ثم يصعدون إلى السطح. وسيعلق العنكبوت بوجوههم، فينفخون باشمئزاز، ويغتاظون

ويعشرون بالخجل، وهكذا سيتظاهرون بأنهم مفترسون وغاصبون للغاية. إنهم يدركون حقيقة حيوانية عملهم. لقد شعروا ذات مرة بالارتباك بعد أن عبثوا هكذا بأممعتي، فتوقفوا وانصرفوا، وفي مرة ثانية أخذوني معهم، وألقوا بي في السجن، واحتجزوني هناك زهاء أربعة أشهر، وفي السجن لا تفعلين شيئاً، بل تجلسين وتنتظرين، ثم تُستدعي للتحقيق. ويقودك الجنود عبر الشوارع ويوجه أحد الرؤساء الكبار إليك الأسئلة. إنهم ليسوا أذكاء - الرؤساء - يثرثرون كثيراً ثم يأمرّون الجنود بإعادتك إلى السجن. وهكذا يتقاذفونك ذهاباً وإياباً مدة طويلة... لا بدّ لهم، على أي حال، أن يقوموا بعمل ما مقابل النقود التي يتقاضونها، وبعد مضي فترة يطلقون سراحك. وهذا هو كل ما هنالك...

قالت الأم في تعجب:

- يا لأسلوبك في الحديث يا أندروشا!

رفع وجهه الأحمر حيث كان راکعاً ينفخ النار في الساموفار وسألها وهو يتحسس شاربه:

- وأي أسلوب؟

- كأن أحداً لم يؤذك أبداً.

فقال مبتسماً وهو ينهض هاراً رأسه:

- هل هناك امرئ على وجه الأرض لم يمس بأذى؟ فقد آذوني كثيراً إلى حد لم أعد ألاحظه. ما عساك فاعلة ما دام الناس هكذا؟ إن الملاحظة تتدخل في عملك، وإنه لمضيعة للوقت أن تفكري في آلامك. هذه هي

الحياة. كنت أغضب من الناس، ولكنني وجدت أن لا جدوى من ذلك،
فكل امرئ يخاف أن يضربه جاره، ولهذا يحاول أن يلكمه على أنفه أولاً.
هذه هي الحياة يا نينكو!

كانت كلماته تنساب ناعمة، طاردة مخاوفها من التفتيش المقبل،
وعيناه الكبيرتان تبسمان، فلاحظت كم هو نشط على الرغم من عدم
رشاقته، وتنهدت ثم قالت بحرارة:

- ليمنحك الله السعادة يا أندروشا!

سار الأوكراني إلى حيث الساموفار، وجثا أمامه ثانية وغمغم:

- إذا قدم إليّ شيء من السعادة لن أرفضها، ولكنني لن أستجديها.

عاد بافل من الخارج وقال في ثقة:

- إنهم لن يجدوها أبداً.

وأخذ يغسل يديه، ثم التفت إلى أمه وهو ينشفها وقال:

- إذا أظهرت لهم أنك خائفة سيفكرون: لا بد أن في البيت شيئاً

يجعلها ترتجف هكذا. إنك تعرفين أننا لا نرتكب أي إثم، وأن العدالة

بجانبننا، وسنعمل طيلة حياتنا من أجلها، هذا هو ذنبنا الوحيد، فلماذا

نخاف إذن؟

فوعده قائلة:

- سأستعيد رباطة جأشي يا باشا.

ولكنها ما لبثت أن انفجرت تبكي بيؤس وهي تضيف:

- لو أنهم يسرعون وينهون الأمر.

ولم يحضروا تلك الليلة. وفي الصباح سبقت الأم الشابين في
السخرية من نفسها قائلة:

- لقد خفت قبل أن يقع الخوف...

- ١٠ -

جاء الجنود عقب الليلة المزعجة بنحو شهر، كان نيقولاي
فيزوفشيكوف قد حضر لرؤية بافل وأندري، وكان ثلاثتهم يتناقشون في
صحيفتهم، وكان الوقت متأخرًا، يكاد الليل أن ينتصف. الأم قد آوت
إلى فراشها تسمع وهي تغفو أصواتهم الهادئة المتلهفة، وسار أندري
على أطراف أصابعه إلى المطبخ وأغلق الباب خلفه، وسمع صوت دلو
يتدحرج، وفتح الباب بعنف، واندفع الأوكراني إلى المطبخ، وهمس
بصوت عال:

- إن المهاميز تقعقع.

هبت الأم من سريرها، واختطفت ثيابها بيدين مرتعشتين، ولكن بافل
بدا في الباب وقال في هدوء:

- عودي إلى فراشك... فلست... على ما يرام.

وسمع حفيف في المدخل فذهب بافل إلى الباب وفتحه بقوة وهو
يقول:

- من هناك؟

وظهر في الحال شخص طويل رمادي، وخلفه شخص آخر، بينما دفع اثنان من الجنود باثل ووقفوا على جانبيه.

وقال صوت عال ساخر:

- ليس من تتوقعون ، إيه؟

كان المتكلم ضابطاً طويل القامة، نحيلًا، ذا شارب أسود يميل إلى الحمرة، وذهب أحد الجنود المحليين ويدعى فيدياكين إلى سرير الأم وقال وهو يلمس قبعته بإحدى يديه ويشير بالأخرى إلى وجه بيلاجيا:

- تلك هي أمه يا صاحب السعادة.

وأضاف وهو يشير إلى باثل:

- وذلك هو.

فسأل الضابط وهو يزوي عينيه:

- باثل فلاسوف؟

هز باثل رأسه بالإيجاب.

فأضاف الضابط وهو يفتل شاربيه:

- عليّ أن أفتش بيتك... انهضي أيتها المرأة. من هناك؟

وألقي نظرة عبر الباب، ثم دخل الغرفة المجاورة وأتى صوته قائلاً:

- ما اسمك؟

وبدا شاهدين في باب المدخل، كان أحدهما عامل المسبك المعجوز

نفر ياكوف قال للأم في صوت عميق جاف:

- مساء الخير يا نيلوفنا.

كانت الأم تردد في نفسها وهي ترتدي ملابسها لتحتفظ بشجاعتها.

- لم أسمع بشيء مثل هذا قط! يأتون في منتصف الليل هكذا ويدخلون بعد أن ينام الناس!

كانت الغرفة مكتظة ولسبب ما كانت تعبق فيها رائحة شمع الأحذية، وتناول اثنان من البوليس المحلي ورئيس البوليس المحلي الكتب بضجة من فوق الرفوف، وكدسوها على المائدة أمام الضابط، وضرب اثنان آخران الحائط بقبضات أيديهما، وفتشا تحت المقاعد، كما تسلق أحدهما في عناء الفرن. كان الأوكراني وفيزوفشيكوف يقفان جنباً إلى جنب في إحدى الزوايا، وقد امتلأ وجه نيقولا الذي تعلوه آثار الجدرى ببقع حمراء، ولم ينقل عينيه الرماديتين الصغيرتين عن الضابط. أما الأوكراني قد كان يفتل شاربيه، وعندما دخلت الأم الغرفة، ضحك ضحكة خفيفة، وهزل لها رأسه مشجعاً.

ولكي تتغلب الأم على مخاوفها لم تسر باعوجاج كعادتها، بل مشت إلى الأمام مستقيمة مرتفعة الصدر، مما أضفى على هيئتها سيماء العظمة المفتعلة، وأخذت تدب على الأرض بقوة متفاخرة، ولكن حاجبيها كانا يرتجفان.

واختطف الضابط الكتب بأصابع يده البيضاء النحيلة، وتصفحها في عجل ثم ألقى بها جانباً في تأفف، فكانت بعض الكتب تقع على الأرض في رقة دون أن تحدث صوتاً. لم يتفوه أحد بكلمة، ولم تكن هناك أي

أصوات سوى لهث الجنود المتصبين عرقاً، وقعقة المهاميز، والسؤال الذي كان يوجه بين حين وآخر:

- هل فتشت هنا؟

كانت الأم تقف مستندة إلى الحائط بجانب بافل وذراعاها مكتوفان كذراعيه وعيناها تتابعان الجنود. شعرت بضعف في ركبتيها، وبسحابة رقيقة تغشي عينيها.

وتردد صوت نيقولاي الجاف فجأة عبر السكون قائلاً:

- لماذا تلقون بالكتب على الأرض؟

فوجمت الأم وهز تفيرياكوف رأسه، كأن أحداً دفعه، وقبع رييين كالخنزير، ونظر إلى نيقولاي نظرة طويلة.

ضيق الضابط عينية، وألقى نظرة على وجه نيقولاي المتحجر الذي تعلوه آثار الجدري، ثم أخذ يتصفح الكتب في سرعة أكثر، وكان يفتح عينيه الكبيرتين الرماديتين محملاً كأنه يعاني من ألم لا يطاق، وهو على وشك أن يصيح محتجاً بصوت واهن ضعيف.

وصاح فيزوفشيكوف ثانية:

- هيه أيها الجندي التقط الكتب.

التفت كل الجنود ونظروا إليه ثم إلى الضابط فرفع الأخير رأسه وغمر وجه نيقولاي العريض بنظرة جافة ثم تكلم من أنفه ببطء:

- هم...م...م...م! التقطها.

فانحنى أحد الجنود يجمع الكتب المبعثرة...

وهمست الأم لبافل:

- من الأفضل أن يقلل نيقولاي فمه.

فهز كتفيه، ونكس الأوكراني رأسه.

- من الذي يقرأ التوراة؟

فأجاب بافل:

- أنا.

- ولمن كل هذه الكتب؟

قال بافل:

- لي أنا.

قال الضابط مستنداً بظهره إلى مقعده:

- حسناً!

وطقطق أصابع يديه النحيفتين، ومد ساقين تحت المائدة، ثم مسح

شاربه بيده وقال لنيقولاي:

- هل أنت أندري ناخودكا؟

فقال نيقولاي متقدماً إلى الأمام:

- نعم.

أمسكه الأوكراني من كتفيه ودفعه إلى الخلف وقال:

- لقد أخطأ، أنا أندري...

رفع الضابط يده وهز إصبعه الصغير في وجه نيقولاي قائلاً:

- من الأفضل أن تراقب نفسك.

وأخذ يبحث في أوراقه.

وبدا الليل الذي غمره القمر في النافذة بارداً غير مكترث، وسمع

تكسر الثلج تحت أقدام شخص كان يمر بجانب البيت في بطة.

وسأل الضابط:

- ناخودكا؟.. هم؟... أأست العصفور الذي سجن من قبل لجرائم

سياسية؟

- نعم. مرة في رستوف والأخرى في ساراتوف، ولكن الجنود هناك

كانوا أكثر أدباً.

ضيق الضابط عينه اليمنى وفركها، ثم قال كاشفاً عن أسنانه الصغيرة:

- هل تعرف الحثالة التي توزع منشورات إجرامية في المصنع؟

فكشر الأوكراني وهز عقبه وهم أن يجيب، ولكن صوت نيقولاي

تردد من جديد:

- إننا نرى الحثالة لأول مرة!

وساد صمت مطبق، وتوقف كل شيء لفترة قصيرة.

وابيضت الندبة التي في وجه الأم، وارتفع حاجبها الأيمن، وابتدأت

لحية ريبن ترتجف بشكل غريب فتخللها بأصابعه ثم خفض بصره.

قال الضابط:

- أخرجوا هذا الكلب من هنا.

أمسك اثنان من الجنود ذراعي نيقولاوي ودفعاه بعنف إلى المطبخ،
حيث توقف وضرب الأرض في عنف وصاح:

- قفوا! يجب أن أرتدي ملابسي.

ودخل رئيس البوليس من الفناء، وقال:

- لا يوجد شيء هناك، لقد بحثنا في كل مكان.

فقال الضابط في تهكم:

- بالطبع، إننا نتعامل مع رجل مجرب.

استمعت الأم إلى صوته الضعيف المتهدج، ونظرت في خوف إلى
وجهه الأصفر، وشعرت بأن أمامها عدوًّا لا يرحم يشعر بحقد وتعال على
عامة الناس. إنها لم تحتك بهؤلاء الناس إلا نادرًا، وقد كادت أن تنسى
وجودهم، وفكرت:

- إذن هؤلاء هم الذين ينزعجون من المنشورات.

قال الضابط:

- أندري أونيزيموف، الابن غير الشرعي، الذي يحمل اسم ناخودكا،
أنت معتقل!

فسأل الأوكراني بهدوء:

- لِمَ؟

أجاب الضابط بخبث معسول:

- ستعرف فيما بعد.

واستدار إلى بيلاجيا وسألها:

- هل تعرفين القراء؟

فأجاب بافل قائلاً:

- كلا، إنها لا تعرف.

فصاح الضابط:

- إنني لم أسألك. تكلمي أيتها المرأة.

وغمر الأم حقد على هذا الرجل، وتملكتها فجأة نوبة من الارتعاش كأنها قفزت في ماء بارد فانتصبت، وازرقت الندبة وارتخا حاجباها فوق عينيها، وقالت رافعة يدها:

- لا حاجة بك إلى الصياح، إنك أصغر من أن تعرف ما هي المتاعب.

فقال بافل محاولاً منع أمه:

- هدئي من روعك يا أماه.

فصاحت وركضت إلى المائدة:

- انتظري يا بافل، لماذا تأخذ هؤلاء الناس؟

فصاح الضابط ناهضاً:

- إن هذا ليس من شأنك، اسكتوا.. أحضروا فيزوفشيكوف، إنه أيضاً معتقل.

وأخذ يقرأ ورقة كان يمسكها بالقرب من أنفه.

وأحضر نيقولاى، فقطع الضابط قراءته وصاح:

- اخلع قبعتك.

اقترب ريبن من بيلاجيا ووكزها بكتفه وقال:

- لا تنزعجي يا أماه.

فسأل نيقولاى، غامراً بصوته قراءة الإجراءات:

- كيف أستطيع رفع قبعتي وهم يمسون بذراعي؟

فصاح الضابط ملقياً الورقة على المائدة:

- وقعوها.

وبينما كانت الأم تراقبهم وهم يوقعون الورقة، هدأ غضبها، وضعفت معنوياتها، وامتلاأت عيناها بدموع اليأس والألم. لقد ذرفت خلال حياتها الزوجية التي استغرقت عشرين عامًا الكثير من الدموع، ولكنها كادت أن تنسى خلال السنين القليلة الأخيرة لذعها الحار، فنظر الضابط إليها وقال في ضحكة مفتعلة:

- من الأفضل أن تدخري دموعك أيتها السيدة، وإلا فلن تجدي دموعًا لاستعمالها في المستقبل.

فسيطرت عليها موجة أخرى من الغضب وقالت:

- إن الأم لديها ما يكفيها من الدموع لكل شيء، لكل شيء إذا كان لك أم، فهي بكل تأكيد تعرف هذا.

وضع الضابط الأوراق بسرعة في حقيبة جديدة، لها قفل لامع،

وأصدر أمره:

- سيروا.

قال باثل بحرارة وهو يسلم على رفاقه:

- إلى اللقاء يا أندري، إلى اللقاء يا نيقولاى.

فقال الضابط في ضحكة مقتضبة:

- بلا شك ستقابلون عما قريب.

تنفس فيزوفشيكوف بشدة، وصعد الدم إلى رقبته الغليظة، وومضت عيناه بغضب صلب، وابتسم الأوكراني، وهز رأسه وهو يهمس إلى الأم بشيء ما... فرسمت عليه إشارة الصليب وقالت:

- إن الله يرى من هو المحق...

وأخيرًا تجمهر ذوو الحلل الرمادية في المدخل، واختفوا في قعقة المهاميز. كان رييين آخر من غادر المكان، وألقى على باثل نظرة بطيئة ثم قال مفكرًا:

- ح... سنًا، إلى اللقاء.

وخرج من الباب وهو يسعل في لحيته.

ضم باثل يديه وراء ظهره، وأخذ يذرع الغرفة في بطاء وهو يخطو فوق الكتب والقماش المبعثر، ثم قال في حزن:

- أترين؟ هكذا يفعلونها؟

فنظرت أمه في ريبة إلى الفوضى وسألت في أسى:

- لماذا كان نيقولا يفظاً هكذا؟

فأجاب بافل:

- أعتقد لأنه كان خائفاً.

غمغمت الأم عاصرة يديها:

- يدخلون ويمسكونهم ثم يأخذونهم هكذا...

لم يلق القبض على ابنها، فلماذا كان قلبها يضرب بهدوء أكثر، ولكن تفكيرها كان مشلولاً أمام الحقائق المبهمة التي شاهدها:

- لقد سخر منا ذو الوجه الأصفر وحاول إخافتنا...

فقال بافل في تصميم مفاجئ:

- حسناً يا أماه، هيا ننظف المكان.

دعاها يا أماه، وكانت نبرة صوته تلك التي كان يستعملها كلما شعر بالقرب منها. فذهبت إليه ونظرت إلى وجهه وسألته:

- هل آلموك؟

فأجاب:

- نعم، إنه صعب. لقد كان أفضل لو أنهم أخذوني مع الآخرين.

وبدا لها أن الدموع في عينيه، وقالت محاولة أن تخفف الألم الذي شعرت به في غموض:

- انتظر. سيأخذونك أنت أيضاً.

فأجاب:

- سيفعلون ذلك.

فصمتت لفترة قصيرة ثم قالت:

- يا لك من قاس يا باطل! خفف عن أمك ولو مرة واحدة، ها أنا أقول أشياء مريعة كهذه، وأنت تجعل الأمور أكثر فظاعة.

رفع نظره إليها، ثم تقدم منها وقال:

- لا أعرف كيف يا أماه، ولكن يجب أن تتعودي عليها.

فتنهدت وحاولت أن تمنع صوتها من التهيج وهي تسأله بعد فترة قصيرة:

- أعتقد أنهم يعذبون الناس؟ يمزقون أجسادهم ويكسرون عظامهم؟ كلما أفكر في ذلك... أوه يا عزيزي! إنه مريع.

- إنهم يحطمون روحك المعنوية؟ وهذا يؤلم أكثر، حينما يضعون أيديهم القذرة على روحك.

- ١١ -

وعلم في اليوم التالي أنهم ألقوا القبض أيضًا على بوكين وصمويلوف وسوموف وخمسة آخرين. في المساء زارهم فيودور مازن. لقد فتشوا منزله أيضًا فكان مسرورًا للغاية، شاعرًا بأنه بطل حقًا.

وسأله الأم:

- أكنت خائفًا يا فيودور؟

فشحب لونه، وقست تقاطيع وجهه، وارتعشت خياشيمه، وقال:

- كنت خائفًا أن يضربني الضابط، لقد كان بدينًا ذا لحية سوداء
وأصابع مكسوة بالشعر، وعلى أنفه نظارة كأنه أعمى، كان يصيح ويضرب
الأرض بقدميه قائلاً: سألقي بكم في السجن. لم يضربني أحد قط، ولا
حتى أبي أو أُمي. لقد كنت ابنيهما الوحيد، فكانا يحبانني.

وأغمض عينيه برهة، وزم شفتيه، ودفع بكلتا يديه شعره في حركة
سريعة، ثم قال ناظرًا إلى بافل بعينين محمرتين:

- لو جرؤ أحد على ضربي فسألقي بنفسي عليه، كالسكين، وسأعضه
بأسناني... وليقتلوني بعد ذلك وينهوا الأمر.

فقال الأم متعجبة:

- إنك ضعيف جدًا لذلك، وأعتقد أنك لست بمقاتل.

فقال فيدور بصوت خافت:

- سأقاتل على أي حال.

قالت الأم لبافل عندما ذهب فيودور:

- سيكون أول من يولي هاربًا.

ولكن بافل لزم الصمت.

وبعد مضي عدة دقائق فتح باب المطبخ ببطء، ودخل ريبين ثم قال
في ضحكة مقتضبة:

- سلام! ها أنا هنا ثانية. أحضروني في الليلة الماضية، أما اليوم فقد

أتيت بمحض إرادتي.

صافح بافل في حرارة، وأمسك بيلاجيا من كتفها، وسأل:

- ما رأيكما في قدح من الشاي؟

وفي صمت تفحص بافل وجهه العريض الخمرى، ولحيته السوداء الكثة، وعينه السوداءوين. كان ثمة شيئاً ذا مغزى في نظرتة الثابتة.

ذهبت الأم إلى المطبخ لتعد الساموفار، أما ريبين فقد جلس وأسند مرفقيه إلى المائدة وأخذ ينظر إلى بافل، ثم قال كأنه يحاول استئناف حديث سابق لم يتم:

- حسنًا، يجب عليّ أن أحدثك بصراحة، لقد كنت أراقبك لفترة ما. إنني أظن بالقرب منكم، ولاحظت أن كثيرًا من الناس يأتون إلى منزلك، ولكن لم ألاحظ أي شراب أو شجار، هذا أول شيء. إنك لا تجد مفراً من ملاحظة الناس عندما يحسنون التصرف، وتفكر فيما يحدث، وأنا نفسي عرضة للأنظار؛ لأنني منعزل.

وتدقق كلامه هادئاً ثقيلاً وهو يمسح لحيته بيد سوداء، وينظر بإمعان إلى وجه بافل:

- لقد بدأ الناس يتحدثون عنكم: صاحب منزلي مثلاً يدعوكم ملحدين؛ لأنكم لا تذهبون إلى الكنيسة، وأنا لا أذهب، ثم تلك المنشورات، أهي من عملكم؟

فقال بافل:

- نعم!

فهمت أمه جزعة، وهي تطل برأسها من المطبخ:

- ما الذي تقوله؟ لست الشخص الوحيد.

ضحك باثلاً، وضحك ريبيّن كذلك وقال:

- حسنًا!

فزفرت الأم ومضت متألّمة نوعًا ما للطريقة التي تجاهلوا بها كلماتها.

- إن هذه المنشورات لفكرة طيبة، فهي تثير الناس. تسعة عشر

منشورًا، أليست كذلك؟

قال باثلاً:

- أجل.

- هذا يعني أنني قرأتها جميعًا، وإن لم يكن واضحًا بعض ما فيها،

ولكن حين يود الإنسان أن يقول أشياء كثيرة، فمن الصعب أن لا يضع كلمة زائدة أو اثنتين.

ابتسم ريبيّن، فكشف عن أسنان بيضاء قوية، وأضاف:

- ثم حدث التفتيش، وهذا قربني منكم أكثر من أي شيء آخر...

فأنت والأوكراني ونيقولاي أبديتهم...

وصمت وهو يبحث عن الكلمة الملائمة، ونظر إلى الخارج عبر

النافذة، ونقر على المائدة بإصبعه.

- أبديتهم قوة موقفكم، إذا صح القول.. اذهب واهتم بشئونك

يا صاحب السعادة، ونستمر نحن في الاهتمام بشئونا. إن الأوكراني رجل

طيب أيضًا، عندما أسمعه يتكلم، في المصنع في بعض الأحيان، أفكر في نفسي، ليس من سبيل لتحطيمه، إن الموت وحده هو الذي سيقهره، لقد قُدم من صخر. هل تثق بي يا بافل؟

قال بافل هازًا رأسه بالإيجاب:

- نعم أثق بك.

- حسنًا! انظر إليّ، لقد بلغت الأربعين من عمري، إن عمري ضعف عمرك، ورأيت عشرين مرة أكثر مما رأيت أنت، وقضيت في الجندية ما يربو على ثلاث سنوات وتزوجت مرتين، توفيت زوجتي الأولى، وطردت الثانية. وذهبت إلى القوقاز وشاهدت الدوخوبورتسكيين^(١)، إنهم لا يعرفون كيف يعالجون الحياة أيها الأخ، ليس هم من يستطيع معالجتها.

أصغت الأم بانتباه إلى حديثه الجاف، وأرضاهما أن يفتح هذا الكهل قلبه لابنها، ولكنها شعرت بأن تصرفات بافل كانت جافة للغاية، فحاولت أن تعوض ذلك بالكرم، فقالت له:

- ربما تريد أن تأكل لقمة يا ميخائيلو إيفانوفيتش؟

- شكرًا يا أماء، لقد تناولت عشاءي. هكذا يا بافل إنك لا تعتقد أن الحياة كما يجب أن تكون عليه.

نهض بافل وأخذ يذرع الغرفة ويدها خلف ظهره وأجاب:

- إنها تمضي في سبيلها الصحيح. ألم تحضرك إليّ بقلب مفتوح؟ إنها توحدنا نحن الذين نمضي حياتنا نعمل، شيئًا فشيئًا، وسيأتي الوقت

(١) الدوخوبورتسكيين: طائفة دينية - المعربان.

الذي ستوحد فيه الجميع. إن الحياة قاسية ومجحفة بالنسبة لنا، ولكن الحياة نفسها هي التي تفتح عيوننا على معناها المر، وتدلنا كيف نسرع في حل مشاكلها.

فقاطعه ريبين قائلاً:

- هذا صحيح، إن الناس يحتاجون إلى تجديد، فإذا أصبح المرء قذرًا خذه إلى الحمام وافركه جيدًا ثم ألبسه ملابس نظيفة، وعندئذ سيصبح أكثر قبولًا، أليس كذلك؟ ولكن كيف يتسنى لك أن تطهر نفس المرء من الداخل؟ هذا هو الأمر.

تكلم بافل بحماس عن المصنع والرؤساء، وكيف يكافح العمال في إلحاح من أجل حقوقهم، فكان ريبين يضرب المائدة بين حين وآخر كأنه يضع النقط فوق الحروف وبافل يتحدث.

وكان كثيرًا ما يقول:

- ذلك هو الأمر!

وضحك مرة ثم عقب في هدوء:

- إنك لا زلت صغيرًا، لم تتعلم معرفة الناس بعد!

فقال بافل في جد واقفًا أمام ريبين:

- لندع الحديث عن الكبر والصغر، ولنرى آراء من هي الصحيحة..

- إنك تعتقد أيضًا أنهم حاولوا خداعنا بشأن الله أيضًا... هم! وأنا أعتقد أيضًا أن ديننا ليس صالحًا.

وهنا تدخلت الأم، فكلما كان يتحدث ابنها عن الله والأمور المتصلة

بإيمانها فيه، ذلك الإيمان العزيز عليها والمقدس بالنسبة لها، كانت تحاول أن تقابل عينيه، ترجوه في صمت ألا يجرح قلبها بكلماته القاسية الكافرة، ولكنها شعرت بأن ثمة إيماناً يكمن خلف كفره، فأراحها ذلك. كانت تفكر:

- كيف بوسعي أن أفهم أفكاره؟

كان يبدو لها أن هذا الكهل قد تألم أيضاً من كلمات ابنها، ولكن حين وجه ريبين هذا السؤال بهدوء إلى باثل، لم تستطع أن تضبط نفسها فقالت:

- حين يصل الأمر إلى الرب من الأفضل أن تراقبا ما تقولان.

ثم أخذت نفساً عميقاً، وأضافت في حماس أكثر:

- في استطاعتكما أن تفكرا كما يحلو لكما، ولكن بالنسبة لي كامرأة عجوز فمن يا ترى ألجأ إليه للعون والتأييد في حزني إذا أخذتم الرب.

واغرورت عينها بالدموع، وارتعشت أصابعها وهي تغسل الصحن، فقال باثل بلطف:

- إنك لم تفهمينا.

وقال ريبين في صوت عميق بطيء:

- اغفري لنا يا أماء.

ثم ضحك ضحكة مقتضبة ونظر إلى باثل:

- لقد نسيت أنك أكبر سنّاً من أن تستأصلي ما فيك من ثآليل.

واستطرد باثل يقول:

- لم أكن أتحدث عن الإله العطوف الرحيم الذي تؤمنين به، ولكن عن ذلك الذي يهددنا به القساوسة كالهراوة، ذلك الذي يحاولون باسمه أن يجعلوا كل الناس تسجد لمشينة الأقلية الشريرة.

فقال ريبيّن ضاربًا على المائدة:

- ذلك هو الأمر! لا بد أنهم استأجروا إلهًا مزيفًا لنا، فهم يحاربوننا بكل شيء في تناول أيديهم! فكري في ذلك لحظة يا أماء! لقد خلق الله الإنسان على صورته، وذلك يعني أنه يشبه الإنسان ما دام الإنسان يشبه الله. ولكننا وحوش ضارية أكثر منا آلهة، فالكنائس تخوفنا به. يجب علينا أن نغير إلهنا وأن ننظفه أيضًا يا أمه، فقد أضفوا عليه أكاذيب وفضائح، ولطخوا وجهه ليقتلوا أرواحنا.

كان يتكلم برقة وعذوبة، ولكن كل كلمة من كلماته كانت ضربة صاعقة للأمم. كانت خائفة من وجهه الكبير الجنازي في إطار لحيته السوداء، ولم تستطع احتمال الوميض الأسود في عينيه الذي بعث في قلبها خوفًا مؤلمًا.

فقالت هازة رأسها:

- كلا! كلا! سأذهب؛ إن سماع مثل هذه الأشياء فوق طاقتي.

وهرعت خارج المطبخ، وريبيّن يقول لبافل:

- أترى يا بافل؟ إنه ليس الرأس بل القلب، هذا هو الأمر! إن القلب بقعة خاصة في نفس الإنسان حيث لن ينمو شيء آخر.

فقال بافل في عزم:

- العقل وحده هو الذي يستطيع تحرير الإنسان.

فقال رييين بإصرار، وبصوت عال:

- إن العقل لا يمنحه القوة. فقلبه هو الذي يمنحه القوة وليس عقله.

خلعت الأم ملابسها وآوت إلى فراشها دون أن تصلي. تملكها شعور بارد كربه، فرييين الذي كان يبدو لأول وهلة ذكيًا جدًّا، قادرًا على التأثير على الناس. أثار في نفسها الآن العداء والنفور.

وفكرت وهي تصغي إلى صوته:

- يا للملحد! يا للثائر! لماذا أتى إلى هنا؟

لكنه استمر يتكلم بهدوء وثقة:

- لا تستطيع ترك المكان المقدس حاليًا. فالمكان الذي يحتله الله في قلب الإنسان هو أكثر الأماكن حساسية، وإذا حاولت قطعه سيترك جرحًا غائرًا. يجب أن تفكر في عقيدة أخرى يا باطل. يجب عليك أن تخلق إلهًا يكون صديقًا للإنسان. ذاك هو الأمر!

فصاح باطل في حماس:

- هناك المسيح...

- لم يكن لدى المسيح أي شجاعة روحية، لقد قال: «ليرفع عني هذا الكأس»، ثم هو اعترف بقيصر، كيف يمكن لإله أن يعترف بسلطة إنسان على عبيده؟ إنه نفسه كل القوة، ولم يتمكن من تقسيم روحه فيقول هذه هي روح الله وهذه روح الإنسان، وقبل المسيح التجارة والزواج، وأخطأ في لعن شجرة التين، فهل يجب أن تلام شجرة التين إذا لم تثمر؟ يجب

ألا تلام روح الإنسان لعدم وجود خير فيها، فهل زرعت أنا هذا الشر في نفسي؟

واستمر الصوتان يتشابكان في الغرفة، ويتصارعان في سباق شديد، والأرض تزيق بينما باثل يذرع الغرفة، وحين كان يتكلم، كانت تغرق جميع الأصوات الأخرى. لكن عندما كان ريبيّن يتكلم بصوته الهادئ العميق، كانت الأم تسمع صوت رقاص الساعة وخذش الجليد لجدران المنزل.

وقال ريبيّن:

- سأضعها في لغتي أنا، لغة الوقاد: إن الله لهب يعيش في القلوب، وقد قيل قديمًا: في البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة هي الله... وهكذا، فالكلمة هي الروح.

فقال باثل في إصرار:

- الكلمة هي العقل.

- حسنًا! إذن الله في القلوب وفي العقل، ولكن ليس في الكنيسة، فالكنيسة هي قبر الله.

واستغرقت الأم في النوم، ولم تسمع ريبيّن وهو يغادر المنزل.

وأصبح زائرًا دائمًا بعد ذلك، وإذا حدث وكان أحد رفاق باثل موجودًا عند حضور ريبيّن، كان يجلس في الزاوية لا يقول شيئًا، عدا أن يقول بين حين وآخر: «ذلك هو الأمر»!

وذات يوم غمر الجماعة بنظرته السوداء وقال مكتئبًا:

- يجب أن نتكلم عن الأشياء كما هي عليه، وليس كما ستكون، من ذا الذي يعرف ذلك؟ حين يحصل الناس على حريتهم سيقررون ما هو الأفضل لهم. لقد حشيت أدمغتهم بما فيه الكفاية دون سؤالهم، وحين الوقت لإعطائهم الفرص لعمل ما يفكرون به، ربما سيرفضون كل شيء، كل الحياة والعلم. ربما سيرونها كلها موجهة ضدهم، مثل الكنيسة والله. ضعوا الكتب بين أيديهم وسيجدون الأجوبة التي يبحثون عنها. ذلك هو الأمر.

ولكن عندما يكون هو وباقل منفردين، كانا يدخلان في نقاش لا نهاية له، ولكنهما لم يفقدنا أعصابهما أبدًا. كانت الأم تصغي إليهما بلهفة تتابع كل كلمة، تتجاهد كي تفهم ما يقولان. وفي بعض الأحيان كان يبدو لها أن كلاً من الرجل العريض المنكبين، ذي اللحية السوداء وابنها القوي الطويل قد عميا. كانا يتلمسان اتجاهًا ما.. ثم اتجاهاً آخر، يبحثان عن منفذ. يقبضان على كل شيء بأصابعهما القوية، ولكن التي لا ترى، يتحركان من مكان لآخر، يسقطان أشياء على الأرض، ثم يسحقانها تحت أقدامهما، ويصطدمان بأشياء أخرى، يشعران بها. ثم يلقيان بها بعيداً دون أن يفقدنا إيمانهما وأملهما.

وعلماهما أن تصغي إلى كلمات مخيفة في صراحتها وشجاعتها، ولكن هذه الكلمات لم تعد تلطمها بالقوة ذاتها كما لطمتها في بادئ الأمر، لقد تعلمت أن تدفعها بعيداً. وفي بعض الأحيان كانت تستطيع أن تلاحظ خلف الكلمات التي تنكر وجود الله إيماناً قوياً به، فتبتسم ابتسامة هادئة غافرة. وعلى الرغم من أنها لم تحب ريبين، إلا أنه لم يعد يثير عداها ونفورها.

كانت تأخذ كل أسبوع كتباً وملابس نظيفة للأوكراني في السجن.
وسمح لها ذات مرة بمقابلته فقالت بحنان حين عادت:

- لم يتغير ألبته. إنه لطيف مع الجميع. والجميع يمزحون معه. إن
ذلك صعب عليه.. صعب جداً، ولكنه لا يظهر ذلك.
فقال ريبين:

- هذا صحيح. الحزن مخبأ ونحن بداخله. لقد تعودنا على هذا
الغطاء وهو ليس بالشيء الذي يفخر به، ولكن لم توضع غشاوة على أعين
كل الناس، بل بعض الناس توصل الأبواب على أنفسهم. ذلك هو الأمر!
فيذا كنا أغبياء ليس من شيء نفعله سوى الابتسام واحتماله!

- ١٢ -

واهتم الحي أكثر فأكثر ببيت عائلة فلاسوف الصغير الرمادي، وكان
يشوب هذا الاهتمام الريبة والعداء المستتر. لكن فضولاً آمناً ثار أيضاً،
فكان يقترب من باثل في بعض الأحيان غريب يختلس النظر حوله ويقول
له:

- أصغ إليّ أيها الأخ. إنك تقرأ الكتب وتعرف القانون، فهل تستطيع
أن تفسر لي....

وكان السائل يسرد قصة ما عن ظلم حاق به من طرف البوليس أو
إدارة المصنع، وكان باثل في الحالات المعقدة يعطي الشخص رسالة إلى
محام من معارفه في المدينة، ولكن كان يشرح القضية بنفسه ما أمكنه.

وشيئاً فشيئاً أخذ الناس يحترمون هذا الشاب الجاد، الذي كان يتكلم بسهولة جداً، وبطريقة محببة، فاتحاً أذنيه وعينه دائماً، يقظاً لكل شيء، والذي كان ينزل دائماً إلى أساس كل خلاف بعناد، ويجد في كل مكان الخيط المشترك الذي يربط كل الناس.

وكسب بافل مكانة خاصة عقب «كوبيك المستنقع».

كان يمتد حول المصنع مستنقع تنبت فيه أشجار الشوح والبتولا، ويكاد تحيط به في دائرة فاسدة. وفي الصيف كان ينتشر من هذا المستنقع بخار أصفر ثقيل، وسحب من فصائل الناموس التي كانت تبذر الحمى في الحي. كان المستنقع ملكاً للمصنع، فقرر المدير الجديد ردمه ليستخرج منه البيت^(١)، ويحقق من الأرض ربحاً. وأصدر أمراً بخصم كوبيك من كل روبل يدفع أجراً للعمال، وذلك لردم المستنقع؛ بحجة أنه يفعل ذلك لتحسين أحوال معيشة العمال.

فسخط العمال وعارضوا، لا سيما أنه لم يجر أي خصم من مرتبات الموظفين ذوي الياقات البيضاء.

وحجز المرض بافل في البيت يوم السبت حين أعلن عن خصم الكوبيك وعلق المدير الإعلان، فلم يعرف عنه شيئاً، وزاره في اليوم التالي سيزوف وهو عامل مسبك طويل محترم، وماخوتين، وهو ميكانيكي طويل نائر، فأخبراه بقرار المدير:

فقال سيزوف بوقار:

(١) البيت: مواد نباتية متحجرة، تستعمل وقوداً - المعربان.

- لقد اجتمع الشيوخ منا، وبحثنا في الأمر، وقرر الرفاق إرسالنا إليك، كرجل يفهم؛ لنعرف هل هناك قانون يبيح للمدير محاربة الناموس بكوييكاتنا؟

وقال ماخوتين وعيناه الصغيرتان تو مضان:

- تصور منذ أربع سنوات استولى البخلاء على نقودنا من أجل بناء حمام. لقد جمعوا ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل! وأين هي الآن؟ إننا لم نر الحمام قط!

فسر باثل الظلم في خصم الكوبيك والربح الواضح الذي سيحققه ردم المستنقع للمصنع. فغادر الرجلان المنزل متجهي الوجه، وبعد أن ودعتهما الأم، قالت في ضحكة مقتضبة:

- حتى الشيوخ بدأوا ينظرون إليك نظرة خاصة!

جلس باثل دون أن يجيبها، وأخذ يكتب، وبعد بضعة دقائق قال:

- لي عندك رجاء يا أماه، اذهبي إلى المدينة وسلمي هذه الرسالة. فسألت:

- هل هي خطيرة؟

- نعم. سأرسلك إلى المكان الذي يطبعون فيه صحيفتنا. إن من الضروري أن تنشر قصة الكوبيك في العدد القادم.

فقالت:

- حسنًا... حالًا.

كان هذا أول عمل عهد ابنها به إليها، وسرت؛ لأنه فسر الموقف بوضوح، فقالت وهي ترتدي ملابسها:

- إنني أفهم يا باشا، إنهم يسرقونهم! ما اسم ذلك الرجل - إيجور إيفانوفيتش؟

عادت إلى البيت متأخرة، في المساء، منهكة، ولكن مسرورة، وقالت لابنها:

- لقد رأيت ساشا، إنها تبعث إليك بتحياتها، إن إيجور إيفانوفيتش إنسان بسيط، ولكنه مرح جدًا، وذو أسلوب مضحك في الحديث. فقال بافل بعدوبة:

- إنني مسرور؛ لأنك أحبيتهم.

- إنهم أناس بسطاء يا بافل. إنه شيء طيب حين لا يدعي الناس، وهم يقدرونك كثيرًا...

وبقي بافل في البيت يوم الإثنين أيضًا، إذ إنه لم يبرأ تمامًا. لكن فيودور مازن عاد يركض في فترة الغداء، متقطع النفس، ولكن سعيدًا منفعلًا وصاح:

- هيا بنا، إن المصنع كله ثائر، وقد بعثوا بي إليك، سيزوف وماخوتين يقولان إنك تستطيع تفسير الأمر أكثر من أي شخص آخر. يجب أن ترى ما الذي يحدث.

وبدأ بافل يرتدي ملابس، دون أن ينبس بكلمة.

- لقد أنت النساء كذلك وضمن صراخهن أيضًا!

فقلت الأم:

- إني قادمة أيضًا. ماذا هم فاعلون؟ إني قادمة أيضًا.

فقال باقل:

- هيا تعالي.

ساروا في الشارع على عجل صامتين، والأم لا تكاد تستطيع التنفس من انفعالها، وشعرت أن شيئًا عظيم الأهمية على وشك الحدوث. كانت جماعة من النسوة تقف على أبواب المصنع يتشاجرن ويصحن، وحين انسل ثلاثتهم إلى الفناء وجدوا أنفسهم في وسط حشد أسود يهدد بالهياج، ولاحظت الأم أن كل الرؤوس كانت تلتفت إلى حائط المسبك، حيث كان سيزوف وماخوتين وقيالوف وخمسة أو ستة عمال من ذوي النفوذ يقفون على كومة الحديد القديم وخلفهم جدار من الآخر.

وصاح أحدهم:

- ها هو فلاسوف قادم!

- فلاسوف؟ ليأتي إلى هنا!

وصاحت أصوات من أماكن عدة:

- سكوت.

ومن مكان ما، ولكن قريب، أتى صوت رييين المنتظم:

- ليس من أجل الكوبيك يجب أن نكافح، بل من أجل العدالة، هذا هو الموضوع! إنه ليس كوبيكنا الذي نعتز به كثيرًا، فهو ليس أكثر استدارة من غيره، وإن كان أثقل، ولكن فيه دماء إنسانية أكثر من روبل المدير! إن

القيمة ليست في الكوبيك، بل في الدم، في العدالة، ذلك هو الأمر!

وقعت كلماته بين الحشد، فانترعت منه صيحات حادة:

- إنك محق يا ريبين!

- أحسنت القول أيها الوقاد!

- ها هو فلاسوف.

واختلطت الأصوات، وأصبحت زوبعة طغت على ضجيج الآلات وصفير البخار وطين المعادن. وهرع الناس من كل الجهات يلوحون بأيديهم، يحث بعضهم بعضًا بكلمات حادة قاسية، فالسخط الذي كان يكمن في الصدور المنهكة بُعث الآن حيًا يطالب بمنفذ له، محلقةً بانتصار في الفضاء، ينشر أجنحته أكثر فأكثر، ويقوي قبضته على الناس ويدفعهم في يقطته، يضرب بعضهم ببعض ويغلفهم في لهب النقرة في تحوله. وفوق الحشد ثارت غيوم الغبار والدخان، وأضاءت الوجوه المتصببة عرقًا بالانفعال والهيأ، وبكت الوجنات دموعًا سودًا، وتألقت العيون والأسنان في وجوه سوداء.

بدا بافل على كومة الحديد، حيث كان يقف سيزوف وماخوتين وصاح:

- أيها الرفاق؟

ولاحظت الأم أن وجهه شاحب، وشفته ترتعشان، فتحركت إلى الأمام بلا شعور، تدفع الجمع، فكانوا يصيحون فيها بسخط:

- من تدفعين؟

ودفعت هي بدورها، ولكن هذا لم يوقفها، فشقت طريقها إلى الأمام
بكتفيها ومرفقيها تحثها رغبته في الوقوف بجانب ابنها.

وحين أفرغ بافل صدره من الكلمة التي كانت بالنسبة له مليئة بمعان
عميقة، شعر بأن حنجرته تتقلص في فرح المناضل، وتملكته رغبة في
إلقاء قلبه لهؤلاء الناس، قلب مشتعل بالأحلام والعدل.

وصاح وهو يستمد من كلمته قواه ونشوته:

- أيها الرفاق، نحن الذين بنى الكنائس والمصانع، نسبك السلاسل
والنقود. نحن تلك القوة التي تطعم الجميع من المهد إلى اللحد؟

وصاح ريبين:

- هذا صحيح!

- دائماً، وفي كل مكان، نحن أول من يعمل، وآخر من يكسب
اعتباراً. من ذا الذي يهتم بنا؟ من ذا الذي عمل أقل شيء لنا، هل ينظر أحد
إلينا كأدميين؟ كلا...

وجاء صوت كالصدى:

- كلا!

وما إن تقدم بافل في الكلام حتى أخذ يتكلم ببساطة وفي هدوء أكثر
واقترب الحشد ببطء، فبدأ جسداً واحداً ذا ألف رأس، ينظر إلى وجهه
بآلاف الأعين المتيقظة، ويشرب كل كلمة من كلماته.

- لن نكسب شيئاً أفضل لأنفسنا حتى ندرك أننا جميعاً رفاق، عائلة
من الأصدقاء مرتبطة برغبة واحدة، وهي الكفاح من أجل حقوقنا.

فصاح أحدهم بصوت جاف، وكان يقف بجانب الأم:

- ادخل في الموضوع!

فأتى صوتان من ناحيتين مختلفتين:

- لا تقاطع!

فعبست الوجوه القذرة في ريبة كئيبة، ولكن أعيناً كثيرة بحثت في وجه بافل بمفكرة، وقال أحدهم ملاحظاً:

- اشتراكي، ولكن ليس بالأحمق!

وقال عامل طويل ذو عين واحدة وهو يلكر الأم بكوعه:

- إنه يتحدث بشجاعة، أليس كذلك؟

- لقد حان الوقت لأن ندرك أيها الرفاق، أن أحداً لن يساعدنا، إلا أنفسنا، الكل للفرد، والفرد للكل، هذا هو شعارنا إذا كنا نريد هزم أعدائنا.

فصاح ماخوتين هائلاً قبضته في الهواء:

- إنه يقول الحق أيها الناس!

فاستطرد بافل يقول:

- ادعوا المدير.

كان هذا كريح عاتية لطمت الحشد، فاهتزوا وصاحت عشرات الأصوات:

- ادعوا المدير!

- ابعثوا له وفدًا.

ودفعت الأم الذين أمامها، وشقت طريقها إلى الأمام، وتفرست في ابنها. كان وجهها مليئاً بالفخر؛ فابنها باقل كان يقف هناك بين العمال الشيوخ المحترمين، والجميع يصغون إليه ويوافقون على ما يقول، فُسِّرَت لأنه لم يغضب ويشتم، كما فعل الآخرين.

وكالبرَد على السقف انهالت الشتائم وصيحات التعجب والكلمات القارصة، فنظر باقل إلى الناس، وبدا كأنه يبحث عن شيء بعينه الكبيرتين:

- وفد!

- سيزوف!

- فلاسوف!

- رييين! إن له أسناناً حادة...

وسمعت بغتة صيحات تعجب خافتة بين الحشد:

- إنه آت بمحض إرادته!

- المدير!

وأفسح الجمع الطريق لرجل فارح الطول ذي لحية مدبية ووجه مستطيل.

فقال وهو يبعد العمال عن طريقه بحركة بسيطة بحيث لا يمسهم:

- اسمحوا لي...

كانت عيناه تتقلصان، وكان يبحث في وجوه العمال بنظرة السيد المتفرس. رفع الناس قبعاتهم وانحنوا، ولكنه استمر يشق طريقه إلى

الأمام، دون أن يرد على انحناءاتهم، يزرع الصمت والوجل بين الناس الذين كانوا يبتسمون في حرج، فتبدر عنهم كلمات تعجب خافتة، تعبر عن توبة أطفال اكتشفوا وهم يأتون إثماً.

ومر بالأم، ومرت عيناه القاسية على وجهها، ثم توقف أمام الكومة ومد أحدهم يده ليساعده، ولكنه تجاهلها، وبحركة قوية تسلق الكومة ووقف أمام بافل وسيزوف:

- ما نوع هذا الاجتماع؟ لم توقفتُم عن العمل؟

فخيم صمت لعدة ثوان، وتمايلت رؤوس الناس كسنابل القمح، ولوح سيزوف بقبعته، وهز كتفيه، ونكس رأسه، فصاح المدير:

- أجيئوا عن سؤالي.

تقدم بافل منه، وقال بصوت عال مشيراً إلى سيزوف وريبين:

- لقد اختارنا رفاقنا نحن الثلاثة لنطالبك بإلغاء أمرك بشأن خصم الكوبيك.

فسأل المدير دون أن ينظر إلى بافل:

- ولماذا؟

قال بافل بصوت عال:

- لأننا نعتبر هذا الخصم غير عادل.

- إنكم تعتقدون أن عزمي على ردم المستنقع أملتُه رغبة استغلال

العمال، بدلاً من تحسين أحوال معيشتهم؟ أذلك هو الأمر؟

أجاب بافل:

- نعم.

فسأل المدير ملتفتاً إلى ريبين:

- وأنت أيضاً؟

- كلنا نفكر ذلك.

فالتفت إلى سيزوف وقال:

- وأنت أيها الرجل الطيب؟

- وأنا أيضاً. إننا نريد أن نحفظ بالكوييكات.

ونكس سيزوف رأسه مرة أخرى وابتسم ابتسامة مذنب.

وغمر المدير الجمع بعينه ببطء وهز كتفيه، ثم التفت إلى بافل ونظر

إليه بتمعن:

- يبدو أنك شخص ذو ثقافة ما... هل من الممكن أنك أنت أيضاً لا

تدرك فوائد هذا الإجراء؟

فأجاب بافل بصوت يسمعه الجميع:

- إذا ردم المصنع المستنقع على حسابه، فإن أي شخص يستطيع أن

يدرك الفوائد.

فقال المدير بجفاء:

- إن المصنع ليس جمعية خيرية، إنني أمركم أن تعودوا إلى أعمالكم.

أخذ ينزل، وهو يتحسس الحديد باهتمام في قدمه دون أن ينظر إلى أحد.

وارتفعت همهمة عدم رضى من الجميع، فسأل المدير متوقفاً حيث كان:

- ما الأمر؟

فقطع الصمت صوت بعيد:

اذهب واعمل بنفسك.

قال المدير بتأكيد مقتضب:

- إذا لم تعودوا إلى أعمالكم في ظرف خمس عشرة دقيقة فسأمر بتغريمكم.

وعاد ثانياً يشق طريقه بين الجموع. ولكن هديرًا بليدًا تعالى بينما كان يتراجع، وكلما ابتعد تعالى الهدير.

- حاول أن تكلمه.

- ها هي عدالتك! يا لها من حياة!

ثم التفتوا إلى بافل وصاحوا:

- ما المفروض أن نفعله أيها الأستاذ؟

- لقد ألقىت خطبة رائعة، ولكنها لم تجد شيئاً حين لاح وجه المدير!

- هيا يا فلاسوف قل لنا ماذا نعمل.

- أقترح أن نتخلى عن العمل حتى يعد بوقف خصم الكوبيكات أيها الرفاق.

وتناثرت الكلمات بهياج:

- هل تعتقد أننا جماعة من المجانين؟
- إن ذلك يعني الإضراب!
- أمن أجل حفنة من الكوييكات الضئيلة؟
- ما الخطأ في الإضراب؟
- سنطرد جميعًا.
- من الذي سيعمل له؟
- سيجد الكثيرون.
- تعني مكرهين؟

- ١٣ -

نزل بافل ووقف بجانب أمه.

وتهيج الجمع: كل واحد يناقش ويصيح في هياج!

وقال ريبيّن مقترّبًا من بافل:

- لن تفلح في حملهم على الإضراب. إنهم جشعون، ولكنهم جبناء،
لن يؤيدك أكثر من ثلاثمائة؛ فهم كومة كبيرة من السماد لا تستطيع رفعها
مرة واحدة على المذراة...

كان بافل صامتًا، ووجه الحشد الأسود الكبير يتمايل أمامه، يبحث في
عينيه مطالبًا بإصرار، فدق قلبه في فزع، وبدا له أن كلماته اختفت دون أن
تترك أثرًا، كقطرات منفردة من المطر تقع على أرض جافة.

عاد إلى البيت منهكًا مطأطأ الرأس، وأمه وسيزوف يسيران خلفه،

بينما كان ريبين يسير بجانبه ويطن في أذنه:

- إنك تخطب بمهارة، ولكنك لا تلمس شغاف القلوب! ذلك هو الأمر! يجب أن تتوجه إلى قلوبهم، تلقي بالشرارة في الوسط نفسه. إنك لا تستطيع إقناع الناس بالحديث إلى عقولهم.

إن الحذاء لا يلائم القدم... إنه مشدود جدًا! ضيق جدًا!

وكان سيزوف يقول:

- لقد حان الوقت لأن نشق طريقنا نحن الشيوخ إلى المقبرة يا بيلاجيا، فإن نوعًا جديدًا من الناس ينمو، كيف عشنا أنت وأنا؟ نزحف على ركبتنا ونضرب رؤوسنا بالأرض وننحني لمن هو أفضل منا. لكني الآن... لست أدري، ربما عاد الناس إلى عقولهم، أو ربما يرتكبون خطأ أفحش، ولكن على الأقل، إنهم ليسوا مثلنا، فخذي الشبان... إنهم يتكلمون إلى المدير كأنهم أنداد له... حسنًا، سأراك فيما بعد يا بافل ميخائيلوفيتش. إن الأسلوب الذي تدافع به عن الناس شيء طيب أيها الشاب، فليساعدك الرب. ربما ستجد منفذًا من هذا كله؛ ليباركك الله.

وسار بعيدًا.

فغمغت بيلاجيا:

- اذهب ومت، ليس الناس الذين على شاكلته بآدميين... معجون فقط... شيء لتمنع به التصدع، هل لاحظت من الذي صاح مقترحًا أن تكون مندوبًا يا بافل؟ أولئك الذين نشروا الإشاعات أنك اشتراكي ومشاغب، هم أنفسهم! إنهم يفكرون في نفوسهم: «سيفصل وهذا ما

يستحق...».

فقال بافل:

- لقد فعلوا صوابًا حسب وجهة نظرهم.

- والذئاب على حق حين تمزق إخواتها إربًا.

وتجههم وجه رييين، وبدأ من صوته أنه غاضب!

- إن الناس لن تصغي لكلمات عارية- يجب أن يتألموا- يجب أن تغمس كلماتك في الدم..

هام بافل طيلة اليوم منهكًا مكتئبًا، ومنزعجًا بطريقة غريبة، عيناه ملتھتان تبدوان كأنهما تبحثان عن شيء ما، ولاحظت الأم ذلك، فسألته
بتحفظ:

- ما الأمر يا باشا؟

فقال:

- لديّ صداع!

- استلق، وسأستدعي الطبيب.

فأسرع يقول:

- كلا، لا تقلقي نفسك.

ثم أضاف بصوت خافت:

- إنني صغير جدًا وضعيف وهذه هي المشكلة! لم يصدقوني ولم يؤيدوا قضيتي، وهذا يعني أنني لم أعرف كيف أقدمها. إنني مشمئز

ومستاء من نفسي!

ودققت النظر في وجهه المتأمل، وحاولت أن تسري عنه، فقالت
بعذوبة:

- انتظر قليلاً، ما لم يفهموه اليوم سيفهمونه غداً.

فقال بانفعال:

- يجب عليهم أن يفهموا!

- حتى أنا أستطيع أن أرى أنك على حق.

فتقدم باثقل منها وقال:

- إنك أم رائعة...

ثم ابتعد، فأجفلت، كأنها طعنت بكلماته الهادئة. وضغطت يديها إلى
قلبها تنعم بلطفه، وخرجت من الغرفة.

وفي تلك الليلة حين كانت مستغرقة في النوم، وكان هو في سريره
يقراً، قدم الجنود وأخذوا يفتشون المنزل... القبو والحديقة، في غضب.
تصرف الضابط ذو الوجه الأصفر بالطريقة ذاتها التي تصرف فيها أول
مرة... بسخرية مغضبة، واجداً لذة في توجيه نكات لاذعة تنفذ إلى قلوبهم.
جلست الأم في زاوية دون أن تحيد بعينيها عن وجه ابنها، وحاول باثقل ألا
يظهر مشاعره، ولكن أصابعه انتفضت عندما ضحك الضابط، وكانت تعلم
كم كلفته المحافظة على هدوئه عندما ألقى الجندي بنكتته. ولم يكن الأمر
مخيفاً للغاية بالنسبة لها هذه المرة، كما كان عليه في المرة الأولى، فقد نما
حقدها على هؤلاء الزوار الرماديين الليليين، فاستهلك حقدتها وخوفها.

واستطاع بافل أن يهمس في أذنها:

- سيأخذونني!

فأجابت بهدوء حانية رأسها:

- أعرف ذلك.

وأدركت أنهم سيلقون به في السجن بسبب ما قاله للعمال في صباح ذلك اليوم. ولكن كل واحد منهم وافق على ما قاله، إذن لا بد أنهم سيثورون لنصرته، ولهذا فلن يجرؤوا على سجنه كثيرًا.

وأرادت أن تلقي بذراعيها حول رقبتة وتبكي، ولكن الجندي كان يقف بجانبها يراقبها بعينه الضيقتين، وكانت شفتاه وشاربه يرتعشان، وبدأ لبيلاجيا أن هذا الرجل كان ينتظر دموعها وشكواها واستعطافها، فجمعت كل قواها وأمسكت بيد ابنها وقالت ببطء وهدوء، متقطعة الأنفاس:

- وداعًا يا باشا. هل أخذت كل ما تحتاج؟

- نعم. لا تفقدي الشجاعة!

- ليرعاك الله...

وبعد أن ساقوه بعيدًا تهاوت على المقعد، وأخذت تبكي في هدوء. كانت تجلس وظهرها إلى الحائط - كما كان زوجها يجلس - يعتصرها الحزن، والألم الذي تسبب عن وعيها بأنها عاجزة، وألقت برأسها إلى الوراء، وأطلقت صرخة طويلة خافتة، صبت فيها كل آلام قلبها المكسوم، بينما كان يتسلط على مخيلتها الوجه الأصفر، كالقناع بشاريه الرفيعين، وعينه الضيقتين اللتين تومضان باللذة. تجمعت في صدرها غمامة سوداء

من المرارة والحقد على الناس الذين حرموا الأمهات من أبنائهم، لا لشيء إلا لأن الأبناء يبحثون عن العدالة.

وكان الجو باردًا والمطر يقرع النوافذ، وبدأ لها أن أشباحًا رمادية ذات سواعد طويلة ووجوهًا حمراء لا عيون فيها تتجول حول بيتها في الليل كالخفراء، فتقعقع مهاميزهم بصوت باهت. وفكرت:

- لو أنهم أخذوني أيضًا!

ودوت الصفارة تستنهض الناس إلى العمل، وبدأ صوتها خافتًا مبحوحًا وغير واثق هذا الصباح، وفتح الباب ودخل ريّين. وسأل وهو يزيل المطر عن لحيته:

- هل أخذوه؟

فأجابت متنهدة:

- نعم أخذوه، ليلعنهم الله!

فضحك ضحكة مقتضبة وقال:

- كان منتظرًا. لقد فتشوا بيتي أيضًا. تحسسوا كل شيء بأصابعهم. وتفوهوا بشتائم كثيرة، ولكن أذاهم كان قليلًا. إذن، لقد أخذوا باثل! المدير يغمز فيهب الجنود رؤوسهم بالإيجاب، وشخص آخر يذهب، إنهم يعملون مع بعضهم بعضًا بصورة رائعة، أحدهم يمسك الناس من قرونها، بينما يحلبهم الآخر إلى آخر قطرة من اللبن.

فصاحت الأم ناهضة:

- يجب أن تقفوا بجانب باثل، إن ما قام به كان من أجل الجميع!

- من الذي يجب أن يقف بجانبه؟

- الجميع.

- هم! إذن هذا هو شعورك! ولكن لن يحدث هذا على الإطلاق!

وخرج متثاقلاً ضاحكاً، وتركت كلماته، الخاوية من أي أمل، الأم أكثر بؤساً، وفكرت:

- ماذا سيحدث لو أنهم ضربوه وعذبوه...

وتخيلت جسم ابنها مليئاً بالرضوض، مغطى بالدماء، بعد أن ضربوه. قبض صقيع الخوف على قلبها، وآلمتها عيناها.

وفي ذلك اليوم لم توقد الفرن، ولم تتناول طعام العشاء، ولم تشرب حتى الشاي، بل تناولت قطعة من الخبز في ساعة متأخرة من الليل، وعندما ذهبت إلى فراشها، شعرت بأن الحياة لم تكن خاوية وموحشة بهذا الشكل من قبل، فقد تعودت في السنين القليلة الماضية، أن تعيش في ترقب دائم لشيء رائع مهم. لقد كان يحيط بها نشاط الشباب الصاخب، بينما كان وجه ابنها الجاد، الذي كان مسئولاً عن تلك الحياة الطيبة الخطيرة، دائماً أمامها. أما الآن، وقد ذهب، فإن كل شيء قد ذهب!

- ١٤ -

ومر يوم وليلة، لم يغمض لها جفن، وأشد بظاً منهما كان مرور اليوم الذي تلاهما. انتظرت حضور أحد، ولكن أحداً لم يحضر. وجاء المساء، وخيم الليل، وتنهد مطر بارد لاطماً الجدران، وصفرت الرياح عبر

المدخنة، وتحرك شيء ما تحت الأرض، وتساقطت قطرات من الماء من السقف، وبدا صوت تساقطها المزعج المختلط بصوت الساعة غريبًا. وبدا المنزل بأكمله يتميل بخفة، وجعل الأسى الأشياء كلها تبدو ميتة عديمة الفائدة. سمعت صوت طرقة على النافذة ثم أخرى، وكانت قد اعتادت على مثل هذه الطرقات فلم تعد تخفها، إلا أنها في هذه المرة أجفلت في فرح باهت، ورفعها أمل مبهم إلى قدميها، فألقت بشال على كتفيها، وفتحت الباب.

دخل صمايلوف يتبعه شخص آخر قد اختفى وجهه وراء ياقة معطفه المرفوعة، وقبعة أنزلت حتى الحاجبين.

وسألها صمايلوف، دون أن يحييها:

- هل أيقظناك؟

كان صوته على خلاف عادته، متلهفًا كثيرًا، فقالت:

- لم أكن نائمة!

ووقفت تراقبهما منتظرة.

وتنفس رفيق صمايلوف بخشونة وهو يخلع قبعته، ومد يدًا غليظة قصيرة وسألها كأنه صديق قديم:

- أهلاً يا أماء ألا تذكريني؟

فقالت بيلاجيا متعجبة فرحة:

- أهو أنت؟ إيجور إيفانوفيتش؟

فقال حانئاً رأسه المغطى بشعر طويل كشعر النبي داود:

- بعينه!

وغمرت وجهه ابتسامة، ونظرت عيناه الرماديتين إلى الأم بحنان. كان يبدو مستديرًا صغيرًا، ذارقة غليظة وذراعين قصيرين يشع وجهه ويتنفس بصوت عال، ويصخب ويدمدم شيء ما في أعماق صدره.

قالت الأم:

- ادخلا الغرفة الأخرى ريثما أرتدي ملابسني.

فقال صمايلوف بلهفة ناظرًا إليها من تحت حاجبيه:

- إننا نود أن نطلب شيئًا منك!

دخل إيجور إيثانوفيتش الغرفة المجاورة ثم قال:

- لقد خرج نيقولاي إيثانوفيتش من السجن صباح اليوم يا أماه..

فقاطعته الأم قائلة:

- لم أكن أعرف أنه كان في السجن.

- لقد بقي شهرين وأحد عشر يومًا، ورأى الأوكراني هناك، الذي يبعث إليك بتحياته، وكذلك بافل إنه يطلب منك ألا تقلقي، ويريدك أن تعرفي أن أي امرئ يختار الطريق الذي اختاره متأكد من أنه سيمنح لذة قضاء إجازات دورية في السجن، هذا ما يكفله لنا حرص رؤسائنا. والآن سأحدث عن العمل يا أماه، هل تعرفين عدد الذين اعتقلوا بالأمس؟

فقالت الأم متعجبة:

- لماذا؟ هل كان هناك أحد غير بافل؟

فقاطعها إيجور إيفانوفيتش قائلاً بهدوء:

- كان التاسع والأربعين، وقد تُلقي الإدارة القبض على عشرة آخرين
أخذين هذا الشاب مثلاً.

قال صمايلوف مكتئباً:

- نعم، وأنا أيضاً!

ولسبب ما وجدت الأم يسراً في التنفس، وومضت فكرة في رأسها:

- إنه ليس وحيداً على الأقل؟!

وعندما انتهت من ارتداء ملابسها انضمت إلى الضيوف مبتسمة
جدلة وقالت:

- لا أعتقد أنهم سيقنونهم هناك طويلاً، ما داموا قد اعتقلوا هذا العدد.

فقال إيجوز إيفانوفيتش:

- بالطبع إنهم لن يبقوهم. لو أننا نستطيع إفساد هذه الخطة عليهم،
فسيضطرون إلى التفتقر محرّكين أذناهم بين أرجلهم... ها هي النقطة:
إذا توقفنا عن توزيع المنشورات في المصنع سينتهز البوليس هذا الظرف
ويستخدمها ضد باثل وبقية الرفاق النبلاء.

فصاحت الأم في جزع:

- ماذا تقصد؟

أجاب إيجور إيفانوفيتش بهدوء:

- إنه سهل جداً. ففي بعض الأحيان حتى البوليس يستطيع أن يفكر.

فكري فيها أنت. كان بافل طليقًا، وكانت هناك صحف و منشورات. أما الآن، فبافل في السجن، ولا توجد صحف أو منشورات. النتيجة: هو الذي كان يوزع الصحف والمنشورات؛ أليس كذلك؟ وسيبدأون في اتهام الجميع. إن من عادة الجنود أن يفترسوا الناس كلهم، حتى لا يبقى سوى الفتات.

فقالت الأم بحزن:

- فهمت. يا إلهي ماذا نستطيع أن نفعل إزاء ذلك؟

فجاء صوت صمايلوف من المطبخ:

- لقد ألقوا القبض على الجميع تقريبًا، ليأخذهم الشيطان، وعلينا الآن أن ندع العمل يستمر، ليس من أجل قضيتنا فقط، بل من أجل إنقاذ رفاقنا أيضًا.

وقال إيجور في ضحكة مقتضبة:

- ليس هناك من يعمل، لدينا الكثير من المنشورات الرائعة، كلها أعددتها أنا.. إنها... ولكن إدخالها إلى المصنع يظل مشكلة لم نجد لها حلًا.

قال صمايلوف:

- لقد بدأوا في تفتيش كل واحد على أبواب الدخول.
شعرت الأم بأنهما ينتظران شيئًا منها، فسألت على عجل:
- وكيف يمكنني عمل ذلك؟
بدا صمايلوف في الباب.

- هل تعرفين البائعة المتجولة كورسونوفا يا بيلاجيا نيلوفنا؟
- أجل، وما في ذلك؟
- حديثها، فقد تصطحبك معها.
- طردت الأم الفكرة بحركة من يدها.
- أوه! كلا. إنها ثرثارة! حال ما يعرفون أنها أخذتهم مني... وأنهم خرجوا من هذا البيت.. أوه! كلا!
- ثم قالت بغتة، كأن وحيًا هبط عليها:
- أعطينها! سأقوم بذلك! سأجد طريقة ما! سأطلب من ماريا أن تأخذني مساعدة لها. يجب عليّ أن أكسب قوتي بطريقة ما. سأخذ طعام الغداء لأبيعه في المصنع، سأدبر الأمر!
- وضغطت يديها إلى صدرها، مؤكدة لهما في لهفة أنها ستدبر الأمر على أحسن وجه، دون أن تلفت النظر، ثم أضافت في حماس:
- دعوهم يروا أن يدي بافل تصل من وراء السجن، دعوهم يروا ذلك. أشرقت وجوه ثلاثتهم، وقال إيجور مبتسمًا وهو يفرك يديه:
- يالك من أم رائعة! إنك لا تقدرين روعة ذلك... ببساطة إنه مذهش.
- فقال صمايلوف فارغًا يديه أيضًا:
- إذا تم هذا فسأذهب إلى السجن مرتاحًا كما أذهب إلى الفراش.
- وصاح إيجور بصوت مبحوح:
- إنك أروع امرأة في المنطقة.

ابتسمت الأم، ووضح لها أنه إذا استمرت المنشورات تظهر في المصنع فإن الإدارة لا تستطيع لوم ابنها على ذلك، وشعرت بأنها تستطيع تأدية المهمة. ارتعشت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها من الفرح.

قال إيجور:

- حين تزور بافل في السجن قل له إن لديه أمًا رائعة.

فضحك صمايلوف وقال:

- سأكون أول من يراه.

- قل له إنني سأعمل كل شيء يجب أن يعمل.. دعه يعرف ذلك.

فسأله إيجور:

- ما الذي سيحدث لو لم يرسلوا صمايلوف إلى السجن؟

قالت:

- ليس في وسعنا حيلة.

انفجر الرجلان ضاحكين، وأنشأت هي الأخرى تضحك في خجل، وقد انحنى شيئًا ما إلى الأمام وقالت مخفضة بصرها:

- ما أصعب أن ترى الآخرين يزعمون أنفسهم من أجلك.

فقال إيجور:

- إن ذلك طبيعي، ثم لا تكتسبي وتجزعي من أجل بافل، فسيخرج من السجن أحسن حالًا. المرء يجد هناك راحة طيبة وفرصة للدراسة، فأمثالنا لا يجدون الوقت للقيام بهذا أو ذاك عندما نكون أحرارًا. لقد دخلت

السجن ثلاث مرات، وفي كل مرة حققت مكاسبًا جمة للقلب والعقل.

فقالت ناظرة إلى وجهه الصريح نظرة ودية:

- إن التنفس يكلفك الكثير.

فأجاب رافعًا إصبعه:

- إن لذلك سببًا خاصًا. حسنًا.. إذن لقد تم كل شيء على ما أعتقد

يا أماه؟ سنحضر إليك المنشورات غدًا وستدور العجلة مرة أخرى، تطحن ظلام العصور. ثلاث مرحات لحرية القول، ثلاث مرحات إلى الأم، وإلى اللقاء مرة أخرى.

وقال صمايلوف وهو يصفاحها:

- وداعًا... ليس باستطاعتي أن أقترح على أُمي شيئًا كهذا...

فقالت بيلاجيا وهي تريد أن تسري عنه:

- سيفهمون يومًا ما.

أقفلت الباب بالمفتاح بعد أن غادرا، وركعت في منتصف الغرفة، واختلطت صلواتها بصوت المطر. صلت دون كلمات، بتركيز لهفتها على الناس الذين أدخلهم بافل إلى حياتها، وبدا لها أنهم يتحركون بينها وبين الأيقونات، جميع هؤلاء الناس القريبين من بعضهم بعضًا، ولكن كلاً منهم وحيد.

وذهبت في الصباح الباكر لزيارة ماريا كورسونوفا.

حيثها البائعة الجائلة، وسخة الثياب كثيرة الضوضاء كعادتها، بعطف وسألت الأم وهي تضرب كتفها بيد قدرة:

- أوحيدة أنت؟ لا تستسلمي... خطفوه وأخذوه بعيداً، أليس كذلك؟ حسناً... ليس من شيء مخجل، كانوا في الماضي يلقون الناس في السجن بتهمة السرقة، أما الآن فإنهم يلقون بهم في السجن بتهمة المطالبة بحقوقهم. ربما لم يقل باطل ما كان يجب أن يقوله، ولكن ما فعله كان من أجل الجميع، والكل يعرف ذلك، فلا تقلقي، إن أي امرئ يستطيع تمييز الطيب من الرديء حتى وإن لم يعترف بذلك. كنت أود الحضور لرؤيتك، ولكن لم يكن لديّ متسع من الوقت، فالنهار ينقضي في الطبخ والبيع. إلا أنك سترين أنني سأموت معدمة متسولة، إن العشاق يأكلونني، إنه لأمر بشع... إنهم يسرقونني كالصراصير التي تجري وراء رغيف من الخبز. فكلما تمكنت من اقتصاد عشرة روبلات يأتي نغل ويسرقها. إنه شيء محزن أن يولد الإنسان امرأة، إنه آخر ما أتمناه لأي إنسان على وجه الأرض. تعيشين لوحده، ولم؟ وإن أتاك رجل... انتهت حياتك.

قالت بيلاجيا مقاطعة الثرثرة:

- لقد أتيت إلى هنا لأطلب منك أن تأخذيني مساعدة لك.

فسألت ماريا:

- ما الذي تقولينه؟

وهزت ماريا رأسها بالإيجاب عندما شرحت بيلاجيا قصدها، وقالت:

- طبعاً، أنذكركين كيف كنت تخبئيني من زوجي؟ وأنا الآن سأخبتك من الجوع. يجب على الجميع أن يساعدوك، فقد اعتقل ابنك من أجل المصلحة العامة. إنه فتى رائع، الكل يقول ذلك، ويشعرون بالأسف من أجله. صدقيني إن هذه الاعتقالات لن تعود بفائدة على الرؤساء... انظري

إلى ما حدث في المصنع... أحوال سيئة يا عزيزتي، إن هؤلاء الرؤساء يعتقدون أنهم إذا نهشوا عقبي المرء فسيتوقف عن الركض، ولكن النتيجة أنهم يضربون عشرة فيتهجم عليهم مائة.

وظهرت الأم، نتيجة لهذا الحديث، في المصنع ظهر اليوم التالي تحمل سلتين تحتويان على أطعمة ماريا، بينما ذهبت البائعة المتجولة نفسها لتبيع بضاعتها في السوق.

- ١٥ -

أحاط العمال بالبائعة المتجولة الجديدة في الحال، وسألوها وهم يهزون رؤوسهم موافقين:

- أبدأت في العمل يا بيلاجيا؟

وأسرع بعضهم مؤكداً لها قرب إطلاق سراح بافل، وواساها آخرون بكلمات رقيقة، وذهب البعض إلى أبعد من ذلك، فلعنوا المدير والجنود بقساوة، فوجد هذا في قلبها صدى عميقاً. وكان هناك من حذق فيها بنوع من الرضى والارتياح وغمغم إيساي غوربوف من خلال أسنانه المطبقة:

- لو كنت الحاكم لشنت ابنك، فهذا ما يستحقه جزاء تضليله الناس.

بعث هذا الوعيد الآثم فيها قشعريرة باردة سرت في عظامها فلم تجب إيساي، لكنها اكتفت بمجرد النظر إلى وجهه الصغير النمش، ثم أطرقت بعينيها متنهدة.

كان المصنع هائجاً، والعمال يتجمعون في جماعات صغيرة،

ويتهامسون فيما بينهم. ورجال الأمن القلقون يندسون في كل مكان،
والشتائم... والضحكات الصفراوية الخبيثة تسمع من كل مكان.

مر بجانبها جنديان يقودان صامويلوف، كان يسير وإحدى يديه في
جيبه والأخرى تدفع بشعره الأحمر إلى الخلف، وتبعهم حوالي مائة من
العمال يشتمون الجنديين ويسخرون منهما.

هتف أحدهم:

- أذهب في نزهة يا صامويلوف؟

وأضاف آخر:

- إنهم يكرمونا هذه الأيام، فهم يعطوننا حرسًا يرافقنا في تجوالنا.

وتبعت ذلك شتيمة بذيئة.

وصاح عامل طويل ذو عين واحدة قائلاً:

- يظهر أن إلقاء القبض على اللصوص لم يعد بالغ الأهمية، لهذا
شرعوا في القبض على الشرفاء.

وجاء صوت من الحشد:

- لو أن فيهم بعض الحياء لأمسكوهم ليلاً على أقل تقدير، ولكن ها
هم يفعلون ذلك في وضح النهار... أولاد السفاح.

وتجههم الجنديان وساروا بسرعة محاولين عدم ملاحظة أي شيء
ومتظاهرين بعدم سماع النعوت والألقاب التي كانت تنهال عليهما من كل
جانب. تقدم إليهما ثلاثة من العمال يحملون لوحًا من المعدن وصاحوا
قائلين:

- أفسح الطريق أيها الصيادان.

وهز صامويلوف رأسه للأم عندما مر بها، وقال مبتسمًا:

- ها نحن ذاهبون.

وانحنت له في صمت، لقد أثرت في قلبها تأثيرًا عميقًا رؤية هؤلاء
الفتيان الصامدين الشرفاء يمضون إلى السجن والابتسامة تعلو شفاههم،
وازدهى قلبها بعاطفة الأم وحنانها.

وأمضت بقية اليوم، عندما عادت من المصنع، مع ماريا تساعدنا
في عملها، وتستمع إلى ثرثرتها. وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة عادت
إلى بيتها البارد الخاوي الكئيب. منذ زمن طويل وهي تهيم على وجهها
بلا هدف، دون أن تعثر على السكينة التي تنشدها، وحائرة فيما تفعله
بنفسها. كانت قلقة لأن الليل قد حل وإيجور إيفانوفيتش لم يحمل إليها
المطبوعات الموعودة.

كانت ندف رمادية من ثلج الخريف تتساقط عالققة بزجاج النوافذ إلى
أن تذوب وتنزلق في صمت تاركة ورائها آثارًا ندية. فكرت في ولدها...
وقُرع الباب في حذر فأسرعت إليه وأزاحت المزلاج فدخلت ساشا. لم
تكن الأم قد رأتها منذ زمن طويل، فكان أول انطباع تركته في نفسها هو
أنها بدينة بدانة غير عادية.

فقالت وهي فرحة بقدموها، إذ إنها لن تكون وحيدة ولو لجزء بسيط
من الليل على أقل تقدير:

- مساء الخير. إني لم أرك منذ زمن طويل. هل كنت مسافرة؟

فأجابتها الفتاة باسمه:

- كلا، لقد كنت في السجن مع نيقولا إيفانوفيتش، هل تذكرينه؟

فهتفت الأم قائلة:

- أجل أذكره، لقد أخبرني إيجور إيفانوفيتش بالأمس أنهم أطلقوا سراحهم، أما أنت فلم أعلم عنك شيئاً، لم يخبرني أحد بأنك كنت هناك أيضاً، وأضافت وهي تنقل بصرها في الغرفة:

- هذا لا يهم، سوف أبدل ثيابي قبل أن يحضر إلى هنا إيجور إيفانوفيتش.

- إنك مبتلة..

- لقد أحضرت الصحف والمنشورات.

فصاحت الأم في لهفة:

- أعطيتها... أعطيتها.

ففكت الفتاة أزرار معطفها ونفضت عنها المطر... فتساقطت الأوراق كما لو كانت أوراقاً تتساقط من شجرة. وضحكت الأم وهي تلتقطها من الأرض قائلة:

- لقد تساءلت ما الذي جعلك بدينة بهذا الشكل عندما رأيته، ظننت أنك تزوجت وأنت تنتظرين مولوداً. يا إلهي ما أكثر ما أحضرت.. هل جئت إلى هنا سيراً على الأقدام؟

فقال ساشا التي عادت ثانية طويلة نحيفة:

- أجل.

ولاحظت الأم ضمور وجهها مما جعل عينيها تبدوان أكثر اتساعاً من ذي قبل، وكانت دوائر سوداء تحيط بأسفل عينيها.

قالت الأم متنهدة وهي تهز رأسها:

- لِمَ تفعلين هذا بدل أن تنالي الراحة التي تحتاجين إليها بعد خروجك مباشرة من السجن؟

فقالت الفتاة مرتجفة:

- كان لا بد لهذا العمل أن يتم. حدثيني عن باقل ميخائيلوفيتش، هل كان مضطرباً جداً عندما ألقوا عليه القبض؟

ولم تنظر ساشا إلى الأم وهي تسألها خافضة الرأس تصلح من شعرها بأصابع مرتعشة.

فأجابت الأم:

- ليس كثيراً. فهو ليس من الذين يستسلمون بسهولة.

وسألت الفتاة هامسة:

- هل هو قوي؟

فأجابت الأم:

- إنه لم يمرض في حياته قط. لكنك ترتجفين بشدة. انتظري، سأحضر لك بعض الشراب مع قليل من مربى التوت.

- هذا لطف منك غير أنه سيزعجك كثيراً، فالوقت متأخر جداً،

دعيني أهيبته بنفسي .

فقال الأم عابثة بينما راحت تشعل الساموqار :

- أتهيئنه وأنت تعبـه هـكذا؟

ودخلت ساشا أيضًا المطبخ وجلست على مقعد هناك ويـداها خلف رأسها . قالت :

- إن السجن مع ذلك ينهـك المرء . آه من ذلك الفراغ الملـعون ! لا شيء أسوأ منه أبدًا ، فأنت هناك تجلسين كالحيوان في القفـص في الوقت الذي تعرفين فيه أن هنالك الكثير من العمل ينتظر الإنجاز .

فسألت الأم :

- من الذي يمكنه أن يكافئك على كل هذا؟

ثم أردفت متنهدة تجيب بنفسها :

- لا أحد سوى الله ، لكنني أظن أنك لا تؤمنين به أيضًا؟

فردت الفتاة باختصار وبهـزة من رأسها :

- كلا .

فقال الأم في حماس :

- كيف يكون هذا؟

وأضافت في اقتناع عميق وهي تمسح غبار الفحم عن يديها بمئزرها :

- أنتم لا تفهمون حتى عقيدتكم نفسها ، كيف يمكنك أن تعيشوا مثل

هذه الحياة إن كنتم لا تؤمنون بالله؟

وفجأة تردد في مدخل البيت وقع أقدام و غمغمة خافتة، فأجفلت الأم وهبت الفتاة على أقدامها بسرعة وهمست:

- لا تفتحي الباب. إذا كانوا من البوليس فأنت لا تعرفين من أنا. لقد أخطأت البيت في الظلمة وأغمى عليّ عند عتبة الباب فخلعت عني ملابسي ووجدت المنشورات. أتفهمين؟

فأجابت الأم متأثرة بعمق:

- أيتها العزيزة المسكينة! هل أقول ذلك؟

فقالت ساشا وهي تصيخ السمع عند الباب:

- انتظري دقيقة، فقد يكون إيجور.

وفعلًا كان هو مبتلاً يلهث من التعب:

- أرى أن الساموفار موقد. لا شيء يبهجك يا أماه مثل الساموفار.

وأنت، هل وصلت إلى هنا يا ساشا؟

وتابع حديثه دون انقطاع بينما راح يخلع معطفه الثقيل وصوت تنفسه الثقيل يبلغ المطبخ:

- إن السلطات لا تحب هذه الفتاة الشابة يا أماه، وإذا جرؤ السجان على إهانتها أعلنت الإضراب عن الطعام حتى يعتذر، فهي لم تأكل مدة ثمانية أيام، لهذا كادت تفارق الحياة. ما رأيك في ذلك؟ هل رأيت قط بطناً مثل بطني.

وأمسك بطنه المتنفخة بشكل مضحك هو يدخل إلى الغرفة المجاورة، ولم يزل يتكلم حتى بعد أن أغلق الباب خلفه.

سألت الأم في دهشة:

- هل حقيقة لم تأكلي مدة ثمانية أيام؟

فأجابت ساشا ولم تنزل ترتعش من البرد:

- كان لا بد من عمل شيء لإجباره على الاعتذار.

ووجدت الأم في صرامة الفتاة ورباطة جأشها ظلًا من اللوم، وفكرت

قائلة:

- ما أروع هذه الفتاة!

ثم قالت بصوت مرتفع:

- وماذا لو مت؟

فقالت الفتاة في رقة:

- لا حيلة في ذلك، ولكنه اعتذر، وإنك لا تستطيعين أن تدعي الناس يستغلونك.

فقالت الأم في تمهل:

- هم... م..... هذا كل ما يفعله الرجال... أن يستغلونا نحن النساء طيلة حياتنا.

وقال إيجور وهو يفتح الباب:

- حسنًا لقد تخلصت من عبء حمال. هل الساموفار جاهز؟
اسمحي لي أن أدخلك.

وحمله إلى الغرفة المجاورة قائلاً بينما هو يفعل ذلك:

- كان أبي العزيز يشرب ما لا يقل عن عشرين قدحًا من الشاي في

اليوم وبفضل هذا عاش في سلام يتمتع بصحة جيدة حتى سن الثالثة والسبعين وكان وزنه حوالي ثمانين باودات^(١) ويعمل كشماس في كنيسة مدينة فوسكريسنتك.

فهتفت الأم قائلة:

- هل أنت ابن الأب إيثان؟

- أجل أنا هو. هل تعرفت بسيدي الفاضل؟

- وأنا أيضًا من فوسكريسنتك.

- من مسقط رأسي؟ وابنة من تكونين؟

- ابنة جيرانكم آل سبريجين.

- ابنة نيل الأعرج؟ إنني أعرفه جيدًا. لست أذكر كم مرة عرك أذني.

ووقفنا متقابلين يضحكان ويسألان آلاف الأسئلة، فابتسمت ساشا وهي تعد الشاي.

ونبه الأم رنين الأقداح إلى ما يحيط بها:

- أوه... أرجو المَعذرة، لقد غاب عن بالي كل شيء، إنه لشيء جميل حقًا أن يقابل المرء شخصًا من مسقط رأسه.

- بل أنا التي عليها أن تعتذر لأنني أخذت الأمور على عاتقي، لكنها الحادية عشرة الآن وأمامي طريق طويل لا بد من عبوره.

فسألت الأم مستغربة:

(١) باودات - نوع من الموازين تستعمل في روسيا - المعربان.

- إلى أين تذهبين؟ إلى المدينة؟

- نعم.

- ولكن لماذا تذهبين، إنها مظلمة وباردة، وأنت منهكة، اقضي الليل هنا، فإيجور إيفانوفيتش يستطيع أن ينام في المطبخ وأنت وأنا ننام هنا.

فقالت الفتاة ببساطة:

- كلا. يجب أن أذهب.

- لسوء الحظ يجب أن تذهب الشابة الصغيرة، إنهم هنا يعرفونها، ويجب أن لا تشاهد في الشوارع غداً.

- ولكن كيف تستطيع ذلك؟ وحدها؟

فقال إيجور وهو يرسل ضحكة قصيرة:

- نعم وحدها.

صبت الفتاة قدحاً من الشاي وملحت قطعة من الخبز الأسود وشرعت تأكل وهي ترنو إلى الأم مفكرة.

قالت بيلاجيا:

- كيف تجرؤين على ذلك؟ أنت وناشاشا؟ أنا لا أجرؤ مطلقاً، سأخاف.

فقال إيجور:

- وهي أيضاً تخاف. أنت خائفة أليس كذلك يا ساشا؟

- نعم إنني خائفة.

ونظرت الأم إليها وإلى إيجور:

- يا لكم من قوم أشداء.

وعندما شربت ساشا الشاي صافحت إيجور في صمت، ولحقت بها
الأم.

قالت ساشا:

- لو رأيت بافل ميخائيلوفتش فبلغيه تحياتي، لا تنسي أرجوك.

واستدارت فجأة بينما كانت يدها على مقبض الباب وقالت:

- هل أستطيع أن أقبلك؟

فاحتضنتها الأم في صمت ثم قبّلتها بحرارة.

فقالت الفتاة:

- شكرًا لك.

وبهزة من رأسها خرجت.

وعندما عادت الأم إلى الغرفة نظرت من النافذة بلهفة، كانت ندف من
الثلج تتساقط في الظلمة.

سأل إيجور:

- أتذكرين آل بروزورف؟

كان يجلس وساقاه منفرجتان يرتشف الشاي في صوت مرتفع ووجهه
أحمر، مندى بالعرق، تبدو عليه أمارات الارتياح.

قالت الأم مفكرة وهي تتجه صوب المائدة:

- نعم إنني أذكرهم.

وجلست ثم نظرت إلى إيجور في أسي .

- آه على ساشا تلك! كيف عساها تصل المدينة؟

فوافق إيجور قائلاً:

-ستصل متعبة. إنها لم تستفد أي شيء من السجن. لقد كانت قوية
بالإضافة إلى أنها نشأت لتحيا حياة سهلة... ويبدو أن هناك ثقباً في رثيتها.

فسألت الأم في رقة:

- من هي؟

- إنها ابنة أحد ملاك الأراضي، وأبوها خنزير كما تقول. هل علمت
أنهما كانا عازمين على الزواج يا أماه؟

- من؟

- هي وبافل. لكن شيئاً من هذا لم يحدث كما ترين. فعندما يكون هو
خارج السجن تكون هي داخله والعكس بالعكس.

فقالت الأم في صمت:

- لم أكن أعلم ذلك، وبافل لا يتحدث عن نفسه أبداً.

وأشفقت على الفتاة والتفتت إلى ضيفها وانفجرت في سخط غير
مقصود فقالت:

- لِمَ... لِمَ ترافقها إلى البيت؟

فأجاب بساطة:

- لم أستطع، فلديّ هنا في الحي أشياء عديدة، فمنذ الصباح الباكر

سأنتقل من مكان لآخر، وهذا ليس بالهين على امرئ يتنابه التعب بسرعة مثلي.

فقالت الأم وهي مشغولة بما أخبرها به إيجور:
- إنها فتاة رائعة.

وآلمها أن تفكر في معرفة ذلك من غريب بدل معرفته من ابنها، ولهذا عبست وعضت شفتيها، وهز إيجور رأسه قائلاً:

- إنها كذلك. أرى أنك تأسفين لها، ولا حكمة في هذا أبداً إذ لو بدأت تأسفين لنا نحن الثائرين سينهار قلبك، وإذا أردت الحقيقة فإن أحداً منا لا يتمتع بحياة مريحة. لقد عاد أحد رفاقي قريباً من المنفى، وعندما وصل نيجني نوفجروود كان ابنه وزوجته ينتظرانه في سمولنسك لكنه عندما وصل سمولنسك كانا في السجن بموسكو. والدور الآن دور زوجته في الذهاب إلى سيبيريا. وأنا أيضاً كانت لي زوجة، امرأة رائعة. غير أن خمس سنوات من هذه الحياة أدت بها إلى القبر.

وأفرغ قذح الشاي في جوفه جرعة واحدة، وتابع قصته فحدثها عن السنين والأشهر التي قضاها في سجنه ومنفاه. كما حدثها عن مصائب مختلفة، عن الضرب في السجن والجوع في سيبيريا. راحت الأم ترقبه وتعجب للبساطة الوداعة التي كان يروي بها قصة حياة مليئة بالعذاب والاضطهاد...

- ولكن لتحدث عن العمل الآن.

وتغيرت نبرته وبات وجهه أكثر جدية من ذي قبل، وراح يسألها

عن كيفية اعتزامها إدخال المطبوعات إلى المصنع، ودهشت لمعرفته بالتفاصيل.

وعندما فرغا من هذا الموضوع، راحا يتحدثان ثانية عن مسقط رأسيهما، وكان مازحًا في لهجته، أما هي فكانت تهيم متأملة في ماضيها الذي بدا لها أنه يشبه إلى حد بعيد مستنقعًا نمت فيه أشجار الشربين والبتولا البيضاء، وأشجار الحور المرتعشة خوفًا. كانت أشجار البتولا البيضاء تنمو في بطاء، وتسقط بعد خمس سنوات وتتحلل في التربة المتعفنة. شهدت هذه الرؤيا فأنحبس في صدرها أسى عميق ورأت أمامها مرة ثانية شبح فتاة شابة، ذات وجه جاد صارم. كانت تشق طريقها عبر ندف الثلج الرطبة، منهكة... وحيدة. وكان ابنها في السجن... لعله لم ينم بعد وإنما اضطجع هناك مفكرًا، ولكن ليس في أمه، فهناك الآن من هو أعز منها لديه واثالت أفكارها المؤلمة الممزقة تغلف روحها بالظلمة.

وقال إيجور باسمًا:

- أنت متعبة يا أماء... هيا بنا إلى الفراش.

وألقت تحية المساء وانسلت بحذر إلى المطبخ، تفعم قلبها مراة محرقة.

وفي صباح اليوم التالي قال إيجور وهما يتناولان طعام الإفطار:

- إذا ألقوا عليك القبض وسألوك من أين أتيت بهذه المنشورات الإلحادية، فماذا ستقولين؟

أجابت:

- سأقول لهم ليس هذا من شأنكم.

فاعترض إيجور قائلاً:

- أخشى أن لا يوافقوك على هذا، فهم جد واثقين أن ذلك من شأنهم وسيظلون يسألونك طويلاً وبإصرار.

- لكنني لن أخبرهم.

- سيلقون بك في السجن.

فقالت وهي تتنهد:

- وهل في هذا غضاضة. شكراً لله على أن هنالك عملاً أصلح لتأديته.
من الذي يحتاج إليّ؟ لا أحد. وأنا لا أعتقد أنهم سيعذبونني. يقولون...

فقال إيجور ناظراً إليها باهتمام:

- هم... م... كلا إنهم لن يعذبوك، ولكن يجب على الناس الطيبين أن يتفادوا ذلك.

فأجابت الأم وهي تطلق ضحكة قصيرة:

- ما أطفك وأنت تقول هذا.

وذرع إيجور الغرفة دون أن يجيب، وبعد ذلك ذهب إليها وقال:

- إنه عمل شاق ما أقساه، أنا أعلم كم هو صعب عليك.

فردت وهي تلوح بيدها:

- إنه شاق بالنسبة لكل الناس. وقد يكون أسهل على الذين يفهمون،
وأنا أيضاً بدأت أفهم الذي يحاول الناس الطيبون أن يفعلوه.

فأجاب في جد ظاهر:

- إن كنت تفهمين ذلك فكل الناس في حاجة إليك يا أماء... كل الناس...

فنظرت إليه وابتسمت.

وعند الظهيرة استعدت للذهاب إلى المصنع بعد أن حشت ثيابها بالمنشورات باحتراس دفع إيجور لأن يطرق لسانه راضيًا وهو يفحصها:
- جيد جدًا كما يقول الألمان الطيبون بعد برمبل الجعة الأول.
إن المنشورات لم تغير منك شيئًا يا أماء، فما زلت نفس المرأة الريفية المتوسطة السن، فارعة الطول، تميلين إلى السمثة. فلتبارك الآلهة المتعددة بدايتك المتواضعة.

وبعد نصف ساعة كانت تقف على أبواب المصنع هادئة واثقة منحنية تحت ثقل سلالها. كان حارسان يمران بأيديهما في خشونة على كل من يعبر الساحة، تلاحقهما لعنات ضحايتهما وسخرية العمال، ووقف في أحد الزوايا جندي ورجل طويل الساقين أحمر الوجه ذو عينين صغيرتين سريعتي الحركة. نقلت الأم حملها من كتف لآخر وراقبت طويل الساقين من تحت حاجبيها فقد أحست أنه جاسوس.

قال عامل طويل أجعد الشعر للحارسين اللذين كانا يفتشان ثيابه:

- عليكم أن تفتشوا رؤوسنا وليس جيوبنا أيها الشياطين.

فأجاب أحد الحارسين:

- لا شيء في رؤوسكم سوى القمل.

فرد العامل الإهانة بقوله:

- إذن اتبعوا القمل، واتركونا وشأننا.

وحدجه الجاسوس بنظرة خاطفة ثم بصق في اشمئزاز.

قالت الأم:

- اسمحالي بالدخول، ألا تريان ظهري على وشك أن ينقصف تحت هذا الحمل! فصاح الحارس في نزق:

- امضي. فأنت تريدين أن تقولي ما عندك، أليس كذلك؟

وعندما وصلت الأم مكانها أنزلت سلالها على الأرض ومسحت العرق المتصبب على وجهها ثم نظرت حولها.

وجاء إليها الأخوان جوسيف، وكلاهما ميكانيكي، فسأل فاسيلي الأخ الأكبر في عبوس:

- أليديك شيء من الفطائر؟

فأجابت:

- سيكون لدي بعضها في الغداة.

وكانت هذه كلمة السر، فأشرق وجه الأخوين وانفجر إيثان قائلاً:

- آه ما أطيبك يا أماه...

وانحنى فاسيلي ليلقي نظرة على السلة وفي هذه اللحظة وجدت رزمة من المنشورات طريقها إلى صدر معطفه.

قال في صوت مرتفع:

- لسنا ذاهبين إلى البيت يا إيثان. وسنشترى غداءنا من هنا.

وبينما هو يتكلم دس في حذائه الطويل رزمة أخرى وقال:

- علينا أن نشجع البائعة المتجولة الجديدة.

فقال إيثان ضاحكًا:

- بالتأكيد.

ونظرت الأم حولها في حذر ونادت:

- حساء... معكرونة ساخنة.

وخلصة راحت تخرج المنشورات رزمة بعد رزمة وتناولها للأخوين،

وكلما تركت يدها رزمة ومض في ذهنها وجه الضابط الأصفر كومض

عود الثقباب. فتحدث نفسها في رضى:

- هيا خذ هذه أيها الشاب اللطيف وهذه... وهذه...

وجاء إليها العمال يحملون الأوعية في أيديهم. وكلما اقترب أحدهم

راح إيثان جوسيف يضحك عاليًا فتمتنع الأم في هدوء عن إعطائه

المنشورات وتلفت إلى معكرونتها.

ضحك الأخوان قائلين:

- إنك بارعة يا بيلاجيا نيلو فثنا.

فقال وقاد كان يقف قريبًا منهما في غضب:

- إن الحاجة هي التي دفعتها إلى ذلك. لقد سلبوها كاسب قوتها..

إنهم أولاد سفاحين. هيا أعطني معكرونة بثلاثة كوييكات، لا بأس أيتها

الأم فستدبرين أمرك بطريقة ما.

فأجابت مبتسمة:

- شكرًا لكلماتك الرقيقة.

فغمغم وهو يتعد:

- إن قول القليل من الكلمات الرقيقة لا يكلف شيئًا.

ونادت الأم:

- حساء ساخن... معكرونة... عصيدة.

وظلت تفكر كيف عساها تخبر ابنها عن تجربتها الأولى في حمل المنشورات. ومن خلف أفكارها كان يلوح وجه الضابط الأصفر مشدوًهاً غاضباً، وشاربه الأسود يهتز في اضطراب، وأسنانه المطبقة تلمع بيضاء من تحت شفته الملتوية. غردت السعادة في قلبها كما يغرد الطير، فقوست حاجبيها وظلت تقول في نفسها وهي تتابع عملها:

- هيا خذ هذه أيضاً...

- ١٦ -

سمعت ذاك المساء، فيما هي تتناول الشاي، وقع أقدام تخبص في الوحل، ثم صوتاً مألوفاً لديها، فهبت واقفة واندفعت عبر المطبخ إلى الباب، وتردد وقع خطوات سريعة في مدخل البيت، فاسود كل شيء أمام ناظريها، وفتحت الباب في عنف ثم استندت على صفحته كيلا تسقط موهنة.

وجاء إليها صوت مألوف:

- مساء الخير، يا نينكو.

ثم طوقت كتفها ذراعان طويلتان مخيفتان.

وأحست بخيبة أمل ثم بفرحة غامرة لرؤية أندري، واندماج الإحساسان في عاطفة واحدة ضخمة ملتزمة، اكتسحتها في موجة دافئة رافعة إياها حتى وقعت ووجهها على كتف أندري، فاحتضنها بذراعين مرتجفين... وبكت الأم في صمت بينما راح يتحسس شعرها قائلاً بصوت له في أذنيها وقع موسيقي:

- لا تبكي يا نينكو، لا ترهقي قلبك، إنهم سيطلقون سراحه قريباً بكل تأكيد، فهم لا يستطيعون أن يمسكوا عليه شيئاً، والرفاق كلهم يلودون بالصمت كالسمك المسلوق.

قاد الأم وذراعه تحيط بكتفها إلى الغرفة الأخرى، فعانقته بشدة مرتشفة بشراة كل كلمة من كلماته، بينما راحت تمسح الدموع من عينيها بحركات سريعة حركات السحاب:

- بافل يبعث إليك بتحياته، إنه على خير ما يرام فهو في صحة جيدة وسعادة غامرة. إن المكان هنالك مزدحم، فلقد اعتقلوا أكثر من مائة شخص من المدينة ومن حيناً كذلك وحشروهم كل ثلاثة أو أربعة في زنزانة واحدة، أما رؤساء السجن فطيون ومنهكون من الأعمال كلها التي يعهدون أولئك الجنود الشياطين بها إليهم. والرؤساء ليسوا بصارمين، فهم يقولون دائماً: «الزموا الهدوء أيها السادة كيلا تورطونا في متاعب»، وكل شيء يسير سيراً حسناً فالرفاق يتحدثون معاً، ويعيرون الكتب بعضهم

بعضاً، كما أنهم يتقاسمون غذائهم. إنه لسجن ظريف، قديم وقذر، ولكنه خفيف على المرء. أما عدد المساجين المجرمين فلا بأس به أيضاً، وهم يساعدوننا كثيراً. لقد أفرج عني وعن بوكين وعن أربعة آخرين وسيجيء دور بافل في القريب العاجل. وسيكون فيزوفشيكوف الأخير بعد أن أثار حنقهم عليه بفظاظته في معاملتهم، والجنود لا يحتملون رؤيته ولسوف يقدمونه للمحاكمة أو يضربونه في يوم من الأيام. إن بافل يطلب منه دائماً أن يمتنع عن هذا العمل، ويقول له إن شتائمه لن تصلح من حالهم على الإطلاق، ولكنه يصرخ قائلاً: «سوف أكوّسهم عن الأرض كالقشرة عن القرحة» أما بافل فذو سلوك حسن. إنه صلب دائماً ورزين، وإني واثق من أنهم سيفرجون عنه في القريب.

فرددت الأم بابتسامة حنونة:

- في القريب.... إني واثقة من أن ذلك سيكون قريباً.

- إذن فكل شيء على ما يرام. والآن ناوليني قدحاً من الشاي ثم أخبريني كيف كنت تدبرين أمرك.

ورآها تبتسم برقة وعدوبة ووميض من الحب يضيء عينيها المظللتين بالحنن.

وتنهدت وهي تتفحص وجهه النحيل الذي اتسع بغابات سوداء من شعر لحيته:

- إنني مغرمة بك جداً، يا أندروشا.

فقال وهو يتأرجح على كرسيه إلى الأمام والخلف:

- إن القليل ... القليل سيكون كافيًا لإسعادي، أنا أعلم أنك مغرمة بي، فإن قلبك كبير جدًا لدرجة أنه يتسع لحب كل الناس.

فقالت بإصرار:

- لكنني أحبك بشكل خاص، فلو كان لك أم لحسدها كل الناس لأن لها مثل هذا الابن.

فقال الأوكراني:

- إن لي أمًا في مكان ما.

فهتفت:

- خمن ماذا عملت اليوم!

واستطردت تروي، في وصف مثير، كيف أدخلت المنشورات إلى المصنع منمقة الحكاية بحماسها، ففتح عينيه في البداية دهشًا ثم انفجر ضاحكًا وصاح:

- أو... هو... هذا شيء لا يستهان به... إنها مساعدة حقيقية. ألن يكون بافل سعيدًا؟ إنه عمل مدهش لبافل ولكل شخص آخر يا نينكو.

واهتز جسده إلى الخلف وإلى الأمام ثم طقطق أصابعه وصفر في حماس، متألقًا بالفرح ومبدئيًا ترحيبًا كاملاً قويًا لما تقوله الأم.

- يا لك يا أندروشا المبارك. إنني عندما أفكر في حياتي الخاصة.. أوه يا يسوع الرحيم! من أجل ماذا عشت... للكدح.. وللضرب، لا أرى أحدًا سوى زوجي ولا أعرف شيئًا سوى الخوف. إنني لم ألحظ حتى كيف شب بافل وأنا لا أعلم إن كنت قد أحبيته أم لا عندما كان زوجي حيًا. فلقد

كانت كل همومي وأفكاري تدور حول شيء واحد هو أن أحشو بطني بالطعام وأن أبهجه بدون تلكؤ كيلا يغضب فيضربني ولكي يشفق عليّ مرة واحدة. لكنني لا أذكر أنه فعل ذلك قط. فلقد اعتاد أن يضربني كما لو كانت التي يضربها ليست زوجته وإنما شخص آخر يحقد عليه. عشت هكذا عشرين عامًا، ونسيت كيف كانت حياتي قبل أن أتزوج. فعندما أحاول ذكر شيء... قد اختفى كل شيء... لقد كان هنا إيفان إيفانوفيتش، وكلانا من نفس المدينة، لقد تكلم هو عن أشياء كثيرة، أما أنا فإني أذكر حريقاً بل حريقين، يخيل إليّ كأن كل شيء قد طرد من نفسي وأن روحي قد أغلقت بإحكام فأصبحت صماء بكماء.

وشهقت كالسمكة المخطوفة في الماء، واستطردت تقول منحنية للأمام خافضة صوتها:

- مات زوجي، فاعتنيت بابني، لكنه كان منهمكاً في العمل هذا، وكان ذلك صعب الاحتمال، فكنت أخاف كثيراً، إذ كيف يمكنني أن أعيش لو أصابه سوء. كم قاسيت من عذاب! إن قلبي يكاد ينفجر كلما فكرت فيما قد يحدث له.

وصمتت لحظة، ثم بهزة من رأسها قالت في اهتمام بالغ:

- إنه ليس حباً خالصاً، حبنا النسوي، إننا نحب ما نحتاجه لأنفسنا... لكنني عندما أنظر إليك وأنت تتألم هكذا من أجل أمك... ما هي بالنسبة لك... وكل هؤلاء الناس يتألمون من أجل الآخرين الداهيين للسجن ولسيبيريا ويموتون، وبنات صغيرات يمشين في الليل بعيداً، عبر الوحل، عبر المطر والثلج... سبعة فراسخ من المدينة لبيتنا... من يدفعهم

إلى ذلك؟ ولماذا يفعلونه؟ لأن لديهم حبًا عظيمًا خالصًا ولأن لديهم إيمان، الإيمان العميق يا أندروشا. أما بالنسبة لي فإنني لا أستطيع أن أحب مثل ذلك... إنني أحب ما هو ملكي فقط... ما هو قريب إليّ.

فقال الأوكراني ملتفتًا وقد راح يفرك رأسه وخديه وعينه في سرعة كما هي عادته:

- كلا، إنك لا تحبين ما هو قريب إليك فقط، إن كل امرئ يحب ما هو قريب إليه، ولكن الأشياء البعيدة تكون قريبة إذا كان قلب المرء كبيرًا لدرجة كافية. إنك تستطيعين عمل أشياء مهمة لأن في نفسك حبًا أموميًا عظيمًا.

- فليمنحني الله ذلك. إنني أشعر أن هذا أسلوب جيد للحياة.. إنني أحبك الآن يا أندري... ربما أكثر من باشا، فهو منطوي على نفسه. أسمع مثلاً أنه يريد أن يتزوج ساشا ولكنه لم يقل لي - أنا أمه - عن ذلك كلمة واحدة.

فاعترض الأوكراني قائلاً:

- ليس هذا صحيحًا أنا واثق أنه ليس صحيحًا، هو يحبها وهي تحبه... هذا صحيح. لكنهما لن يتزوجا أبدًا. إنها تود ذلك ولكنه هو لا يريد.

فقالت الأم مفكرة وهي تنظر إلى وجه الأوكراني:

- فهتم القضية... كذلك الناس يرفضون حتى سعادتهم.

وجاء صوت الأوكراني عذبًا خافتًا:

- باقل رجل نادر المثال... إن له إرادة حديدية.

فقالت الأم مفكرة:

- والآن... إنه يجلس في السجن. إن ذلك مرعب، ولكنه ليس كثيرًا،
فلقد اختلفت الحياة، ومخاوفي أيضًا اختلفت. إني الآن خائفة من أجل
الجميع. ولقد اختلف قلبي أيضًا لأن روحي فتحت أبواب قلبي، فهو ينظر
ويشعر بكآبة وفرح في الوقت نفسه. إن هناك كثيرًا من الأشياء لا أفهمها.
فشيء مؤلم حقًا أنكم لا تؤمنون بالرب العظيم. ولكن ما عساي فاعلة من
أجل هذا. إني أرى بحق أنكم طيبون جميعًا، فلقد اخترتم لأنفسكم من
أجل الآخرين حياة صعبة، حياة صعبة من أجل الحقيقة. ما دام ثمة أناس
أغنياء فلن يكون في استطاعة عامة الناس أن يحصلوا على أي شيء، فلا
بهجة ولا عدالة ولا شيء. والآن إذ أعيش بين ظهرائكم، أمعن النظر في
الماضي وأفكر في قوتي اليافعة التي سحقته الأقدام، وقلبي الفتى الذي
صهرته قبضة قاسية، فأرثي لنفسي وأشعر بمرارة. لكن من السهل عليّ أن
أعيش الآن وبعد فترة سيكون في استطاعتي أن أرى نفسي على حقيقتها.
ونفض الأوكراي، طويلاً نحيفاً مفكراً، وراح يذرع الغرفة محاولاً أن
لا يشير ضجة، وقال في رقة:

- إنك تعبرين عن الأشياء بشكل رائع جداً... ما أروع! لقد عاش في
كيرتش ذات يوم يهودي شاب ينظم الشعر فقال ذات يوم:
«وأولئك الأبرياء الذين تغتالهم يدي القدر
لا بد من أن تبعثهم الحقيقة إلى الحياة».

ولقد اغتالته يد القدر بواسطة البوليس في كيرتش. لكن هذا ليس
مهمًا فقد أدرك الحقيقة وبذر بذورها بين الناس... وإنك أيضًا واحدة من

هؤلاء الأبرياء.

فواصلت الأم:

- أما الآن فإني أتكلم، إنني أتكلم وأصغي لنفس كلماتي ونادراً ما أصدق أذني. لقد فكرت طيلة حياتي في شيء واحد فقط... كيف أتخلص من كل نهار جديد، وكيف أقضيه بعيدة عن الناس بحيث لا يمسنني أحد بسوء، على أنني أمتلئ الآن بالتفكير في الآخرين. وأنا مثلاً أفهم تماماً قضيتكم لكنكم جميعاً أعزاء لديّ، إنني أشعر مع كل واحد منكم، وأريدكم أن تكونوا جميعاً سعداء.. وأنت بالذات... يا أندروشا...

فجاء إليها وقال:

- شكراً لك.

وأخذ يدها في يديه وضغطها بشدة، ثم ابتعد مسرعاً فطففت الأم منهمكة بانفعالاتها تغسل الأقداح في بطاء وصمت محتضنة في قلبها فرحة وادعة.

قال الأوكراني وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً:

- قد تظهرين لقيزوفشيكوف بعض الكرب يا نينكو. إن أباه ذلك السكير العديم الفائدة... في السجن وكلما لمحّه نيقولاوي من النافذة راح يشتمه. وهذا أمر لا شك سيئ. إن نيقولاوي لطيف بطبعه فهو يحب الكلاب والفيران وكل أنواع الحيوان، لكنه يبغض الناس، فتصوري ما قد يحدث لشخص مثل هذا.

وعندما ذهب أندري لينام رسمت عليه سرّاً إشارة الصليب، وعندما

كان قد مضى عليه نصف ساعة في الفراش سألته في صوت خافت:

- أنائم أنت، يا أندروشا؟

- كلاً، لماذا؟

- طابت ليلتك.

فقال ممتناً:

- شكراً لك يا نينكو... شكراً لك.

- ١٧ -

عندما بلغت بيلاجيا أبواب المصنع، في اليوم التالي، أوقفها الحراس، وأمروها أن تضع سلالها أرضاً، وفتشوها تفتيشاً دقيقاً، فاعترضت قائلة
بينما راحت أيديهم تتحسس ثيابها في خشونة:

- سيرد كل شيء...

فصاح الحارس:

- اخرسي.

وقال حارس آخر وهو يدفعها من كتفها دفعة خفيفة:

- قلت لك إنهم رموها فوق السياج.

وعندما صارت داخل ساحة المصنع كان أول من جاء إليها سيزوف

العجوز فسألها في هدوء وهو يختلس النظر فيما حوله:

- هل سمعت يا أماه؟

- ماذا جرى؟

- تلك الأوراق لقد عادت إلى الظهور مرة أخرى، إنها منتشرة في كل مكان كالملح المنتثر على خبزك. لقد ألقوا بابن أخي مازن في السجن ولكن من أجل ماذا؟ ولقد أخذوا ابنك أيضًا... غير أن كل واحد يستطيع الآن أن يرى أن ذلك لم يكن من صنع أيديهم.
وأمسك بلحيته ونظر إليها في غير جد وقال:

- لم لا تأتين لزيارتي. لا بد أنك تشعرين بالوحشة لوحده.

فشكرته ثم راحت تنادي على بضاعتها مراقبة ضوضاء المصنع غير العادية. كان كل امرئ في هياج والعمال يتجمعون جماعات ثم يركضون من حانوت لآخر، وأحست هي بشيء جريء وشجاع في الهواء المثقل بالسناج، وكانت تسمع بين حين وآخر ملاحظات التهكم وعبارات التشجيع، والعمال الكبار يتسمون خفية، والرؤساء يمرون ونظرات القلق بادية على وجوههم، ورجال الشرطة يركضون فتتفرق جماعات العمال عندما تلمحهم أو تمتنع عن الكلام مسمرة أعينها في الوجوه الغاضبة الحانقة.

كانت وجوه العمال تبدو نظيفة مغسولة، ولمحت جوسيف الكبير الطويل القائمة مع أخيه الضاحك يتبع أعقابهم.

ومر بجانبها فاقلووف مراقب ورشة النجارة، وإيساي الموقت، وكان رأس الموقت الصغير الحجم يدور حول عنقه ليرى المراقب الضخم

وهو يثرثر هازًا لحيته الليفية باستمرار:

- قد عملوا منها نكتة يا إيفان إيفانوفيتش، ويظهر أنهم يجدون فيها لذة رغم أنها تعني دمار الدولة، كما أشار إلى ذلك المدير المحترم. إن الأرض هنا لا تحتاج إلى قلع الأعشاب فحسب بل تحتاج إلى حراثة...
كان فافيلوف يسير ويداه خلف ظهره وأصابعه متشابكة بإحكام. قال في صوت مرتفع:

- اذهبوا واطبعوا ما تشاؤون يا أبناء العاهرات ولكن لن تجرؤوا على قول كلمة واحدة عني. ثم جاء فاسيلي جوسيف إلى الأم وقال:
- أعتقد أنني سأجرب غذاؤك مرة يا أماه؛ فغذاؤك طيب.
ثم أضاف خافضًا صوته، مضيقًا عينيه:
- إنه ما نريد بالضبط. إنه عمل عظيم يا أماه.

وهزت له رأسها في ود، فلقد كانت مسرورة أن تجد هذا الشاب الذي كان يعتبر أكبر مفسد في الحي وهو يخاطبها بمثل ذلك الاحترام. كانت مسرورة أيضًا من الهيجان في المصنع وظلت تفكر «لو لم يكن يا...
وعلى مقربة منها وقف ثلاثة عمال عاديون، قال أحدهم في صوت خافت وفي نبرة أسيفة:

- لم أستطع أن أجده في أي مكان.
وقال آخر:

- أود لو أسمع ما جاء فيه. إنني لا أستطيع القراءة، لكن من الواضح أن الرمية أصابت الهدف.

فقال الثالث وهو ينظر حوله:

- فلنذهب إلى غرفة الرجل.

فنظر جوسيف إلى الأم ثم غمزها وقال:

- أترين ماذا يحدث؟

وعادت بيلاجيا إلى البيت بروح عالية فقالت لأندري:

- الناس يأسفون لأنهم لا يعرفون القراءة. لقد تعلمت القراءة وأنا صغيرة، غير أنني قد نسيتها الآن.

فاقترح الأوكراني:

- لم لا تتعلمين؟

- في مثل سني؟ لكي أجعل من نفسي سخرية؟

ولكن أندري تناول كتابًا من أحد الرفوف وأشار إلى أحد الأحرف على الغلاف سائلًا:

- ما هذا؟

فأجابت مبتسمة:

- راء.

- وهذا؟

- ألف.

كانت خجلة ومستحية، وبدا لها أن عيني أندري تضحكان عليها في الخفاء، فكانت تتحاشى نظراتهما. لكن صوته كان عذبًا ولطيفًا كما كان

وجهه جريئاً رزيناً كذلك.

فسألته وهي ترسل ضحكة مقتضبة غير مقصودة:

- أحقاً تنوي أن تعلمني يا أندروشا؟

فأجاب:

- ولمَ لا؟ فما دمت قد تعلمت القراءة فإن من السهل عليك استرجاعها، ثم لا خطر من التجربة كما يقولون.

- ولكن هناك مثل آخر يقول: إنك لا تستطيع أن تصبح قديساً بمجرد الحملقة في الأيقونات.

فقال الأوكراني بهزة من رأسه:

- هم...م.. هنالك كثير من الأمثلة. كلما قل علمك طال رقادك، على سبيل المثال، ولكنها المعدة وحدها التي تفكر هكذا. إنهم يقيدون الروح بمثل هذه الآمال حتى يسلس لهم قيادها. ما هذا الحرف؟

- لام.

- جميل. وهذا الحرف؟

وحملت ثم زوت ما بين حاجبيها محاولة استرجاع الأحرف المنسية، غافلة عن كل شيء آخر. ولكن سرعان ما أرهقت عيناها. فذرفت في البدء دموع الإجهاد ثم دموع اليأس وهمست:

- عمري أربعون عاماً ولا زلت أحاول أن أتعلم أحرف الهجاء...

فقال الأوكراني في لطف:

- لا تبكي. فأنت لا تستطيعين اختيار حياتك، ولكنك تدريكين على الأقل مدى ما كانت عليه من الفساد. إن آلاًفاً من الناس تستطيع أن تعيش أفضل مما تعيش لو أرادت هي ذلك، ولكنها تستمر في العيش كالوحوش. لا بل إنها لتظن أن تلك حقاً معيشة رائعة. اليوم يعمل المرء ويأكل، وغداً يعمل ويأكل، وتمضي كل أيام حياته وهو يعمل ويأكل فقط. ما الذي يثير الإعجاب في هذا؟ إنه ينبج بين الحين والحين أطفالاً يسألونه حتى يبدؤون في طلب الكثير من الطعام، وعندئذ يغضب فيلعنهم «عجلوا واكبروا أيها الأطفال، لقد حان الوقت لأن تعملوا» ويود لو أن يقلب أطفاله إلى حيوانات أليفة، ولكنهم يبدؤون في العمل من أجل بطونهم ما طين حياتهم كقطعة من الكعك. إن الناس الوحيدون الجديرون بلقب «إنسان» هم الذين يكرسون حياتهم من أجل تحرير عقل الإنسان. وأنت الآن أيضاً حسب ما تقدرين تعملين في سبيل ذلك.

وتنفست قائلة:

- أنا؟ ما الذي أستطيع أن أعمله؟

- لا تقولي هذا. فنحن كالمطر كل نقطة منه تروي البذور... فعندما تبدأين القراءة...

وانفجر ضاحكاً ثم نهض وطفق يذرع الغرفة:

- ببساطة، يجب أن تتعلمي. وقريباً سيعود بافل وعند ذلك، أو...

هو...

فقالت الأم:

- آه يا أندروشا. إن كل شيء يكون سهلاً وأنت صغير، ولكنك عندما تكبر تجد الهموم كثيرة، والقوة قليلة، ولا ذهن على الإطلاق.

- ١٨ -

في تلك الليلة التي غادر فيها الأوكراني المنزل أضواء الأم المصباح وشرعت ترفي بعض الجوارب. ولكن سرعان ما نهضت ومشيت في الغرفة على غير هدى، ودخلت إلى المطبخ وقفلت الباب ثم عادت وجفناها يرفان. وبعد أن أرخت الستائر على النوافذ تناولت كتاباً من على الرف ثم جلست ثانية إلى المائدة. وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذتها لم تستطع إلا أن تختلس النظر فيما حولها قبل أن تنحني على الكتاب محرقة شفيتها. وكانت تجفل مع كل صوت يجيء من الخارج وتغطي الكتاب بيديها وترهف أذنيها. ثم راحت ثانية تهمس لنفسها وهي تفتح عينيها وتغلقهما:

- ح مثل حرف... وص مثل صندوق....

وقرع أحدهم الباب فقفزت الأم قاذفة بالكتاب إلى الرف، ثم سألت في جزع:

- من بالباب؟

- أنا.

ودخل ريبين يملس لحيته وقال:

- إنك لم تتعودي على أن تسألي «من هناك»... وحدك...؟ ظننت أن

الأوكراني لا بد موجود هنا. لقد رأيته اليوم ويبدو أن السجن لم يؤذه قط.

وجلس ثم التفت نحو الأم قائلاً:

- فلنتحدث قليلاً...

ورمقها بنظرة كتومة ذات مغزى ملأتها بمخاوف غامضة ثم راح يقول

بصوته الأجش:

- كل شيء يكلف مالا. فالولادة تكلف مالا، والموت يكلف مالا

والكتب والمنشورات أيضًا تكلف مالا. فهل تعرفين من أين نأتي بثمن

هذه الكتب؟

فقالت الأم في صوت خافت وهي تشعر أن الأمور ليست على ما

يرام:

- كلا، إنني لا أعرف.

- ولا أنا أعرف. والسؤال الثاني هو: من يكتبها؟

- الناس المتعلمون...

فقال ريبين وفورة سوداء تجتاح وجهه الملتهجي:

- السادة، بكلمات أخرى السادة هم الذين يكتبون الكتب ويوزعونها.

ولكن الكتب موجهة ضد السادة، والآن حاولي فقط أن توضحلي لي ما

الحكمة من تبذير أموالهم في سبيل تأليب عامة الناس ضدهم. إيه؟

وأطلقت الأم صرخة فزع ثم طرفت بعينيها قائلة:

- ماذا تظن؟

فقال رييين وقد انقلب إلى ما يشبه الدب:

- آها! وأنا أيضًا اقشعر بدني حالما صدمتني هذه الفكرة.

- وهل وصلت إلى شيء؟

فأجاب رييين:

- لقد خُدعنا. إنني أشعر أننا قد خدعنا. ليست لديّ حقائق ولكن هنالك خدمة، هذا ما هنالك إن أسيادك خبيثون، وأنا وراء الحق، والآن عرفت الحقيقة ولن أسير مع السادة بعد اليوم فسيطرحونني أرضًا عندما يروق لهم ذلك ويمشون عليّ، كما لو كنت جسرًا.

كانت كلماته ملزمة تعصر قلب الأم، فصاحت في أسي:

- يا يسوع الحبيب! هل يمكن أن يكون باشا لا يفهم وكل هؤلاء الذين...؟ ومرت أمامها وجوه يحون، ونيقولاي إيفانوفيتش، وساشا، هذه الوجوه البريئة الشريفة، فارتفع نبضها وقالت وهي تهز رأسها:

- كلا... كلا أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك، فهم أناس ذوو ضمائر.

فسأل رييين ساهمًا:

- من تعنين؟

- جميعهم حتى آخرهم، فقد شاهدت ذلك.

فقال رييين مخفضًا رأسه:

- لست معيبة يا أمه، انظري إلى ما هو أبعد من ذلك بعض الشيء، فالذين انضموا إلينا، أنفسهم قد لا يعلمون شيئًا. إنهم يملكون الإيمان

وهذا شيء حسن ولكن آخرين قد يقفون خلفهم... أناس لا يهتمون إلا بمصلحتهم الخاصة فقط. إن المرء لا ينقلب ضد نفسه للشيء.

ثم أضاف باقتناع العامل الريفي:

- لن يأتي من السادة شيء صالح أبداً.

فقال الأم وقد تملكها الشك بها مرة أخرى:

- وماذا تفكر أن تعمل؟

- أنا!

فنظر إليها ريبين وصمت ثم قال:

- يجب الابتعاد عن السادة، ذلك ما يجب عمله.

وعاد ثانية صامتاً وكئيباً ثم قال:

- أردت أن أنضم إلى الرفاق، وأن أسير معهم فإني صالح لمثل هذه الأمور وأعرف ما أقوله للناس، غير أنني الآن ذاهب؛ فلقد فقدت الإيمان، ولهذا يجب أن أذهب.

وأطرق برأسه ثم غرق في لجة من الأفكار:

- سأذهب وحدي عبر القرى والريف أستنهض الناس، فعليهم أن يأخذوا الأمور في أيديهم الآن، وإذا ما فهموا مرة فلسوف يجدون الطريق وستكون مهمتي أن أسعدهم على الفهم. إن أملهم الوحيد في أنفسهم، فعقولهم فقط ملك لهم.

وبدأت تشفق على هذا الرجل، وتخاف من أجله، وأضحى ذلك

الذي بدا لها كريهاً، عزيزاً لديها لأمر ما.

قالت له:

- سيقبضون عليك.

فنظر إليها ريبين قائلاً:

- سيقبضون عليّ لكنهم سيخلون سبيلي بعد ذلك، وسأبدأ من جديد.

- إن الفلاحين أنفسهم سوف يمنعونك، وسوف يلقون بك في السجن.

- سأقضي مدتي وأخرج... فأبدأ من جديد. أما بالنسبة للفلاحين فسيمنعونني مرة ومرتين وثلاث ثم يدركون بعد ذلك أن الاستماع لما أقول خير من منعي. سأقول لا تصدقوني واسمعوا فقط. وإذا ما سمعوا فسيصدقوني.

كان يتكلم ببطء ويزن كل كلمة:

- لقد ابتلعت الكثير مؤخراً... وتعلمت أمراً أو أمرين.

فقالت هازة رأسها في حزن:

- ستكون هذه نهايتك يا ميخائيلو إيثانوفيتش.

فحملق فيها متسائلاً مرتقباً بعينه السوداوين العميقتين، ثم انحنى بجسمه القوي إلى الأمام، وأمسكت يده بمسند مقعده. كان وجهه الأدكن شاحباً في إطار لحيته السوداء.

- أتذكرين ما قال المسيح عن بذرة القمح؟ لا بد لها أن تموت لتولد ثانية، ولكن الموت لن يقبضني في القريب، إني ثعلب عجوز مأكراً.

وتململ في مقعده، ثم نهض في تناقل:

- سأذهب إلى الحانة، وأجلس مع الرجال بعض الوقت، فيبدو أن الأوكراني لن يأتي، هل عاد إلى عمله القديم؟

فأجابت الأم وهي تبتسم:

- حسن حديثه عني.

وسارا في المطبخ متباطئين جنباً إلى جنب يتبادلان الملاحظات دون أن يلتفت بعضهما إلى بعض.

- حسناً، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء. متى ستقدم استقالتك من المصنع؟

- لقد قدمتها.

- ومتى ستسافر؟

- غداً في الصباح الباكر. إلى اللقاء.

وانحنى ريبيّن عبر الباب متثاقلاً، وظلت الأم دقيقة من الزمن، وهي تصغي لخطواته الثقيلة والشكوك المضطربة في صدرها، ثم استدارت في هدوء ودلفت إلى الغرفة الأخرى، وأزاحت الستائر عن النافذة فإذا الظلمة حالكة.

وفكرت:

- إنني أعيش في ليل.

وأحست بالأسف لذلك الفلاح الكريم النفس، العريض المنكبين،
القوي البنية.

وعاد أندري إلى البيت مرتفع المعنويات.

وحدثته عن رييين.

فقال:

- فليطلق عبر القرى مبشراً بالعدل، ويستنهض الناس، فإن من
الصعب عليه أن يسير معنا... إن رأسه لمليء بآراء الفلاحين ولا مكان
لآرائنا فيه.

فقالت الأم في حذر:

- لقد تحدث عن السادة، وكان فيما قاله بعض الحقيقة. فاحذروا أن
يخدعوكم.

فضحك الأوكراني قائلاً:

- هل يقودنك في الطريق الخطأ... إيه يا نينكو! المال... آه! لو كنا
نملكه فقط. إننا ما زلنا نعيش على حساب الآخرين، نيقولاي إيفانوفيتش
على سبيل المثال يحصل على خمسة وسبعين روبلاً في الشهر يعطينا منها
خمسين، وهكذا الأمر مع الآخرين، ففي بعض الأحيان يرسل إلينا طلاب
الجامعة الذين يكادون يموتون جوعاً، هبة جمعوها كوبيكاً كوبيكاً.
بالطبع إن هنالك كل أصناف السادة، فبعضهم يتركك وشأنك، وبعضهم
يخدعك، ولكن أفضلهم يربطون مصيرهم بمصيرك.

وصفق بيديه ثم تابع باقتناع:

- إن انتصارنا الأخير ما زال بعيداً، ولكن مع ذلك سوف نحتفل بأول مايو احتفالاً صغيراً، وسيكون احتفالاً رائعاً.

بعثرت الحماسة الشكوك التي بذرها رييين. كان يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً يداعب شعره ويحملك في الأرفف:

- يكون قلبك أحياناً مليئاً لدرجة أنك لا تستطيعين أن تتحمليه إلا بصعوبة. ويبدو أنك إن ذهبت إلى أي مكان فالكل رفاقك. إن النار تلتهب في كل صدر من صدورهم وكلهم طيبون لطيفون ومرحون، ولا داعي للكلام كي تفاهموا. إنكم تؤلفون بعضكم مع بعض جوقة واحدة كبيرة يغني فيها كل قلب أغنيته الخاصة، وكل الأغاني كالروافد تصب في نهر واحد والنهر ينساب عريضاً طلقاً في بحر الحياة الجديدة المبتهج.

لم تتحرك الأم خشية أن تقطع عليه أفكاره وتعرض حديثه، فكانت تصغي إليه دائماً بانتباه أكثر منها إلى أي شخص آخر؛ فهو يتكلم ببساطة أكثر من الآخرين وكلماته تذهب مباشرة إلى القلب. لم يكن باثلاً يتكلم عما يرى في المستقبل قط، أما الأوكراني فكان يبدو أنه يعيش بجزء منه في المستقبل. كان عندما يتحدث يشير باستمرار إلى ذلك العيد الكبير الذي سيهبط على شعوب الأرض قاطبة. وكانت هذه الرؤيا بالنسبة للأمم هي التي أكسبت معنى للحياة، ولعمل ابنها ورفاقه أجمعين.

وتابع الأوكراني حديثه وهو يهز رأسه:

- وفجأة تعودين إلى وعيك، فتتظرين حولك... فإذا كل شيء بارد وقدّر... وإذا كل امرئ غاضب منهك...

وكان في صوته أسى:

- عليك أن لا تضعي ثقتك في الناس. إن هذا مؤلم، أنا أعلم ذلك، ولكن عليك أن تخافي منهم وحتى أن تكرميهم. فللمرء في نفسه نزعتان. وأنت تودين لو تحبين المرء كله.. ولكن أنى يتسنى لك هذا؟ إذ كيف تستطيعين أن تغفري لامرئ انقض عليك كالوحش الضاري وفشل في رؤية روحك الحية فسحق وجهك الإنساني؟ إنك لا تستطيعين غفران هذا، لا لأن لك به صلة، فأنت تستطيعين تحمل كل شيء؛ ولكن لأنك لا تستطيعين أن تذريهم يفكرون بأنك مستسلمة لذلك. إنك لا تستطيعين أن تعيرهم ظهرك ليتعلموا عليه كيف يضربون الآخرين.

كانت عيناه تلتهبان بلهيب بارد ورأسه منحنيًا في عناد... وحديثه أكثر حزنًا من ذي قبل.

- إني لا أملك أي حق لغفران أي خطأ حتى ولو لم يكن قد أصابني بسوء. فلست أعيش وحيدًا على هذه الأرض. فقد أسمح لأحدهم اليوم أن يؤذيني، وحتى قد أضحك منها لأنها لا تستحق الملاحظة، ولكنه في الغد قد يخيف غيري بعد أن جرب قوته معي. أنت لا تستطيعين أن تنظري للجميع على السواء، وإنما عليك أن تنتقي وتختاري في تمهل وروية. فهذا مثلي، هذا ليس مثلي. كل هذا صحيح ولكنه غير مريح جدًا. هل هو؟ ولكنه الحقيقة.

ولأمر ما فكرت الأم في ساشا ثم في الضابط وقالت متنهدة:

- أي صنف من الخبز عليك أن تتوقع من طحين غير منخول.

فقال الأوكراني:

- هذه هي المشكلة كلها.

فقالت الأم:

- أجل.

وبرزت في ذهنها صورة زوجها ثقيلة مكربة كصخرة مستديرة كبيرة علاها طحلب ووحل. وتخيلت كيف تضحى الأمور لو تزوج الأوكراني ناتاشا، وابنها ساشا.

وقال الأوكراني متحمسًا لموضوعه:

- ولم تكن الأشياء كذلك. إن هذا لواضح وضوح الأنف في الوجه، فسبب ذلك كله هو أن الناس غير متساوين، فلنضعهم إذن في مستوى واحد ولنقسم بينهم كل ما اكتشفه عقل وما صنعتته يد، ولنحرر الناس من عبودية الخوف والحقْد ومن قيود الجشع والغباء... وتبادلا بعد ذلك أحاديثًا كثيرة من هذا النمط.

وأعيد الأوكراني للمصنع ثانية، فصار يعطي أجره كله للأم، فتقبله منه ببساطة، تمامًا كأنها تأخذه من ابنها باثل.

وكان أندري يقول لها أحيانًا بغمزة من عينه:

- ما رأيك في أن نقرأ قليلًا، يا نينكو.

فتضحك، ولكنها ترفض بحزم، إذ كانت تؤلمها تلك الغمزة من عينيه فتفكر في نفسها:

- فيم الانزعاج ما دمت تعتبرين ذلك مزاحًا؟

ولكنها كانت تطلب منه أكثر فأكثر أن يشرح لها معنى بعض الكلمات وهي تتطلع جانباً أثناء سؤالها متظاهرة بعدم المبالاة. وظن أنها تدرس في الخفاء، فأقلع تقديرًا منه لجهداها، عن مطالبتها بالقراءة له.

قالت الأم ذات يوم:

- إن عيني تضعفان يا أندروشا وأنا في حاجة إلى نظارات.

فأجاب بقوله:

- هذا أمر سهل علاجه، فسوف آخذك ذات أحد إلى الطبيب في المدينة ونشتري لك نظارات.

- ١٩ -

ذهبت ثلاث مرات لتطلب السماح لها برؤية بافل، وفي كل مرة كان قائد البوليس، وهو رجل عجوز أشيب ذو خدين أرجوانيين وأنف ضخمة يردّها في رقة وعطف:

- عليك أن تنتظري أسبوعًا آخر على الأقل يا أماء. سنرى بعد أسبوع.. أما الآن فمستحيل.

كان مستديرًا وبدنيًا، يذكرها بحبة برقوق ناضجة ألقيت على الأرض منذ زمن طويل فاكستت بعفن ذي وبر، وكان دائمًا يحفر في أسنانه الحادة الصغيرة البيضاء بعود أصفر اللون، وكانت عيناه الصغيرتان الخضراوان تبسيمان في رقة، وكان صوته أبدًا مؤنسًا وبشوشًا.

كانت تقول للأوكراني:

- إنه مؤدب جدًا، وهو يضحك باستمرار.

فيجيب الأوكراني بقوله:

- أنا لا أشك في هذا، فهم لطيفون جميعًا، مؤدبون... ويتسمون كثيرًا. ويقال لهم: ها هو ذا شاب ذكي وشريف لكنه خطير بعض الشيء فاشنقوه إن كان ذلك لا يزعجكم، فيبتسمون ويشنقونه، وبعد ذلك يستمرون في الابتسام.

فقلت الأم:

- كان الأمر يختلف بالنسبة لذلك الذي جاء لتفتيش بيتنا، فلقد كان باستطاعتك أن ترى من أول وهلة، أي جرد هو.

- ليس بينهم إنسان، إنهم مجرد مطارق لضرب الناس، وأدوات ينحتون بها أمثالنا ليتسنى لهم التصرف بنا بسهولة، وهم أنفسهم جعلوا على هيئة ثلاثم رؤساءهم بحيث يفعلون ما يؤمرون به دونما تفكير ودون أن يسألوا عن الأسباب.

وأخيرًا سمحوا لها برؤية ابنها، فوجدت نفسها ذات أحد وهي تجلس متواضعة في إحدى زوايا مكتب السجن. كان في الغرفة الصغيرة القذرة المنخفضة السقف آخرون كثيرون ينتظرون السماح لهم برؤية المساجين. كان من الواضح أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يجيئون فيها إلى هناك؛ فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضًا، يغزلون حديثًا هادئًا لبقًا كأنه نسيج العنكبوت.

قالت امرأة بدينة ذات وجه منتفخ، وقد وضعت في حضنها حقيبة سفر:

- هل سمعتم؟ لقد اقتلع قندلفت الكاتدرائية هذا اليوم أذن أحد أفراد الجوقة في قداس الصباح الباكر.

فقال رجل مسن يرتدي بذلة ضابط متقاعد:

- كل صبيان الجوقة خبيثاء.

وكان ثمة رجل صغير الجثة أصلع، ذو ساقين قصيرتين وذراعين طويلتين وذقن نائثة يسير باستمرار حول الضابط، في عصبية، ملقياً بعض التعليقات في صوت متحشرج خشن:

- الأسعار في صعود مستمر، و... هذا يجعل الناس كريهين، فرطل لحم الخنزير من الدرجة الثانية يكلف أربعة عشر كويكاً، وارتفع الخبز حتى أصبح من جديد يساوي كوبكين ونصف الكوبيك.

كان يدخل المساجين بين الحين والحين وهم متشابهون في اللباس الرمادي والأحذية الجلدية الثقيلة، فتطرف عيونهم حالما يدخلون الغرفة الباهتة النور، وكان أحدهم مقيد الساقين بالسلاسل.

كان الجو في السجن هادئاً بشكل عجيب كما كان كل شيء يسير في بساطة كبيرة، وكان كل هؤلاء قد اعتادوا على مصيرهم واستسلموا له منذ أمد بعيد، فكان بعضهم يؤدي واجباته بصبر، وآخرون يقومون بالحراسة في تكاسل وبعضهم الآخر يأتي لزيارة المساجين في اطراد ممل. خفق قلب الأم لنفاد صبرها فراحت تتطلع فيما حولها بحيرة، مشدوهة من

بساطة كل ما يحيط بها وكآبته.

كانت تجلس إلى جوارها امرأة عجوز، صغيرة الحجم ذات وجه
قد ذوي وعينين صغيرتين، تلوي رقبتها الناحلة لتستمع إلى كل ما يدور
حولها من حديث وهي تنظر إلى كل واحد بنظرة وقحة.

سألها بيلاجيا في لطف:

- من الذي جئت لتريه؟

فأجابت العجوز:

- ابني. طالب في الجامعة.

- وأنا جئت لأرى ابني أيضًا. إنه عامل.

- ما اسمه؟

- فلا سوف.

- لم أسمع عنه قط. هل مضى عليه زمن طويل؟

- حوالي سبعة أسابيع.

فقالت المرأة العجوز وفي صوتها نبرة كبرياء:

- أوه، لقد مضى على ابني هنا قرابة عشرة شهور.

فغمغم العجوز الأصلع:

- أجل... أجل لم يبق بعد ثمة صبر. لقد غضب الجميع، فما كل

واحد يصرخ، والأسعار تستمر في الصعود، فتنخفض نتيجة لهذا قيمة
الناس ولا أحد يرفع صوته ليضع حدًا لذلك.

فقال الضابط:

- إنك على صواب، فقد بلغت الأمور ما فيه الكفاية... وحان الوقت لأن يأمرهم أحد بالصمت في صوت قوي، هذا هو ما نحتاج إليه: صوت قوي.

واشترك الجميع في الحديث الذي أصبح بذلك حامي الوطيس. كان الكل يرغب في إبداء رأيه في الحياة، فتكلموا كلهم بصوت خافت، ولم تتفق وجهة نظر الأم مع ما كانوا يقولون، فلقد كانت أحاديث البيت تختلف عن هذه كل الاختلاف، كانت أوضح وأبسط وأعلى نبرة أيضًا. ونادى اسمها أخيرًا سجان بدين ذو لحية مربعة حمراء، ثم تفحصها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها ثم قال وهو يعرج:

- اتبعيني.

وبينما هي تسير شعرت برغبة تحدوها في دفعه ليسرع الخطى. كان بافل واقفًا في غرفة صغيرة، يضحك لها وهو يمد يده، فتناولتها بضحكة مقتضبة ثم خطت بسرعة فقالت وقد أعوزها النطق:

- هالو... هالو...

فرد بافل وهو يقبض على يدها بشدة:

- هدئي روعك يا أماه.

- إني بخير.

فقال السجان متنهدًا:

- إنها أمك قبل كل شيء.

ثم أضاف متثائبًا بصوت عال:

- ولكن يحسن بكما أن تقفا متباعدين؛ لكي تكون ثمة مسافة بينكما.

ثم سألها باثل عن صحتها وعن شؤون المنزل... وكانت هي تتوقع أسئلة أخرى مختلفة، فراحت تفتش عنها في عيني ابنها. كان صلبًا كالعادة، وإن ازداد شحوبه قليلًا وبدت عيناه متسعيتين عن ذي قبل. وقالت:

- ساشا تهديك السلام.

ارتعشت جفنا باثل ورقت تقاطيع وجهه، ثم ابتسم. وشعرت الأم بألم حاد في قلبها، وسألته متألمة:

- هل تعتقد أنهم سيطلقون سراحك عن قريب؟ لماذا ألقوا القبض عليك؟ لقد ظهرت هذه المنشورات في المصنع من جديد.

ومضت عينا باثل وسأل بسرعة:

- حقًا؟

فقال السجان في صوت نائم:

- ممنوع التحدث عن هذه الأمور. إنكما تستطيعان التحدث عن الأمور العائلية فقط.

فقال الأم محتجة:

- أليست هذه أمور عائلية!

فقال الحارس دون مبالاة:

- ليس في وسعي أن أجيب على ذلك. إنها ممنوعة!

فقال باثل:

- حسنًا، حدثيني عن شؤون البيت، وماذا كنت تعملين؟

فقالت وفي عينيها وميض شقي:

- أوه! كنت آخذ كل هذه الأشياء للمصنع.

وصمتت ثم تابعت بابتسامة:

- أنت تعرف ماذا... حساء الكرنب والعصيدة، والأشياء التي تطهوها

ماريا... و... وكل تلك الأشياء.

فأدرك باثل، وتخلل شعره بيده، ثم تقلصت ملامح وجهه من جراء

ضحكة مكبوتة وقال في صوت حنون لم تعهده فيه من قبل:

- إنه لأمر رائع حقًا أن تجدي ما يشغلك... فلا وقت للوحدة.

فأعلنت في قليل من الخيلاء:

- لقد فتشوني أيضًا عندما ظهرت تلك المنشورات.

فقال السجان في نبرة غيظ:

- إنكم تعودون للموضوع ثانية، لقد قلت لكم إنه ممنوع، فهم

يحجزون المرء هنا لكي لا يعلم ما يحدث في الخارج، ومع ذلك فأنتما

تثرثران. لقد حان الوقت لتدركا الأمور الممنوعة.

فقال باثل:

- كفى يا أماء، إن لماتقي إيثانوفيتش قلبًا طيبًا ولا معنى لإغضابه،

فنحن أصدقاء. إنها محض مصادفة أن يكون هو الحارس أثناء زيارتك هذا النهار، فلقد جرت العادة أن يكون المدير المساعد.

فقال السجان وهو يتطلع إلى ساعته:

- لقد انتهى الوقت.

فقال باثلاً:

- شكراً لك يا أماء. ولا تقلقي سيفرجون عني قريباً.

واحتضنها بحرارة ثم قبلها، فتأثرت وفرحت لدرجة أنها بكت. وقال السجان للأم وهو يقودها عبر الممر:

- هيا بنا. لا تبكي سيفرجون عنه، سيفرجون عنهم جميعاً فالمكان مزدحم جداً هنا.

وعندما وصلت البيت حدثت الأوكراني عن كل هذا مبتسمة مشرقة وحاجباها يرتعشان من الفرح:

- كانت طريقتي في إفهامه رائعة. فلقد فهم... لا بد أنه فهم. وأضاف متنهدة:

- وإلا لما كان حنوناً لهذه الدرجة... إنه لم يكن كذلك قط.

وضحك الأوكراني قائلاً:

- إنك مضحكة. الناس جميعاً يريدون جميع الأشياء، ولكن كل ما تريده الأم هو الحب.

فصاحت في حيوية مباغته:

- لكنك يا أندروشا كان يجب أن ترى هؤلاء الناس، وكيف ألفوا ذلك... لقد انتزع أبنائهم منهم وألقي بهم في السجن وهم رغم هذا يتصرفون كأن شيئاً لم يحدث، فهم يجيئون ويقعدون ويبتعدون ويتحدثون عن الأخبار. إذا كان المثقفون هكذا يعتادون على مثل ذلك، فماذا ينتظر منا نحن الناس الجاهلين.

فأجاب الأوكراني بسخرية مميزة:

- إن القانون على أي حال أرحم عليهم منا، وهم كذلك خبيرون به، فإذا لطمهم فوق رؤوسهم مرة عادوا إلى طبيعتهم بعد لحظة من الزمن. فإن من الأسهل عليك دائماً تحمل أذى عشيرتك من تحمل أذى الآخرين.

- ٢٠ -

و ذات ليلة بينما كانت الأم تجلس إلى المائدة ترفي جورباً، والأوكراني يقرأ لها عن ثورة العبيد في روما القديمة، طرق أحدهم الباب في عنف، وعندما فتحه الأوكراني دخل فيزوفشيكوف ومعه لفافة تحت إبطه. كانت قبعته مدفوعة إلى مؤخرة رأسه، وساقاه ملطختين بالوحل حتى الركبتين. وقال بصوت غريب:

- لقد رأيت عندكما نوراً بينما كنت ماراً، فجئت لأحييكما. لقد جئت مباشرة من السجن.

وأخذ بيد بيلاجيا ثم هزها بحرارة وقال:

- لك من بافل أطيب التحيات.

وجلس بثاقل، ثم أجال نظرة حزينة مرتابة.

لم تكن الأم تحبه، كانت تجد شيئًا مرعبًا في رأسه الحليق المربع الشكل وفي عينيه الصغيرتين، ولكنها كانت في تلك الليلة فرحة لرؤيته، فابتسمت في حنان وهي تتحدث إليه:

- ما أشد نحولك، فلنسقه قَدْحًا من الشاي يا أندروشا.

فصاح الأوكراني من المطبخ:

- إنني أوقد الساموفار.

- حسنًا. وكيف حال بافل؟ هل أطلق سراح أحد غيرك؟

وأطرق نيقولا ي برأسه:

- إن بافل ينتظر صابرًا هناك، إنني الوحيد الذي أُخْلِيتُ سبيله.

ثم رفع عينيه إلى وجه الأم، وقال في ببطء من بين أسنانه المطبقة:

- قلت لهم لقد حصلت على ما فيه الكفاية، أطلقوا سراحني، وإذا لم تفعلوا ذلك فسأقتل أحدًا ثم أقتل نفسي أيضًا، وهكذا أدخلوا سبيلي.

فقالت الأم متراخية إلى الخلف:

- آه!

وعندما التقت نظرتها بعينيه الحادتين الضيقتين طرفت بالرغم عنها.

وصاح الأوكراني من المطبخ قائلاً:

- كيف حال فيودور مازن، أما زال يقرض الشعر؟

فقال نيقولا ي بهزة من رأسه:

- أجل. إن هذا فوق مقدرتي. ترى ماذا يظن نفسه؟ أهو طير الكناري؟
ضعه في القفص ويشرع في الغناء. لكن ثمة شيئاً أفهمه جيداً، إنني لا أريد
أن أذهب إلى البيت!

- ماذا لك في البيت لتذهب من أجله، بيت فارغ... ولا نار في
الموقد، وكل شيء بارد...

لم يقل شيئاً بل ظل ينظر إليها، وفي النهاية تناول من جيبه علبة سجائر
أشعل منها لفافة مصعداً أنه كئيبة كههممة كلب غاضب عبوس.
قال مراقباً الدخان الرمادي يتلاشى:

- أظن أن كل شيء بارد.. فهناك على الأرض صراصير متجمدة...
وفئران متجمدة أيضاً.

ثم سألها بصوت أجش دون أن ينظر إليها:

- هل تسمحين بأن أقضي ليلتي هنا يا بيلاجيا نيلوفنا.

فأسرت تعجب:

- لم لا؟ بالطبع.

وأحست بشيء من الاضطراب في حضرته:

- ما أشد ما يخجل الشباب من آبائهم هذه الأيام.

فقالت الأم مجفلة:

- ماذا؟

فنظر إليها ثم أغلق عينيه بحيث اتخذ وجهه المجردور مظهر الأعمى،

ورد متنهذا:

- قلت إن الشباب يخجلون من آبائهم. لم يخجل بافل مرة قط...
لكنني أخجل من والدي العجوز، فلن أضع قدمي في بيته مرة أخرى... فلا
أب لي ولا بيت. ولو لم أكن تحت مراقبة البوليس لذهبت إلى سيبيريا
وهناك في المنفى سأحرر الناس... وأساعدهم على الفرار.

وأخبرها قلبها الحساس أنه يتألم، ولكنها لم تحزن من أجله.

قالت لكي لا تغضبه بسكوتها:

- إذا كنت تشعر هكذا، فمن الأفضل أن تذهب.

وجاء أندري من المطبخ وضحك قائلاً:

- ماذا تقولان؟

فقالت الأم وهي تنهض:

- سأذهب لأحضر بعض الأكل.

تفرس نيقولاي في الأوكراني بعض الوقت ثم قال فجأة:

- أظن أن بعض الناس يستحقون القتل.

فسأل الأوكراني:

- أوه... لِمَ؟

- لتخلص منهم...

وقف الأوكراني في وسط الغرفة. كان طويلاً نحيفاً يتأرجح على
عقبه محدقاً في نيقولاي بينما جلس الأخير على كرسيه في بلدة محاطاً

بدخان السجائر وقد ظهرت على وجهه بقع حمراء.

- سأطيح برأس إيساي جوربوف، سترى إذا كنت سأفلح.

- لماذا؟

فقال فيزوفشيكوف ناظرًا إلى أندري بعداوة لا تعرف التسامح:

- إنه جاسوس جبان وهو الذي حطم والدي.

فصاح الأوكراني قائلاً:

- إذن فهذه هي القضية. لكن ليس سوى الأحمق يستطيع أن يلومك.

فقال نيقولا في عناد:

- إن الأذكياء والمجانين على حد سواء، فأنت وباقل مثلاً... كلاكما

ذكي ولكن هل أبدو في نظركما كفيدور مازن أو كصامويلوف، أو كما

يبدو أحدهما للآخر؟ لا تكذبا، فلن أصدقكما على أي حال إنكم جميعاً

تنحوني جانباً وتتركوني مكاني.

فقال الأوكراني في رقة ولطف وهو يجلس بجانبه:

- إن لك نفساً مريضة يا نيقولا.

- أما أنها مريضة فهذا صحيح، ولكن نفوسكم مريضة أيضاً، والفرق

هو ظنكم أن ما يؤلمكم أفضل مما يؤلمني. إننا جميعاً نعامل بعضنا بعضاً

كأبناء العاهرات. هذا هو كل ما أستطيع قوله. إننا كذلك.. ألسنا كذلك؟

انطق.

وسمر عينيه الحادثتين في وجه أندري وانتظر... ثم بانت أسنانه، ولم

تتغير ملامح وجهه المليء بالبقع وإنما ارتعشت شفتاه الغليظتان.
فأجاب الأوكراني وهو يبتسم في أسى بينما رأى نظرة فيزوفشيكوف
العدائية:

- أنا أعلم أن النقاش مع المرء يكون مؤلماً عندما تكون الجروح
تنزف في قلبه، إنني أعلم ذلك، أيها الأخ.
فغمغم نيقولاوي وهو يطرق برأسه:

- أنت وأنا لا نستطيع النقاش، إنني لا أعرف كيف....
فتابع الأوكراني قائلاً:

- يبدو لي أن كلاً منا قد سار في دربه الشائك، وأن كلاً منا قد تأوه
مثلك في ساعته السوداء.

فقال فيزوفشيكوف في ببطء:

- لا أريد أن أخبرك بشيء، ولكن روحي تنبح كالذئب الهائج. لا أود
أن أفضي إليك بشيء... لكنني أعلم أن هذا الأمر سيمضي ربما ليس
تماماً، ولكنه سيمضي على أي حال.

وأطلق ضحكة خفيفة ثم واصل الكلام وهو يربت على كتف
نيقولاوي:

- إن هذا مرض أطفال كالحصبة، يصيب كلاً منا في حين أو في آخر،
فتكون إصابة الأقوياء ضعيفة، والضعفاء أشد، وهو يقبض علينا في نفس
اللحظة التي نعرثر فيها على أنفسنا، ولكن قبل أن نكوّن صورة كاملة عن
الحياة وعن مكاننا فيها. ويخيل إليكم أنكم أجود من يمشي على الأرض

وأن كل امرئ يريد لقمة منكم. ولكن بعد لحظة ترون أن في صدور الآخرين روحًا خسيصة ليست بأقل خسة من التي لديكم، وهذا سهل الأمور. وبعد ذلك تشعرون بخجل لأنكم تسلقتم البرج بجرسكم التافه الصغير، الذي هو أصغر من أن يُسمع أثناء قرع الأجراس الأخرى، وقد اكتشفتم مع ذلك أن جرسكم إضافة لا بأس بها إلى مجموع الأجراس، حتى لو أغرقت الأجراس الكبيرة صوت جرسكم، مثلما تغرق الذبابة في وعاء مليء بالزيت، وترك وحده. هل أدركتم ماذا أحاول أن أقول؟

فقال نيقولاى بهزة من رأسه:

- قد أكون أدركت... ولكني لا أصدق شيئًا.

وقفز الأوكراني ضاحكًا ثم شرع يسير في ضجة:

- وأنا أيضًا لم أصدق في الماضي، أيها المتحجر الرأس.

- ولم تدعوني متحجر الرأس؟

- لأنك تشبه ذلك.

وفجأة راح نيقولاى يزأر ضاحكًا، وقد بدا فمه عريضًا واسعًا،

فاستوضحه الأوكراني مشدوهاً وهو ينتصب أمامه:

- ماذا دهاك؟

فأجاب نيقولاى:

- لقد كنت أتصور... كم يجب أن يكون مجنونًا ذلك المرء الذي

يحاول أن يجرح شعورك..

فهز الأوكراني كتفه:

- وكيف يمكن لأي شخص أن يجرح شعوري؟

قال فيزوفتشيكوف مبتسمًا بجذل:

- لست أدري، ولكنني أعني فقط أن المرء سيشعر بكثير من النعمة
إذا ألمك مرة أخرى.

فضحك الأوكراني قائلاً:

- إذن هذا هو الموضوع...

- أندروشا.

فخرج أندري.

وعندما ترك فيزوفتشيكوف بمفرده أجال الأخير بصره فيما حوله،
ثم مد ساقًا محشورة في حذاء خشن وفحصها باهتمام وجس بطن ساقه
الغليظة، ثم رفع يده وتفحص راحتها السمكية وظهرت أصابعه الغليظة
القصيرة، المغطاة بشعر أصفر، وبحركة من يده تدل على الاستياء، هب
واقفاً.

وعندما أحضر أندري الساموفار كان نيقولاى واقفاً أمام المرأة فقال:

- إن هذه أول مرة أنظر فيها لوجهي منذ أمد بعيد.

وأضاف بابتسامة معوجة:

- بعض القاذورات.

فسأل أندري، ناظرًا إليه في فضول:

- ماذا يهمك؟

- ساشا تقول إن الوجه يعكس الروح.

فصاح الأوكراني قائلاً:

- هراء! إن لها أنفًا كسنارة السمك، وخدين كنصل السكين ولكن
روحها الكوكب الوضاء.

فنظر إليه نيقولاي ثم ابتسم.

وجلسا يشربان الشاي.

فتناول نيقولاي قطعة كبيرة من البطاطس وملح قطعة من الخبز ثم
شرع يمضغ في بطء ومثابة كالشور.

سأل وفمه مليء بالطعام:

- كيف الحال هنا؟

وعندما قدم له أندري تقريراً مبهجاً عن مجرى دعايتهم في المصنع
عاد ثانية إلى تجهمه.

- إن هذا يستغرق زمناً طويلاً... طويلاً... أكثر من اللازم، علينا أن
نعمل بأسرع من هذا.

وثار في صدر الأم شعور بالكراهية وهي تنظر إليه.

قال أندري:

- ليست الحياة حصاناً لتساق بالسوط...

فهز نيقولاي رأسه قائلاً في عناد:

- إن هذا البعيد، وأنا لا أستطيع أن أنتظر هكذا. ماذا عساي أن أفعل.

وندت عنه إشارة بأس وهو ينظر في وجه الأوكراني منتظراً الجواب

فقال أندري مطرقاً:

- علينا جميعاً أن ندرس وأن نقوم بتعليم بعضنا بعضاً، هذا ما علينا عمله. فسأل فيزوفشيكوف:

- ومتى سنبدأ في القتال؟

فأجاب الأوكراني ضاحكاً:

- لست أدري متى سنشرع في القتال. لكنني أعلم أنهم سيضربونا قبل ذلك عددًا لا بأس به من المرات. وإنني لأرى، كما يبدو لي، أن علينا أن نسلح عقولنا قبل أيدينا.

وراح نيقولاي يأكل ثانية بينما راحت الأم تسترق النظر إلى وجهه العريض محاولة بذلك أن تتلمس ما يساعدها على تقبل ما يبدو على جسمه من ثقل وسماجة.

واصطدمت بنظرة حادة من عينيه الصغيرتين فارتجف حاجباها. كان أندري متبرماً يود أن ينطلق فجأة في الضحك والحديث ثم يكف فجأة ويشرع في التصفير.

اعتقدت الأم أنها تعرف ما يضايقه، أما نيقولاي فقد جلس متأملاً يجيب في اشمئزاز بأجوبة فظة مقتضبة لكل ما كان يقوله الأوكراني.

وبدت الغرفة الصغيرة للأم وأندري ضيقة غير مريحة وراح كل منهما يسترق النظر إلى الآخر.

وفي النهاية هب واقفاً وقال:

- أريد أن أنام، فقد كدت أصاب بالخبل لوجودي في ذلك السجن

وفجأة أطلقوا سراحي فخرجت. إنني مرهق.

واسترخى في المطبخ حيث ظل يتململ في فراشه فترة من الزمن ثم أصبح هامدًا تمامًا.

فلما سمعت الأم... لم تجد هنالك أيما صوت، ثم همست في أذن أندري:

- إنه نهب لأفكار مرعبة.

فقال الأوكراني وهو يهز رأسه:

- إنه لصعب المراس ولكن أمره سيهون، فقد كنت أنا كذلك مرة. إن النار ليسبقها دخان كثير قبل أن تضطرم جذوتها في قلبك. اذهبي إلى فراشك يا نينكو، فإني أريد أن أقرأ بعض الوقت.

فسمت إلى ركن قد اختبأ فيه أحد الأسرة، خلف ستائر من القطن، وكان في استطاعة أندري أن يسمعها وهي تنهد أثناء الصلاة. قلب صفحات كتابه بسرعة ومسح جبينه، وفتل شاربیه بأصابعه الطويلة، ونقل قدميه، ودقت الساعة، وعصفت الريح بين الأشجار.

ثم جاء صوت الأم مرددًا:

- ألا من يجبرني؟! إن في العالم أناسًا كثيرين يعصف الألم بهم. وإني لأتساءل أين يكون السعداء؟

فأجاب أندري:

- إن ثمة أناسًا سعداء يا نينكو، وقريبًا سيكون عندنا منهم الكثير...

الكثير...

انسابت الحياة مسرعة، تتلاحق أيامها مليئة بالأحداث، وكل منها يحمل جديدًا، ولكن لم يعد يثير جزع الأم أبدًا. كان يفد إلى بيتها، أكثر فأكثر، أناس مجهولون يأتون مع المساء ليتحدثوا مع أندري في نبرة قلقة خافتة، ثم يرفعون ياقات معاطفهم ويسحبون قبعاتهم فوق أعينهم ويختفون في الظلمة دونما ضوضاء. كانت تحس بالانفعال المكبوت الذي يشعر به كل منهم، إذ كانوا جميعًا، على ما يبدو، يريدون أن يغنوا أو يضحكوا لكنهم لم يكونوا يجدون لذلك متسعًا من الوقت؛ لأنهم أبدًا في عجلة. كان بعضهم جادًا ساخرًا، وبعضهم الآخر مرحًا ومشرقًا بعزم الشباب، وكان هناك الهادئون المتريثون... كانت الأم تراهم جميعًا واثقين مثابرين، وكانت وجوههم كلها، وإن كان لكل منها مظهره الفردي المحض، تبدو وكأنها ذابت في وجه واحد يشبه وجه المسيح وهو في طريقه إلى عاموس... نحيل وقوي في هدوء.. ذو عينيْن سوداوين صافيتين، ذات نظرة لطيفة وصارمة في الوقت نفسه.

كانت الأم تحصي عددهم، وهي تكتل في ذهنها حول بافل حشدًا من الناس يخفيه عن أعين العدو.

وذات يوم هبطت المدينة فتاة جريئة ذات شعر أجعد، تحمل في يديها طردًا لأندري. وبينما كانت تغادر البيت، التفتت إلى الأم، وقد ومضت عيناها المرحتان وقالت:

- وداعًا يا رفيقة.

فردت الأم وهي تداري بسمة على شفيتها:

- إلى اللقاء.

وبعد أن شيعت الفتاة، ذهبت إلى النافذة وابتسمت وهي ترقب رفيقتها هذه تهبط الشارع في خطوات قصيرة سريعة، غضة كزهرة الربيع، خفيفة كالفراشة.

وعندما غابت الفتاة عن البصر، غمغمت الأم قائلة:

- يا رفيقة! أيتها الصغيرة! ليهبك الله رفيقًا مخلصًا يرافقك طيلة حياتك.

كان ثمة شيء طفولي في أولئك الناس الذين يجيئون من المدينة يجعلها تبتسم في لطف، لكنها كانت تتأثر وتعجب في سعادة من إيمانهم الذي بات صدقه واضحًا لها أكثر فأكثر، وكانت أحلامهم في انتظار العدالة تبث الدفء في قلبها وتداعبه، غير أنها كانت، لأمر ما، تنهد في أسى كلما سمعتهم يتحدثون، وكانت تتأثر بشكل خاص لبساطتهم التامة ولعدم مبالاتهم العارمة تجاه مصالحهم الخاصة، وأصبحت تفهم الكثير مما يقولون عن الحياة، فتحس بأنهم قد اكتشفوا المنبع الحقيقي لآلام البشرية، فتوافقهم على أكثر آرائهم. لكنها لم تكن تؤمن في قرارة نفسها بأن في استطاعتهم أن يصنعوا الحياة من جديد، أو أن يلموا شعث العمال حول النار التي أوقدوها، فلقد كان كل منهم مهتمًا بملء جوفه في يومه الراهن، ولم يكن بينهم من يريد تأجيل ذلك للغد.

إن القليل من الناس هم الذين يرضون بأن يسلكوا ذلك الدرب الشائك الوعر، والقليل من الأعين هي التي تدرك الرؤيا الرائعة لمملكة الأخوة الإنسانية التي لا مفر من حيازتها في النهاية؛ ولهذا السبب بدا لها كل أولئك الناس الطيبون كالأطفال، على الرغم من لحاهم ووجوههم الناضجة التي كثيراً ما تكون منهكة.

فكرت وهي تهز رأسها:

- يا لكم من أحماء مساكين!

ولكنهم الآن يحيون جميعاً حياة مستقيمة جادة معقولة، ويتكلمون عن عمل الخير دون أن يعفوا أنفسهم جهد تعليم الآخرين ما سبق لهم هم أن تعلموه، وأدركت كيف يمكن للمرء أن يعيش حياة مثل هذه على الرغم مما يحف بها من أخطار. ثم تنهدت وهي تستعيد رؤية شريط حياتها الرفيع الأسود... قليلاً... قليلاً راح ينمو في داخلها إدراك هادئ بأنها هي نفسها مهمة لهذه الحياة الجديدة، إذ لم تكن تشعر من قبل أن أحداً يحتاج إليها. لكنها الآن ترى بوضوح أن كثيراً من الناس يحتاجون إليها، وكان هذا شعوراً جديداً مفرحاً، جعلها ترفع رأسها عالياً.

كانت تحمل المنشورات إلى المصنع بصورة منتظمة، كما لو كان واجباً عليها تأديته، واعتاد رجال المباحث على رؤيتها فصاروا يعيرونها قليلاً من الانتباه. وكثيراً ما فتشوها... لكن في اليوم التالي لظهور المنشورات، كانت تعرف كيف تثير شكوك الحراس عندما لا يكون معها أي شيء، حتى يمسكوا بها ويفتشوها، بينما تروح تجادلهم، متظاهرة بأنها أهينت، فتذهب بعد تخجيلهم فخورة بعبقريتها، وكانت تجد لذة كبرى

في هذه اللعبة.

لم يعد فيزوفشيكوف ثانية إلى المصنع، وإنما وجد عملاً لدى تاجر أخشاب يحمل الأخشاب والألواح وأخشاب النار.

وكانت تراه الأم كل يوم ماراً بحمله الثقيل: أولاً جوادان نحيلان أسودان، ترتجف أطرافهما تحت ضغط حملهما، كما يهتز رأسهما في جهد بينما تطرف عيونهما البليدة المعذبة، ومن ورائهما قطعة خشب طويلة رطبة أو كومة ألواح يصطدم بعضها ببعض في ضجيج هائل، وإلى جانب الجوادين يمشي نيقولاي ممسكاً اللجام بين يديه في تراخ عجيب، وقد دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه حيث كان يبدو الجذر المنتزع من الأرض. كان هو الآخر يؤرجح رأسه وهو يسير مطرقاً وعيناه إلى الأرض، وحصاناه يتعثران في عماء بالعربات والمارين في اتجاههم، فتوجه إليه صيحات قاسية وتحاصره شتائم غاضبة كسرب من الزنابير، وهو لا يجيب، ولا يرفع رأسه، وإنما يرسل بكل بساطة صفيراً حاداً، ويتمتم موجهاً حديثه إلى الجوادين:

- هيا بنا، أيها الحصانان!

وكان يجيء نيقولاي وينزوي في إحدى الزوايا، منصتاً لساعة أو اثنين، في كل مرة يدعو أندري فيها رفاقه ليقروا آخر عدد من جريدة أجنبية أو كتباً جديدة. كان الفتان بعد القراءة يدخلون في مناقشة حامية، لم يكن فيزوفشيكوف يسهم فيها قط، بل يبقى بعد انصراف الجميع، ويتحدث إلى أندري على انفراد.

كان يسأل في تجهم:

- من الذي يستحق اللوم أكثر من غيره؟

فيجيبه الأوكراني مازحًا وأمارات القلق بادية في عينيه:

- إن أكثر الناس ملامة هو أول من قال: هذا ملكي، وقد مات هذا الشخص قبل ألف من السنوات، فلا معنى إذن لسخطنا عليه.

- وما رأيك في الأغنياء، والذين يساعدونهم؟

كان الأوكراني يعبث بشعره ويشد شاربيه وهو يتتقى كلمات بسيطة يروي بها ما عرفه عن الحياة وعن الناس، فكان الناس كلهم، حسب رأيه، ملومين. لم يكن هذا يقنع نيقولا، فيضغط على شفثيه الغليظتين، ويهز رأسه، ويغمغم في إنكار، ثم يستأذن أخيرًا في الخروج عابسًا غير قانع.

قال ذات يوم:

- لا بد أن هناك من يستحقون اللوم! إن هؤلاء الناس يعيشون بيننا، فعلينا أن نقلب حياتنا كلها كحقل من الأعشاب الضارة دون رحمة.

فتذكرت الأم:

- هذا ما قاله عنك ذات يوم ذلك الميقاتي إيساي.

فاستوضحها فيزوفشيكوف بعد فترة صمت:

- إيساي؟

- أجل، إنه لمريع، وهو يراقب جميع الناس، ويسأل باستمرار كل أنواع الأسئلة. لقد بدأ يأتي هنا ويتلصص علينا من النافذة.

فرد نيقولا:

- يتلصص من النافذة؟!

وكانت الأم في الفراش، فلم تتمكن من رؤية وجهه، لكنها أدركت
سخف كلماتها من تسرع الأوكراني في قوله:

- فليأت ويتلصص، إن كان لديه متسع من الوقت.
فقال نيقولاى:

- لا شيء من هذا، إنه واحد ممن يقع عليهم اللوم.
فسأل الأوكراني في سرعة:

- من أجل ماذا يلام، ألكونه غيبًا؟
وخرج فيزوفشيكوف دون أن يجيب.

وراح الأوكراني يخطو في الغرفة في تمهل وقلق، مثيرًا بساقيه
العنكبوتيتين الطويلتين خشخشة. كان قد خلع حذاءه كعادته؛ لكي لا
يزعج بيلاجيا التي لم تكن نائمة، بل قالت في قلق، بعد أن غادر نيقولاى:

- إنى خائفة منه!
فغمغم الأوكراني متشدقًا بالكلمات:

- هم..م.. إنه جاد كل الجد، فلا تذكرى له إيساي ثانية يا نينكو. إن
إيساي جاسوس حقًا!
فأجابت الأم:

- ليس هذا بالغريب، فقد كان جده جنديًا!
فتابع الأوكراني في قلق:

- قد يضربه نيقولاى ذات يوم. هل ترين هذه المشاعر التي غذاها
السادة الشرفاء القائمون على السلطة فى عامة الناس، ترى ما الذى
سيحدث عندما يدرك الناس أمثال نيقولاى أنهم قد خدعوا، ولم يعد
لديهم صبر، لسوف تغرق السماء والأرض بالدماء!

فهتفت الأم قائلة فى صوت خفيض:

- يا للبشاعة يا أندروشا!

فقال أندري بعد دقيقة:

- حسنًا لا تأكلي الذباب... وإلا أصابك القيء.. لكن كل قطرة من
دماء السادة سوف تحففها محيطات من الدموع التي ذرفها بسببهم عامة
الناس.

وأطلق ضحكة خافتة مقتضبة، ثم أضاف:

- إن هذا لا يهون علينا من الأمر شيئًا ولكنه صحيح!

- ٢٢ -

عادت الأم من السوق ذات أحد، بعد أن اشترت بعض حاجاتها. ولم
تكذب تفتح الباب حتى وقفت على العتبة وقد استخفتها نشوة الفرح عندما
جاءها من الغرفة الداخلية صوت بافل القوي.

صاح الأوكراني:

- ها هي!

ورأت الأم باقل يستدير مسرعاً، ثم يشرق وجهه بنور يبشر بالخير.

فقالت متلعثمة:

- وأخيراً عاد إلى البيت!

ثم تلعثمت ذاهلة لعودته غير المنتظرة.

انحنى عليها بوجهه الشاحب، وشفته تترجفان وقد ومضت في طرف عينيه دموع. لم يقل شيئاً لفترة من الزمن، فراحت أمه تتفرسه في صمت وسكون.

تركهما الأوكراني، وخرج إلى الفناء مصفراً في رقة.

فقال باقل في صوت خفيض، وهو يشد على يدها بأصابع مرتعشة:

- شكراً لك يا أماه، شكراً لك يا أعز الناس.

وراحت تمسح شعر ابنها وقد طغى عليها الفرح لرؤية ذلك التعبير على وجهه، وسماع تلك الوداعة في صوته. حاولت أن تهدئ من خفقان قلبها المتهيج فقالت:

- يا إلهي! من أجل ماذا؟

فردد ثانية:

- من أجل مساعدتك القيمة لعملنا العظيم... شكراً لك. إنها لسعادة

نادرة أن يستطيع المرء أن يقول بأنه هو وأمّه روحان منسجمان.

كانت صامتة، تعبّ من كلماته في شغف، وتعجب من هذا الابن الذي كان يقف أمامها طيباً ومحبوباً لهذه الدرجة!

- كنت أدرك مدى صعوبة ذلك بالنسبة إليك يا أماه، وما فيه من أمور لا تحببها، وكنت أظن أنك لن تقبليها أبداً، وأن أفكارنا لن تصبح أفكاراً لك، وأنت ستستمرين تكابدين في صمت كما كابدت طيلة حياتك، وكان ذلك صعباً بالنسبة إليّ!

فقالت:

- لقد ساعدني أندروشا على فهم الكثير من الأشياء.

فضحك بافل قائلاً:

- لقد حدثني عنك!

- وإيجور أيضاً، فأنا وهو من نفس القرية، وحتى أراد أندروشا أن يعلمني القراءة.

- فكنت تخجلين، فصرت تدرسين وحدك في الخفاء!

فهتفت:

- هكذا قد عرفت إذن!

وقالت قلقة لفرط الغبطة:

- فلندعه. لقد خرج متعمداً... كي لا يضايقنا، إنه يفتقر إلى الأم الرؤوم!

نادى بافل، وهو يفتح الباب على مدخل البيت:

- أندري! أين أنت؟

- إني هنا... أريد أن أكسر بعض الخشب!

- ادخل.

لم يأت في الحال.. وعندما دخل أخيرًا إلى المطبخ، شرع يتحدث عن الأمور المنزلية.

- لا بد أن أطلب من نيقولاى أن يحضر لنا بعض الحطب، إذ لم يبق لدينا الكثير منه. لكن انظري إلى فتاكِ بافل هذا، يا نينكو، يبدو أن السادة يغذون المتمردين بدل أن يعاقبوهم.

فضحكت الأم، وكانت لا تزال مذهولة من الفرح، وقلبها يخفق بحلاوة، لكن شعورًا بالحيرة واللباقة جعلها مشتاقة لرؤية ابنها يستعيد هدوءه المعتاد. كان كل شيء رائعًا حقًا، وكانت تريد لهذه السعادة الكبيرة، الأولى في حياتها، أن تظل محفوظة في قلبها إلى الأبد، قوية وحية، كما هي الآن، وأسرعت خشية أن تتضاءل محبتها في قفص كجامع الطيور يقبض من غير توقع على عينة نادرة من الطيور.

قالت منهمكة:

- فلتتناول طعام الغداء، إذ إنني لا أعتقد أنك تناولت شيئًا من الطعام يا باشا.

- كلا فقد أخبرني الحارس أمس أنهم قرروا الإفراج عني فلم أستطع أن أكل أو أشرب شيئًا.
وتابع بافل قائلاً:

- كان سيزوف هو أول من قابلت بعد خروجي من السجن وعندما رأيته عبر الشارع واقترب ليرحب بي، نصحته أن يكون حذرًا فأنا رجل

خطر هذه الأيام - موضوع تحت مراقبة البوليس - فقال إن هذا لا يهم. وسألني عن ابن أخيه... سألني عما إذا كان فيودور يحسن سلوكه في السجن، فأجبت أنه لك أن تقوم سلوكك في السجن؟ فقال حسنًا أمل أن لا يكون قد وشى بأحد من رفاقه، وعندما قلت له إن فيودور شخص طيب وشريف وذكي، أمسك بلحيته وقال في فخر:

- ليس ثمة بيننا، نحن آل سيزوف، خونة!

فقال الأوكراني هازًا رأسه:

- إن للرجل العجوز عقلًا مدرّكًا، فكثيرًا ما تحدثت معه، إنه رجل طيب. هل سيطلقون سراح فيودور عما قريب؟

- أعتقد أنهم سيطلقون سراح الجميع، إذ ليست لديهم أي أدلة ضدهم سوى ما قاله إيساي العجوز، وما أهمية ذلك.

كانت الأم تروح وتجيء، دون أن تنقل عينها عن ابنها، وكان أندري يقف على النافذة ويداه خلف ظهره مصغيًا لما كان يقوله باثل الذي كان يذرع الغرفة، وكان قد أطلق لحيته فنمت على خديه حلقات صغيرة من الشعر الأجدد الناعم الكث ملطفة ملامح وجهه الداكنة.

قالت الأم وهي تحضر الغداء:

- اجلسا.

وأثناء الطعام حدث أندري باثل عن ريبين فهتف باثل في أسف عندما أنهى أندري حديثه:

- لو كنت في البيت لما تركته يذهب، إذ ماذا عساه يأخذ معه؟ لا شيء

سوى رأس مشوش، وكثير من الإحساسات القاسية!

فقال الأوكراني ضاحكاً:

- عندما يبلغ المرء سن الأربعين، وقد قضى أغلب هذه المدة يصارع في نفسه البذينة فلن يكون من السهل إصلاحه!

وبدأت إحدى تلك المناقشات التي كانت أغلب كلماتها عسيرة على فهم الأم. وانتهى الغداء، لكنهما استمرا يتشاحنان بكلمات رنانة، وأحياناً كانا يتكلمان ببساطة.

فقال بافل في حزم:

- علينا أن نتقدم للأمام باستمرار دون أن نتراجع خطوة واحدة للوراء.
- ونصطدم بعشرات الملايين من الناس الذين يتخذوننا أعداء لهم؟
وأدرت الأم، وهي تستمع إلى نقاشهما أن بافل لا يرى فائدة من الفلاحين، بينما يقف الأوكراني إلى جانبهم محاولاً أن يبرهن أن من حق الفلاحين أيضاً أن يطلعوا على الحقيقة. وفهمت أندري بصورة أوضح، وخيل إليها أنه لمصيب. لكن أعصابها كانت تتوتر، فتقف على أهبة الاستعداد كلما قال أندري شيئاً لبافل، تنتظر مقطوعة الأنفاس، جواب ابنها لتؤكد من أن الأوكراني لم يوجه إليه إهانة، لكنهما استمرا يتشاجران بأعلى صوتيهما دون أن يمتعضا!

وكانت تسأل ابنها في بعض الأحيان:

- هل الأمر كذلك يا بافل؟

فيجيبها بابتسامة:

- إنه لكذلك حقاً!

قال الأوكراني في تهكم ودي:

- آه أيها الرجل الطيب، لقد تناولت وجبة جيدة، ولكنك مضغت طعامك برداءة، إن هنالك شيئاً ما عالقاً في حلقك، ومن الأفضل أن تجرع قطرة...

فقال باقل:

- إنك مضحك. أأست كذلك؟

- إني لمضحك كما لو كنت في مأتم.

وضحكت الأم في رقة ثم هزت رأسها!

- ٢٣ -

أقبل الربيع، وذابت الثلوج، فكشفت عن الأوساخ والأوحال التي تحتها، وازداد ظهور الوحل يوماً بعد يوم فبدأ الحي رثاً مهملاً، كانت المياه خلال النهار تتساقط من السطوح، والرطوبة تتعصد كالعرق من جدران المنازل الرمادية. أما في الليل، فكانت البقع الجليدية المبعثرة تلمع في بياض الشمس تتباطأ في السماء، وكان باستطاعة المرء أن يسمع خرير الجداول، وهي تسرع إلى المستنقع.

كانت الاستعدادات للاحتفال بأول مايو قد بدأت، فوزعت في المصنع والحي منشورات توضح أهمية ذلك العيد، فإذا الفتيان الذين لم

يتأثروا بالدعاية من قبل يقولون وهم يقرأونها:

- ينبغي لنا أن نستعد!

فيقول فيزوفشيكوف مبتسمًا:

- لقد حان الوقت، فلقد لعبنا ما فيه الكفاية.

وكان فيودور مازن طافحًا بالحماس، يشبه القنبرة السجينة، وقد أصبح شديد النحول، يهتز أثناء حديثه في عصبية. وكان يرافقه دائمًا كوف سوموف الصامت، وهو صبي أكبر من سنه، كان يعمل في المدينة، وأصر صامويلوف وبوكين، وراجونوف وقلة آخرون على أن تكون مظاهرة مسلحة، لكن بافل والأوكراني وسموف وبعض الآخرين، رفضوا ذلك.

واختصرت مناقشاتهم بنكتة ألقاها إيجور الذي كان كعادته مبهور الأنفاس يتصبب عرقًا، قال وهو يشير إلى حذائه المبلول:

- إن جهودنا المبذولة لتغيير النظام الاجتماعي القائم نبيلة بالفعل أيها الرفاق، لكن من الضروري أن أشتري لنفسي زوجًا من الأحذية، لكي نحرز نجاحًا سريعًا؛ إذ بلغ حذائي أيضًا حالة نتحدى فيها رد الاعتبار لدرجة أن قدمي يبتلان كل يوم. وإني لا أرغب في أن أستقر في أحشاء الأرض، حتى يحين وقت التشهير بالنظام القديم علانية، وبلا هوادة. ولهذا فإني أرفض اقتراح الرفيق صامويلوف القاضي بالقيام بمظاهرة مسلحة، وأقترح بدلًا من ذلك تزويدي بزواج جديد من الأحذية لأنني أعتقد جازمًا أن مثل هذا الإجراء يعمل أكثر على التعجيل بنصر الاشتراكية، حتى من إطلاق العنان للجميع.

وبنفس اللغة المنمقة راح يروي للعمال كيف كان الناس، في البلدان الأخرى، يعملون من أجل تحسين حياتهم. وأحبت الأم أن تصغي لأحاديثه التي كانت تترك فيها شعورًا غريبًا، فيخيل إليها أن أكثر أعداء الشعب فجورًا هم أولئك الذين غالبًا ما يخدعونه ويقسون عليه: رجال صغار الحجم، بدينو الأجسام، حمر الوجوه، حقيرون، جشعون، خبيثون وقساء، عندما كانوا هم أنفسهم مضطهدين من قبل القيصر، أثاروا عامة الناس عليه، حتى إذا أسقطوا حاكمهم، استولى أولئك الرجال الصغار الحجم على السلطة بالخدعة، معيدين الناس إلى زرائبهم بالقوة، وإذا حدثتهم أنفسهم بالمقاومة قتلوا منهم الألف!

وتجرات الأم ذات يوم، فوصفت لإيجور الصورة التي رسمتها أحاديثه في مخيلتها، وسألته وهي تبتسم مرتبكة:

- أليست هي كذلك يا إيجور إيفانوفيتش؟!

فانفجر ضاحكًا وعيناه تدوران في سرعة ثم يراح يفرك صدره وهو يشهق:

- إنها كذلك تمامًا يا أماه. لقد أمسكت ثور التاريخ من قرنيه. إن فيما تقولين شيئًا من الزخرف، ولكن الحقائق جميعًا في مواضعها الصحيحة. إن أولئك الرجال الصغار البدينين، هم بالضبط أكبر الخطاة، وأكثر الطفيليات التي تعيش على الشعب سمًا. لقد أصاب الفرنسيون بتسميتهم «بورجوازيين»! تذكرني هذا يا أماه بور... جوازيين! إنهم أفضاظ، يحطمون قبضاتهم في كل أولئك الذين يستطيعون الاستفادة من جهلهم، فيمتصون دماءهم!

فسألت الأم:

- أتعني أن الأغنياء هم الذين يفعلون هذا؟

- أجل، ومصيبتهم أنهم أغنياء. إذ لو وضعت النحاس في طعام طفل،
لأوقف ذلك النمو الطبيعي لعظامه، فيصبح الطفل بذلك قزمًا. لكنك إذا
سممت شخصًا بالذهب، فإن روحه هي التي يقف نموها الطبيعي، فتصبح
صغيرة رمادية لا حياة فيها، ككسرة مصنوعة من المطاط مثل التي يشتريها
الأطفال بخمسة كوبيكات!

وذات يوم، بينما هم يتحدثون عن إيجور قال باقل:

- الواقع يا أندري أن الناس الذين يمزحون كثيرًا، غالبًا ما يقاسون
كثيرًا.

وصمت الأوكراني قبل أن يجيب ثم ضيق عينيه، وقال:

- لو كنت محققًا فيما تقول، لتوقعت أن تموت كل روسيا من
الضحك.

وظهرت ناتاشا، وكانت هي أيضًا في السجن بمدينة أخرى، لكن
التجربة، فيما يبدو، لم تغيرها على الإطلاق. وقد لاحظت الأم أن
الأوكراني أصبح أكثر حيوية في حضورها، يطلق في كل حين نكتة، ويشير
المرح طيلة الوقت. لكنه راح، بعد أن غادرت ناتاشا البيت، يصفر لحنًا
حزينًا ويذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، في تناقل واكتئاب!

كثيرًا ما كانت ساشا تأتي لمدة قصيرة جدًا عابسة مستعجلة أبدًا، وقد
أصبحت، لأمر ما أكثر حدة وفضاظة عن ذي قبل!

فذات مرة عندما خرج بافل إلى مدخل البيت ليودعها وقد نسي أن يغلق الباب خلفه، سمعت الأم حديثهما المستعجل . سألته الفتاة قائلة:

- أنت الذي سيحمل العلم؟

- أجل!!

- أهذا قرار نهائي؟

- نعم. هذا فخر لي!

- وهكذا مرة ثانية إلى السجن؟

ولم يجب بافل، فقالت:

- ألا تستطيع...

ولكنها توقفت.

- ماذا؟

- دع غيرك يفعل ذلك!

فقال في حزم:

- كلا!

- فكر في ذلك جيداً، فأنت ذو نفوذ كبير، وكل امرئ يحبك، وأنت

وأندري أكثر من رأيت شعبية. تصور كم تستطيع أن تفيد هنا. أما إذا

حملت العلم، فسيرسلونك بعيداً، إلى المنفى، ولمدة طويلة!

واستطاعت الأم أن تميز في صوت الفتاة انفعالات الخوف واللهفة

المعهودة، فكانت تسقط كلمات ساشا على قلبها كقطرات الماء المثلج!

فقال بافل:

- لقد فكرت جيداً، ولا شيء يثنييني عن عزمي!

- حتى ولو طلبت منك ذلك؟

وبغته جاء صوت بافل سريعاً وجافاً:

- ليس من حقك أن تقولي هذا.. ليس من حقك..

فقالت في صوت خافت:

- لست إلا إنساناً لا أكثر!

فأجاب بمثل خفوت صوتها، ولكن كمن يغص بالدموع:

- بل إنسان رائع، وعزيز جداً لديّ. ولهذا... ولهذا... كان ينبغي ألا

تقولي مثل هذه الأشياء!

فقالت الفتاة:

- الوداع!

وأدركت الأم، من صدى وقع أقدامها، أنها قد انطلقت تركض،
فاندفع بافل في الحديقة وراءها.

انقبض قلب الأم هلعاً، إذ إنها لم تفهم عم كانا يتحدثان بالضبط،
لكنها أحست أن مصيبة كبيرة في انتظارها!

فكرت قائلة:

- ترى ماذا عساه ينوي أن يفعل؟!

ثم عاد بافل يرافقه أندري، فقال الأوكراني هازاً رأسه:

- أوه... إيساي... إيساي... ماذا عسانا أن نفعل معه؟!

فقال بافل عابسًا:

- من الأفضل أن ننذره بالكف عن مثل هذا العمل.

وسألته أمه، وهي تطرق برأسها:

- بافل ما الذي تنوي أن تفعله؟

- متى، الآن؟

- كلا، في أول مايو.

فقال بافل مخفضًا صوته:

- أوه... سوف أحمل علمنا فوق رأس الجموع، وأعتقد أنهم، لهذا سيلقون بي في السجن من جديد.

وراحت عينا الأم تخزينها، وجف ريقها، فأخذ يدها ومسح عليها برفق:

- ينبغي عمل ذلك، حاولي أن تفهمي يا أمه!

فأجابت، وهي ترفع رأسها ببطء:

- أنا لم أقل شيئًا!

لكن عزيמתها خارت عندما التقت عيناها بما في عينيه من وميض عنيد، فتنهد، وأفلت يدها، ثم قال معاتبًا:

- يجب أن تفرحي لهذا... لا أن تحزني. ترى متى يكون لدينا أمهات يرسلن أبناءهن إلى الموت مبتسمات؟

فغمغم الأوكراني قائلاً:

- مم.. ف، لقد جاء العمدة، وهو يشمخ بأنفه إلى السماء!

فأعادت الأم:

- أنا لم أقل شيئاً... ألم أقل إني لن أعرض سبيلك. لكن ذلك شديد
القسوة على نفسي، ولا أستطيع أن أتخلى عن كوني أمًا.

فابتعد عنها قليلاً، ثم راحت كلماته التالية تطعنها في عنف وقسوة،
قال:

- إن ثمة حباً يمنع المرء من أن يفعل ما يشاء.

فقالت، وهي ترتعش خوفاً من أن يقول شيئاً آخر يجرحها:

- لا يا باشا... إني أفهم.. فأنت لا تستطيع أن تفعل غير هذا من أجل
رفاقتك.

فصححها قائلاً:

- ليس من أجلهم.. وإنما من أجلي أنا!

وظهر أندري في مدخل الباب الذي كان منخفضاً جداً، بالنسبة إليه،
لدرجة أنه وقف وركبته معقوفتان بصورة غريبة، وإحدى كتفيه متكأة على
الباب، ورأسه والكتف الأخرى مندفعة إلى الأمام.

قال في تجهم، وعيناه مثبتتان في وجه بافل، حيث ظهر كالسحلية في
شق صخرة:

- إنك تحسن صنعاً إذا قللت من ذلك الكلام، أيها السيد الشهم!

كانت الأم على وشك أن تنفجر في البكاء، فغمغمت قائلة:

- يا إلهي! لقد نسيت...

وأسرعت خارجة إلى المدخل، كي لا يراها ابنها تبكي، وحالما أصبحت في الخارج، تكومت في الزاوية، وأطلقت العنان لنشيج صامت موهن، كما لو سال دم قلبها مع الدموع.

وسمعتهما من خلال الباب نصف المفتوح يتناقشان في أصوات خافتة:

سأل الأوكرائي:

- ماذا دهاك؟ هل تتلذذ من إيلامها؟

فصاح باثل:

- ليس لك أدنى حق في أن تقول ذلك!

- سأكون صديقاً ظريفاً لو أغلقت فمي وتركتك تتصرف كالمعتوهين.

ترى ما الذي يدعوك لأن تقول ذلك، أأست ترى ماذا يحدث؟!

- يجب أن تكون صارماً، لا أن تكون خائفاً من أن تقول «نعم» أو

«لا»!

- لها؟

- لكل شخص، فلست أريد حباً أو صداقة تعرقل مسيري.

- يا لك من بطل! اذهب وامسح أنفك، وأخبر ساشا بذلك، فهي

التي...

- لقد أخبرتها!

- أوه... كلا.. إنك لم تفعل، فقد خاطبتها بتودد وتلطف. إني أعلم ذلك، حتى لو لم أسمعك. لكنك تريد أن تكون أمام أمك بطلاً مغوارًا. إن كل غطرستك لا تساوي قلامة ظفر، إذا كنت تريد أن تعلم ذلك!

مسحت بيلاجيا دموعها في سرعة، لخوفها من أن يقول الأوكراني لابنها قولاً قاسياً، وفتحت الباب في سرعة ثم دخلت المطبخ.

قالت في صوت مرتفع يرتعش بالخوف والحزن:

- بر... ر... د... ما أبرد الطقس، يكاد المرء لا يصدق أنه الربيع.

وراحت تنقل الأشياء من مكان لآخر، دون غاية، محاولة أن تغرق الأصوات في الغرفة المجاورة.

وتابعت قائلة بصوت أعلى:

- لقد تغير كل شيء، فأصبح الناس أكثر حرارة، والطقس أكثر برودة. لقد كانت الحرارة ترتفع في مثل هذه الأيام، فتشرق الشمس، وتصحو السماء.

ثم انقطعت الأصوات، فوقفت وسط المطبخ تصبих السمع.

قال الأوكراني في رقة:

- هل سمعت؟ لقد آن لك أن تفهم. يا للشيطان! إن لديها شجاعة أكثر مما لديك!

وسألت في صوت مرتعش:

- ما رأيكما في قليل من الشاي؟

ثم أضافت بسرعة محاولة تفسير سبب ارتعاشها:

- يا إلهي! لقد تجمدت تمامًا!

وفي ببطء ذهب إليها باثِل خافض الرأس، تحوم حول شفثيه ابتسامة الشعور بالذنب، وقال:

- اغفري لي يا أماء. فإني لم أزل غرًّا.. أحمق!

فصاحت في تعاسة وهي تدفن رأسها في صدرها:

- اتركني وحدي. لا تقل شيئًا. فالله يعلم أن حياتك ملك لك تتصرف فيها كيفما تشاء، ولكن دع قلبي... وحده. هل تستطيع أن تكف الأم عن الحب؟ إن عليها أن تحب، وأنا أحبكم جميعًا... إنكم... كلكم أعزاء عليّ. وإنكم جميعًا تستحقون الحب. ترى من الذي سيحبكم إذا أنا لم أفعل ذلك؟ سوف تذهبون... ويتبعكم الآخرون... تاركين كل شيء... آه يا باشا!

واختلجت في صدرها أفكار كبيرة ملتبهة، وطفح قلبها بفرحة مفاجئة لم تجد كلمات تعبر بها عنها، فراحت في عذابها الأبكم تنظر إلى فتاه بعينين متأججتين بألم حاد عنيف:

- لا بأس عليك يا أماء، اغفري لي فأنا الآن فهمت ذلك، ولن أنساه أبدًا. أقسم أنني لن أنساه أبدًا.

واستدار عنها مبتسمًا سعيدًا، ولكن كان خجلًا في نفس الوقت.

فتركته وذهبت إلى باب الغرفة.

وقالت في مناشدة لطيفة:

- أندروشا، لا تصح فيه. فأنت أكبر سنًا منه...

فصاح دون أن يستدير لها:

- أوف! لن أصبح فيه، بل سأخرج أحشاءه.

فذهبت إليه ومدت يدها قائلة:

- إنك طيب.

فاستدار ثم مضى عنها بعيدًا.. إلى المطبخ ويداه خلف ظهره خافض الرأس كالثور، يتكلم في نبرة مضحكة:

- اغرب عن وجهي يا باثل قبل أن أقضم رأسك. لا تحسبي أنني جاد يا نينكو. إنني أمزح فقط. سأهين الساموفار. ياللفحم الرائع الذي لديك! إنه مبتل.

وسكت.. وإذ دخلت الأم المطبخ كان هو جالسًا على الأرض ينفخ في الساموفار. قال دون أن ينظر:

- لا تخافي فلن أمسه بسوء قط. إنني رقيق كاللفت المسلوق، وأنا- اسمع جيدًا أيها البطل - وأنا في الحقيقة مغرم جدًا به، لكنني لا أحب ذلك الصديري الذي يلبسه. أنت تعلمين أنه ابتاع صديريًا جديدًا وهو يظن أنه وجيه، ولهذا يروح يتبخر متنفخ البطن وهو يقتحم كل إنسان قائلاً: «انظروا ما أجمل الصديري الذي أملكه»، لا بأس بالصديري، ولكن لِمَ اقتحام كل الناس؟ هل من الصعب عليه أن يتجنبهم؟

فقال باثل في ضحكة مقتضبة:

- هل ستستمر على هذا المنوال؟

أحاط الأوكراني الساموفاً بساقيه، ثم تطلع إليه من حيث يجلس على الأرض. كانت الأم منتصبّة في مدخل الباب تحملق في مؤخرة رأسه بحنان، فلوى جسمه جانباً مستنداً على ذراعيه وراح ينظر إلى الأم والابن بينما احمرت فجأة عيناه، فقال وهو يطرف:

- ما أطيكما! أنتما الاثنان.

فانحنى باثلاً، وأمسك بيده.

قال الأوكراني:

- لا تجذبني بشدة، وإلا قلبتني رأساً على عقب.

فسألت الأم:

- ما الذي تخاف منه، هيا وقبلنا بعضكما بعضاً.

وتعانقنا بأقصى ما يملكان من قوة.

فسأل باثلاً:

- ما رأيك؟

فقال الأوكراني وهو ينهض:

- هيا.

وتعانقنا بعنف... كانا جسدين وروحاً واحدة تضطرم بنار الصداقة... وانسابت الدموع على خدي الأم، لكنها كانت في هذه المرة، دموع السعادة. قالت، وهي تمسح دموعها، في خجل:

- ما أشد كلف النساء بالبكاء، فهن يبكين وهن سعيدات، ويبكين

وهن حزينات.

دفع الأوكراني بافل في لطف وقال له وهو أيضًا يمسح دموعه:

- في هذا الكفاية. فلقد أخذ العجل نصيبه من اللهو وحن الآن وقت شوائه. ألا لعن الله فحكمكم هذا! لقد نفخت فيه بشدة حتى امتلأت منه عيناى.

وقال بافل في رقة وهو يجلس إلى جوار النافذة:

- لا يوجد ما يدعو إلى الخجل من مثل هذه الدموع.
اقتربت منه أمه وجلست إلى جانبه. كان قلبها قد امتلأ بشجاعة جديدة جعلتها هادئة قانعة على الرغم من كآبتها.
قال الأوكراني وهو يغادر الغرفة:

- سأدخل أدوات الشاي، لا تنهضي يا نينكو إن من الأفضل لك أن تنالي قسطاً من الراحة بعد أن عصر قلبك بمثل هذا العنف.
ثم جاءهم من الخارج صدى صوته الممتلىء وهو يقول:
- الآن فقط... تذوقت طعم الحياة الرائعة، قليلاً من حياة إنسانية دافئة.

فقال بافل وهو ينظر إلى أمه:

- أجل...

فقالت:

- ولقد بدل ذلك كل شيء، فتبدلت آلامنا، وتبدلت أفراحنا كذلك.

فقال الأوكراني:

- هذا ما ينبغي أن نكون عليه؛ لأن قلبًا جديدًا قد ولد يا نينكو. إن قلبًا جديدًا قد عاد للحياة. إن الإنسان يخطو إلى الأمام مسلطاً نور العقل على العالم ومناديًا أثناء سيره: يا شعوب الأرض اتحدوا في أسرة واحدة. وجوابًا على ندائه تتحد جميع القلوب السليمة؛ لتشكل قلبًا واحدًا كبيرًا هو في قوته ووطنيته كناقوس من الفضة.

ضمت الأم شفيتها بشدة لتوقف ارتعاشهما، ثم أطبقت عينها لتحجب الدموع.

ورفع بافل ذراعيه يريد أن يتكلم، ولكن جرفته الأم إليها وهمست:

- لا تقاطعه.

جاء الأوكراني، ووقف في مدخل الباب قائلاً:

- سيرى الناس كثيرًا من الأسى في المدة القادمة، وستسفك الكثير من الدماء أيضًا. ولكن عذابي ودمي لرخيضان بالنسبة لما أحمل في صدري وذهني. إنني غني كالنعجة الغنية بإشعاعاتها البيضاء، وإنني أستطيع تحمل كل شيء ومكابدة كل شيء؛ لأن لديّ فرحًا عظيمًا لا يستطيع أي شيء أو أي إنسان أبدًا أن ينتزعه مني، وهذا الفرح هو مصدر قوتي.

ظلوا يشربون الشاي حتى منتصف الليل وهم يتحدثون في ألفة عن الحياة والناس والمستقبل. وكانت الأم، كلما اتضحت لها فكرة، تذهب لتبحث في ماضيها عن ذكرى قاسية محزنة لتجعل منها حجر أساس تبني عليه الفكرة.

وذابت مخاوفها في تيار حديثهم الدافئ، وأحست مرة أخرى بنفس الإحساس الذي شعرت به في ذلك اليوم البعيد عندما قال لها أبوها في جفاف، لا معنى لأن تقلبي وجهك إذ لن تجدي أي أحق يتخذ منك زوجة له فاغتنمي الفرصة. إن كل النساء يتزوجن وينجبن أطفالاً لا يحملون لهن سوى الكثير من المتاعب. وأنت لا تختلفين عن الأخريات في شيء.

ورأت بعد ذلك الدرب الذي لا أمل فيه ممتداً أمامها متعرجاً، في قفر مجذب، عبر الظلام... وملأتها حتمية المسير في هذا الدرب بسلام أعمى، وهكذا كانت الحال الآن. غير أنها، وهي تتوقع حدوث شيء محزن جديد، استمرت تقول في غيظ لشخص مجهول:

- هيا، إليك هذا...

فخفف ذلك عن قلبها الموجع الذي كان يدوي ويتذبذب كوتر مشدود، ولكنها كانت في الخفاء ترى أملاً ضعيفاً يعاودها في أنهم لن ينتزعوا منها شيئاً، ليس آخر ما تملك، ولسوف يبقى شيء ما بكل تأكيد.

- ٢٤ -

في صبيحة أحد الأيام وبعد خروج بافل وأندري للعمل قرعت كورسونوفا النافذة وصاحت:

- لقد قتلوا إيساي، فلنذهب ونرى.

فأجفلت الأم، ومضى اسم القاتل عبر ذهنهما. فسألت وهي تلقي شالاً حول كتفيها:

- من فعل ذلك؟

- أتحسبين الذي فعل ذلك جالسًا هناك بجانب إيساي، لقد ولى هاربًا في اللحظة التي صرعه فيها.

قالت، بينما كانتا تهبطان الشارع:

- سيجري الآن تفتيش جديد لمحاولة العثور على القاتل. من حسن حظك أن كل رجالك ليلة البارحة كانوا في البيت. إني شاهدة على ذلك. وقد عدت إلى البيت بعد منتصف الليل وتلصصت من نافذتكم فوجدتكم جميعًا جالسين حول المائدة.

فصاحت مرتعبة:

- يا إلهي يا ماري! هل يمكن أن يتهمهم أحد؟

فقالت كورسونوفًا باقتناع:

- حسنًا، من قتله إذن؟ لا بد أن يكون على علاقة برجالكم، فالكل يعلم أنه كان يتجسس عليهم.

ووقفت الأم وهي تضغط بيدها على صدرها، غير قادرة على التنفس.

- ماذا دهاك؟ لا تخافي، فقد نال ما كان مقدراً له، أسرعي وإلا أخذوه.

كانت شكوك الأم في فيزوفشيكوف تجذبها إلى الوراء ففكرت:

- لقد تجاوز حده.

وفي بقعة ليست ببعيدة عن المصنع، حيث كان هناك منزل محترق،

وقفت جمهرة من الناس تزن كالزنابير وتدوس على الأخشاب المتفحمة

مثيرة الرماد. كان بينهم كثير من النساء، وعدد أكبر من الأطفال وأصحاب حوانيت، وطهاة من الحانة، ورجال شرطة، وكان هناك أيضًا الجندي فيلين، وهو رجل عجوز طويل القامة، ذو لحية رمادية شعناء، وصدر مليء بالأوسمة.

كان إيساي نصف جالس ونصف مَلْقِيَّ على الأرض يستند على لوح يتفحم ورأسه الحاسر يتدلى فوق كتفه اليمنى. كانت يده اليمنى في جيب بنطلونه بينما كانت أصابع يده اليسرى مغروزة في التربة المفككة.

نظرت الأم في وجهه. كانت إحدى عينيه الفاقدين البريق تشخص إلى القبة الملقاة بين ساقيه المنفرجتين وفمه نصف مفتوح من الدهشة، ولحيته الحمراء مائلة. كان رأسه المدبب ووجهه الهزيل النمش يبدوان أصغر من ذي قبل؛ لانكماشهما بسبب الموت. رسمت الأم على نفسها إشارة الصليب، ثم تنهدت. لقد كان مثار ازدرائها من قبل، أما الآن فإنها تشفق عليه!

أشار بعض الواقفين في صوت هادئ:

- ليس من دم هناك. لا بد أنهم صرعوه بقبضة اليد.

فقال آخر، وكأنه ينتقم:

- لقد أمسك الفخ به، ذلك الجاسوس القذر.

وفي نشاط مباغت، نحى الجندي النساء جانبًا وسأل مهددًا:

- من يتكلم هناك؟

وأفسح الناس له الطريق وتقهقر بعضهم في سرعة، وأطلق أحدهم

ضحكة شريرة!

عادت الأم إلى البيت.

قالت لنفسها:

- لا أحد يشعر بأدنى أسف عليه.

ورأت بعين ذهنها نيقولاى، وهو ينظر إليها بعينين قاسيتين باردتين،
وذراعه تتأرجح كما لو أصيبت بسوء.

ولم يكذبها وأندري يرجعان للبيت، حتى سألتهما عن الحادث
قائلة:

- هل أُلقي القبض على أحد؟

فأجاب الأوكراني:

- لم نسمع!

وكانت تشعر أن كليهما يحس بانقباض.

فاستفسرت قائلة بصوت خافت:

- هل أتى على ذكر نيقولاى أحد؟

فقال لها ابنها وعيناه متجهمتان، وبصوت ذي مغزى:

- كلا، ولا أظن أنهم سيراتابون فيه. إنه ليس هنا، فلقد ذهب إلى النهر

البارحة عند الظهر، ولم يعد بعد، فقد سألت عنه!

وتنفست الأم الصعداء، ثم قالت:

- حمدًا لله، حمدًا لله!

ونظر إليها الأوكراني، ثم أطرق برأسه!

فقالت الأم مفكرة:

- إنه بقي هناك، وكأنه لا يعرف ما عساه فاعل بكل ذلك. لا أحد يشعر بأسف عليه، بل لا أحد يحمل له كلمة طيبة. إنه تافه، ولا أهمية له على الإطلاق، كأنه شيء ضئيل بُتر وسقط أرضاً، حيث ترك مطروحاً في مكانه!

وأثناء الغداء، رمى بافل ملعقته فجأة، ثم صاح:

- هذا ما لا قبل لي به!

فسأل الأوكراني:

- ماذا؟

- إننا نذبح الماشية كي نحصل على الطعام، وهذا أمر سيئ للغاية، إن علينا أن نقتل الوحوش الضارية، إذا كانت خطيرة. وأنا شخصياً على استعداد لأن أقتل كائناً بشرياً إذا انقلب وحشاً يفتك بالناس. أما أن يقتل المرء هذا التافه الحقير... من يستطيع أن يرفع يده لعمل ذلك؟

فهز الأوكراني كتفيه وقال:

- لقد كان ضاراً، كأني وحش مفترس، ونحن نقتل البعوض؛ لأنه يمتص قطرة واحدة من دمنا فقط!

- هذا صحيح، ولكنني لست أعني ذلك، وإنما أعني أن الأمر يشير الاشمئزاز.

فأجاب أندري بهزة أخرى من كتفه:

- لا حيلة في ذلك!

ثم سأل باثل، بعد فترة طويلة من الصمت:

- هل تستطيع أنت أن تقتل مثل هذا المخلوق؟

فسمّر الأوكراني فيه عينيه الواسعتين، ثم اختلس نظرة خاطفة إلى
الأمم وقال مازحًا في النهاية:

- إن في إمكاني أن أفعل أي شيء، في سبيل رفاقي، ومن أجل قضيتنا
وأستطيع أن أقتل ابني نفسه!

فهتفت الأم قائلة في صوت خافت:

- أوه يا أندروشا!

فابتسم قائلاً:

- لا حيلة لي في ذلك، يا أمه، فهذه هي الحياة!

قال باثل:

- إنك على حق، فهذه هي الحياة!

وفجأة قفز أندري، وهو في حالة هياج عنيف، مدفوعًا بقوة داخلية،
ثم صاح ملوحًا بذراعيه:

- ماذا عسانا نفعل؟ إننا مجبرون على بغض الناس، حتى يجيء
الوقت الذي نستطيع أن نحبههم فيه كلهم. إن من واجبنا أن نسحق كل من
يقف حجر عثرة في طريق التقدم، وكل من يبيع الشعب بالمال، ليشتري
به مجداً أو طمأنينة. وإذا كان ثمة يهودا يعترض سبيل الناس الشرفاء

الطيبين ويتحين الفرص لخيانتهم، فسوف أكون أنا نفسي يهوذا. إن لم أقم بالقضاء عليه ، فقد تقولان ليس لدي الحق في ذلك، ولكن لرؤسائنا أولئك الحق في الاحتفاظ بفرقهم العسكرية وجلاديهم، ومواخيرهم وسجونهم ومعتقداتهم، وبكل الأساليب اللعينة الأخرى، التي يحرسون بها أمنهم وراحتهم، أهي خطيئتي إذا أجبرت أحياناً على حمل هراوتهم بيدي؟ سوف أحملها دون تأنيب من ضمير. فإذا كانوا يقتلوننا بالعشرات والمئات، فإني أملك الحق في أن أرفع ذراعي وأهوي بها على رأس أحدهم... على الرأس الذي اقترب مني أكثر من غيره وراح أكثر من الآخرين يضر بالقضية التي أذاع عنها، فهذه هي الحياة. ولكنني ضد حياة من هذا النوع، ولا أريد أن أعيش هكذا... أنا أعلم أنه لن ينتج عن دمائهم شيء قط... فهو دم غير مثمر. أما دمنا فينبت الحقيقة، كما ينهمر على الأرض المطر الغزير، لكن دماءهم تجف، أنا أعلم ذلك. ولكنني أتحمل تبعه هذه الخطيئة، وسوف أقتل إذا رأيت أن لا بد من القتل... واعلمي أنني أتحدث عن نفسي فقط... لسوف تموت خطيئتي معي، ولن تترك على المستقبل أي لطخة، إنها لن تلوث أحداً سواي - كلا ولا أحداً!

كان يذرع الغرفة، وهو يلوح بيديه كما لو كان ينتزع شيئاً ثم يلقي به بعيداً محرراً نفسه منه. راقبته الأم في أسى وجزع، وكانت تشعر أن شيئاً قد انكسر في داخله فآلمه كثيراً. وتركها أفكار الجريمة الخطرة السوداء. فإذا لم يكن فيزوفشيكوف هو الذي اقترف الجريمة، فليس أحد من الأصدقاء بقادر على ذلك. جلس بافل مطرق الرأس، مصغياً لحملة الأوكراني العنيفة: - وتكون أحياناً مضطراً لمحاربة نفسك، إذا أردت أن تستمر في سيرك

للأمام، عليك أن تكون مستعدًا للتضحية بأي شيء... قلبك بأسره. إن من السهل أن تضحي بحياتك في سبيل القضية.. إنما عليك أن تضحي بأكثر من ذلك... عليك أن تضحي بما هو أعز لديك من حياتك. وبالتضحية بذلك، فإنك تدعم الحقيقة التي أنت تكافح من أجلها... الحقيقة التي هي أعز ما تملك في هذه الحياة!

وقف وسط الغرفة شاحبًا، وعيناه نصف مغلقتين، وإحدى يديه مرفوعة في وعد مهيب:

- إنني لأعلم أنه سيجيء الوقت الذي سوف يعجب فيه الناس بجمالهم، عندما يكون كل فرد منهم كالنجمة الوضاء بالنسبة للآخرين، وستكون الأرض آهلة بالرجال الأحرار، العظماء بحريتهم، وستفتح قلوب الجميع، وسيضحى كل قلب بريئًا من الحقد والحسد، وعندئذ تتحول الحياة إلى تمجيد عظيم للإنسان الذي سوف يصبح كائنًا بديعًا ورفيقًا؛ لأن كل الأشياء ستكون في متناول أولئك الرجال الأحرار، وعند ذلك يعيش الناس في ظلال الحقيقة والحرية... ومن أجل الجمال. وسيكون أفضلهم أولئك الذين تستطيع قلوبهم أكثر من غيرها أن تضم العالم كله وتحبه. أولئك هم الذين يكونون أكثر حرية من غيرهم؛ لأن في داخلهم يرقد الجمال الأعظم، سيكونون أناسًا عظماء، أولئك أهل الحياة الجديدة.

وصمت برهة، ثم استقام وأضاف في صوت صادر من أعماق روحه:

- وإنني من أجل هذه الحياة على استعداد لعمل أي شيء على الإطلاق.

ومرت على وجهه رعشة خفيفة، ثم انسابت دموع كبيرة على خديه،
فشحب باقل، ثم رفع رأسه وهو ينظر إليه بعينين متسعيتين، ثم أجفلت
الأم، وقد ثار في نفسها قلق مظلم غريب، راح يعظم وينمو باستمرار.

سأله باقل في صوت خافت عذب:

- ماذا أصابك يا أندري؟

فهز الأوكراني رأسه، ثم انتصب واقفًا، وراح ينظر إلى الأم مباشرة:

- لقد شاهدت كيف حدث ذلك، إنني أعرف كل شيء!

فاندفعت إليه، وأمسكت بيديه، ثم حاول هو أن يخلص منها يده
اليمنى، غير أنها تعلقت بها بشدة، وهمست:

- اسكت. أوه يا عزيزي... يا صغيري العزيز!

فغمغم الأوكراني بصوت أجش:

- انتظري. وسأروي لك كيف حدث ذلك.

فهمست وهي ترمقه من خلال الدموع:

- كلا، لا تفعل، لا تفعل يا أندروشا.

اقترب منه باقل في تمهل، كان شاحب الوجه، واسع العينين، فقال
وهو يرسل ضحكة مقتضبة:

- إن أُمِّي تخشى أن تكون أنت القاتل!

- لست خائفة، ولا أصدق ذلك ولن أصدقك، حتى لو رأيته بعيني.

فقال الأوكراني وهو يلوي رأسه محاولاً أن يخلص يديه:

- انتظري، لم أكن أنا القاتل، وإنما كان باستطاعتي أن أحول دون وقوع ذلك.

فقال بافل:

- اسكت يا أندري!

ثم أمسك يد صديقه بإحدى يديه، بينما وضع الأخرى فوق كتفه. وكان يريد بذلك أن يهدئ من روع تلك القامة الطويلة، غير أن أندري التفت إليه قائلاً في صوت مرتعش:

- أنت تعلم يا بافل أنني ما كنت أريد أن يحدث له حادث. كانت الحادثة كما يلي: جاء إيساي عندما مضيت وتركتني مع دراجونوف في زاوية الشارع، وأخذ يرقبنا ويسخر منا، فقال لي دراجونوف: انظر إليه! لقد ظل ورائي طوال الليل، سوف أدق عنقه. واعتقدت أنه مضى إلى بيته، ثم جاءني إيساي.

وأخذ الأوكراني نفساً عميقاً وقال:

- لم ينل مني أحد مثل هذه الإهانة من قبل، ذلك الكلب.

قادته الأم في صمت إلى المائدة، وجعلته يجلس، ثم جلست إلى جواره، وكتفها يلامس كتفه، بينما ظل بافل واقفاً ينزع شعرات لحيته في تعاسة.

- قال لي إنهم يعرفون أسماءنا جميعاً، وأنا كلنا مسجلون في قوائم الشرطة، وأنهم سوف يلقبون علينا القبض، قبل احتفالنا بأول مايو. لم أجه وإنما اكتفيت بالضحك وأنا أغلي من الداخل، فراح يقول إنني شاب ذكي

وإنه لمن المؤسف أن أكون قد اخترت هذا الطريق وأنه يكون من الأفضل لو...

وتوقف عن الكلام، ثم مسح وجهه بيده اليسرى، وكان في عينيه بريق جاف فقال باقل:

- لقد فهمت!

- قد يكون من الأفضل أن تخدموا القانون!

وهز الأوكراني قبضته، وغمغم من خلال أسنانه المطبقة:

- القانون... لعن الله روحه، كان من الأفضل أن يصفعني على وجهي، فإن ذلك أهون عليّ، وربما عليه أيضًا، ولم أحتمل بصاقه الكريه الرائحة!

وانتزع أندري يده من يد باقل بحركة تشنجية، ثم تابع في صوت خافت كله اشمئزاز:

- لقد صفعته على وجهه ومضيت، ثم سمعت دراجونوف يقول خلفي في هدوء:

- لقد أمسكت بك أخيرًا، لا بد أنه كان ينتظر حول الزاوية.

ثم صمت الأوكراني برهة ثم قال:

- لم ألتفت إلى الخلف، رغم إحساسي، وسمعت اللطمة، لكنني تابعت طريقي، كما لو كنت قد دست على ضفدعة. ثم جاءوا أثناء العمل يصيحون: «لقد قتلوا إيساي»، ولم أصدق ذلك، لكن ذراعي راحت تؤلمني، حتى عجزت عن الاستمرار في العمل. لم تكن تؤلمني تمامًا،

وإنما كانت كأنها ذبلت.

ألقى على يده نظرة خفية، ثم قال:

- أعتقد أنني لن أستطيع طيلة حياتي أن أزيل هذه اللطخة القذرة.

فقال الأم في صوت رقيق:

- المهم هو أن قلبك نظيف.

فقال الأوكراني جازمًا:

- أنا لا ألوم نفسي على ذلك... أوه... كلا، ولكنه مثير للاشمئزاز. لم

يكن هناك داع للتدخل في الأمر.

فقال باقل، وهو يهز كتفيه:

- إنني لا أفهمك! أنت لم تنفذ عملية القتل، وحتى لو نفذتها...

- استمع أيها الأخ... إذا كنت تعلم أن ثمة جريمة قتل ترتكب، ولم

تحل دون وقوعها...

فأصر باقل قائلاً:

- إنني لا أفهمك، أعني... لعلي أفهم، ولكنني لا أحس ذلك!

دوت الصفارة، فأنصت الأوكراني لندائها العاتي، ثم ألقى برأسه إلى

الخلف وقال:

- لن أعود إلى العمل!

فقال باقل:

- ولا أنا.

فقال أندري وهو يطلق ضحكة صغيرة:

- إنني ذاهب إلى الحمام.

ثم شرع يجمع ملابسه، وغادر البيت محطم المعنويات، فشيعته الأم بنظرة عطف وقالت:

- لك يا بافل أن تقول ما تشاء، فأنا أعلم أن قتل إنسان يعتبر خطيئة، ولكنني لا أعتبر أحدًا مذنبًا، إنني أرثي لإيساي، فهو إنسان لا قيمة له، وعندما نظرت اليوم إليه، تذكرت أنه هدد بشنقك ذات يوم، ولكن ذلك لم يدفعني إلى أن أحقد عليه، أو أن أفرح بموته، وإنما رثيت له، غير أنني الآن لا أشعر حتى بالرتاء!

وصمتت برهة، ثم استغرقت في التفكير، قبل أن تتابع قائلة بابتسامة تنم عن الدهشة والعجب:

- يا إلهي! هل سمعت ما أقول يا باشا!

لم يكن قد سمع ذلك على ما يبدو؛ لأنه أجاب متجهماً عابساً، وهو يذرع الغرفة ناظرًا إلى الأرض:

- تلك الحياة لك، هل ترين كيف يثار الناس بعضهم ضد بعض، إنك تجددين نفسك مرغمة على ضرب أحد من غير أن ترغبي في ذلك. ومن الذين تضربين؟ مخلوق معدم، يملك من الحقوق أكثر مما تملكين. لا بل إنه أقل حظًا منك في هذه الحالة؛ لأنه غبي. إن الشرطة والجنود والجواسيس كلهم أعداء لنا، لكنهم جميعًا أناس مثلنا، امتصت دماءهم بنفس الطريقة التي امتصت بها دماؤنا، وامتهنوا تمامًا مثلما امتهنا.

إننا جميعًا على حد سواء، ولكن الرؤساء أثاروا الشعب على بعضه،
مغشين أبصارهم بالخوف والهراء وموثقين أيديهم وأرجلهم، ثم راحوا
يعصرونهم ويمصون دماءهم ويدفعونهم لأن يضربوا ويسحقوا أيضًا. لقد
أحالوا الناس إلى بنادق وهرات وحجارة، ثم قالوا: هذه هي الدولة!
واقترب من أمه، ثم قال:

- إنه لعمل إجرامي يا أمه! إن أبشع قتل لملايين الناس، هو قتل
النفوس البشرية، هل تفهمين قتلة النفوس، وهل ترين الفارق بينهم
وبيننا؟ إننا عندما نضرب أحدًا يقولون إن هذا مؤلم ومخجل ومثير
للاشمئزاز، أما هم فيقتلون في رضى وارتياح عظيمين، وحجتهم الوحيدة
في سحق أولئك الناس حتى الموت، هي المحافظة على فضتهم وذهبهم
وطمأنينتهم، وكل المتاع الحقيق الذي يمكنهم من استعبادنا. فكري في
ذلك! إنهم لا يدافعون عن أرواحهم عندما يقتلون الناس ويشوهون
أرواحهم، لا ليس عن أرواحهم... وإنما عن ممتلكاتهم، تلك الأشياء
التي هي خارج الإنسان، لا الأشياء التي في داخله!

ثم أخذ يديها في يديه، وانحنى عليهما يضغطهما، وهو يقول:

- إذا كنت تدركين ما في ذلك من خسة ونذالة، فستفهمين الحقيقة
التي من أجلها ناضل، وسوف ترين ما أعظمها وأروعها!
نهضت الأم شديدة التأثر، تملؤها الرغبة في أن تتوحد النار المتأججة
في صدرها مع نار ابنها، ليكونا شعلة واحدة عظيمة!
فغمغمت بصعوبة:

- كن صبورًا يا بافل، وتمهل قليلًا، فسأدرك ذلك في حينه!

- ٢٥ -

دنا أحدهم من مدخل البيت في ضوضاء، وتبادلت الأم وابنها النظر،
وقد عرتهما الدهشة، وفتح الباب في بطناء، فدخل ريبين، وقال وهو يرفع
رأسه مبتسمًا:

- ها أنذا. إن توماس الشكاك صادق في وعده، يسافر هنا، ويسافر
هناك، داسًا أنفه في كل مكان.

كان يتتعل صندلًا من ألياف النبات، ويرتدي قبعة ممزقة، وجلد
خراف مغطى بالقار، وقد دس في حزامه زوجًا من القفازات السود:
- كيف صحتك إذن؟ فقد أطلقوا سراحك يا بافل! حسنًا، كيف تسير
معك الأمور يا بيلاجيا نيلوفنا؟

وكشف عن أسنانه البيضاء في ابتسامة عريضة، وقد أصبح صوته
أكثر رقة ووجهه أكثر اكتساء بلحيته الكثة!

كانت الأم مسرورة لرؤيته، فذهبت إليه لتقبض على يده الضخمة التي
كانت مغطاة ببقع سوداء. قالت وهي تستنشق رائحة القار الصحية الحادة:

- يا إلهي... كم أنا مسرورة لرؤيتك.

قال بافل مبتسمًا، وهو ينظر إلى ريبين:

- ها قد أتيت لك بفلاح!

وفي بطاء، خلع ضيفهم ثيابه وهو يقول:

- أجل فما أنا أعود فلاحًا من جديد. وأنتم ترفعون من أصواتكم، شأن السادة، بينما أستمّر في سيرى فى الاتجاه الآخر.
ثم راح يذرع الغرفة متفحصًا كل شىء وهو يشد قميصه الملون إلى أسفل:

- لا جديد هنا سوى الكتب... إحم... حسنًا! ماذا تحمل من أخبار؟!
ثم جلس وقد مد ساقيه منفرجتين، وأمسك ركبتيه بكلتا يديه، وقد راح يتفحص وجه بافل بعينيه السوداوين، ويتسم فى انتظار الجواب.
فقال بافل:

- إننا فى تقدم!

فضحك ريبين قائلاً:

- إننا نحرق، ونبذر، ونرقب الزرع ينمو، ثم نصنع جعتنا، وننام بقية أيام السنة، إنها كذلك. إيه يا أصدقائي؟!
ثم سأله بافل وهو يجلس مواجهًا له:

- كيف تسير معك الأمور يا ميخائيلو إيفانوفيتش؟

- على خير ما يرام، إننى أعيش فى - بيجلدبيوفو - هل سمعت عنها قط؟ بيجلدبيوفو، إنها بلدة صغيرة وجميلة... نقيم سوقين فى كل عام، وفيها ما يزيد على ألفين من السكان، وهم جماعة فقراء، فلا أرض لديهم، إذ عليهم أن يستأجروها، وهى بالإضافة إلى هذا، أرض فقيرة. لقد أجرة نفسى هناك لأحد مصاصى الدماء، فالمكان مليء بهم امتلاء

الرمة بالديدان. كنت أحرق الفحم، وأصنع القار، وأكسب ربع ما كنت أكسبه هنا، وأبذل من الجهد ضعف ما كنت أبذل. هم... م... كان سبعة منا يعملون لحسابه، مصاص الدماء ذلك. وهم رفاق طيون، وكلهم شباب من نفس البلد إلا أنا، وجميعهم يعرف القراءة والكتابة. ولقد كان أحدهم ويدعى «يقيم» سريع الانفعال، فلم أدر ماذا أفعل به!

فسأل بافل في لهفة:

- كيف تعمل؟ هل تخوض معهم النقاش؟

- إنني لا أستطيع أن أمسك لساني، يمكنك أن تتأكد من ذلك، ولقد أخذت معي كل منشوراتكم ومجموعها أربعة وثلاثون. لكنني غالبًا ما أستعمل الإنجيل، ففيه أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يستخرجها... من الإنجيل ذلك الكتاب الضخم، المعترف به... الموافق عليه من قبل المجمع المقدس. إنك تستطيع أن تضع ثقتك فيه.

وضحك، ثم غمز بافل قائلاً:

- غير أن هذا لا يكفي. لقد جئت لأطلب منك بعض الكتب. نحن اثنان، فلقد جئت معي يقيم. لقد بعثونا إلى هنا بحمل من القار، وهكذا قمنا بجولة قصيرة، ثم أتينا لرؤيتكم. أعطني الكتب قبل أن يجيء يقيم ذاك، فليس من الخير أن يعرف الكثير.

وخيل إلى الأم، وهي تنظر إلى ريبين أن ثيابه ليست وحدها التي تغيرت، فقد أصبح سلوكه أيضًا أقل بشاعة من ذي قبل، ونظراته أكثر خبثًا، وعينه أقل صراحة مما كانتا قبلاً.

قال باثل:

- أماء هل تمانعين في إحضار الكتب؟ فالقوم هناك يعرفون أيًا منها،
أخبريهم بأنها سترسل إلى الريف.

فقال الأم:

- حسنًا جدًّا، سوف أذهب حالما يغلي الساموفار.

ضحك رييين قائلاً:

- وأنت أيضًا تندمجين في هذا العمل يا بيلاجيا نيلوفنا؟ هم...م... ثمة
الكثيرون يريدون كتبًا. وهذا من عمل المعلم المحلي. يقال عنه إنه شخص
طيب، رغم انحداره من الأكليريوس. وهناك معلمة أخرى، امرأة... تبعد
عنا حوالي سبعة فراسخ، وكلاهما لا يستعمل الكتب المحرمة، إذ إنهما
يخافان من أن يفقدا عملهما. لكن الكتب المحرمة هي ما أريد... كتب
فيها قليل من الفلفل الأسود. وإذا وقعت الكتب التي أوزعها في أيدي
مفتش الشرطة أو الكاهن، فمن سيقع عليه اللوم غير هذين المعلمين، أما
الآن، فسوف أختفي، وأضيع الوقت!

وابتسم مزهوًا بذكائه!

وفكرت الأم قائلة:

- آه... إنك تبدو دبًّا... ولكنك في الحقيقة ثعلب!

وسأل باثل:

- إذا اتهموا المعلمين في توزيع المنشورات الممنوعة، هل سيلقون
بهما في السجن؟

فأجاب رييين:

- حتمًا سيفعلون. وأي شيء في ذلك؟

- ولكنك أنت المذنب وليس هما، فأنت إذن من يجب أن يذهب إلى السجن.

فضحك رييين، وقال وهو يضرب على ركبتيه:

- إنك لمضحك حقًا، لن يتهمني أحد أبدًا، فالفلاحون لا يصلحون لمثل هذه الأمور، والكتب من شأن السادة وحدهم، وهم المسئولون عنها. أحست الأم بأن باثل لم يستطع أن يفهم رييين، إذ رآته يزوي عينيه دلالة الغضب، فأوضحت قائلة في حذر:

- يريد ميخائيلو إيفانوفيتش أن ينجز العمل بنفسه، ولكنه يريد من الآخرين أن يتحملوا اللوم!

فقال رييين وهو يمسح لحيته:

- هذا هو ما أريد في الوقت الحاضر على الأقل.

فقال باثل في جفاف:

- اسمعي يا أمه لو أن أحدًا من أصدقائنا، ولناخذ أندري على سبيل المثال، اختبأ خلف ظهري وهو يفعل شيئًا، ثم ألقي بي في السجن من أجله، فكيف يكون شعورك؟

فأجفلت الأم قليلًا، ونظرت إلى ابنها في دهشة، ثم سألت وهي تهز رأسها:

- وكيف يستطيع أي امرئ أن يلعب مثل هذه الخديعة على رفيق؟

فتكلم ريبن متشدقًا بكلامه:

- هم... م... فهمت ما تعني يا بافل!

ثم غمز الأم في خيلاء قائلاً:

- إن هذا عمل غير ثابت يا أماه!

ثم التفت إلى بافل وقال في لهجة المعلم:

- إنك تفكر كالطفل أيها الأخ، فلا مكان للشرف في ظروف العمل السري. احكم على ذلك بنفسك. إن الذي تضبط معه الكتب، وليس المعلمان، هو أول من يُلقى به في السجن، هذا أول شيء. وثانيًا: حتى لو استعمل المعلمان كتبًا مسموحًا بها فقط، فالفكرة التي يعلمانها هي نفسها- والكلمات وحدها تختلف- إنها أقل صدقًا. إنهم باختصار في نفس الوضع الذي أنا فيه ويعملون من أجل الهدف نفسه، ولكنهما يسلكان سبيلًا جانبية بينما أسير أنا في الشارع الرئيسي، ونحن جميعًا في نظر الرؤساء نستحق اللوم. ألسنا كذلك؟ وثالثًا: فإني لا أكرث بهم على الإطلاق يا أخ، فإن المشاة لا تصادق الخيالة أبدًا. ولعلي لا أفعل نفس الشيء مع فلاح. أما هما، فأحدهما ابن كاهن، والأخرى ابنة مالك ثري، فلماذا يستمران في تحريض الشعب؟ لا يهمني أنا الفلاح أن أقرأ أفكارهما، فإني أعرف ما أفعل، ولكن ليست لدي أي فكرة عما يسعيان وراءه. لقد ظل السادة آلاف السنين يفعلون ما كان يجب أن يفعلوه، أن يدبغوا جلود الفلاحين. أما الآن فقد استيقظوا بغتة، وشرعوا في انتزاع الغشاوة من على أعينهم بأيديهم. لست ممن يؤمنون بالخرافات، وهذا

يشبهها إلى حد بعيد. إن المسافة التي تفصل بيني وبين السادة، مسافة كبيرة. يحدث أحياناً عندما تركب الخيل مجتازة بك الحقول في فصل الشتاء أن ترى شيئاً يلمع في عرض الطريق من بعيد. أتدري ما هو؟ ذئب أم ثعلب أم مجرد كلب؟ إنك لا تستطيع أن تقول ما هو، فثمة بينكما مسافة شاسعة!

نظرت الأم إلى ابنها وكان يبدو مكسور الخاطر.

ومضت عينا رييين بنور قاتم، وهو يراقب باثلاً راضياً عن نفسه، ثم راح يتخلل لحيته بأصابعه وهو يقول:

- لا يتسع الوقت للتفكير في الأخلاق الحسنة. فالحياة شاقة. وثلة من الكلاب ليست كقطيع من الغنم. فإن كل كلب ينبح على طريقته الخاصة! فقالت الأم ممعنة النظر في وجوه مألوفة لديها:

- ثمة سادة يذهبون إلى حتفهم من أجل عامة الناس، ويقضون كل حياتهم في السجن! فأجاب رييين:

- إنهم من طبقة خاصة، فالفلاحون يشرون، ثم يرتقون إلى طبقة السادة، والسيد يفتقر فينزل إلى طبقة الفلاحين. أتذكر كيف فسرت لي ذلك يا باثلاً؟ إن الطريقة التي يعيش عليها المرء هي التي تحدد نوع تفكيره، هذا هو الأمر. إذا قال عامل: نعم، قال مديره: لا، وإذا قال عامل: لا، قال مديره: نعم... هذه هي طبيعتهم. وهناك نفس الفرق بين الفلاح وبين مالك الأرض، فإن معدة الملاك تنقلب إذا رأى أن لدى فلاحه ما

يكفي من الطعام. بالطبع لكل طبقة أوغادها، وأنا لا أدافع عن جميع الفلاحين...

ثم نهض على قدميه قوياً، عابساً، مرتعش اللحية، وقد صك أسنانه دون ضوضاء، وواصل في لهجة ألطف من ذي قبل:

- لقد تنقلت من مصنع لآخر طوال خمس سنوات، فنسيت بذلك كيف كانت القرية، وعندما عدت في النهاية إلى الريف، أدركت أنني لا أستطيع أن أعيش هكذا بعد اليوم. أفهمت؟ لقد عجزت! فأنت إذا عشت هنا يتعذر عليك أن ترى الخطأ الذي عم هناك، حيث الجوع يلزم الناس كظلالهم، وحيث لا أمل في الحصول على طعام، لا أمل على الإطلاق، فإن الجوع يزدرد الروح وينهش الوجوه. إنهم يعيشون، إنهم فقط يتعفنون في عوز لا نهاية له، والسلطات تقف لهم بالمرصاد، كأنها النسور لتتأكد من أنهم لن يلتقطوا شيئاً إضافياً. إنهم إذا أمسكوا بفلاح وفي حيازته أي شيء خطفوه منه وضربوه على صدغيه!

نظر ريبين فيما حوله، ثم مال عبر المائدة في اتجاه بافل قائلاً:

- لقد تقززت نفسي عندما عدت إلى تلك الحياة من جديد، فظننت أنني لن أستطيع احتمالها، ثم قلت لنفسي: عليك أن تقاوم حتى النهاية، قد لا تستطيع أن تعطيهم خبزاً ولكنك تستطيع أن تطبخ طبخة جيدة. وهكذا ظللت هناك وقلبي يتفجر بالحق الذي أحمل. ولا زال ذلك الحقد هناك مغمداً في قلبي كالخنجر الحاد!

وفي بطاء اقترب من بافل ووضع يده على كتفه والعرق يتصبب على جبينه ويده ترتجف:

- إني في حاجة لمساعدتك. أعطني كتبًا من ذلك الصنف الذي لا يسمح للمرأة أن ينام بعد أن يقرأه. إننا نريد أن نغرس في جماجمهم سيابًا ذا أشواك حادة. قل لأولئك الذين يكتبون لكم أن يكتبوا للقرية أيضًا. فليكتبوا حتى تضح الأحرف من الكتابة لكي يستमित الشعب في سبيل القضية.

ثم رفع ذراعه وراح يقول وهو يلفظ كل كلمة على حدة وفي صورة واضحة:

- سوف ينتصر الموت على الموت، وبكلمات أخرى، مت ليعث الشعب. فليمت منا الألوف؛ لكي تبعث الملايين من الناس في كل بقاع الأرض. هذه هي القضية، إن الموت ليهون من أجل البعث. آه لو انتفض الشعب فقط!

وأدخلت الأم الساموئيل، ثم راحت تختلس النظر طويلًا إلى ريبين، وشعرت أنها تنوء تحت وطأة كلماته. كان فيه شيء يذكرها بزوجها، فلقد كان زوجها، هكذا، يكشف عن نواجزه ويرفع أكمامه بنفس الطريقة، ولقد كان يملؤه الغضب والحنق. لقد كان ملولًا، ولكنه كان عيبًا، بينما كان هذا الشخص يعطي لمشاعره تعبيرًا جعله أقل رهبة!

قال بافل وهو يهز رأسه:

- علينا أن نفعل ذلك. أعطونا الحقائق، ونحن نطبع لكم جريدة. ونظرت الأم إلى ابنها مبتسمة، ثم هزت رأسها، ودون أن تنبس بينت شفة غادرت المنزل بعد أن ارتدت ملابسها.

فصاح ريبين:

- حسنًا، سنزودكم بالمادة، اكتبوا ببساطة؛ لكي تستطيع حتى الأبقار أن تفهم كلامكم!

وفتح باب المطبخ ثم دخل شخص منه.

فقال ريبين وهو ينظر إلى المطبخ:

- إنه يقيم. هذا باثل لقد حدثتك عنه.

وأمام باثل، وقف فتى طويل القامة، أشقر الشعر عريض الوجه، يرتدي معطفًا قصيرًا من جلد الغنم ويحمل قبعته بين يديه، وينظر إليه من تحت حاجبيه المقطبين. كان مظهره يوحي بشدة بأسه.

قال في صوت متحشرج:

- إني سعيد بمقابلتك!

وبعدما صافحه أرسل أصابعه في شعره المنتصب، وبينما هو يجول ببصره في الغرفة، وقعت عيناه على الكتب، فأخذ يشق طريقه إليها.

فقال ريبين وهو يغمز باثل:

- لقد وجدها!

نظر يقيم فيما حوله وراح يقلب الكتب، ثم هتف قائلاً:

- يا لها من مجموعة كتب! قد لا يكون لديك متسع من الوقت لقراءتها. فلو كنت تعيش في القرية لوجدت وقتاً أكثر لذلك.

فاستفسر باثل:

- ولكنني سأشعر برغبة أقل.

فأجاب الفتى وهو يمسخ ذقنه:

- أوه.. رغبة عظيمة جدًا. لقد شرع الناس يستعملون عقولهم.

جيولوجيا ما هذا؟

فشرح باثل له ذلك.

وقال الفتى وهو يعيد الكتاب إلى الرف:

- لسنا في حاجة لهذا.

قال ريبيّن وهو يتنهد بصوت مرتفع:

- لا يعبأ الفلاح من أين جاءت الأرض، إنما تقسيمها هو الذي يهمه،

وكيف سرقها ملاك الأراضي من تحت أنفه. إذ لا فرق لديه إن كانت

الأرض تدور أو تقف ثابتة، بل فلتثبت تحت أقدامه ما دامت تمدّه بالغذاء

والطعام. وقرأ يقيم:

- تاريخ القنّانة... هل يدور هذا حولنا؟

فقال باثل وهو يناوله مجلدًا آخر:

- كلا، ولكنك ستجد في هذا الكتاب فصلاً عن نظام العبودية في

روسيا. فأخذه يقيم وقلبه بين يديه، ثم قال وهو يلقي به جانبًا من غير مبالاة:

- هذا شيء عن الماضي.

فسأله باثل:

- هل تملك أرضًا خاصة بك؟

- بكل تأكيد. إن لي ولأختي أربعة من الدساتين، وكلها رملية. إنها تصلح لتنظيف النحاس، ولكنها لا تصلح للزراعة.

وصمت لحظة ثم قال:

- ولكنني تركت الأرض، ماذا عساها تفيدني؟ إنها لا تطعمك، وإنما تربطك. لقد مضى عليّ أربعة أعوام وأنا أشتغل عاملاً في مزرعة. وعليّ أن أؤدي خدمتي العسكرية في الخريف. ويرى العم ميخائيلو أن لا أتقدم للخدمة، ويقول إنهم يرسلون الجنود ليقتلوا الشعب في هذه الأيام. ولكنني أعتقد أنني سأذهب، فلقد كان الجنود يقتلون الشعب أيام ستيفان رازين وبوخاتشوف أيضاً، ولكن حان الوقت لوضع حد لهذا. ألا تعتقد ذلك؟

سأل هذا السؤال وهو ينظر إلى بافل، فأجاب بافل وهو يبتسم:

- لقد حان الوقت. ولكن ذلك ليس سهلاً. عليك أولاً أن تعرف ما الذي ستقوله للجنود، وكيف ستقوله.

فقال يفيم:

- سنتعلم!!

فقال بافل، وهو يرمق يفيم بنظرة متلهفة:

- قد يرميك الضباط بالرصاص، إذا علموا بأمرك!

فوافق الفتى قائلاً في هدوء:

- لست أتوقع منهم كثيراً من الرحمة.

ثم عاد إلى تقليب الكتب.

قال ريبيّن:

- اشرب شايك يا يقيم، فعلينا أن نذهب بسرعة.

- حسنًا، هل الثورة تمرد؟

دخل أندري متورد الوجه، ينضح بالبخار، بعد الحمام، وعلى وجهه نظرة كلها أسى، فشد على يد يقيم دون أن ينبس ببنت شفة، ثم جلس إلى جوار ريبيّن، وتفحصه، ثم أطلق زفرة قصيرة، فسأله ريبيّن وهو يضربه على ركبته:

- لا تبدو سعيدًا، ما هي مشكلتك؟

فأجاب الأوكراني:

- لا شيء بالضبط!

فسأل يقيم مشيرًا برأسه إلى أندري:

- هل هو عامل أيضًا؟

فقال أندري:

- أجل. وأي شيء في هذا؟

فقال ريبيّن موضحًا:

- إنه لم ير عامل مصنع من قبل، وهو يجد أنهم ليسوا كغيرهم من الشعب.

فاستفسر باثل قائلاً:

- فيم نختلف؟

فأجاب يقيم، بعد أن تفحص أندري بدقة:

- إن لكم عظامًا مستدقة، أما عظام الفلاح فأكثر استدارة.

وأضاف ريبين قائلاً:

- كما أن الفلاح يقف بثبات أكثر على قدميه، وهو يحس بالأرض تحته، حتى لو لم تكن ملكه إنه يحسها... الأرض، أما عامل المصنع فهو كالطير... لا موطن ولا بيت له، فهو اليوم هنا، أما في الغد فيذهب إلى مكان آخر. حتى امرأته نفسها لا تتمكن من ضبطه في بقعة واحدة، إذ لا تكاد الأمور تسوء حتى يتركها ويذهب باحثًا عما هو أفضل، ولكن الفلاح يريد أن يحسن الأمور دون أن يغادر مكانه.

- هذه هي أمك قد عادت.

سأل يقيم مقترّبًا من بافل:

- هل تعيرني أحد كتبك؟

فقال بافل:

- طبعًا، أعيرك!

فلمعت عينا الفتى في لهفة، وأسرع يؤكد لبافل قائلاً:

- سأعيده إليك، فرفاقنا ينقلون دائمًا القار إلى هنا، وسيعيدونه إليك.

قال ريبين، بعد أن لبس حذاءه، وشد حزامه جيدًا:

- لقد حان وقت الذهاب.

فهتف يقيم وهو يرفع الكتاب ويتسم ابتسامة عريضة:

- سيكون هذا علاجًا لي.

وعندما غادرا البيت، استدار بافل نحو أندري في انفعال عجيب، ثم هتف قائلاً:

- ما رأيك فيهما؟

فقال الأوكراني متشددًا:

- هم... م...م... إنهما كسحابتين تنذران بالعاصفة.

وقالت الأم:

- ميخائيلو؟ يبدو كأنه لم يشتغل في مصنع قط. إنه فلاح حقيقي،
بشع المنظر!

قال بافل لأندري الذي كان يجلس إلى المائدة محملاً في قذح
الشاي.

- من المؤلم أنك لم تكن هنا عندما جاء. إنك تتحدث دائماً عن قلب
الإنسان. كان عليك أن تلقي نظرة داخل هذين القلبين. لقد تركني ريبين
مقطوع الأنفاس، فلم أستطع حتى أن أتناقش معه. لا ثقة له في الكائنات
البشرية، ولا يكاد يعلق عليها أهمية. لقد كانت أُمي على صواب، إن فيه
شيئاً بشعاً!

فأجاب الأوكراني مكتئبًا:

أستطيع أن أرى ذلك. لقد سمم الحكام عقول الناس. فعندما تثور
الجماهير، فإنها لا تلوي على شيء. إنهم يريدون أرضاً قاحلة، وإذا لم
تكن قاحلة فسيحولونها كذلك. سيمزقون كل شيء.

كان يتكلم في تمهل، وكان واضحاً أن ذهنه مشغول بأمر آخر. اقتربت
الأم منه، ولمسته في لطف قائلة:

- اجمع شتات نفسك يا أندروشا!

فأجاب في عطف كبير:

- انتظري لحظة يا نينكو.

ثم ثار على حين غرة، فضرب المائدة بقبضة يده وهو يقول:

- هذا صحيح يا بافل. فلسوف يأخذ الفلاح الأرض لمصلحته حالما

يقف على قدميه، وسيحرق كل شيء، كما يحدث بعد الوباء، مزيلاً كل
آثار الأذى الذي تحمله!

فلاحظ بافل، قائلاً في صوت ناعم:

- وعندئذ يعترض سبيلنا.

- إن الأمر مرهون إلينا كي نحول بينه وبين ذلك، كما يعود الأمر إلينا

كي نلجمه. إننا أقرب إليه من أي إنسان آخر، ولسوف يثق فينا ويتبعنا.

فقال بافل:

- لقد طلب منا رييين أن نصدر جريدة للقرية.

- هذا هو المطلوب.

فقال بافل وهو يطلق ضحكة مقتضبة:

- إنني مستاء، لأنني لم أتناقش معه!

فقال الأوكراني في هدوء، مرسلًا أصابعه في شعره:

- لم يزل لدينا متسع من الوقت لذلك. ما عليك إلا متابعة النفخ في المزمار حتى يرقص على نغمك أولئك الذين لم تغرس أقدامهم في الأرض. لقد كان ريبين محققاً عندما قال إننا لا نحس الأرض تحت أقدامنا، ويجب أن لا نفعل ذلك؛ لأن مهمتنا أن نهزها هزة عنيفة. ولسوف نهزها هزة فيضطرب الناس، وسنهزها ثانية فيتحررون!

قالت الأم ضاحكة:

- يبدو لك كل شيء سهلاً يا أندروشا!

فقال الأوكراني:

- إنه لكذلك. سهل كالحياة نفسها.

وبعد عدة دقائق قال:

- إني ذاهب في نزهة قصيرة عبر الحقول.

فحذرتة الأم قائلة:

- بعد أن استحملت! إن الريح في الخارج عاصفة، وقد يصيبك برد!

فأجاب بقوله:

- إني في حاجة إلى شيء من الهواء.

فقال باثقل في حب وعطف:

- احترس من البرد، قد يكون من الأفضل أن تغفو قليلاً.

- كلا... إني ذاهب.

ثم ارتدى ملابسه وخرج، دون أن ينبس ببنت شفة.

وقالت الأم وهي تنهد:

- إنه يبدو عابسًا.

فقال باثل:

- يبدو أنك أصبحت أكثر اهتمامًا به... منذ حدوث ذلك، وإني لسعيد لذلك.

فنظرت إليه في دهشة وقالت:

- أحمقًا؟ إني لم ألاحظ ذلك... إني أجد أكثر مما أستطيع أن أقول.

فقال باثل في رقة:

- إن لك قلبًا حنونًا يا أماه.

- ليتني أستطيع أن أساعدك وأساعد أصدقائك، ولو قليلًا، بل ليتني أعلم كيف أفعل ذلك.

- سوف تتعلمين.

فقالت وهي ترسل ضحكة قصيرة:

- أنا بحاجة إلى أن أتعلم كيف لا أقلق.

- من الأفضل أن لا نتكلم في هذا الأمر مرة أخرى، يا والدتي... ولكن تذكرني شيئًا واحدًا، وهو أنني ممتن لك كثيرًا... كثيرًا جدًا.

ودخلت إلى المطبخ، كي لا يرى دموعها الغزيرة!

كان الوقت متأخرًا عندما عاد الأوكراني إلى البيت، فذهب مباشرة إلى فراشه، وقال:

- لا بد أنني سرت عشرة فراسخ.

فسأل باثل:

- هل خفف ذلك عنك؟

- دعنا من ذلك. إنني أريد أن أنام.

ولم يقل كلمة أخرى.

وبعد برهة قصيرة جاء فيزوفشيكوف مهلهل الثياب، وسخًا، متبرمًا
كعاداته أبدًا. سأل باثل وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا:

- هل عرفت من قتل إيساي؟

فقال باثل باقتضاب:

- كلا!

- لقد وجدوا شخصًا لا يتورع عن القيام بمثل هذه المهمة. ولقد
كنت شخصيًا على استعداد للإجهاد عليه، وإنني لم أكن الشخص الذي
فعل ذلك، لقد كنت الذي يصلح لذلك بالضبط.

فقال باثل في لهجة ودية:

- لا تقل مثل هذه الأشياء يا نيقولاي.

فهتفت الأم في حنان:

- لقد أصبت... فإنك تزمجر كالأسد، بينما قلبك مثل قلب الحمل،

فلم ذلك؟

كانت مسرورة لرؤية نيقولاي تلك الليلة، بل قد بدا وجهه المجدور

أكثر جاذبية من ذي قبل .

قال لبافل وهو يهز كتفيه:

- إنني أصلح لمثل هذا فقط... إنني أفكر دون انقطاع... ماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شيء. أنتم تتحدثون مع الناس، بينما لا أعرف كيف أحادثهم... إنني أرى كيف تسير الأمور، وكيف يخطئ الناس، ولكن لا أستطيع أن أعبر عن ذلك بالكلمات. إنني أشبه وحشًا أخرس!

وعبر الغرفة إلى بافل، وأطرق بعينه، وراح يقول بنغمة صبيانية تختلف كل الاختلاف عن نغمته المعتادة، وهو لا يكف ينقر على المائدة بأصابعه.

- أعطني عملاً شاقاً أقوم به، أيها الأخ، فإنني لا أقوى على الاستمرار في العيش هكذا. إنكم جميعاً منهمكون في أعمالكم، إنني أرى كيف تتطور وتنمو... ولكنني أقف بعيد لا أفعل شيئاً سوى رفع الجذوع والأخشاب. لا يوجد لدي شيء أعيش من أجله، أعطني عملاً شاقاً!

تناول بافل يده وسحبه إليه قائلاً:

- سنعطيك!

ومن وراء الحاجز، جاء صوت الأوكراني:

- سأعلمك كيف تصف الأحرف، في مطبعتنا يا نيقولاى. ما رأيك

في هذا؟

فذهب إليه نيقولاى وقال:

- إذا علمتني... ف..... سأعطيك سكينى.

فصاح الأوكراني منفجرًا من الضحك:

- إلى الشيطان بسكينك!

فألح قائلاً:

- إنها سكين جيدة.

وضحك باثل أيضًا. فوقف نيقولاوي وسط الغرف وسأل:

- أتضحكان مني؟

فقال الأوكراني وهو يقفز من سريره:

- بالطبع... استمعاً إليّ... فلنذهب في نزهة عبر الحقول. إنها ليلة.

فهل تذهب؟

قال باثل:

- حسنًا جدًا.

وقال نيقولاوي:

- وسأتي أيضًا... فإني أحب أن أسمع الأوكراني وهو يضحك.

فقال الأوكراني وهو يقهقه:

- وأنا أحب أن تعدني بالهدايا.

ثم دخل إلى المطبخ ليرتدي ملابسه، فحثته الأم قائلة:

- ارتد بعض الملابس الثقيلة.

وعندما غادر ثلاثتهم البيت... أخذت ترقبهم من خلال النافذة لفترة

من الزمن، ثم استدارت إلى الأيقونات وغمغمت قائلة:

- يا إلهي العزيز، وفقهم وأعنهم!

- ٢٦ -

مرت الأيام بسرعة، بحيث إن الأم لم تجد فسحة من الوقت للتفكير في اقتراب يوم أول مايو. لكن حين كانت تستلقي في فراشها في الليل منهكة من ضوضاء اليوم الصاخبة، كانت تشعر بألم بطيء في قلبها فكانت تفكر:

- لو أنه يأتي سريعاً!

وكانت الصفارة تدوي في الفجر، فيخرج ابنها وأندري عقب تناول طعام الفطور على عجل، تاركين لها عشرات المهام، لتقضيها لهما، فكانت تهرع طيلة اليوم من هنا إلى هناك، كسنباب في قفص، تعد الغداء، وتصنع لصاقاً وحبراً أحمر للفتات التي كانا يعدانها، وتتحدث إلى الأشخاص المجاهولين الذين كانوا يظهرون خفية ويسلمونها رسائل إلى بافل، ثم يختفون بنفس الغموض الذي ظهروا به، تاركين لها بعضاً من لهفتهم واضطرابهم!

وفي كل ليلة تقريباً كانت تلصق نداءات إلى العمال للاشتراك في احتفالات يوم أول مايو على الحواجز وحتى على أبواب مركز البوليس. وفي كل يوم كانت توجد منشورات في المصنع. وكان رجال البوليس يسرون كل صباح عبر حي العمال، يشتمون وهم يمزقون اللافتات ويزيلونها، ولكن في وقت العشاء كانت الريح تدفع منشورات جديدة

تحت أقدام المارة. وأرسل عدد من رجال البوليس السري من المدينة فاتخذوا أماكنهم عند زوايا الشوارع ومنعطفاتها يبحثون في وجوه العمال الذين كانوا يخرجون من المصنع جذلين في ساعة العشاء، فالكمل كان يجد متعة في مشاهدة عجز البوليس عن مواجهة الموقف، وحتى الشيوخ من العمال كانوا يتسمون ويقولون:

- انظروا ما هم فاعلون!

وكانت تشاهد جماعات العمال في كل مكان تناقش النداء بحماس. وكان في الجو كثيرًا من الלהفة والهيّاج. ووجد كل شخص الحياة ألد في ذلك الربيع؛ لأنه كان هناك شيء جديد فيها. كان هناك بعض الناس غاضبين أكثر من أي وقت مضى، يلعنون الثوار في كل مكان، وآخرين يشعرون بأمل مبهم وفزع، وكان هناك فريق ثالث أيضًا يتمتع بلذة معرفة أنهم هم الذين هيجوا الناس، إلا أنه كان الأقلية.

أما بافل وأندري، فكانا لا ينامان تقريبًا، يحضران إلى البيت مع الفجر شاحبين، مبحوحين ومنهوكين. كانت الأم تعرف أنهما يعقدان اجتماعات في الغابات، وكانت تعرف أيضًا أن دورية من الفرسان تدور في المنطقة التي حول الحي في الليل، وأن رجال البوليس السري في كل مكان يمسكون بالعمال ويفتشونهم، ويفضون أي جماعات من الناس يقابلونها، وفي بعض الأحيان يقومون باعتقالات. وأدركت أن ابنها وأندري يواجهان خطر الاعتقال باستمرار، فكانت تكاد تريدهما أن يعتقلا؛ لأنها تعتقد أن هذا أفضل لهما.

ولسبب ما غريب هدأت قضية قتل ضابط الوقت. أجرى البوليس

المحلي تحقيقاً استغرق يومين، ولكن بعد استجواب ما يقرب من عشرة أشخاص أهملوا القضية.

وذات يوم قالت ماريا كورزونوفا التي كانت على علاقة طيبة بالبوليس:

- يا لها من فرصة كبيرة للعثور على القاتل، لا بد أن مائة شخص رأوا إيساي ذلك الصباح، وتسعون منهم كانوا سيسرون للتخلص منه، فمئذ سبع سنين وهو يغري الناس...

تغير الأوكراني بشكل ملحوظ، فنحل وجهه وشحب، وانتفخت أهدابه، فقفل عينيه الواسعتين نصف إقفال، وشوهدت خيوط رفيعة تنحدر من خياشيمه إلى زوايا فمه، وقل حديثه عن الأشياء العادية، وازدادت فترات حماسه وجذله، فكان يسر سامعيه بحديثه عن المستقبل الذي سيسود فيه العقل والحرية.

وسرعان ما تلاشى الحديث عن إيساي، وقال أندري بابتسامة اشمئزاز:

- إنهم لا يهتمون بالشعب على الإطلاق، حتى ولا بأولئك الذين يستخدمونهم ضدنا، ولا حتى يأسفون لضياح مأجورهم، بل يأسفون لضياح مالهم فقط.

فقال باثل في حزم:

- يكفي هذا الكلام يا أندري.

وقالت الأم:

- إن العفن يتحطم من أول لمسة، هذا كل ما هنالك.

فأجاب الأوكراني مكتئبًا:

- هذا صحيح، إلا أنه لا يسري كثيرًا.

كثيرًا ما كان يقول هذا، وعندما كان يقوله، كانت الكلمات تتوسع بحيث تصبح تعميمًا مرًا لا دعًا.

وحل أخيرًا اليوم المرتقب - يوم أول مايو.

ودوت الصفارة بحزم كعادتها، فقفزت الأم، التي لم يغمض لها جفن طوال الليل، من سريرها، وأوقدت الساموفار الذي كانت قد أعدته في المساء.

وكانت على وشك قرع باب غرفة الشابين كعادتها، ولكنها فكرت أنه من الأفضل ألا تفعل ذلك. جلست بجانب النافذة ووضعت يدها على خدها، كما لو كانت تشكو ألمًا في أضراسها.

ومر في السماء الزرقاء الباهتة سرب من الغيوم البيضاء الوردية كسرب من الطيور الكبيرة المذعورة من صفير بخار المصنع. راقبت الأم الغيوم غارقة في أحلامها. كان رأسها مثقلًا وعيناها جافتين متلهفتين من سهاد الليلة السابقة، وكان يملأها هدوء غريب، وقلبها يدق بانتظام وعقلها مشغول بأفكار بسيطة.

- لقد أوقدت الساموفار مبكرة، فسيغلي الماء... وهما منهكان، فليناما بعض الشيء هذا الصباح.

ونظر شعاع الشمس المبكر بجذل إلى النافذة، فمدت يدها، وحين

استقر الدفء البراق عليها، تحسستها بيدها الأخرى وهي تبتسم في تأمل.
نهضت أخيراً فرفعت الأنبوبة عن الساموفار واغتسلت، وأنشأت تصلي
راسمة إشارة الصليب، محرقة شفيتها بهدوء وحرارة، فتألق وجهها وبدأ
حاجبها اليمين يرتعش.

ودوت الصفارة الثانية، إلا أنها لم تكن عالية عادية كالأولى، غير أنه
كان في صوتها الغليظ الندي بعض الاهتزاز، وتصورت الأم أن الصفارة
دوت أكثر من المعتاد.

وأتاها من الغرفة المجاورة صوت الأوكراني العميق الصافي:

- أسمع ذلك يا بافل؟

وقرعت الأرض أقدام حافية لشخص ما، وتشاءب أحد الشابين
بحرارة.

فصاحت الأم:

- الساموفار معد.

فأجاب بافل بفرح:

- سننهض.

وقال الأوكراني:

- إن الشمس تشرق، ولكن هناك بعض الغيوم في السماء، بوسعنا أن
نستغنى عن الغيوم اليوم!

ودخل إلى المطبخ مثنيًا مغضوضن من النوم، ولكن في حالة نفسية
طيبة للغاية وقال:

- صباح الخير يا نينكو، كيف كان نومك؟

تقدمت الأم منه وقالت في رقة:

- سر بجانبه يا أندروشا.

فهمس الأوكراني:

- سأفعل، باستطاعتك أن تتأكدي يا نينكو أنه طيلة ما نحن معًا سنسير بجانب بعضنا بعضًا.

سأل باثل:

- عمّ تتها مسان؟

- لا شيء بالذات يا باشا!

فقال الأوكراني ذاهبًا إلى المدخل ليغتسل:

- إنها تقول لي أن أنظف وراء أذني، فالفتيات سيرمقني اليوم!

فغنى باثل بهدوء:

- هبوا، أيها العمال للكفاح، هبوا...

وتحسن الجو مع تقدم اليوم، ودفعت الريح الغيوم بعيدًا.

وهزت الأم رأسها وهي تعد مائدة الفطور، مفكرة في نفسها، كم كان الأمر كله غريبًا، فها هما يلقيان النكات هنا ويضحكان، ولا أحد يعرف ما ينتظرهما خلال اليوم، وبطريقة ما شعرت بالهدوء والسرور.

وتلكأوا في تناول الطعام حتى يمر الوقت، فحرك باثل السكر في قدحه بعنايته البطيئة المعتادة، ورش الملح بنظام على الخبز... على

قشرة الخبز التي كان دائماً يفضلها ويحبها. حرك الأوكراني قدميه تحت المائدة (لم يستطع أبداً أن يجد مكاناً مريحاً لقدميه، وراقب شعاع الشمس المنعكس في الشاي يتراقص على الحائط والسقف)، وقال:

- حين كنت في العاشرة من عمري، كنت أعتقد أنني أستطيع إمساك الشمس في كوب، فأخذت كوباً وبحذر تقدمت من بقعة شمس، ووضعت عليها الكوب بقوة فجرحت يدي، وأصابني ضرب كثير، وعقب الضرب خرجت إلى الحديقة، وعندما رأيت الشمس منعكسة في بركة ماء صغيرة سحقتها بكل قوتي، فأصاب ملابسي رذاذ الماء وضربت ثانية، فانتقمتم من الشمس بأن أخرجت لها لساني وصحت: إن ذلك لم يؤلمني، أيها الشيطان ذا الرأس الأحمر!

فضحك باثلاً وسأل:

- ما الذي دعاك لتسميتها ذو الرأس الأحمر؟!

- كان يقطن أماننا عبر الشارع حداد ذو وجه أحمر كبير ولحية حمراء، كان شخصاً جذاباً طيب القلب، وبدأ لي أن الشمس مثله!
وعندما لم تعد الأم تستحمل ذلك قالت:

- لماذا لا تتحدثون عن مظاهرة اليوم؟

فقال الأوكراني بلطف:

- إن الحديث عن شيء قد تقرر سيفسد الأمور. إذا حدث يا نينكو واعتقلونا جميعاً، فسيحضر نيقولا إي فانوفيتش ويخبرك بما تفعلين.
فقال الأم متنهدة:

- حسنًا!

وقال بافل حالمًا:

- ما رأيك لو خرجنا للمشى بعض الشيء؟

فأجابه أندري قائلاً:

- من الأفضل أن نظل في البيت الآن، لِمَ نعذب البوليس من الآن،
إنهم يعرفون عنك ما فيه الكفاية.

أتى فيودور مازن راکضًا، لامع الوجه، متورد الوجنتين، وقطع حماسه
الجدل انتظارهما المر.

قال:

- لقد بدأت الأمور، إن الناس في حالة هياج، يخرجون إلى الشوارع
وعلى وجوههم علامات التصميم وفيزوفشيكوف، وفاسيا جوسيف
وصامويلوف واقفون على أبواب المصنع يخطبون، ولكن عددًا كبيرًا من
العمال عادوا إلى بيوتهم. هيا بنا لقد حان الوقت، فالساعة بلغت العاشرة!

قال بافل في تصميم:

- إنني قادم.

وصاح فيودور وهو يركض مبتعدًا:

- ستري، سيخرج المصنع كله بعد الغداء!

فقالت الأم:

- إنه يحترق كشمعة في تيار الريح!

ثم نهضت وخرجت إلى المطبخ لتستبدل ثيابها.

- إلى أين أنت ذاهبة يا نينكو؟

قالت:

- معك!

فتل أندري شاربيه، ونظر إلى بافل، فتخلل بافل شعره بأصابعه ولحق

بها:

- لن أنفوه بكلمة لأمنعك يا أماء، وأنت لا تقولي لي شيئاً، هل

توافقين؟

فغمغمت الأم:

- موافقة... موافقة... ليباركك الله.

- ٢٧ -

عندما وجدت نفسها خارج البيت، وسمعت همهمة الأصوات الهائجة المترتبة في الهواء، ورأت جماعات الناس واقفة على أبواب المنازل ونوافذها ينظرون إلى ابنها وأندري في فضول وتساؤل، تراقص كل شيء أمام عينيها في مزيج أخضر رمادي قاتم.

تبادل الناس التحيات معها، فكان لكلماتهم مغزى خاص في هذا اليوم. التقطت الأم نَفْثاً من الملاحظات كانت تُتبادل بأصوات هادئة.

- ها هما القائدان.

- إننا لا نعرف من هم القادة.

- إنني لا أعني أي ضرر أو إساءة.

وصاح شخص من الفناء في غضب:

- سيلقي البوليس القبض عليهما، وستكون تلك نهايتهما.

- لقد ألقوا القبض عليهما مرة.

وقفز عويل امرأة من النافذة إلى الشارع:

- انتبه لما تعمل. تذكر أن لك عائلة ترعاها!

ومرا أمام منزل زوسيموف الذي فقد ساقيه، ويتقاضى الآن معاشاً شهرياً من المصنع؛ لأنه أصيب بهذه العاهة أثناء العمل، فأطل برأسه من النافذة وصاح:

- بافل! سيدقون عنقك، أيها الوغد، وستنال ما تستحق!

ارتعدت الأم، ووقفت جامدة، واندلع في نفسها غضب حاد ونظرت إلى وجه المُقعد المتورم الذي أدخل رأسه من الشباك شاتماً، فحثت خطاها إلى أن تبعت ابنها ومشيت في أعقابه محاولة ألا تتلصقاً.

وبدا كأن بافل وأندري لم ينتبها لأي شيء، ولم يشعرا بالملاحظات التي ينثرها الناس عند مرورهما، كانا يسيران بهدوء وبطء. أوقفهما مرة ميرونوف، وهو رجل متوسط العمر متواضع، يحترمه الجميع لأسلوبه المستقيم الوقور في الحياة. فسأله بافل:

- وأنت أيضاً قررت عدم الذهاب إلى العمل يا دانيلو إيثانوفيتش؟

- إن زوجتي على وشك أن تضع مولودًا، ثم بالإضافة إلى ذلك، إن يومًا كهذا يجعلك تشعر بالقلق.

ودقق النظر في رفيقه وهو يسألهما في صوت خفيض:

- إنهم يقولون إنكما تزمعان إثارة المتاعب للمدير في هذا اليوم...
تحطمون النوافذ. أصبح هذا؟

فهتف باثقل:

- لسنا سكارى!

وقال الأوكراني:

- كل ما ننويه هو السير في الشارع حاملين علمًا، وإنشاد بعض
الأنشيد، استمع إلى أناشيدنا، فإنها تعبر عن إيماننا.

قال ميرونوف مفكرًا:

- إنني أعرف إيمانكم، فأنا أقرأ صحفكم ومنشوراتكم.

ثم هتف مبتسمًا إلى الأم بعينه الذكيتين:

- آه! بيلاجيا نيلوفنا، هل انضممت إلى الثورة؟

- لا بد لي أن أسير مع العدالة مرة أخرى قبل أن أموت.

فقال ميرونوف:

- حسنًا، حسنًا، يبدو أنهم كانوا مصيبين في قولهم إنك أنت التي
أدخلت المنشورات الممنوعة إلى المصنع!

فسأل باثقل:

- من الذي قال ذلك؟!

- هم... هذا ما قالوه. حسنًا، إلى اللقاء، خذوا حذرکم!
ابتسمت الأم بهدوء، كانت مسرورة؛ لأنهم قالوا عنها ذلك.
فقال باثل ضاحكًا:

- ستنتهين في السجن فيما بعد يا أماء..

استمرت الشمس تتسلق السماء، فتصب دفتها في طراوة يوم الربيع
الهشة، وبطأت حركة السحب، فبهتت ظلالها، وأصبحت شفافة. كانت
تنسل برفق فوق الشارع والأسطح، تظلل الناس، وتنظف الحي، فتمسح
الغبار والقاذورات من فوق المنازل، وتمحو الضجر من على وجوه
الناس، فبدأ كل شيء مرحًا، وترددت الأصوات أكثر علوًا، حتى أغرقت
ضجيج الآلات البعيد.

ومرة أخرى أتت الكلمات متناثرة، تحبو إلى أذني الأم من النوافذ
والساحات... كلمات شريرة مفزعة، أو متأملة جذلة. إلا أنها كانت الآن
متلهفة لمعارضتها، أو توضيح الأمور لهؤلاء الناس، والتعبير عن امتنانها؛
كي تشترك اشتراكًا فعالًا في حياة ذلك اليوم المتباينة الغريبة.

وكان حشد من نحو مائة شخص قد تجمعوا في شارع ضيق جانبي،
ومن وسطهم جاء صوت فيزوفشيكوف:

- إنهم يعتصرون دماننا، كما يمتصون العليل من التوت البري!

كانت كلماته الغليظة تتساقط على رؤوس الناس بعنف وقوة.

وارتفعت عدة أصوات دفعة واحدة:

- هذا صحيح!

فقال الأوكراني:

- إن الفتى يحاول جهده. أعتقد أنني سأذهب لمساعدته...

وقبل أن يتمكن بافل من منعه، لوى جسده الفارع اللدن بين الحشد كالمبزال في الفلين، وهتف بصوته الفتى:

- أيها الرفاق، يقولون إن شعوبًا مختلفة تقطن الأرض... يهودًا وألمانًا وإنجليزًا وتتارًا، إلا أنني لا أؤمن بذلك، فهناك نوعان اثنان من الناس فقط - نوعان غير متكافئين - الأغنياء والفقراء. فالناس تختلف في لباسها، وتختلف في حديثها، ولكنكم حين ترون كيف يعامل أغنياء الفرنسيين والإنجليز والألمان العمال، تدركون أنهم جميعًا، بالنسبة لنا نحن العمال، أوغادًا حلت عليهم اللعنة.

وضحك شخص بين الحشد.

- ومن ناحية أخرى، إذا دققتم النظر ستجدون أن العمال الفرنسيين والتتار والأتراك، يعيشون حياة الكلاب، ذاتها التي نعيشها نحن العمال الروس.

وازداد عدد الناس القادمين إلى الشارع الجانبي، يمشون أعناقهم ويقفون على أطراف أصابعهم، دون أن ينبسوا بكلمة، وارتفع صوت أندري:

- لقد أدرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة... واليوم، يوم أول مايو..

وصاح شخص:

- البوليس...!!

تقدم أربعة من فرسان البوليس إلى الشارع الجانبي يطرقعون سياطهم
ويصيحون:

- تفرقوا...!!

فعبس الناس وتراجعوا على مضض، وتسلق بعضهم الحواجز.
وصاح أحدهم في تحدي:

- يعتقدون أنهم جنود شجعان، ولكنهم مجرد خنازير فقط!

ظل الأوكراني، حيث كان في منتصف الشارع، فتقدم جوادان منه
يهزان رأسيهما، فخطى إلى أحد الجانبين ليفسح لهما الطريق، وفي تلك
اللحظة أمسكت الأم بيده، وجرت خلفها وهي تصيح:
لقد وعدت أن تبقى بجانب بافل، وها أنت تبحث عن المتاعب
بنفسك.

قال الأوكراني مبتسمًا:

- ألف معذرة!

شعرت بلاجيا بتعب وإنهاك يندران بسوء، انبعثا من أعماقها،
فأصاباها بدوار، وأدخلا على نفسها تناوبًا غريبًا من السرور والحزن،
فودت لو تدوي صفارة الغداء.

وبلغوا الكنيسة التي في الميدان، حيث تجمع في فنائها حوالي
خمسمائة شاب وطفل صاخبين.

كان الجمع يتمايل إلى الأمام والخلف، ويرفع الناس رؤوسهم وينظرون بعيداً في انتظار شيء، وقد نفذ صبرهم. كان الجو مشبعاً بالهياج، وبدا بعض الناس لا يدرون ما يفعلون، بينما أخذ آخرون سيماء الشجاعة. كانت أصوات النساء ترتفع في اضطراب، فيحيد عنهن الرجال في امتعاض، وفي بعض الأحيان كانت تسمع شتائم خفيضة. كان يرتفع من الحشد المختلط لعلعة عدااء مغتمة.

صاحت امرأة في صوت مرتعش:

- ميتنكا أرفق بنفسك.

فجاء الجواب:

- دعيني وشأني!

ورن صوت سيزوف القاسي هادئاً مقنعاً يقول:

- يجب ألا نترك الشباب في الوحل، إن لديهم إدراكاً وشجاعة أكثر مما لدينا. من هم الذين دافعوا عن مصالحنا في قضية كوبيك المستنقع؟ إنهم هم، ويجب أن لا ننسى ذلك. لقد أُلقي بهم في السجن، من أجل ذلك، ونحن الذين جنينا الفائدة.

دوت الصفارة، فابتلعت أصوات الناس في هدير صوتها الأسود، فأرسلت في الناس موجة من الارتعاش، فنهض الجالسون، وصمت الكل برهة، وتيقظوا، بينما شحبت وجوه عدد كبير منهم.

وجاء صوت بافل القوي الفتى:

- أيها الرفاق!

فلذعت الدموع الحارة في عيني الأم، وشعرت بموجة من القوة،
وبحركة سريعة واحدة احتلت مكانها بجانب ابنها الذي تراص الناس
حوله كقطع من الفولاذ حول المغناطيس.

نظرت الألم إلى وجهه، فرأت عينيهِ الفخورتين الملتهبتين.

- أيها الرفاق! لقد قررنا أن نعلن اليوم بصراحة عمن نكون، ونرفع
رايتنا، راية العقل والعدالة والحرية.

وومضت في الجو عصا بيضاء طويلة، ثم انغمست بين الجماهير
فشطرتها واختبأت بينها، إلى أن ارتفع بعد هنيهة علم الطبقة العاملة فوق
الوجوه المشرّبة، كطير أحمر كبير.

ورفع بافل يده، فخفق العلم، وامتدت عشرات الأيدي تمسك بعصى
العلم البيضاء الملسة، وكانت يد الأم إحدى هذه الأيدي.

وصاح بافل:

- عاشت الطبقة العاملة!

فهدرت مئات الأصوات مجيبة:

- عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي... حزبننا نحن أيها
الرفاق، نتاج أفكارنا.

فاجتاح الحماس الناس كالغليان، واندفع الذين يدركون معنى العلم
يشقون طريقهم نحوه، فوصل مازن وصمايلوف والإخوة جوسيف إلى
مكان بافل، بينما أخذ نيقولاوي يشق طريقه، خافض الرأس، عبر الحشد،
وشعرت الأم بأن شبابًا وامض العينين لا تعرفهم يدفعونها جانبًا.

وصاح باقل:

- عاش عمال العالم!

فأجابته صيحة واحدة منبعث من الأعماق من آلاف الحناجر في
موجة عارمة من الفرح والقوة.

أمسكت الأم يد نيقولاي وشخص آخر، وخنقتها الدموع، ولكنها لم
تبك وارتجفت ركبتها وغمغمت من خلال شفتين مرتعشتين:

- يا أعزائي!

وانتشرت ابتسامة عريضة على وجه نيقولاي الذي تعلوه آثار
الجدري، وغمغم بشيء وهو ينظر إلى العلم، ومد يده نحوه وألقى ذراعه
فجأة حول عنق الأم، وقبلها ضاحكًا.

قال الأوكراني وصوته العذب الرخيم يطغي على لغط الجماهير:

- أيها الرفاق! لقد بدأنا في حملة مقدسة باسم إله جديد، إله النور
والعقل، إله الطيبة والحقيقة، إن هدفنا بعيد، ولكن إكليل الشوك على
مقربة من يدنا. فإذا يفتقر أحد إلى الإيمان بانتصار الحقيقة، إذا يفتقر أحد
إلى الشجاعة لتكريس حياته إلى هذه الحقيقة، أو إذا يشك في شجاعته،
ويخاف من العذاب، فيتخلف عنا. إننا نريد أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا
فقط، إن أولئك الذين لا يرون هدفنا يجب ألا يسيروا معنا؛ لأنهم لن
يحققوا سوى الحزن. ضموا الصفوف أيها الرفاق، عاش عيد الناس
الأحرار، عاش يوم مايو!

وازداد الجمع، ورفع باقل العلم، فانبسط في الهواء وهو يتقدم به

تغمره الشمس، وهو يتسم ابتسامته العريضة المضيئة.

وأخذ فيودور مازن يغني:

- لتتخلص من العالم القديم إلى الأبد...

وارتفعت عشرات الأصوات في موجة رقيقة قوية لتنضم إليه.

- وننفذ غباره عن أقدامنا!

كانت الأم تسير خلف مازن، ابتسامة مضيئة على شفثيها، وعيناها
تسعيان من فوق رأس مازن إلى العلم وإلى ابنها وأندري. كانت تستطيع
سماعهما يغنيان، فيختلط صوت أندري الجمهوري الرنان بصوت بافل
الخفيض العميق.

- هبوا للنضال، أيها العمال... هبوا..

- هبوا يا من يعملون ويجوعون!

وهرع الناس نحو العلم الأحمر، يصيحون، ولكن صياحهم كان
يذوب في صوت الأغنية... تلك الأغنية التي كانوا يغنونها بصوت خفيض
في المنزل، إلا أنها تدوي هنا في الشارع الآن بقوة هائلة غير مكبوحة.
كانت ترن في شجاعة لا تقهر، وتتحدى الناس أن يتخذوا الدرب الطويل
الذي يقود إلى المستقبل، ولكنها كانت تحدثهم بصراحة عن صعوبته.
كان لهيب النشيد الهادئ يستهلك كل فضلات الماضي السوداء، ويذيب
كل حثالة العواطف التقليدية، ويحيل خوف الجدد إلى رماد.

وتمايل بجانب الأم وجه خائف سعيد، وهتف صوت شاكيًا منتحبًا:

- ميتيا! إلى أين أنت ذاهب؟

فقلت الأم دون أن تتوقف:

- دعيه يذهب، لا تقلقي من أجله، لقد كنت أخاف مثلك في بادئ الأمر، والآن يحمل ابني العلم في المقدمة.

- إلى أين أنتم ماضون أيها المجانين، إن الجنود أمامكم هناك.

وأمسكت المرأة الفارعة النحيفة الأم فجأة بيد نحيلة وهتفت:

- استمعي إليهم يغنون يا عزيزتي... وميتيا ينشد معهم أيضًا!

فحثتها الأم قائلة:

- لا تجزعي، إن قضيتهم مقدسة. فقط أن المسيح لما أتى لو لم يمت الناس من أجله.

ومضت تلك الفكرة في ذهنها فجأة وغمرتها بحقيقتها الواضحة البسيطة، فنظرت إلى وجه المرأة التي كانت لا تزال تمسك يدها، ورددت في ابتسامة دهشة:

- ما أتى المسيح لو لم يمت الناس من أجله... من أجل الرب.

اقترب سيزوف منها وقال رافعًا قبعته ملوحًا بها في تناسق مع الأغنية:

- إنهم يسировن علانية اليوم، ينشدون أغنية، ويا لها من أغنية يا أماه،

إيه!

- القيصر يحتاج إلى جنود ليرسلها إلى حروبه، فسلموه إذن أبناءكم..

فقال سيزوف:

- إنهم لا يخافون شيئًا... وابني المسكين في قبره....

كان قلب الأم يدق في عنف، فاضطرت إلى التأخر، وبسرعة دفعت جانباً، وألقيت على حاجز، بينما تدفق الناس أمامها في موجة واسعة. كان هناك الكثير منهم فجعلها هذا سعيدة راضية.

- هبّوا للنضال، أيها العمال، هبّوا!

وبدا كأن بوقاً كبيراً من النحاس يسكب هذه الأغنية في الهواء، فيوقظ الناس ويبعث في بعضهم الاستعداد للقتال، وفي بعض آخر فضولاً مشتتاً، شعور مبهم بالسرور، بوجود شيء جديد، وأيقظ هنا آملاً مترددة، وفتح هناك أبواب فيضان من الغضب الذي تجمع على مر السنين. وكان الجميع ينظرون إلى الأمام، حيث كان يرفرف العلم مع النسيم.

وصاح صوت بحماس:

- ها هم ذاهبون ما أروع ذلك أيها الفتیان!

وبما أن الشخص كان ممثلاً بشعور عظيم، تعجز الكلمات العادية عن التعبير عنه، بدرت منه شتيمة عالية. إلا أن الحقد، حقد العبيد الأسود الأعمى، كان يصفر كأفعى وقع عليها شعاع من الشمس، ووجد تعبيراً له في كلمات بذيئة.

وقال شخص متذمراً، وهو يلوح بيده من النافذة:

- يا للكفرة!

وجاء صوت شخص آخر كعواء الكلاب:

- إنهم ناثرون ضد صاحب الجلالة الإمبراطور، ضد صاحب الجلالة

القيصر، إنها ثورة!

والتقطت الأم لمحات وجوه قلقة، والرجال والنساء يتلاحقون أمامها. واستمر الحشد يصب أكثر فأكثر، كحمم البركان، تجذبه الأغنية إلى الأمام، التي كانت تبدو أنها تجتاح كل ما أمامها، فتطهر الطريق بقوة أثرها المجرد. نظرت إلى العلم الأحمر بعيداً عنها، وتصورت وجه ابنها، حاجبه البرونزي، وعيناه تشعان بنور الإيمان.

ووجدت نفسها في مؤخرة الموكب، بين أناس يسرون ببطء، ينظرون حولهم في لا مبالاة المتفرجين الباردة، الذين يعرفون نهاية المسرحية. كانوا يتحدثون بلهجة واقعية وباقتناع تام:

- توجد ثلة من الجنود مرابطة في المدرسة، وأخرى في المصنع.

- لقد جاء الحاكم.

- حقاً!

- رأيته بأعينه. لقد وصل الآن!

- لقد خشونا أخيراً... فكر في ذلك: الجنود والحاكم...

وأرسل المتكلم بعض الشتائم في مرج.

ففكرت الأم:

- آه! يا لكم من نفوس طيبة...

ولكن الكلمات التي سمعتها ترددت باردة ميتة، فحشت الخطى حتى تبعد عن هؤلاء الناس. كان من السهل تجاوزهم؛ فهم يسرون ببطء وكسل.

وفجأة بدا أن مقدمة الموكب قد اصطدمت بشيء ما، فتراجع مزيجاً

في خوف، وارتعشت الأغنية، ولكن لتعود ثانية أكثر ارتفاعًا وأسرع نغمًا،
ثم عادت فخفت وتوقف الناس عن الغناء واحدًا واحدًا.

وارتفعت أصوات متفرقة تحاول أن تعود بالنشيد إلى قوته السابقة:

– هبّوا للنضال، أيها العمال، هبّوا!

– هبّوا أيها العاملون الجوعى.

ولكن لم يكن في هذه المحاولة الإرادة المشتركة والإيمان المتراس.
كان يشوب الأصوات الآن فزع وخوف!

وبما أن الأم لم تعد ترى الصفوف الأمامية، ولم تعرف ما حدث،
أخذت تدفع المشاة جانبًا وتشق طريقها إلى الأمام، فتصطدم في تقدمها
بأناس يتراجعون، بعضهم عابس منكس الرأس، وبعض آخر يتسم في
هزيمة وفشل، بينما فريق ثالث يصفر في سخرية، فتفرست في وجوههم،
عينها مليئتان بتساؤل ورجاء ودعاء.

وجاء صوت باقل:

– أيها الرفاق! إن الجنود أناس من طينتنا، لن يمسونا، ولم يمسونا
لأننا نعلن الحقيقة التي يجب أن يعرفها الجميع، يجب أن يسمعوها هم
أيضًا، إنهم لم يدركوها بعد، ولكن الزمن الذي سينضمون فيه إلى صفوفنا
تحت راية الحرية بدلًا من معارضتنا تحت راية القتل والسرقة ليس ببعيد،
ويتعين علينا؛ كي نعجل في إدراكهم لهذه الحقيقة، أن نستمر في السير
إلى الأمام. أيها الرفاق، إلى الأمام دائمًا!

كان صوت باقل يتردد في ثبات، وكلماته ترن في حدة ووضوح، إلا

أن الجمع كان ينفرط، وأخذ الناس واحدًا تلو الآخر يتركون الصفوف، ينصرفون إلى بيوتهم، أو يميلون على الحواجز، فأصبح شكل الموكب الآن كالإسفين: باثل في المقدمة، وعلم العمال الأحمر يخفق متألقًا فوق رأسه، أو لعل الموكب كان يشبه بالأحرى طائرًا أسود فارد الجناحين متهيئًا للطيران، وكان باثل يمثل منقار هذا الطائر.

- ٢٨ -

رأت الأم في نهاية الشارع جدارًا رماديًا من أناس متراصين لا ترى وجوههم، كلهم متشابهون يسدون مدخل الميدان، ومن كتف كل واحد منهم صدر بريق نصل خافت، وكان يأتي من ذلك الجدار الصامت الذي لا حراك فيه تنفس ثلجي يغلف العمال ويبعث الارتعاش في قلب الأم.

شقت طريقها بين الجموع محاولة الوصول إلى المكان الذي تجمع فيه من تعرفهم من الناس حول العلم بالاشتراك مع آخرين لا تعرفهم، يبدو أن أصدقاءها يحاولون كسب تأييدهم. ضغطت بقوة على رجل طويل، حليق أعور، لفت رأسه نصف لفئة، ونظر إليها وسألها:

- من أنت؟

فقالت مدركة أن ركبتيها ترتعشان، وأنها عاجزة عن التحكم في شفتيها السفلى:

- إنني أم باثل فلاسوف.

فقال الرجل الأعور:

- أواه!

فقال بافل:

- أيها الرفاق، يجب أن نسير إلى الأمام طيلة حياتنا، فليس لنا طريق
سواه.

وخيم الصمت والتحفز على الناس، وُرفِع العلم، فتمايل برهة ثم
خفق فوق رؤوسهم وهو محمول إلى الأمام تجاه حائط الجنود الرمادي.
ارتعشت الأم وأغلقت عينيها وندت عنها شهقة: أربعة أشخاص: بافل،
وأندري، وصمايلوف ومازن، تقدموا الجمع بكثير.

وجاء صوت فيودور مازن صافياً عبر الهواء:

- سقطت ضحية النبيل...

وأتى ترديد الجمع في أصوات خفيضة كزفرة عميقة:

- في معركة ليست متكافئة...

وتقدم الأربعة إلى الأمام على نغم اللحن.

وجاء صوت فيودور كشريط برّاق، مليئاً بالتصميم، ومعلنًا هذا
التصميم:

- ووهبت كل ما تملك.

وانضم إليه رفاقه في غناء السطر الثاني:

- من أجل قضية الحرية.

وقال شخص وهو يدقق النظر في جانب ما:

- أها! إن أبناء العاهرات يغنون مرثاة.

فصاح صوت غاضب:

- اضربوه!

ضمت الأم يديها إلى صدرها، ونظرت حولها، ورأت أن الجمع الذي كان يملأ الشارع أخذ يتردد، وشاهدت الرجال الأربعة يتقدمون حاملين العلم، ولحق بهم عدد ضئيل، ولكن مع كل خطوة تخلف شخص، كأن الأرض تلسع بطون أقدامهم.

وغنى فيودور متنبئاً:

- وسيوضع حد للعنف!

فغنت مجموعة من الأصوات القوية محذرة بتصميم:

- وسوف يهب الشعب!

ولكن همسات خافتة اختلطت بالغناء:

- إنهم على وشك أن يصدروا الأوامر!

وبكل تأكيد جاءت من بعيد صيحة حادة:

- أنزلوا البنادق!

وفي هذا الخط المتموج خفضت النصول فحييت العلم المتقدم
بابتسامة فولاذية مأكرة:

- إلى الأمام سر!

فقال الرجل الأعور مدخلاً يديه في جيبيه، ومبتعداً إلى أحد الجانبين:

- ها هم يتقدمون!

راقبت الأم ذلك، دون أن يرف لها رمش.

وتقدم الجند عبر الشارع كموجة رمادية تتقدم في عناد بارد يغطيها
بريق النصول الفضي. وبخطوات سريعة اقتربت من ابنها فرأت أندري
يتقدم أمامه ليحميه بجسمه الطويل.

فصاح بافل بحدة:

- عد إلى مكانك، أيها الرفيق!

كان أندري يغني مرفوع الرأس، يده خلف ظهره، فدفعه بافل بكتفه
وصاح مرة ثانية:

- ارجع! ليس من حقك أن تفعل ذلك، يجب أن يتقدم العلم أولاً!

قال ضابط ضئيل رفيع الصوت آمرًا وهو يستل سيفه:

- انصرفوا.

كان يرفع ساقيه عاليًا وهو يسير دون أن ينثني ركبتيه، ويقرع الأرض
بعنف بنعل حذائه، انتهت الأم إلى لمعان حذائه.

وكان يسير إلى جانبه، على قيد خطوات إلى الخلف، رجل حليق
الشعر، ذو شارب كث رمادي، كان يرتدي معطفًا رماديًا طويلًا ذا خطوط
حمراء، وكان هناك خط أصفر عريض ينحدر على جانبي سرواله. كان
يسير كالأوكراني، يديه خلف ظهره، وعيناه ذات الحاجبين الكثرين مثبتتان
على بافل.

ولم تستطع عينا الأم استيعاب كل ما رأت، وكانت تملأ صدرها

صرخة عالية ممتلئة، تهدد بالانفجار مع كل نفس، وتخنقها. إلا أنها أمسكت بصدرها ومنعتها من الانفجار، ودفعها الناس، فتمايلت على قدميها وهي تندفع إلى الأمام دون تفكير، تكاد لا تعي شيئاً، وشعرت أن الجمع خلفها يضممر مع تقدم الموجة الباردة لمقابلته.

وتضاءلت أكثر فأكثر المسافة التي تفصل بين الناس الذين يحملون العلم الأحمر والموجة المتراسة من الناس الرماديين، واستطاعت الآن أن تتبين وجوه الجنود المتراسة... وجه مشوه استحال إلى شريط من الصفرة القذرة وانتشر دون تساو على عرض الشارع تتناثر منه هنا وهناك أعين متباينة الألوان، وإلى الأمام منه كانت تلتهم أسنة فولاذية رهيبة، صوبت إلى صدور المتقدمين، ففرقهم منظر الفولاذ، دون أن يمسه، وتدافعوا واحداً تلو الآخر!

وسمعت الأم أناساً يركضون خلفها، وأصواتاً هائجة تصيح:

- تفرقوا أيها الناس!

- اهرب يا فلاسوف!

- عد يا باقل!

وصاح فيزوفشيكوف مكتئباً:

- اخفض العلم يا باقل أعطنيه سأخيه!

وقبض على العصا، فمال العلم إلى الخلف، فصاح باقل:

- دعه!

رد نيقولاي يده إلى الخلف، كأنها أصيبت بحروق. وماتت الأغنية،

وتوقف الناس، وشكلوا جدارًا منيعًا حول بافل، ولكنه شق طريقه إلى
الأمام. وبغته خيم صمت كأنه نزل من أعلى، فغلف كل واحد في سحابة
غير منظورة.

وأحاط بالعلم نحو عشرين شخصًا لا أكثر، ولكنهم كانوا يقفون في
مراكزهم ثابتين، فجذب الأم قلقها إليهم، ورغبة مبهمه اجتاحتها في قول
شيء لهم.

قال الرجل الطويل مشيرًا إلى العلم:

– خذ ذلك منه أيها الملازم.

ركض الضابط الضئيل إلى بافل، وأمسك بالعلم وصاح:

– دعه.

فقال بافل بصوت عال:

– ارفع يديك عنه!

اهتز العلم في الهواء، متمايلًا إلى اليمين وإلى اليسار، ثم عاد فانتصب
مستقيمًا. قفز الضابط إلى الخلف، ثم وقع إلى الأرض. ركض نيقولا
مارًا بالأم وهو يلوح بقبضة يده.

وصاح الشيخ وهو يضرب الأرض بقدمه:

– ألقوا القبض عليهم!

وهرع عدد من الجنود إلى الأمام، ولوح أحدهم بعقب بندقيته وترنح
العلم ووقع إلى الأمام، فاختفى بين جمع الجنود الرماديين.

فصاح شخص بمرارة:

- آه! يا الله!

وأطلقت الأم عويلاً كحيوان مجروح، فجاءها الجواب في صوت
بافل صافياً من بين الجنود:

- وداعاً يا أماء، وداعاً يا عزيزتي!

وانبثقت في رأسها فكرتان:

- إنه حي! لقد تذكرني!

- وداعاً يا نينكو.

وقفت على أطراف أصابعها كي تلمحهما، فرأت فوق رؤوس الجنود
وجه أندري مبتسماً ينحني لها، فصاحت:

- آه! يا عزيزي... أندروشا! باشا!

صاحا من بين الجنود:

- وداعاً أيها الرفاق!

فأجابهما صدى متعدد الأصوات، جاء من النوافذ، من مكان ما في
أعلى، من الأسطح نفسها...

- ٢٩ -

ضربها شخص في صدرها، فتبينت من خلال السحابة التي تغشو
عينها وجه الضابط الضئيل الأحمر المتوتر الذي يقف أمامها ويصيح:

- اغربي من هنا، أيتها المرأة!

غمرته بنظرة، فرأت تحت قدميه عصا العلم مكسورة إلى قسمين،
ولا تزال قطعة من القماش مربوطة إلى طرف إحداها، فانحنت والتقطتها.
اختطفها الضابط من يدها ودفعها جانباً وصاح ضارباً الأرض بقدمه:

- لقد قلت لك تحركي من هنا...

وارتفع من داخل حلقة الجنود غناء:

- هبّوا للنضال، أيها العمال، هبّوا!

وغام كل شيء وترنح، وبدا كما لو كان يسبح، وكان يملأ الجو
صوت متوعد، كهمة أسلاك البرق، فهرع إليه الضابط، وصاح في
غضب كعواء الكلاب:

- كفوا عن الغناء. أيها الجاويش كريانوف!

فذهبت الأم مترنحة إلى حيث ألقى عصا العلم المكسورة والتقطتها.

- أغلق لهم أفواههم القذرة!

ناضلت الأغنية، وارتعشت ثم تقطعت وتلاشت.

ووضع شخص يده على كتف الأم ودار بها ثم دفعها قائلاً:

- اذهبي... اذهبي...

وصاح الضابط:

- أخلوا الشارع!

رأت الأم جماعة أخرى من الناس على بعد عدة خطوات. كانوا

يصيحون ويتوعدون ويصفرون وهم يتراجعون في بطاء، ويختفون في
ساحات المنازل.

وصاح جندي شاب في أذن الأم، وهو يدفعها على الرصيف:

- هيا امضي، أيتها الشيطانة!

مضت معتمدة بثقل على عصا العلم، إذ إنها فقدت كل قوتها،
وكانت تستند بيدها الأخرى إلى الجدران والحواجز؛ حتى لا تقع.
استمر الناس يتراجعون بعيداً عنها، بينما كان يسير خلفها وبجانبها جنود
يصيحون:

- هيا امضوا، امضوا!

تركتهم يتجاوزونها، ثم توقفت ونظرت خلفها، فرأت في نهاية
الشارع عدداً أكبر من الجنود يسدون مدخل الميدان الخاوي، واستمرت
الأجساد الرمادية التي أمامها تدفع الجماهير.

ودت من صميم قلبها لو أنها تراجعت، إلا أنها تقدمت لا شعورياً إلى
الأمم، حتى وصلت إلى شارع جانبي ضيق انعطفت فيه.

ووقفت مرة أخرى وتنهدت بعمق، ثم أصاحت السمع، فأنى من
مكان ما من الأمم صوت همهمة الحشد.

وسارت من جديد متكأة بثقل على عصا العلم، يغمرها العرق
ويرتجف حاجباها وتختلج شفتاها، وتأتي يداها بحركات، بينما تومض
في ذهنها كلمات متقطعة كالبرق، تنمو حجماً إلى أن تندلع لهيب رغبة
عارمة للتعبير عن هذه الكلمات والتهاف بها عالياً.

انعطف الشارع الجانبي فجأة إلى اليسار، فرأت الأم حشدًا كبيرًا من الناس.

قال أحدهم في صوت عال قوي:

- إن المرء لا يذهب لملاقة صف من الحراب من أجل التسلية، أيها الإخوان!

- هل رأيت شيئًا مثل ذلك! الحراب موجهة إليهم وهم يقفون ثابتين في أماكنهم، ثابتين كالصخر غير هيايين أو خائفين.

- ذلك باثل فلاسو!

- والأوكراني؟

- يداه خلف ظهره مبتسمًا طيلة الوقت. يا له من شيطان لا يهاب!

فصاحت الأم وهي تشق طريقها إلى وسطهم:

- أيها الأصدقاء!

فأنفسحوا لها الطريق في احترام، وضحك أحدهم وقال:

- انظروا العلم معها... العلم في يدها!

فقال صوت جاف:

- أقفل فمك...

فتحت الأم ذراعيها وقالت:

- اسمعوا! باسم الرب. كلكم أيها الناس الطيبون... كلكم أيها الناس

الأعزاء، لا تخافوا من النظر إلى ما حدث. إن أولادنا، فلذات أكبادنا قد

خرجوا إلى العالم باسم العدالة من أجل الجميع، حملوا هذا الصليب

بحثاً عن يوم أكثر إشراقاً من أجل الجميع... ومن أجل أطفالكم الذين لم يولدوا... إنهم يريدون طرازاً آخر من الحياة... حياة الحقيقة والعدالة، إنهم يريدون الخير لجميع الناس.

كاد قلبها ينفجر في صدرها، وكانت حنجرتها ملتهبة جافة، ولكن كلمات جديدة عظيمة كانت تولد في أعماقها، كلمات حب يشمل كل شيء، فتلدع لسانها وتقصره على الحديث بطلاقة وقوة.

كانت تراهم ينصتون جميعاً إليها في صمت، فشعرت بأنهم يفكرون. نمت في أعماقها رغبة، فهمتها الآن بكل وضوح، رغبة في حثهم على اللحاق بابنها، وبأندري، وبجميع أولئك الذين سمحوا لهم بالوقوع في أيدي الجنود، جميع أولئك الذين تخلوا عنهم، تاركينهم إلى مصيرهم.

وألقت نظرة على الوجوه العابسة المتنبهة المحيطة بها، وقالت في إصرار رقيق:

- لقد خرج أولادنا إلى العالم بحثاً عن السرور، وقد فعلوا ذلك من أجلنا ومن أجل الحقيقة التي بشر بها المسيح. لقد خرجوا ليحاربوا كل شيء يستخدمه الأشرار من الناس، المزيفون الطماعون من الناس لقد ثار الشباب من أجلنا جميعاً، من أجل الطبقة العاملة في كل مكان. لا تتركوهم وتديروا لهم ظهوركم، لا تقصروا أولادكم على المضي وحدهم، فكروا في أنفسكم. ليكن عندكم إيمان في قلوب أولادكم الذين أعلنوا الحقيقة ويتألمون من أجلها، ليكن عندكم إيمان بهم...

وتهدج صوتها وترنحت خائفة على وشك أن يغمر عليها فأمسكها أحدهم.

وصاح صوت منفعل:

- إنها تقص الحقيقة... الحقيقة أيها الأخيار، فاستمعوا إليها.

وقال آخر في عطف:

- انظروا إليها كيف تعذب نفسها...

فاحتج ثالث قائلاً:

- إنها لا تعذب نفسها، إنها تعذبنا نحن أيها الحمقى، إنها تغرينا.

وصاحت امرأة بصوت عال مرتجف:

- أيها المؤمنون... إن ابني ميتا روح نقية طاهرة... ما هو الشر الذي

ارتكبه لقد تبع رفاقه الذين يحبهم فقط. إن ما تقوله هو الحق، لماذا نترك

أطفالنا في الوحل؟ ما هو الخطأ الذي ارتكبه؟

ارتجفت الأم عند سماع هذه الكلمات، وانخرطت في البكاء، وقال

سيزوف:

- عودي إلى بيتك يا بيلاجيا نيلوفنا. عودي يا أماء. لقد كفاك ما لاقيته

اليوم.

كان وجهه شاحباً ولحيته مشعثة. انتصب فجأة وألقى نظرة حادة

حوله وقال في لهجة مؤثرة:

- كلكم تعرفون أن ابني ماتشي قُتل في المصنع، ولكنه لو كان حيّاً

الآن لأرسلته بنفسه خلفهم، وراء الآخرين، ولقلت له بنفسه: «اذهب

أنت أيضاً يا ماتشي، إنه طريق الحق الوحيد. الطريق الشريف الوحيد».

وتهدج صوته، وصمت الجميع يعتصرهم شيء جديد هائل لم يعودوا يخافونه، وهز سيزوف قبضته المرفوعة وقال:

- إن الذي يتحدث إليكم رجل عجوز كلكم تعرفونني. عشت في هذا العالم ثلاثة وخمسين عامًا، وعملت هنا طيلة تسعة وثلاثين عامًا. واليوم أعادوا إلقاء القبض على ابن أخي، شاب طيب ذكي، كان يسير في المقدمة بجانب فلاسوف... بجانب العلم تمامًا!

ولوح بيده، فبدا كأن بعض الحياة تخرج منه، وقال ماسكًا بيد الأم:

- إن ما قالت هذه السيدة هو الحقيقة. إن أولادنا يريدون أن يحيا حياة شريفة معقولة، ولكننا تركناهم في الوحل... لقد تركناهم فعلاً. هيا يا بيلاجيا نيلوفنا!

فقالت وهي تنظر حولها بعينين محمرتين جاحظتين:

- أيها الناس الطيبون! الحياة لأولادنا، والأرض لهم!

وقال سيزوف وهو يناولها عصا العلم المكسورة:

- هيا يا بيلاجيا نيلوفنا، إليك عصاك.

راقبوا الأم في حزن واحترام، وهم يهمسون بكلمات مواسية، وشق سيزوف الطريق لها في صمت، فتنحى الناس في صمت أيضًا، وتبعوها، تدفعهم قوة لا يحIRON كنهها، وهم يتبادلون ملاحظات مقتضبة بأصوات خافتة.

وعندما وصلوا إلى باب بيتها التفتت إليهم، وانحنت متكأة على

العصا، وقالت في هدوء وامتنان:

- شكرًا لكم!

وإذ تذكرت الفكرة الجديدة التي خيل لها أنها ولدت في أعماق قلبها
أضافت قائلة:

- ما كان للمسيح أن يوجد ما لم يقدم الناس أرواحهم تمجيّدًا له!
فنظر إليها الحشد في صمت.

وانحنت ثانية إلى الناس، ودخلت بيتها، وحنى سيزوف رأسه وتبعها.
بقي الناس فترة هناك يتحدثون أمام الباب، ثم انصرفوا في بطاء...



القسم الثاني

انقضت بقية اليوم في ضباب من الذكريات، وفي عناء كبير اعتصر روحها وجسدها معاً، ورقصت أمام عينيها بقعة رمادية تمثل الضابط الضئيل، ووجه باقل البرونزي، وعينيّ أندري الضاحكتين.

وجالت في الغرفة فجلست على النافذة، ونظرت إلى الشارع، ثم نهضت وأخذت تذرّع الغرفة وحاجباها مرتفعان، مجفلة عند سماع أدنى صوت، ناظرة هنا وهناك، أو باحثة من غير شعور عن شيء ما. وجرعت بعض الماء، فلم يرو ظمأها، ولم يطفئ ذلك الأتون من الألم واللهفة المستعيرين في صدرها. لقد شطر اليوم إلى شطرين، كان للشطر الأول معنى، ولكن كل هذا المعنى تمزق وتلاشى في الشطر الثاني، فكانت تواجه الآن فراغاً كثيباً يبعث في نفسها السؤال التالي:

- وما العمل الآن؟

وجاءت كورزونوفا تزورها، فلوحت بيديها، وصرخت، وبكت،

وتملكها غيوبة، ثم ضربت الأرض بقدميها، وتوعدت ووعدت،
واقترحت، ولكن شيئاً من هذا لم يحرك الأم!

وجاء صوت البائعة المتجولة حاداً:

- آها! لقد ثار الناس! لقد ثار المصنع بأسره!

فقالت الأم بهدوء هازة رأسها:

- أجل!

ولكن عينيها كانتا معلقتين بالماضي، بكل شيء اخفى مع بافل
وأندري. ولم تستطع البكاء، فقد تقلص قلبها وجف. وشفتها أيضاً كانتا
جافتين، ولم تكن ثمرة رطوبة في فمها، وأخذت يداها ترتعشان، وقشعريرة
قصيرة تجري في ظهرها.

جاء الجنود في ذلك المساء، فقابلتهم دون عجب أو خوف، فدخلوا
إلى البيت في هدوء، تبدو عليهم علائم الغبطة والرضى عن أنفسهم.
وكشف الضابط الأصفر الوجه عن أسنانه مبتسماً، وقال:

- كيف حالك؟ هذه هي المرة الثالثة التي نتقابل فيها، إن لم أكن
مخطئاً؟

مررت لسانها على شفتيها الجافتين فقط. تكلم الضابط كثيراً محاولاً
أن يكون آمراً. وأدركت الأم أنه يسر من الحديث، ولكن كلماته لم
تزعجها، لا بل لم تبلغ سمعها. ولكن عندما قال:

- إنك أنت الملامة أيتها الأم؛ لأنك لم تحسني غرس احترام الله
والقيصر في ابنك.

أجابته في جفوة، من حيث كانت تقف بالباب:

- إن أبناءنا هم قضاتنا. إنهم سيحكمون علينا بما نستحق؛ لأننا تخلينا عنهم عندما انحدروا في طريق وعر كهذا.

فصاح الضابط:

- ما هذا؟ تكلمي....

فقالت الأم متنهدة:

- قلت إن أبناءنا هم قضاتنا.

فغمغم شيئاً بغضب، إلا أن كلماته لم تبلغ سمع الأم.

جاء كورزونوفا كشاهدة أثناء التفتيش، فوقفت بجانب بيلاجيا دون أن تنظر إليها. وكلما وجه الضابط إليها سؤالاً، كانت تنحني كثيراً وتردد الجواب ذاته:

- لا أعرف يا صاحب السعادة، فأنا امرأة جاهلة أكسب قوتي بتجارتي، وحمقاء حتى إنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق.

فصاح الضابط فيها أمراً في أول مرة وهو يفتل شاربه:

- أمسكي لسانك عن الكلام!

فانحنت ثانية، وما إن أدار ظهره، حتى لوت له أنفها وهمست في أذن الأم:

- هذا من أجله!

وعندما أمرت بتفتيش بيلاجيا طرفت عينيها وحملت في الضابط،

ثم قالت بصوت خائف:

- أوه! إنني لا أعرف كيف أقوم بعمل كهذا يا صاحب السعادة.

فضرب الأرض بقدمه، وصاح في وجهها، فخفضت بصرها وقالت
للأم:

- حسنًا! الأفضل أن تفكي أزرارك يا بيلاجيا نيلوفنا.

واصطبغ وجهها باللون القرمزي وهي تمرر يديها على ملابس الأم،
وهمست:

- إتفؤ....!! يا لهم من أوغاد.

فصاح الضابط ناظرًا إلى الزاوية التي يجري فيها التفتيش:

- ما الذي تقولينه؟

فتمتت ماريا في رعب:

- أمور نسائية يا صاحب السعادة!

وأخيرًا أمر الأم أن توقع الأوراق، فكتبت يدها التي لا عهد لها بشيء
من ذلك بأحرف كبيرة:

«بيلاجيا فلاسوقا، أرملة عاملة».

فزجر الضابط مكشّرًا:

- ما هذا الذي كتبتَه؟ لِمَ كتبت ذلك؟

ثم أضاف في ضحكة مقتضبة:

- يا لكم من همجيين!

ومضوا، فوقفت الأم بجانب النافذة عاقدة ذراعيها على صدرها، محمقة دون أن تطرف عينيها، ودون أن ترى شيئاً، وقد ارتفع حاجباها وانضمت شفتاها، وانطبق فكها بقوة، فشعرت سريعاً بالألم. وجف الزيت في المصباح، والفتيلة تغوص واللهب يرتجف، فأطفأته وبقيت في الظلام. كانت تجد صعوبة في التنفس بسبب الكرب الذي في قلبها، فلبثت واقفة، حتى تعبت عيناها وقدمها فآلمتها. وسمعت ماريا تقترب من النافذة وتصيح في صوت ثمل:

- هل نمت يا بيلاجيا؟ يا لك من مسكينة تتعذبين هكذا! اذهبي إلى فراشك!

استلقت الأم دون أن تخلع ملابسها، وسرعان ما غرقت في نوم عميق غمرها مثل مياه البحيرة.

ورأت في منامها أنها اجتازت هضبة رملية صفراء خلف المستنقع في الطريق إلى المدينة، وكان باقل يقف على شفا جرف يُخرج بعض العمال الرمال منه، وينشد بصوت أندري الموسيقي الهادئ...

- هبوا للنضال، أيها العمال، هبوا!

مرت أمام الهضبة وهي تضغط حاجبيها بيدها وتنظر إلى ابنها. كانت صورته تبدو بوضوح وحدّة على السماء الزرقاء، فخرجلت أن تذهب إليه لأنها كانت حاملاً، كما أنها كانت تحمل بين ذراعيها طفلاً آخر. واستمرت في سيرها إلى أن وصلت حقلاً يلعب فيه الأطفال بكرة. كان هناك عدد كبير من الأطفال وكانت الكرة حمراء اللون، فمد الطفل الذي بين ذراعيها يديه طلباً للكرة وأخذ يبكي، فأعطته ثديها وعادت أدراجها.

ولكن ثمة جنودًا كانوا يقفون على الهضبة الآن، وقد صوبوا حرابهم نحوها، فهرعت بسرعة إلى كنيسة قائمة في وسط الحقل، كنيسة بيضاء أثرية شاهقة العلو تبدو كأنها صنعت من السحب. وكان هناك مآتم شخص ما، والنعش كبير، أسود اللون، محكم الإغلاق. وأخذ الكاهن والشمّاس يطوفان في أرجاء الكنيسة في ملابسهما البيضاء وهم يرتلان.

- هلوليا، قام المسيح.

انحنى الشمّاس مبتسمًا لها وهو يهز المبخرة في يده. كان شعره أحمر لامعًا، ووجهه صوبًا يشبه وجه صمايلوف. وكان شعاع عريض من نور الشمس، كالأوشحة البيضاء، يخترق الكوى التي في الأبراج، وفي كلا منصتي الترتيل ينشد بعض الأطفال:

- هلوليا، قام المسيح.

وصاح الكاهن بغتة متوقفًا في وسط الكنيسة:

- ألقوا القبض عليهم!

واختفت ثيابه، وبدا شارب أشيب كثيف فوق شفته العليا، ففر الجميع بما فيهم الشمّاس الذي ألقى بالمبخرة جانبًا وأمسك برأسه كما يفعل الأوكراني، وألقت الأم طفلها عند أقدام الناس الهاربين، ولكنهم تحاشوه وهم ينظرون إلى جسده العاري بأعين مذعورة، فجشت الأم على ركبتيها وصاحت فيهم:

- لا تتخلوا عن الطفل! خذوه معكم!

وأنشد الأوكراني مبتسمًا مخفيًا يديه وراء ظهره:

- هلولويا، قام المسيح.

فانحنت والتقطت الطفل ووضعتة على عربة محملة بالواح من الخشب كان نيقولا يسير بجانبها في بطء ضاحكًا، وهو يقول:
- هكذا! أعطوني عملاً جلياً لأقوم به.

كانت الشوارع قذرة، والناس يطلون من نوافذ بيوتهم، يصيحون ويصفرون ويلوحون بأيديهم. وكان الجو صافياً، فالشمس تشع بتألق، وليس من أثر لظل في أي مكان.
وصاح الأوكراني:

- غن يا نينكو! هذه هي الحياة!

وأخذ هو نفسه يغني مغرقاً كل الأصوات الأخرى، وسار مبتعداً، فلحقته الأم، وتعثرت فجأة، ووقعت في هوة لا قرار لها، هبّ فراغها مصفراً الملاقاتها...

واستيقظت يغمرها عرق بارد، كأن يدًا خشنة ثقيلة قبضت على قلبها وأخذت تعتصره ببطء. وكانت صفارة المصنع تدعو العمال في إصرار فتبينت أنها الصفارة الثانية. وكانت الكتب مبعثرة في أرض الغرفة، والفوضى منتشرة، والأرض تحمل آثار أحذية موحلة.

فنهضت وأخذت ترتب الغرفة دون أن تعباً بغسل وجهها أو تلاوة صلواتها. ووقعت عيناها في المطبخ على عصا العلم المكسورة التي لا تزال عالقة بها قطعة القماش الأحمر، فالتقطتها، وكانت على وشك إلقتها في الموقد، ولكنها تنهدت بعد تفكير قصير، وانتزعت القماش الأحمر

وطوته بحر ص ووضعتة في جيبيها. وكسرت العصا على ركبتيها وألقتهما في الموقد، ثم غسلت النوافذ والأرض بماء بارد، وأوقدت الساموفار، وارتدت ملابسها، وجلست بجانب نافذة المطبخ وواجهت السؤال التالي من جديد:

- وما العمل الآن؟

وما إن تذكرت أنها لم تتل صلاة الصبح حتى نهضت وذهبت إلى الأيقونات، ولكنها عادت فجلست بعد أن وقفت أمامها بضع ثوان. لقد كان قلبها فارغاً.

كان كل شيء ساكناً سكوناً غريباً، كأن الناس الذين صاحوا بالأمس ملء أصواتهم بقوة في الشارع، اختبئوا اليوم في بيوتهم وأخذوا يفكرون في الحوادث غير المألوفة.

وتذكرت فجأة حادثة حدثت لها في شبابها. كانت في حديقة بيت آل زوسالموف بركة ماء كبيرة تنمو على سطحها زهور النيلوفر^(١) وفي أحد أيام الخريف القاتمة سارت بمحاذاة البركة، ولاحظت وجود قارب في وسطها، كانت البركة سوداء هادئة، والقارب يبدو ملتصقاً بالمياه السوداء المغطاة بطبقة من أوراق الشجر الداوية. وكان منظر القارب الوحيد الخالي من الناس أو المجاديف، المرمي دون حراك على صفحة الماء الأسن وسط أوراق الشجر الداوية، يبعث في النفس حزناً عميقاً غامضاً. فوقفت على حافة البركة تتساءل من ذا الذي دفع بالقارب إلى وسط الماء؟ ولأي هدف فعل ذلك؟ وأخبرت في تلك الليلة أن زوجة أحد الموظفين

(١) نبات مائي مزهر - المعربان.

في العزبة، امرأة ضئيلة ذات شعر أسود أشعث، ومشية سريعة، قد أغرقت نفسها في البركة!

ومرت الأم بيدها على جبينها، فسبحت أفكارها مرتجفة بين انطباعات اليوم السابق. وجلست تحت تأثيرها لفترة طويلة تشخص إلى فنجان من الشاي البارد، بينما نمت في صدرها رغبة في رؤية شخص حكيم بسيط تتحدث إليه، فيستطيع الإجابة عن كل أسئلتها.

وجاء نيقولاوي إيفانوفيتش بعد الغداء، كأنه يجب لهفتها، ولكنها عندما رآته انتابها الفزع فجأة، وقالت بهدوء دون أن ترد تحيته:

- لم أتيت؟ إن ذلك عمل أحمق! سيلقون القبض عليك أنت الآخر إذا رأوك هنا.

فضغط على يدها بقوة، وأصلح من وضع نظارتيه، وانحنى قريباً منها وقال على عجل:

- لقد اتفقنا باثل وأندري وأنا أن آخذك إلى المدينة، إذا ألقى القبض عليهما في اليوم التالي!

كان صوته رقيقاً مليئاً بالاهتمام بأمورها...

- هل فتشوا البيت؟

فأجابت صائحة:

- أجل. لقد فتشوا كل شيء دون خجل أو وازع من ضمير!

فسألها نيقولاوي هازاً كتفيه:

- ولم يخلجولون؟

ثم أخذ يوضح لها لماذا يجب أن تعيش في المدينة، فأنصت إلى لهجته الودية المستعطفة، وعلى شفيتها ابتسامة باهتة، ولكنها لم تتابع الحجاج التي كان يسوقها، بل دهشت لذلك الشعور بالثقة والحنان الذي ابتعثه في نفسها. فقالت:

- إذا كانت تلك مشيئة باشا، وإذا كنت لا أسبب لك أي إزعاج...

فقاطعها قائلاً:

- لا تهتمي بذلك، فأنا أعيش وحدي، لا يزورني أحد سوى أختي في بعض الأحيان.

فقالت:

- ولكنني لا أستطيع العيش على نفقتك.

قال نيقولاى:

- بوسعنا أن نجد لك عملاً إذا أردت ذلك.

كانت فكرة العمل بالنسبة لها لا تنفصم أبداً عن عمل ابنها وأندري ورفاقهما، فاقتربت من نيقولاى وتفرست في عينيه ثم سألته:

- هل تستطيع حقاً؟

- ليس في منزلي عمل كثير، فأنا أعزب.

فأجابته بصوت خافت:

- لم أفكر في ذلك... في العمل المنزلي.

وتنهدت متألماً؛ لأنه لم يفهم ما كانت ترمي إليه، ولكنه ابتسم بطريقته

المألوفة، وقال مفكرًا:

- لو استطعت أن تعرفي من باثل عنوان أولئك الفلاحين الذين طلبوا
منا طباعة جريدة لهم...

فصاحت في سرور:

- إنني أعرفهم! سأجدهم وأفعل كل ما تطلبون مني! ولن يظن أحد
بأنني أقوم بتوزيع منشورات ممنوعة. ليباركك الله! ألم أحمل المنشورات
إلى المصنع؟

وفجأة تملكته الرغبة في الطواف بأرجاء البلاد، عبر الغابات والقرى،
تحميل على ظهرها حقيبة، وفي يدها عصا. فقالت:

- أرجوك أن تدعني أقوم بذلك! سأذهب إلى حيث تشاء! سأجد
طريقي عبر كل الطرق والأقاليم! وسأكون صيف شتاء- حتى الممات-
كالحاجة التي تجوب البلاد. أهذا مصير سيئ بالنسبة إليّ؟!

واعترافها حزن وهي تتصور نفسها شريفة لا مأوى لها، تستجدي
باسم المسيح تحت نوافذ الأكواخ في القرى!

أمسك نيقولا يدها بلطف، وربت عليها براحته الدافئة، ثم ألقى
نظرة على الساعة وقال:

- سنتحدث عن ذلك فيما بعد!

فصاحت:

- إذا كان أبناؤنا وفلذات أكبادنا يضحون بحياتهم وحریتهم،
ويموتون دون تفكير في أنفسهم فماذا عساي فاعلة، أنا الأم؟!

شحب وجهه نيقولاي، وقال ناظرًا إليها بحنان وانتباه:

- لم أسمع بمثل هذه من قبل.

فقالت، وهي تهز رأسها في حزن، وتحرك يدها بحركة يائسة:

- ماذا عساي قائلة؟ لو أنني أوتيت الكلمات فقط لوصف قلب الأم

هذا الذي ينبض في نفسي...

ونفضت ترفعها قوة هائلة تدفع تيارًا من كلمات السخط من بين

شفتيها:

- لبكى الكثيرون منهم عندئذ... حتى أكثرهم ضعة وشفافة!

ونفض نيقولاي أيضًا، ونظر إلى الساعة مرة أخرى:

- إذن اتفقنا؟ ستأتين لتعيشي معي في المدينة؟

فأومأت بالإيجاب.

وأضاف نيقولاي قائلاً في لطف:

- متى؟ في أسرع ما يمكن. سأظل قلقًا عليك إلى أن تأتي!

نظرت إليه في دهشة... فمن هي بالنسبة له؟ كان يقف هناك: رأسه

مائل إلى أحد الجانبين يتسم في خجل، رجل منحني، قصير النظر يرتدي

معطفًا بسيطًا. كان منظره يناقض طبيعته. سألها مخفضًا بصره:

- هل معك نقود؟

- كلاً.

فأسرع يدس يده في جيبه، وأخرج محفظته ففتحها ومد إليها نقودًا

وقال:

- هاك، أرجوك أن تأخذيهما.

ابتسمت الأم رغمًا عنها، وقالت هازئة رأسها:

- كل شيء فيكم يختلف عن الآخرين، حتى النقود تبدو عديمة القيمة بالنسبة لكم. بعض الناس يبيعون أرواحهم ليحصلوا عليها، ولكن أنتم... أنتم تعتبرونها لا شيء! يبدو أنكم تحتفظون بها لمساعدة الناس فقط!

ضحك نيقولاوي وقال:

- النقود شيء قذر. أخذها يخرج وكذلك إعطاؤها.

وأمسك بيدها وضغطها بقوة وأضاف:

- تعالي بأسرع ما يمكن.

ثم خرج في هدوء كعادته.

وأخذت تفكر وهي تودعه على الباب:

- يا له من شخص طيب... ولكنه لا يشعر بالأسى من أجلي.

ولم تستطع أن تجزم إن كانت غاضبة لذلك أو دهشة فقط.

- ٢ -

انتقلت إلى بيته عقب زيارته بأربعة أيام. وعندما اجتازت العربة التي تحمل حقيبتيهما حي العمال إلى الحقول، التفتت خلفها، وأدركت فجأة

أنها تغادر المكان الذي قضت فيه أكثر مراحل حياتها ظلامًا وخشونة إلى الأبد، ذلك المكان الذي بدأت فيه مرحلة أخرى من حياتها مليئة بالأفراح والأتراح الجديدة، التي جعلت الأيام تمر بسرعة.

كان المصنع، بمداخنه الضاربة في السماء، يربض على الأرض المسودة بالدخان كعنكبوت أحمر هائل، وكانت بيوت العمال ذات الطابق الواحد متراحة حوله، متراكمة بعضها فوق بعض، غبراء صغيرة، تقع على حافة المستنقع، ينظر بعضها إلى بعض من خلال نوافذها الصغيرة البليدة في شفقة ورناء. ومن فوقها، كانت ترتفع كنيسة حمراء داكنة كالمصنع، لكن قبة ناقوسها كانت منخفضة عن مداخن المصنع.

وحلت الأم وهي تنهد ياقة قميصها التي كادت تخنقها. وغمغم الحوذي وهو يهز أعنة الجواد:

- هيا إلى هناك!

كان رجلاً ضئيلاً مقوس الساقين غير معروف العمر، ذا شعر خفيف باهت يغطي رأسه ووجهه، وعينين لا لون لهما. كان يسير مترنحًا بجانب العرب، وبدا أنه لا يأبه إن توجه يمنة أو يسارًا!

كان يصيح وهو ينقل ساقيه المعوجتين بحذائهما الثقيل الذي يعلوه
الوحد:

- هيا!

بينما كانت الأم تنظر حولها.... كانت الحقول مقفرة مثل روحها...
وكان الجواد يهز رأسه بصورة رتيبة وهو يتهادى على الرمل العميق

الذي سخنته حرارة الشمس، فيرسل الرمل خفيفًا خشنًا، وتصدر العربة الكسيحة صريرًا حادًا، فتظل هذه الأصوات الممتزجة بالغبار في أثرهما..
كان نيقولاي إيفانوفيتش يعيش في شارع منعزل في طرف المدينة، وكانت شقته في جناح أخضر اللون صغير، بُنيَ على دار ذات طابقين أنهكهما القَدَم... أمامها حديقة صغيرة، تمتد منها أغصان الزنبق البنفسجي وأشجار السنط والأوراق الفضية لأشجار فتية من الحور إلى نوافذ الغرف الثلاث. وكان كل شيء في الداخل نظيفًا هادئًا، تراقص ظلال عذبة على الأرض، وتصطف على جدران المنزل أرفف الكتب تحت صور أشخاص تعلق وجوههم الرزانة.

قاد نيقولاي الأم إلى غرفة صغيرة تطل إحدى نوافذها على الحديقة، بينما الأخرى تشرف على فناء ينبت فيه العشب. وكانت أرفف الكتب تصطف حول جدران هذه الغرفة أيضًا. وسألها:

- هل ستكونين مرتاحة هنا؟

فقالت:

- إنني أفضل الإقامة في المطبخ؛ فالمطبخ أنيق نظيف.

وبدا كأن كلماتها أربهته، حتى إذا رضخت إلى جهوده المرتبكة في إقناعها بعدم الإقامة في المطبخ، تألق وجهه في الحال.

كانت الغرف الثلاث مليئة بجو خاص. وكان سهلًا يسيرًا أن يتنفس المرء هنا، ولكنه كان يتردد في الكلام بصوت مرتفع، خوفًا من أن يزعج الناس الذين يشخصون من الجدران بانتباه مركز!

قالت الأم وهي تتحسس التراب في أصص الزهور التي على حافة
النافذة:

- إن الزهور تحتاج إلى ماء.

فقال صاحب الورد بلهجة مذبنة:

- أوه! نعم! إنني مغرم بها، ولكنني لا أجد الوقت للاعتناء بها!

ولاحظت الأم أن نيقولا يسيّر بحذر، حتى في شقته الأنيقة، كأنها
ليست له.

كان يدنو بوجهه من سائر الأشياء في الغرفة ويصلح وضع نظارتيه
بأصابع يده اليمنى النحيلة، ثم ينظر بتساؤل إلى كل ما يسترعي انتباهه!
وفي بعض الأحيان كان يمسك بالشيء قرب وجهه، ويبدو كأنه
يتحسسه بعينه. وبدا كأنه يدخل الشقة لأول مرة، مثله مثل الأم، وأن كل
شيء بالنسبة له، كما هو بالنسبة للأم، جديد غير مألوف. فطمأنها هذا
سريعاً. ولحقته تجول في أرجاء البيت تلاحظ مواضع الأشياء، سائلة عن
نظام يومه. فأجابها بلهجة الرجل المذنب الذي يدرك أنه لا يتصرف كما
يجب أن يفعل، ولكن لا مناص من ذلك.

سقت الزهور، ورتبت أوراق الموسيقى المبعثرة على البيانو، ثم
قالت وقد رأت الساموفار:

- إنه في حاجة إلى تلميع.

مرر أصابعه على النحاس الخابي ورفعته إلى أنفه يتفحصه، فضحكت
الأم.

عندما آوت إلى فراشها في تلك الليلة واستعرضت في ذهنها أحداث اليوم، رفعت رأسها وأجالت النظر حولها وهي لا تكاد تصدق. كانت هذه هي أول مرة تقضي فيها الليل في بيت أناس آخرين، ومع هذا فإنها لم تشعر بحرج أو ضيق. وفكرت بنيقولاي في عطف وامتنان، وملأتها الرغبة في أن تجعل الأمور ميسورة له، وتظهر له من العطف والحنان ما يجعل حياته دافئة مريحة، وتأثرت في نفسها من ارتبائه وعجزه المضحك، وبعده عن المجرى العادي لحياة الناس، ومن التعبير الرزين الأقرب إلى الطفولة الذي يبدو في عينيه الصافيتين. ثم تحول فكرها إلى ابنها، ومرة أخرى مرت أحداث يوم أول مايو أمام عينيها. ولكنها كانت في هذه المرة مغلفة في أصوات جديدة ومجنحة بمعاني جديدة. لقد كان هناك شيء خاص في حزن ذلك اليوم، مثله مثل اليوم ذاته. إن ذلك الحزن لم يحن الرأس إلى الأرض كما تفعل اللكمة القاضية، ولكنه اخترق الفؤاد بوخزات متكررة، بعثت في النفس غضبًا بطيئًا دفع الظهور المحنية إلى الاستقامة. ففكرت مصغية إلى الأصوات الموحشة التي تبعثها المدينة في الليل، والتي زحفت عبر النافذة المفتوحة ماسة أوراق الشجر في الحديقة، دافعة إياها إلى إصدار حفيف رقيق:

- إن أبناءنا قد خرجوا إلى العالم.

كانت تلك الأصوات تأتي من بعيد جدًا، منهكة باهتة، ثم تتلاشى بهدوء داخل الغرفة.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي نظفت الساموئار، وغلت الماء لتعد الشاي، وأعدت المائدة في غير ما جلبة، وجلست في المطبخ

تنتظر نيقولاى حتى ينهض. وأخيرًا فتح الباب وهو يسعل، ممسكًا بنظاراته في إحدى يديه، وبياقة قميصه في اليد الأخرى، وتبادلا تحية الصباح، ثم حملت الأم الساموفار إلى الغرفة المجاورة، بينما أخذ هو يغتسل، يصب الماء على الأرض أو يوقع من يده الصابون أو فرشاة أسنانه، فيتذمر من عجزه وثقل حركته.

قال لها وهما يتناولان طعام الإفطار:

- إنني أقوم بعمل محزن في دائرة زيمستوف... أراقب فلاحينا والدمار مسلط عليهم.

ثم ابتسم كالمذنب، واستطرد يقول:

- إن نقص التغذية يودي بالفلاحين قبل الأوان. إن أطفالهم يولدون ضعفاء، ويموتون كما يموت الذباب في فصل الخريف. إننا نعرف كل ذلك، ونعرف سببه أيضًا. بل إننا نتقاضى أجرًا لمشاهدة هذه العملية. إلا أن هذا مبلغ جهدنا.

فسألته:

- هل أنت طالب؟

- كلا إنني معلم. ووالدي مدير مصنع في فياتكا، ولكنني أصبحت معلمًا. ووزعت في القرية كتبًا على الموجيك، ولهذا السبب ألقوا بي في السجن. وبعد أن قضيت المدة التي حكم عليّ بها، اشتغلت بائعًا في مكتبة، ولكن نتيجة لإهمالي أنا أُلقي بي في السجن مرة ثانية، ثم نُفيت إلى أرخانجيليسك، وهناك أيضًا أُدرجت في قائمة الحاكم السوداء، فأرسلني

إلى قرية صغيرة على شاطئ البحر الأبيض، حيث عشت خمس سنوات!
كان صوته ينساب ناعماً في الغرفة المشمسة المضيئة. وكانت الأم
قد سمعت حتى ذلك الحين عددًا كبيرًا من أمثال هذه القصة، ولكنها
لم تستطع فهم السبب الذي من أجله يكون الأشخاص الذين يقصونهم
هادئين للغاية، كأنهم يتحدثون عن أمر محتوم لا مفر منه.

قال:

- ستأتي أختي اليوم.

- هل هي متزوجة؟

- إنها أرمل. لقد نُفِيَ زوجها إلى سيبيريا، ولكنه هرب، وتوفي منذ
عامين في أوروبا بداء السل.

- هل هي أصغر منك سنًا؟

- بل أكبر مني بست سنوات، وإنني مدين لها بالشيء الكثير. انتظري
حتى تسمعها تعزف، إن هذا البيانو ملكها، وعدد كبير من هذه الأشياء
ملكها أيضًا، أما الكتب فهي لي.

- وأين تعيش؟

فأجابها مبتسمًا:

- في كل مكان... حيث يكونون في حاجة إلى شخص شجاع...
فهو ذلك الشخص!

- وهل هي أيضًا تقوم بهذا... النوع من العمل؟

فأجاب:

- أوه! نعم!

وسرعان ما ذهب، وأخذت الأم تفكر «بهذا النوع من العمل»، وبهؤلاء الناس الذين يكرسون أنفسهم في هدوء وعناد له يومًا بعد يوم، وشعرت بصغرها بالنسبة لهم، كما يشعر المرء بصغره أمام جبل في الليل! وقبل الظهر قرعت الجرس امرأة طويلة جميلة، ترتدي ثوبًا أسود. وعندما فتحت الأم الباب ألقت السيدة حقيبة يدها الصغيرة الصفراء على الأرض وأمسكت بيد الأم، وقالت:

- أنت أم بافل ميخائيلوفيتش على ما أظن؟

فأجابت الأم مرتبكة من أناقة السيدة وملابسها الثمينة:

- نعم.

فقالت المرأة وهي تخلع قبعتها أمام المرأة:

- إنك كما تخيلتك تمامًا. لقد كتب إليّ أخي يقول إنك قادمة لتعيشي هنا. إنني صديقة بافل ميخائيلوفيتش منذ زمن طويل. لقد حدثني عنك.

كان صوتها جهوريًا، وكانت تتكلم في ببطء، ولكن حركاتها كانت سريعة قوية، وكانت الخطوط الصغيرة الممتدة على صدغيها، والشعر الأبيض الذي يلعب فوق أذنيها الدقيقتين، تتباين بصورة واضحة مع تلك الحيوية الفتية التي تبدو في عينيها الرماديتين الضاحكتين.

وأعلنت:

- إنني جائعة. أريد قديمًا من القهوة!

فقالَت الأم:

- سأعده.

وسألَت وهي تبحث في الدولا ب عن إبريق القهوة:

- هل قلت إن باقل حدثك عني؟

فقالَت المرأة:

- كثيرًا جدًّا!

وتناولت علبة سجائر صغيرة مصنوعة من الجلد، وأشعلت لفافة،

وأخذت تذرع الغرفة، ثم سألت:

- هل أنت خائفة جدًّا من أجله؟

راقبت الأم اللهب الأزرق الصغير المنبعث من موقد الكحول تحت

إبريق القهوة وابتسمت، وابتلع الفرع الارتباك الذي شعرت به الأم في

حضرة هذه المرأة، وفكرت:

- إذن لقد قال لها عني ذلك الولد المبارك!

ثم قالت ببطء:

- بالطبع إنني خائفة، إن الأمر ليس هينًا، ولكنه قد يكون أصعب لو

أنه حدث من قبل، فإنني أعرف الآن، على الأقل، أنه ليس وحيدًا.

وألقت نظرة على وجه المرأة، ثم سألتها عن اسمها، فقلت:

- صوفيا!

درستها الأم في تمنع، كان ثمة شيء فيها يستحيل وصفه، يكاد يكون

غاية في الشجاعة والسرعة.

قالت صوفيا في ثقة:

- إن أهم شيء هو أن يُطلق سراحهم جميعاً في أقرب فرصة. لو أنهم فقط يسرعون في إجراء المحاكمة! فعندما يرسلونهم إلى المنفى نستطيع أن نعد العدة لهرب باثل ميخائيلوفيتش. إننا في حاجة إليه هنا!

نظرت الأم في ريبة إلى صوفيا، التي كانت تبحث عن شيء تضع فيه عقب لفاتها... وأخيراً أطفأتها في أصيص الزهور. فقالت الأم لا شعورياً:

- إن ذلك يضر الزهور.

قالت صوفيا:

- أرجو المعذرة، إن نيقولا ي يقول لي الشيء ذاته.

وأخذت عقب السيجارة وألقت به من النافذة.

ألقت الأم مرتبكة، نظرة مذنبية، وقالت:

- لا بل أنا التي أرجو المعذرة. إنني لم أفكر بما قلت. كيف بوسعي

أن أقول لك ما تفعلين!

فأجابت صوفيا هائرة كتفياً:

- ولم لا، ما دمت غير منظمة؟ هل القهوة جاهزة؟ شكراً. ولكن لم

قدحاً واحداً؟ ألن تشربي أنت أيضاً؟

وأمسكت الأم من كتفها فجأة، وأدنتها من نفسها، ونظرت إلى عينيها

وسألتها:

- هل تشعرين بالخجل؟

ابتسمت الأم وقالت دون أن تحاول إخفاء دهشتها:

- كيف بوسعي ألا أشعر بالخجل، بعد أن تفوهت بذلك عن اللفافة؟
لقد أتيت إلى هنا أمس، ولكنني أشعر كأن البيت بيتي... إنني لا أخاف
شيئاً، وأقول ما يعن لي...

فهتفت صوفيا:

- إن ذلك بالضبط ما يجب أن يكون عليه الأمر!

واستطردت الأم تقول:

- إن رأسي يستمر في الدوران، ولا أكاد أعرف نفسي. لقد كان هناك
وقت كان يجب عليّ فيه أن أعرف الشخص جيداً قبل أن أفتح له قلبي.
ولكن قلبي الآن مفتوح دائماً، وأقول أشياء لم أكن أحلم قط من قبل أنني
سأقولها!

تناولت صوفيا لفافة أخرى، وحولت بريق عينيها الرماديتين الرقيق
إلى وجه الأم. فسألتها الأم وهي تلقي من قلبها عبء ذلك السؤال الشائك:
- إنك تقولين إنكم ستعدون العدة لهربه، ولكن كيف يتهيأ له العيش
وهو طريد؟

فأجابت صوفيا، وهي تصب لنفسها قدحاً آخر من القهوة:

- إن ذلك لن يكون صعباً. إنه سيعيش مثل عشرات الأشخاص الذين
فروا. لقد قابلت أحدهم أخيراً وقدمته إلى حيث سيعيش. ونحن في أمسّ

الحاجة إليه، لقد حكم عليه بالنفي خمس سنوات، ولكنه قضى منها ثلاثة أشهر ونصف الشهر فقط.

نظرت إليها الأم مليًا، ثم ابتسمت. وقالت في رقة وهي تهز رأسها:
- يبدو أن أول مايو ذلك قد فعل بي شيئًا، فأنا لا أستطيع أن أجد نفسي الضائعة، كأني أسير في طريقين مختلفين، في الوقت ذاته. يبدو في بعض الأحيان أنني أفهم كل شيء، ولكن كل شيء يعود فيغلفه الضباب. فأنت مثلاً، امرأة نبيلة... تنغمسين في هذا العمل... إنك تعرفين ابني بافل، وتحدثين خيرًا عنه، وأنا أشكرك على ذلك!

فقالت صوفيا ضاحكة:

- إنك أنت التي تستحقين الشكر.

قالت الأم متنهدة:

- وماذا فعلت؟ فلست أنا التي علمته كل هذا!

سحقت صوفيا لفافتها في الطبق الذي به فنجان القهوة، وهزت رأسها حتى سقط شعرها الذهبي في كتل إلى وسطها، فقالت ناهضة متجهة إلى الغرفة المجاورة:

- لقد حان الوقت لأن أتخلص من كل هذه الملابس الثمينة!

- ٣ -

عاد نيقولا في المساء. وأثناء تناولهم طعام العشاء وصفت صوفيا

وهي تضحك كيف قابلت أحد الهاربين من المعتقل فخبأته، وكيف كانت خائفة من الجواسيس، تشك في كل إنسان، وكيف كان تصرف الهارب مضحكاً. ووجدت الأم في لهجتها شيئاً من الزهو والغرور، كأنها عامل يتحدث عن عمل شاق أنجزه بنجاح.

كانت صوفيا ترتدي وقتئذ ثوباً صيفياً رمادياً، وجونلة فضفاضة، جعلتها تبدو أطول قامة، وعينيها أكثر ظلمة وحر كاتها أكثر تناسقاً.

وقال نيقولاى بعد العشاء:

- هناك عمل آخر ينتظرك يا صوفيا. لقد أخبرتك أننا وافقنا على نشر صحيفة للفلاحين، ولكننا فقدنا الصلة بالرجل الذي سيتولى توزيعها؛ نتيجة للاعتقالات الأخيرة، وبيلاجيا نيلوفنا هي الوحيدة التي تستطيع مساعدتنا في العثور عليه. يجب أن تقومي برحلة إلى الريف برفقتها، ومن المستحسن أن يتم ذلك في أقرب فرصة!

فقالت صوفيا وهي تأخذ نفساً من لفافتها:

- حسناً، سنذهب، أليس كذلك يا بيلاجيا نيلوفنا؟

- سنذهب.

- هل هو في مكان بعيد؟

- على بعد ثمانين فرسخاً تقريباً.

- هذا حسن. والآن أود أن أعزف شيئاً من الموسيقى. أعتقد أن

في وسعك أن تتحملي عزفي بعض الشيء يا بيلاجيا نيلوفنا؟

فقالت الأم وهي تنكمش في زاوية من زوايا الأريكة:

- لا تأبهي بي... تصرفني كأنني غير موجودة هنا على الإطلاق.

وبدا كأن الأخ وأخته لا يعيرانها أي اهتمام، ولكنهما استمرا
يستدرجانها إلى الحديث بلباقة:

- استمع إلى هذه المقطوعة يا نيقولاي. إنها من تأليف جريج. لقد
أحضرتها معي اليوم، أغلق النوافذ.

فتحت أوراق الموسيقى، وأخذت تعزف في هدوء بيدها اليسرى.

فأخذت الأوتار تغني بصوت عميق ممتلئ، وتنهت خافت، وانضم
إليها صوت آخر. ومن تحت أصابع يدها اليمنى، انساب سرب براق من
رعشات مذهبة، أخذت تحلق مسرعة كعصافير مذعورة، فوق أرضية
الأصوات الخفيضة القاتمة.

وفي بادئ الأمر لم تؤثر الموسيقى في الأم، بل اعتبرت انسيابها
مجموعة من الأصوات المتنافرة. ولم تستطع أذنها التقاط اللحن من
بين الأصوات المنسجمة المعقدة، فراقبت نيقولاي حالمة. كان يجلس
على الطرف الآخر من الأريكة طاوياً ساقيه تحته، ينظر إلى صورة صوفيا
الجانبية الحادة المتوجة بكتلة من الشعر الذهبي. وكانت الشمس تضيء
رأس صوفيا وكتفها بحرارة، وتنسل إلى مفاتيح البيانو لتداعب أصابعها.
واختالت الموسيقى فملأت الغرفة ومست قلب الأم، دون أن تشعر بذلك.
ولسبب ما، ومن حفر الماضي المظلمة، انبعث ألم عظيم، طواه
النسيان منذ زمن بعيد، ولكنه بُعث الآن بمرارة واضحة.

في ذات ليلة عاد زوجها إلى البيت ثملاً فاقد الوعي، فأمسك بذراعها

وجرها من فراشها إلى الأرض وركلها في جنبها قائلاً:

- اخرجني من هنا أيتها العاهرة! لقد سئمتك.

ولكي تحمي نفسها من ضرباته، التقطت ابنها الذي يبلغ الثانية ورفعته أمامها كالدرع، وهي جاثية على الأرض، بينما أخذ الطفل يبكي ويجاهد بين ذراعيها دافئًا عاريًا مدعورًا...

فرز مجر میخائیل:

- آخر جي...!

فوثبت على قدميها، واندفعت إلى المطبخ وألقت بستره على كتفيها
ولفت طفلها بشال وغادرت المنزل في صمت دون بكاء أو احتجاج،
حافية القدمين، لا يسترها سوى قميص النوم وسترة. كان ذلك في شهر
مايو، والليل قارس البرد، وغبار الطريق يلتصق بارداً بأخمص قدميها
ويتغلغل بين أصابعها، والطفل الذي بين ذراعيها يبكي ويجاهد، فضمته
إلى جسدها تحت السترة وهرعت تنحدر إلى الشارع، يلاحقها الخوف
وهي تهدد الطفل:

— أو... وه... وه... أوه... وه!

وانشق الفجر، فتملكها الخجل والخوف من أن يراها أحد على هذه الحال نصف عارية، فذهبت إلى المستنقع، وجلست تحت أشجار الحور الصغيرة، وظلت هناك فترة طويلة تحمق بعينين متسعيتين في الظلمة، وهي تهدد الطفل النعسان وتخفف الألم الذي في قلبها!

— أوه... واه... واه... أوه... واه...!

ومر بجانبها فجأة طائر أسود، فأيقظها من غمرة أفكارها، ودفعها
إلى النهوض، فعادت ترتجف من البرد نحو البيت، عادت إلى الخوف
المعهود من الضرب والشتائم...

وتردد صوت الوتر الأخير، وتلاشت الموسيقى في تنهد بارد غير
مبال ولا مكترث.

والنفتت صوفيا إلى أخيها وسألته في هدوء:

- هل أعجبتك؟

فأجاب متفصلاً كأنه استيقظ من نوم عميق:

- جدًا... كثيرًا جدًا.

ارتجفت أصداء بقاياها، في صدر الأم، بينما أخذت الفكرة التالية
تبلور في نفسها وهي على حافة الوعي:

- أولئك قوم يعيشون معًا في سلام ووثام، لا يتشاجرون، ولا يسكرون
ولا يتقاتلون في أثناء تناول كل كسرة من الخبز، كما يفعل الناس في تلك
الحياة القاتمة...!

التقطت صوفيا لفافة تبغ، كانت تدخن كثيرًا، بل بلا انقطاع تقريبًا،
وقالت:

- كان ذلك لحن كوستيا المفضل!

وأخذت نفسًا عميقًا من لفافتها، ثم استدارت نحو مفاتيح البيانو
ثانية، وضربت على وتر رقيق حزين وأضافت:

- كم كنت أحب أن أعزف له! كم كان رقيقًا حساسًا، يتأثر بكل

شيء، ويتجاوب معه، حتى ليكاد قلبه أن ينفجر.

ففكرت الأم:

- لا بد أنها تفكر في زوجها، وعلى الرغم من ذلك فهي تبسم...

واستطردت صوفيا برقة مرتجلة قليلاً وهي تتحدث:

- كم جعلني سعيدة! كان يعرف كيف يعيش!

فقال نيقولا ي موافقاً وهو يتخلل لحيته بأصابعه:

- كان يعرف حقاً! كانت له روحاً تغني.

ألقت صوفيا لفافتها التي أشعلتها قبل فترة وجيزة، والتفتت إلى الأم
قائلة:

- آمل أن لا يزعجك صوتي!

لم تستطع الأم إخفاء حزنها، فقالت:

- لا تأبهي بي. إنني لا أفهم، أجلس هنا فقط وأستمع، مشغولة
بأفكاري.

فقالت صوفيا:

- ولكنني أريدك أن تفهمي. يجب أن تفهم المرأة الموسيقي لا سيما
إذا كانت حزينة.

وضربت المفاتيح بحدة فأصدر البيانو صوتاً كصوت شخص تلقى
أنباء مفجعة. لا بد أنها ضربت بقوة، بحيث إنها أخرجت هذه الصيحة
المروعة.

وقفزت أصوات فتية أخرى تنضم إليها، ثم تلاشت. ومرة أخرى أتت صيحة عالية غضبي فأغرقت كل شيء آخر. لا ريب أن كارثة حدثت، ولكنها تثير شعورًا بالغضب بدلًا من الرثاء والشفقة. ثم أتى صوت قوي يغني لحنا بسيطًا حبيبيًا مشبعًا ومغريًا في الوقت ذاته.

وودت الأم لو تلطفت في حديثها مع هذين الإنسانين، فقد أسكرتها الموسيقى. وابتسمت متأكدة من أنها ستكون ذات فائدة للأخ وأخته. ونظرت حولها... فماذا عساها تصنع؟ وبهدوء انسلت إلى المطبخ وأوقدت الساموفار.

إلا أن هذا لم يرض اشتياقها لعمل شيء لهما، وقالت وهي تصب الشاي وترسل ضحكة مرتبكة كأنها تعزي قلبها بكلمات موجهة إلى نفسها مثلما كانت موجهة لهما:

- نحن الذين ننتمي إلى تلك الحياة المظلمة... نشعر بكل شيء، ولكن من الصعب التعبير عن ذلك بكلمات، ونحن نخجل لأننا كما نرى... نفهم، ولكننا لا نستطيع التعبير عنه. وكثيرًا ما يدفعنا الخجل إلى إخفاء ما يدور في نفوسنا، فالحياة تستمر في لطمنا من كل الجوانب، ونحن نود أن نرتاح ولكن أفكارنا لا تمكننا من ذلك.

مسح نيقولاوي نظارتيه وهو يستمع إليها، بينما فتحت صوفيا عينيها الواسعتين، ونسيت أن تدخن لفافتها التي كانت على وشك أن تنطفئ. كانت لا تزال جالسة على البيانو، نصف ملتفتة إلى أخيها، تلمس بين حين وآخر الأوتار برقة متناسقة مع الكلمات البسيطة، الصادرة من القلب، التي كانت تعبر الأم فيها عن مشاعرها.

وأضافت الأم:

- والآن أستطيع أن أقول شيئاً عن نفسي، وعن كل الناس؛ لأنني بدأت أفهم، وأصبحت قادرة على المقارنة. أما هناك فلم يكن ثمة شيء تقارن به الأشياء، فالكل يعيشون متشابهين حولنا. ولكن الآن عندما أرى كيف يعيش الآخرون وأتذكر كيف عشت أنا... يا للمرارة...!

ثم خفضت صوتها وتابعت قولها:

- ربما لا أعبر عن ذلك بالضبط، أو قد لا يكون أي معنى لقوله ما دام هذا ليس جديداً عليكما!

كانت نبرات صوتها تهتز حزناً وألماً، ولكن عينيها كانتا تبسمان وهي تنظر إليهما. وقالت:

- أود أن أفتح قلبي لكما... أريدكما أن تعرفا كل الطيبة والسعادة التي أرجوها لكما!

فقال نيقولا ي برقة:

- إننا نعرف!

وبدت كأنها لم ترض حينها فاستطردت تقص عليهما الأشياء الجديدة عليها والمهمة للغاية. قصت عليهما قصة حياتها المرأة، وتحملها الآلام صابرة. تحدثت دون حقد أو ضغينة، ولكن كانت تزم شفيتها في سخرية. استعادت في ذهنها شريط الأيام القاتمة التي ألّفت حياتها الماضية، معرجة على الضربات التي تلقتها من زوجها، متعجبة لسببها التافه وعدم قدرتها على منعها.

كانا يستمعان إليها في صمت متأثران بالمعنى العميق الكامن وراء قصة حياة إنسانة كانت تعتبر أرقى من الحيوان بشيء قليل، قبلت بوداعة هذا التقدير لنفسها، وبدا أنها تتحدث بلسان آلاف الناس. كانت كل حياتها بسيطة مألوفة مثل حياة الغالبية العظمى من الناس الذين يعيشون على وجه هذه الأرض. لهذا اكتسبت قصتها أهمية رمزية.

واتكأ نيقولاوي بمرفقيه على المائدة واعتمد برأسه على يديه وراقبها من وراء نظارتيه بعينين ضيقتين. أما صوفيا فقد استلقت على مقعدها، وهي ترتعش بين حين وآخر، وتهز رأسها، وبدا كأن وجهها يزداد نحولاً وشحوباً، ولم تكن تدخن.

قالت صوفيا في هدوء مخفضة بصرها:

- اعتبرت نفسي ذات مرة بائسة. كان يبدو لي أنني أعيش في هذيان. كان ذلك عندما كنت منفية في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم، ولم يكن لديّ ما أفعله أو أفكر فيه سوى نفسي. وكنت أستعيد في ذاكرتي كل مصائب من باب قتل الوقت. وكنت قد تشاجرت مع أب أحبه، وطردت من المدرسة واتخذوا مني عبرة لغيري ثم سجنتم بعد أن خانني صديق مقرب، وألقي القبض على زوجي، ثم سجنتم من جديد ونفيت وتوفي زوجي، لقد بدا لي أنني أتعس إنسان في العالم، ولكن كل مصائبي، مضافاً إليها عشرة أضعافها، لا تعادل شهراً واحداً من حياتك يا بيلاجيا نيلوفنا. فلقد كانت حياتك عذاباً يومياً يتتابع عاماً بعد عام. ترى كيف تتوافر للناس كل هذه القدرة على تحمل العذاب؟

فأجابت بيلاجيا منتهدة:

- إنهم يعتادون ذلك.

قال نيقولاي مفكرًا:

- إنني أطري نفسي قائلًا إنني أعرف الحياة جيدًا، ومع ذلك فعندما أمارسها عن كثب، لا في كتاب أو في انطباعات بالية، تبدو رهيبة. إن الأشياء الضئيلة هي التي تولد الرهبة... واللحظات العابرة هي التي تؤلف السنين.

واستمروا في حديثهم يمسون جميع الجوانب في هذه الحياة المظلمة، واستغرقت الأم في الذكريات، باعثة من غبشة الماضي كل تلك الشتائم اليومية التي حولت شبابها إلى جحيم، ثم قالت:

- ولكن ها أنا الآن أثرثر وأثرثر، في حين أن الوقت حان لكي تأويا إلى فراشكما، فلا يمكن للمرء أن يسرد كل ما عنده...

واستأذن الأخ والأخت منها في صمت. وبدأ كأن نيقولاي انحنى لها أكثر من المعتاد وضغط على يدها بحرارة واضحة، أما صوفيا فقد رافقتها إلى غرفتها وقالت لها وهي تتركها:

- طابت ليلتك. استريح جيدًا.

كان صوتها مفعمًا بالمشاعر وعيناها الرماديتان تنظران إلى وجه الأم في حنان.

تناولت الأم يد صوفيا بين يديها، وقالت:

- شكرًا لك...

وبعد عدة أيام وقفت الأم وصوفيا أمام نيقولاي وهما ترتديان أسمال امرأتين فقيرتين من المدينة. كانتا ترتديان ثوبين قديمين من القطن وسترتين، وتحملان كيسين على ظهريهما وتكآن على عصاتين. وقد بدت صوفيا أقصر من حجمها في هذه الملابس، وكان وجهها الشاحب أكثر صرامة من ذي قبل.

ضغط نيقولاي على يد أخته بشدة وهو يودعها، فتأثرت الأم لتلك البساطة الهادئة التي تسود علاقتهما. لم يقبلا بعضهما ولم يتبادلا ألفاظاً عاطفية ولكنهما كانا يهتمان ببعضهما بعضاً من صميم قلوبهما. كان الناس، حيث كانت تعيش، يتبادلون القبل والألفاظ العاطفية، ولكنهم كانوا أيضاً يهاجمون بعضهم بعضاً كالكلاب الجائعة.

وشقت المرأتان طريقهما في صمت في شوارع المدينة وعبر الحقول تسيران جنباً إلى جنب في طريق عريض غير مستو بين صفين من أشجار البتولا العجوز.

سألت الأم صوفيا:

- ألن تتعبي؟- لقد سرت كثيراً في الماضي... إنني متعودة على ذلك.

وأخذت صوفيا تتحدث بمرح عن أعمالها الثورية، كأنها تتحدث

عن نزوات طفولتها. لقد عاشت بأسماء مختلفة ووثائق مزورة، وتنكرت لتختفي من الجواسيس، وحملت حزمًا ثقيلة من المنشورات الممنوعة من مدينة إلى أخرى، ونظمت هرب رفاقها من المنفى، واصطحبتهم إلى المدن في الخارج. وفي إحدى المرات خبأت مطبعة سرية في منزلها، وعندما اكتشف البوليس الأمر وحضر لتفتيش المنزل تمكنت من التكر في زي خادمة وهربت مارةً أمام رجال البوليس من الباب. كان ذلك في أحد أيام الشتاء الباردة، بينما هي ترتدي ثوبًا رقيقًا وتتشح بوشاح من القطن، ومع ذلك استطاعت عبور المدينة حاملةً صفيحة زيت فبدت كأنها ذاهبة لشراء البترول.

وفي مرة أخرى وصلت إلى مدينة غريبة لزيارة بعض الأصدقاء واكتشفت وهي تصعد السلم أن البوليس يفتش بيتهم، ولم يعد أمامها أي مجال للتراجع فقرعت جرس المنزل الذي تحتهم في جراءة، وفرضت نفسها بما لها وما عليها على هؤلاء الناس المجهولين وقالت لهم عقب أن فسرت الموقف بصراحة:

- في وسعكم أن تسلموني للبوليس إن شئتم، ولكنني أشك في أنكم ستفعلون هذا.

لقد كانوا خائفين للغاية، فلم يغمض لهم جفن طيلة الليل وهم يتوقعون أن يقرع بابهم في أي دقيقة. ولكن لم يسلموها للبوليس وضحكوا من أعماق قلوبهم في صباح اليوم التالي للمغامرة.

وفي مرة ثالثة أيضًا، تنكرت في زي راهبة وسافرت في ذات عربة سكة الحديد، لا بل في ذات الديوان الذي كان يجلس فيه الجاسوس

الموكل إليه مراقبتها، وأخذ يروي لها متباهياً كيف يتتبع آثار تلك المرأة في خبث ومهارة. كان يعتقد أنها راكبة في إحدى عربات الدرجة الثانية في القطار، فيخرج في كل محطة لبحث عنها ولدى عودته كان يقول للراهبة: - لم أرها في أي مكان... ربما نامت... إنهم يتعبون أيضاً، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا.

ضحكت الأم ونظرت إلى رفيقتها بحنان وهي تصني لهذه القصص. كانت صوفيا، طويلة، نحيلة القوام، تنتقل بخفة على قدميها الرشيقتين، وكان ثمة شيء من الشجاعة والإقدام في طريقة سيرها وحديثها، في صوته المرح الأجلج، في قوامها المستقيم. كانت معالجتها لكل الأمور معالجة فنية، وحيثما تنظر كان متأكدة من أنها ستجد ما يدخل على قلبها البهجة والسرور.

هتفت صوفيا وهي تشير إلى شجرة:

- يا لها من شجرة صنوبر جميلة!

فتوقفت الأم ونظرت إلى الشجرة، كانت الشجرة كغيرها من الأشجار، فضحكت وقالت وهي تراقب الهواء يداعب خصلات الشعر الأبيض فوق أذني رفيقتها:

- نعم، إنها شجرة رائعة!

- قُبْرة!

وومضت عينا صوفيا الرماديتين بالحنان، ومالت بجسدها كله نحو الموسيقى الخفية المنبعثة من السماء. وفي بعض الأحيان كان جسدها

اللدن ينحني ليقطف زهرة بريئة، تمسح أوراقها المرتعشة بسرعة بأصابع دقيقة وهي تدندن لحناً عذباً رقيقاً.

كل هذا اجتذب الأم إلى المرأة ذات العينين الرماديتين فسارت بجانبها محاولة ألا تتأخر عنها. ولكن صوفيا كانت تتكلم بحدة في بعض الأحيان فتأسف الأم لذلك وتفكر في لهفة:

- لن يحبها ريبين.

إلا أن صوفيا كانت تعود بعد برهة فتحدث بحرارة وبساطة، فترفع الأم بصرها إليها وتبتسم. وتنهت الأم وقالت:

- إنك لا تزالين صغيرة السن بعد!

فصاحت صوفيا:

- لقد بلغت الثانية والثلاثين!

ابتسمت بيلاجيا وقالت:

- ليس هذا ما أعنيه. إذا حكمت عليك بمظهرك فقد أقدر سنك بأكثر من ذلك، ولكن عندما أصغي إليك وأنظر إلى عينيك أتعجب دائماً فأنت مثل فتاة صغيرة، ومع هذا تعيشين حياة شاقة خطيرة وقلبك دائم الابتسام.

- إنني لا أحس بالمشقة أبداً. ويبدو لي أنه ليس ثمة حياة أفضل أو أكثر لذة من حياتي. سأدعوك باسم عائلتك... نيلوفنا، فاسم بيلاجيا لا يلائمك.

قالت الأم مفكرة:

- نادني بما يحلو لك... بما يحلو لك... فأنا أنظر إليك وأصغي

إلى حديثك وأقلب أفكارى. وإنه ليسعدني أن أراك قد وجدت السبيل إلى القلب البشري. فالمرء يخبرك بكل ما يجول بداخله دون خوف، إنه يفتح لك قلبه بمحض إرادته. وعندما أفكر فيكم جميعاً أتأكد من أنكم ستنتصرون على الشر في الدنيا... إنني واثقة من ذلك.

فقالت صوفيا بلهجة قاطعة:

- سنتنصر لأننا متحدين مع العمال... إن قوة عظيمة تكمن فيهم... في وسعهم أن يفعلوا أي شيء! وكل ما يلزمنا أن نعمله هو أن ننبههم إلى قيمتهم فيتحروا ويتطوروا.

بعثت كلماتها مشاعر مختلطة في قلب الأم، ولسبب ما أشفقت على صوفيا بطريقة ودية، لا تجرح مشاعرهما، وودت أن تسمعها تقول كلمات بسيطة أخرى. فسألتهما بهدوء وحزن:

- من ذا الذي سيكافئكم على جهودكم؟

فأجابت صوفيا:

- لقد كوفئنا.

وبدا للأم أن صوت صوفيا كان مفعماً بالزهو.

- لقد وجدنا سبيلاً في الحياة يلائمنا... إننا نعيش بكل القوى الروحية فماذا عسانا نطلب من الحياة؟

نظرت الأم إليها ثم خفضت بصرها وفكرت ثانية:

- إن ريبين لن يحبها.

سارتا بسرعة ولكن على غير عجل، تستنشقان الهواء العذب،

وتصورت الأم أنها ذاهبة إلى الحج، وتذكرت السرور الذي خالجهما في طفولتها عندما غادرت قريتها لحضور صلاة أثناء العطلة في دير بعيد كانت فيه أيقونة تصنع المعجزات.

وكانت صوفيا تغني في بعض الأحيان أغان جديدة عن السماء والحب بصوت عذب رخم، أو تلقي أشعارًا عن الحقول والغابات والفلج فتصغي الأم إليها وتبتسم لا شعوريًا وهي تهز رأسها بطريقة تناسق ولحن الكلمات، مستسلمة لموسيقاها.

شعرت بالدفع والهدوء والتأمل وهي تنفذ إلى أعماقها، كأنها كانت تتنحي ركنًا هادئًا من أركان متزه في أمسية من أمسيات الصيف.

- ٥ -

وصلتا إلى وجهتهما في اليوم الثالث، فسألت الأم فلاحًا كان يعمل في الحقول عن مصنع القطران. وسرعان ما انحدرتا في ممر خشبي منحدر حيث كانت جذور الأشجار تؤلف درجات يسهل هبوطها، أفضى بهما إلى منبسط دائري بعثرت فيه قطع الفحم والخشب الصغيرة، ولطخت أرضه بالقطران، فقالت الأم وهي تنظر حولها في عدم ارتياح:

- حسنًا، قد وصلنا!

وكان يوجد أمام كوخ من الأخشاب وأغصان الأشجار مائدة مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سُمرت إلى قوائم خشبية، وقد جلس أمامها رييين يتناول طعام الغداء بقميصه المفتوح، وقد لطخه القطران وبرفته

يقيم وشابان آخران. كان رييين أول من لاحظ وجود المرأتين، فانتظر
اقترباهما وغطى عينيه ليحجب عنهما نور الشمس.

وهتفت الأم من بعيد:

- طاب يومك يا أخ ميخائيلو!

فنهض وسار نحوهما متمهلاً، ووقف عندما عرفها وابتسم وهو
يتخلل لحيته بأصابعه السوداء.

قالت الأم مقتربة:

- إننا في طريقنا إلى الحج، ففكرت في التوقف هنا والاطمئنان على
حالك. هذه صديقتي... اسمها أنا.

ونظرت، مزهوة ببراعتها، من طرف عينها إلى وجه صوفيا الذي
كانت تعلقه سيماء الصرامة والجد.

فقال رييين بابتسامة ملتوية وهو يصافحها وينحني لصوفيا:

- كيف حالك؟ لا تكذبي... فلست في المدينة الآن... لا داعي
للكذب هنا... إنهم من جماعتنا...

تفرس يقيم في الحاجتين من حيث كان جالساً على المائدة، ثم
همس بشيء إلى صديقيه، وعندما اقتربت المرأتان نهض وانحنى لهما في
صمت، بينما جلس رفيقاه دون حراك كأنهما لم يلاحظا وجود الضيفتين!

قال رييين وهو يربت على كتف بيلاجيا برفق:

- إننا نعيش هنا كالرهبان... لا يأتي أحد إلى رؤيتنا أبداً. إن المدير
غائب وزوجته ذهبت إلى المستشفى، وأنا المسئول هنا. اجلسا. لا بد

أنكما في حاجة إلى شيء تأكلانه. أحضر بعض اللبن يا يقيم.

فذهب يقيم إلى الكوخ متكاسلاً، بينما رفعت الحاجتان الحمل عن ظهريهما ونهض أحد الشابين، وهو شاب نحيل طويل، وساعدهما، بينما ظل رفيقه الضخم المهلهل الثياب جالساً مسنداً مرفقيه إلى المائدة يراقبهما مفكراً وهو يحك رأسه ويغني.

شعرت المرأتان بدوار من رائحة القطران الكريهة وأوراق الأشجار المتعفنة.

قال رييين مشيراً إلى الفتى الفارع:

- اسمه ياكوف، أما الآخر فيدعى أجنات. حسناً... كيف ابنك؟

فأجابت الأم متنهدة:

- في السجن!

فقال رييين متعجباً:

- مرة أخرى؟ لا بد أنه مغرم به...

توقف أجنات عن الغناء، وأخذ ياكوف العصا من يد الأم وقال:

- اجلسي.

قال رييين لصوفيا:

- لماذا تقفين هناك؟ اجلسي.

وفي هدوء اتخذت مجلسها على جذع شجرة، وأنشأت تدرس رييين

في تمعن.

سأل رييين وهو جالس قبالة الأم يهز رأسه:

- متى ألقوا القبض عليه؟ ليس لديك حظ يا نيلوفثا.

فقالت:

- لا بأس!

- هل اعتدت ذلك؟

- كلا، إنني لم أعود على ذلك، ولكنني وجدت أنه لا مناص منه.

فقال رييين:

- هم... حسنًا، أخبرينا عن ذلك.

أحضر يقيم إبريق لبن وتناول قدحًا عن المائدة فغسله وملاه باللبن وقدمه لصوفيا، بينما أخذ يصغي بانتباه إلى قصة الأم. كان حريًا ألا يأتي بأي صوت. لم يتفوه أحد بكلمة أو ينظر إلى الآخرين عندما انتهت الأم من رواية قصتها القصيرة. كان أجنات جالسًا إلى المائدة يرسم على ألواحها بأظافره، أما يقيم فقد كان واقفًا خلف رييين متكئًا بمرفقه على كتفه، بينما كان ياكوف مستندًا بظهره إلى جذع شجرة، مطأطأ الرأس متشابك الذراعين... وجلست صوفيا تدرس الفلاحين من تحت حاجبيها...

قال رييين ببطء بصوت حزين:

- هم... هم... هكذا إذن... علنًا...

وقال يقيم وعلى شفثيه ابتسامة مرة:

- لو أننا نظمنا مظاهرة هنا فسيضر بنا الفلاحون حتى الموت.

فقال أجنات موافقاً وهو يهز رأسه بالإيجاب:

- بكل تأكيد سيقتلوننا. سأذهب للعمل في أحد المصانع، إن الحال هناك أحسن.

وسأل ريبيّن:

- تقولين إنهم سيقدّمون باثّل للمحاكمة؟ وبما سيحكمون عليه؟
هل سمعت شيئاً عن ذلك؟

فأجابت بهدوء:

- الأشغال الشاقة، أو النفي المؤبد إلى سيبريا.

فالتفت إليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد. وسأل ريبيّن مطأطئاً رأسه:

- هل كان يعرف ما معنى ذلك العمل عندما أقدم عليه؟

قالت صوفيا بصوت جهوري:

- أجل، كان يعرف.

فسكت الجميع دون حراك كأن هذه الفكرة جمدهم. واستطرد ريبيّن

يقول في اهتمام خطير:

- إنني متأكد أنه كان يعرف، فهو لن يقفز في الظلام أبداً؛ لأنه رزين

وجاد. هل تسمعون ذلك أيها الفتيان؟ كان يعرف أنهم قد يغمسون حراهم

في جسده، أو قد يرسلونه إلى سيبريا، ومع ذلك لم يثن عزمه... لو أن أمه

اعترضت سبيله لتخطاها دون تردد، أليس كذلك يا نيلوفنا؟

فقالت الأم مجفلة:

- أجل، لفعل ذلك.

وتنهدت ونظرت حولها، فربت صوفيا بلطف على يدها، ونظرت إلى ريبين مقطبة الحاجبين. فقال بهدوء وهو ينظر إليهم جميعاً بعينه السوداوين:

- هاكم رجلاً وأي رجل!

ومرة أخرى لاذ الأشخاص الستة بالصمت. وكانت شعاعات شفافة من الشمس تتعلق في الهواء كأشرطة ذهبية.

وفي مكان ما كان غراب ينعق. واضطربت الأم لذكريات يوم أول مايو؛ وبسبب حنينها لبافل وأندري. وكانت براميل القطران الفارغة مبعثرة في المنبسط الصغير، بينما كانت جذوع الأشجار المخلوعة من جذورها ملقاة في كل أرجاء المكان. وعلى حافة المنبسط كانت تحتشد أشجار السنديان والتامول، دون حراك، تلقي على الأرض ظلالاً قاتمة دافئة.

ابتعد ياكوف فجأة عن الشجرة وانتحى جانباً وسأل بصوت عال، ملقياً برأسه إلى الخلف:

- هل سيرسلوننا، أنا ويقيم، ضد أشخاص مثله عند تجنيدنا؟

فأجاب ريبين:

- وضد من تظنهم سيرسلونكما؟ إنهم يخنقوننا بأيدينا نحن ... تلك

هي اللعبة كلها!

قال يقيم في عناد:

- ولكنني سألتحق بالجيش على كل حال!

فصاح أجنات:

- ومن ذا الذي يمنعك؟ هيا اذهب.

ثم استطرد بعد ضحكة مقتضبة:

- عندما تطلق النيران عليّ صوبها إلى رأسي تمامًا... لا تجعل مني
مُقعدًا، بل اقتلني في الحال.

فأجاب يقيم في جفاء:

- لقد قلت ذلك من قبل!

قال ريبين رافعاً يده:

- انتظروا لحظة أيها الفتيان. هذه امرأة (وأشار إلى الأم) لا ريب أن
الأم بالنسبة لابنها قد انتهى...

فسألته الأم محفلة:

- ولم تقول ذلك؟

فأجاب في وقار:

- لا بد من قوله، وبهذا فإن شعرك لن يكون قد شاب عبثًا. وهل
تعتقدون أنهم قتلوها بما فعلوه بابنها؟ هل أحضرت النشرات يا نيلوفنا؟

حدجته الأم بنظرة، ثم قالت بعد فترة صمت قصيرة:

- أجل!

فقال ريبين ضاربًا المائدة بقبضته:

- هل ترون؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيته فيها. وإلا فما الذي جاء بك إلى هنا؟ أترون؟ لقد ألقوا بابنها خارج الصفوف فاحتلت أمه مكانه!

وهز قبضته وأرسل يميناً مغلظة.

فنظرت الأم، خائفة، إلى وجهه، فرأت أنه قد تغير: أصبح أكثر نحولاً وأضحت لحيته مشعثة تبدو من تحتها عظام وجنتيه البارزة، وظهرت في بياض عينيه الأزرق أوردة حمراء دقيقة، كأنه لم ينم منذ فترة طويلة.

وكان أنفه مقوساً كمنقار طائر مفترس، وكان قميصه المفتوح، الذي كان أحمر اللون فيما مضى وأصبح الآن أسود من فعل القطران، يكشف عن عظام ترقوتيه القويتين، وشعر صدره الأسود الغزير. وكان مظهره العام أكثر عبوساً واكتئاباً من أي وقت مضى، وفي عينيه الملتهبتين تتأجج نار غضبي تضيء وجهه المظلم.

كانت صوفيا تجلس في صمت، شاحبة اللون، غير قادرة على تحويل نظرها عن هؤلاء الفلاحين. وهز أجنات رأسه وقطب ما بين عينيه، أما ياكوف فقد ذهب إلى الكوخ وأخذ ينزع القلف عن جذوع الأشجار في غضب، ويقيم يسير جيئة وذهاباً أمام المائدة، خلف الأم. وبدأ ريبيّن يتكلم من جديد:

- منذ فترة قصيرة أرسل مدير ناحيتنا في طلبي، وقال لي: ما الذي قلته للقسيس أيها الوغد؟ فقلت له: «ولم تدعوني وغداً؟ إنني أكسب خبزي من عرق جبيني، ولا أرتكب ما يضر!» فصاح في وجهي ولطمني على أسناني، ثم ألقاني في السجن لمدة ثلاثة أيام. ففكرت:

«إذن هكذا تخاطبون العامة، أليس كذلك؟ فلا تتوقعوا منا أن ننسى ذلك أيها الشيطان العجوز! سيثأر منك، أو من أولادك، شخص ما إذا لم أستطع أنا أن أثأر... تذكر ذلك! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية، وزرعتهم الحقد هناك. إذن لا تتوقعوا أي رحمة أيها الأبالسة».

واحتقن وجهه بما كان يحتدم في صدره من الغضب والثورة، وكان في صوته نبرات أثارت الذعر في قلب الأم، واستطرد يقول في هدوء أكثر من ذي قبل:

- وما الذي قلته للقسيس؟ كان يجلس، ذات مرة، مع بعض الفلاحين بعد أن قام بجولته المعتادة في القرية يقول لهم إن العامة قطع من الغنم يحتاج دائماً إلى راع... فقلت إليه مازحاً: «إذا وضعوا الثعلب رئيساً على الحيوانات فسيطير ريش كثير، ويبقى القليل من الطير»، فهز رأسه يتوعدني وقال شيئاً ما عن كيف يجب أن يتعذب الناس طويلاً، ويصلوا إلى الله كي يهبهم القوة ليتحملوا تجاربهم ومصائبهم. فقلت له: إن الناس يصلون كثيراً الآن، ولكن يبدو أن الله مشغول جداً عن الإصغاء إليهم. «حسناً»، وسألني عن الصلوات التي أتلوها، فأجبته قائلاً: «صلاة واحدة لم تتبدل طيلة حياتي، مثل العامة: أيها الرب العزيز، أرجو أن تعلمني كيف أكل الحجارة وأبصق ألواح الخشب في خدمة الأسياد». ولكنه لم يعطني الفرصة لأنهي كلامي!

والتفت فجأة إلى صوفيا وسألها:

- هل أنت سيّدة من النبلاء؟

فسألته بسرعة وهي تنتفض دهشة:

- لِمَ من طبقة النبلاء؟

فقال رييين مزمجراً:

- لِمَ؟ لأنك ولدت هكذا فيما أعتقد. إن نصيب كل إنسان أن يكون كما ولد عليه. حسناً، أعتقدين أن باستطاعتك إخفاء خطايا النبلاء تحت وشاح الفلاحين، ذلك الذي تضعينه على رأسك؟ إننا نعرف القسيس عندما نقابله، حتى ولو كان مربوطاً في كيس. لقد ارتعشت وكشرت عندما أصاب مرفقك سائل على المائدة، وظهرك مستقيم كثيراً بالنسبة لامرأة عاملة.

فتدخلت الأم في الموضوع، خائفة أن يؤذي صوفيا بكلماته القاسية الساخرة. قالت:

- إنها صديقتي يا ميخائيلو إيفانوفيتش، وهي امرأة طيبة للغاية. لقد شاب شعرها من أجل قضيتنا. إنك قاس!

تنهد رييين بعمق وقال:

- لِمَ، هل قلت شيئاً لا يليق؟

- كنت تود، على ما أعتقد، أن تقول لي شيئاً!

- هل كنت أود؟ آه، نعم. لقد جاء إلى هنا منذ فترة قصيرة، فتى جديد... ابن عم ياكوف. إنه مريض بالسل، هل أرسل في طلبه؟

فقالت صوفيا:

- أجل!

نظر رييين إليها من خلال عينيه الضيقتين لفترة قصيرة، ثم قال ليثيم:

- اذهب وقل له أن يأتي إلى هنا هذا المساء.

وضع يقيم قبعته على رأسه، واختفى في الغابة، دون أن يتفوه بكلمة،
أو ينظر إلى أي إنسان. وهز رييين رأسه وقال:

- إنه يتألم كثيراً. سيحذونه وياكوث قريباً، ولكن ياكوف لا يهتم
لذلك ويقول إن الجندية لا تليق به ولا تليق بيقيم أيضاً. ولكن يقيم يريد
الذهاب ويعتقد أن في وسعه تحريض الجنود. أما أنا فأراهن أنه لا يستطيع
تحطيم جدار برأسه. أعط الرجل بندقية وسيسير لا يلوي على شيء.
ولكن يقيم يتألم كثيراً من أجل ذلك، وأجنات يضرب دائماً على ذلك
الوتر، وليس من وراء ذلك طائل.

فقال أجنات معبساً دون أن ينظر إلى رييين:

- بل في ذلك فائدة، قبل أن ينفضوا أيديهم منه هناك، سيطلق النيران
من أجلهم، كأني شخص آخر!
فأجاب رييين مفكراً:

- لا أصدق هذا، وإن كان الأفضل ألا يذهب. إن روسيا بلد مترامي
الأطراف، فأين يمكنهم العثور عليه. باستطاعته أن يحصل على جواز سفر
مزور وينتقل من قرية إلى قرية.

قال أجنات وهو يضرب على قدمه بعصا:

- هذا ما سأفعله أنا. فإذا ما قررت أن تعاديهم، فعليك المضي قدماً
في هذا السبيل.

وانقطع الحديث... وحامت حولهم جموع النحل والزنابير في

اضطراب، فملأت الجو بدويها، وغردت العصافير، وسمع صوت أغنية
فتية عبر الحقول.

قال ريبيّن بعد فترة صمت:

- لقد حان الوقت لأن نعود إلى العمل. لعلكما تودان أن تنالا قسطاً
من الراحة. توجد في الكوخ حشايا. اذهب واجمع بعض الأوراق الجافة
يا ياكوف. أعطني المنشورات يا أماه.

بدأت الأم وصوفيا تفتحان لفائفهما، فقال ريبيّن هاتفاً بفرح، منحنيًا
على اللفائف:

- ما أكثر ما أحضرتما! هل اشتركت في العمل منذ فترة طويلة؟...
ما اسمك؟

فأجابت:

- أنا إيفانوشا. اثنا عشر عامًا. ولم تسأل؟

- لا لشيء على التعيين. هل دخلت السجن؟

- نعم!

فقالت الأم بلهجة عتاب:

- أترى؟ لقد كنت فظًا!

فغمغم متناولاً رزمة كتب:

- لا تهتمي بي... إن النبلاء والفلاحين كالماء والقطران لا يمتزجان...

فقال صوفيا معارضة وهي تطلق ضحكة ناعمة:

- ولكنني لست من النبلاء... إنني إنسانة!

فأجاب ريبين:

- ربما! يقولون إن الكلاب كانت في يوم من الأيام ذئاب. سأذهب وأخبرك هذه الأشياء.

فاقترب أجنات وياكوف منه مادين أيديهما. وقال أجنات:

- دعنا نطلع عليهم.

سأل ريبين صوفيا:

- هل كلهم متشابهون؟

- كلا هناك بعض الصحف أيضًا.

- هذا جميل!

هرع الثلاثة إلى الكوخ. فقالت الأم في هدوء مفكرة وهي تشيع ريبين بنظرها:

- لقد استشاط الموجيك^(١).

أجابت صوفيا:

أجل. إنني لم أر وجهًا كوجهه من قبل... وجه شهيد... هيا ندخل نحن أيضًا إلى الكوخ. أريد مشاهدتهم.

فقالت الأم بلطف:

- لا تدعي غلظته تؤلمك!

(١) «الموجيك»: كلمة روسية تعني الفلاح - المعربان.

فضحكت صوفيا وقالت:

- يا لك من امرأة عزيزة يا نيلوفنا!

وعندما وصلت إلى الباب، رفع أجنات رأسه ورماها بنظرة سريعة، ثم تخلل شعره الأجدع بأصابعه وانحنى ثانية على الصحيفة المنشورة على ركبتيه. كان ريبين واقفًا يحمل صحيفته في شعاع الشمس المنسل من شق في السقف، يحرك شفتيه وهو يقرأ. أما ياكوف فقد كان منحنيًا على ركبتيه أمام رزمة من المنشورات مبعثرة على الفراش.

ذهبت الأم إلى أحد أركان الكوخ، وجلست، بينما وقفت صوفيا خلفها واضعة يدها على كتف الأم تراقب الرجال في صمت.

قال ياكوف بهدوء دون أن يلتفت:

- إنهم يتعقبوننا بالحساب، نحن الموحيك، أيها العم ميخائيلو.

نظر إليه ريبين وضحك وقال:

- ذلك لأنهم يحبوننا!

أخذ أجنات نفسًا عميقًا، ورفع رأسه وقال:

- إنهم يقولون هنا: إن منظر الفلاح لم يعد كمنظر آدمي! بالطبع إنه

ليس كذلك!

ومرت سحابة على وجهه البسيط الطلق، كأنه أهين، ثم استطرد قائلاً:

- حسنًا، تعال وتسلق مكاني واقبع في جلدي لفترة قصيرة، وسنرى

بعدها كيف تبدو أيها الذكي!

قالت الأم لصوفيا:

- سأضطجع، فإنني متعبة، وهذه الرائحة تصيبني بدوار. وأنت؟

- لا رغبة لي في الراحة!

اضطجعت الأم على الفراش، وبدأت تغفو، بينما جلست صوفيا بجانبها تراقب الرجال، وأنشأت تطرد النحل أو الزنابير التي كانت تزعج الأم في نومها. راقبتها الأم من خلال عيين نصف مغلقتين متأثرة من هذا التفكير. وتقدم ريبين منهما، وسأل بصوت عال:

- أنائمة؟

- أجل!

وقف هناك فترة قصيرة صامتاً يدرس وجه الأم، ثم قال متنهداً:

- إنها أول أم تتبع ابنها في هذا الطريق على ما أظن!

فقالت صوفيا:

- يجب ألا نزعجها. هيا بنا من هنا.

- يجب أن نعود إلى عملنا. كنت أود أن أتحدث إليك، ولكن يجب

أن نؤجل ذلك حتى المساء. هيا بنا أيها الفتیان!

خرج الرجال الثلاثة تاركين صوفيا في الكوخ، وفكرت الأم:

- شكرًا لله! لقد أصبحوا أصدقاء!

ثم استغرقت في نومها ورائحة الأحرار والقطران تملأ خياشيمها.

عاد عمال القطران فرحين لانقضاء عمل اليوم، فأيقظ صوتهم الأم التي خرجت من الكوخ تتشاءب وتبتسم. وقالت وهي تنظر إليهم في حنان: - إنكم تشتغلون بينما أنا شأن كرائم السيدات! فقال رييين:

- في استطاعنا أن نغفر لك ذلك.

كان التعب قد استنفد ما تبقى من نشاطه، وتركه أكثر قلقاً، فقال: - ما رأيك في قدح من الشاي يا أجنات؟ إننا نتناوب القيام بعمل البيت. اليوم دور أجنات ليقدم لنا الطعام والشراب! فقال أجنات وهو يجمع الخشب والأغصان ليضرم النار: - سأكون سعيداً لو وجدت من يبادلني نوبتي اليوم. فأجابه يقيم وهو يجلس بجانب صوفيا: - لست الوحيد الذي يريد البقاء مع الضيوف! قال ياكوف:

- سأقوم بمساعدة أجنات.

وذهب إلى الكوخ، وأحضر رغيفاً من الخبز، قطعه إلى أجزاء صغيرة

ووضعه على المائدة.

قال يقيم:

- أنصت! إن هناك من يسعل.

أصاخ ريبين السمع، وهز رأسه بالإيجاب!

فقال صوفيا:

- إنه هو، ها هو البرهان الساطع! لو أتيت لي الفرصة لأخذه من قرية إلى قرية، وعرضته في الأسواق حتى يستطيع الناس سماعه. إنه دائماً يضرب على الوتر ذاته، ولكن هذا هو الذي يجب أن يعرفه الجميع.

وازداد الظلام والسكون عمقاً، وأصبحت أصوات الناس أكثر نعومة وهدوءاً، وراقبت صوفيا والأم الرجال... كانوا كلهم يتحركون في بطء وتثاقل وإنهاك غريب. وكانوا هم أيضاً يراقبون النساء بدورهم!

وبرز من الغابة شخص طويل منحن يتكئ على عصا، وكانوا جميعاً يسمعون تنفسه الثقيل.

قال:

- ها أنا!

وانتابته نوبة سعال.

كان يرتدي معطفاً مهلهلاً يصل إلى الأرض، وتدلت خصلات رقيقة من الشعر الناعم الأشقر بلا مبالاة من تحت قبعته المهلهلة المستديرة، وكانت تغطي وجهه الأصفر البارز العظام لحية شقراء، وكانت شفتاه منفرجتين دائماً. أما عيناه فكانتا محمومتين، تشعان من محجريهما

السوداوين اللذين غاصتا فيهما.

قال لصوفيا، بعد أن قام ريبين بتعريفهما على بعض:

- لقد سمعت أنك أحضرت بعض الكتب؟

قالت:

- أجل!

- شكرًا لك... نيابة عن الشعب كله. إنهم لا يستطيعون فهم الحقيقة

بعد، ولكنني أنا الذي أفهمها، أشكرك... نيابة عنهم!

كان يتنفس بسرعة تنفسًا قصيرًا نهمًا، واستمر صوته يتهدج وأصابعه الرقيقة تنزلق باستمرار على صدره بعصبية ظاهرة وهو يحاول أن يقفل أزرار معطفه.

قالت صوفيا:

- إن بقاءك خارج المنزل في الغابات حتى هذه الساعة المتأخرة من

الليل يضرّك، والأشجار تجعل الهواء رطبًا ثقيلًا.

فأجابها وهو يلتقط أنفاسه:

- لم يعد أي شيء ينفعني، فالموت هو الشيء الوحيد الذي ينفعني

الآن!

كان من المؤلم الإصغاء لصوته، بل إن شخصه كان يستدرّ أعظم الشفقة التي لا طائل من ورائها، والتي لا تخلف في النفس إلا استياء ممقوتًا. واتخذ مجلسه على أحد البراميل، وثنى ركبتيه كأنه يخاف أن تنكسرا، ومسح العرق عن جبينه المتفصد، وتدلّى شعره الجاف الذي

لا حياة فيه.

اشتعلت النار، وتراقص كل شيء وارتعش، وفرت الظلال التي
لسعها اللهب إلى الغابة، بينما أشع وجه أجنات، مستدير الخدين، فوق
النار. وخمدت النار وامتلاً الجو برائحة الدخان، وخيم على الساحة
الظلام والصمت تدريجياً، واكتنف الجميع غم، وهم يحاولون الإصغاء
إلى قصة الرجل المريض:

- أستطيع بعد أن أكون ذا فائدة للعامة... كشهادة حية على جريمة
عظيمة... ها أنا... انظروا إليّ، إنني في الثامنة والعشرين فقط، ولكنني
أموت، منذ عشر سنوات كنت أرفع اثني عشر من البودات^(١) دون شكوى،
وكنت متأكداً أن شخصاً مثلي سيعيش حتى يبلغ السبعين. ولكنني عشت
عشر سنين أخرى فقط... والآن انتهى كل شيء. إن رؤسائي سلبوني..
سلبوني أربعين عاماً من عمري... أربعين عاماً!

فقال ريّبين بصوت أجش:

- هذه هي الأغنية التي يغنيها دائماً!

تأججت النار مرة أخرى أكثر لمعاناً وقوة من ذي قبل، وفرت الظلال
ثانية إلى الغابة ثم عادت إلى اللهب تحوم حوله في رقص عدائي أخرس.
وأنت العيدان الرطبة وصرصرت، وخشخش أوراق الشجر في
تيار الهواء الدافئ، وتعانقت ألسنة اللهب الحمراء والصفراء في مرح
وهي تلعب في نشاط وتبعثر الشرر وهي ترتفع، وحلقت ورقة مشتعلة في

(١) البود: وزن روسي مقداره ستة وثلاثون رطلاً - المعبران.

الهواء. وفي السماء ابتسمت النجوم للشرر تدعوه أن يصعد إلى أعلى.

وقال الرجل المريض:

- إنها ليست أغنيتي، بل الأغنية التي ينشدها ألوف الناس دون أن يدركوا أن بؤسهم درس طيب للآخرين. كم من الناس الذين أقعدهم العمل وشوهم يقضون جوعاً...

وانطوى على نفسه وقد انتابته نوبة سعال...

ووضع ياكوف دلوًا من الكفاس^(١) وحزمة من البصل الأخضر على المائدة وقال:

- تقدم إلى هنا يا سيثلي. لقد أحضرت إليك بعض اللبن.

هز سيثلي رأسه رافضاً، ولكن ياكوف أمسك ذراعه وقاده إلى المائدة.

قالت صوفيا إلى ريبيـن موبخة:

- لِمَ أحضرته إلى هنا؟ إنه قد يموت في أي لحظة!

فقال ريبيـن موافقاً:

- إنني أعرف، ولكن ليتكلم، ما دام قادرًا على ذلك، فقد ضحى

بحياته من أجل هدف لا جدوى منه. فليتحمل بعض العذاب من أجل

هدف نبيل. إن كل شيء على ما يرام، لا تقلقي.

فهتفت صوفيا:

- يبدو أنك تجد لذة في ذلك!

(١) «الكفاس»: مشروب روسي يشبه البيرة - المعبران.

حدجها رييين بنظرة، ثم أجابها غاضبًا:

- بل أنتم أيها السادة النبلاء، الذين يتلذذون معجبين بيسوع المسيح يتأوه على الصليب. ولكن نحن نريد أن نعتبر من هذا الرجل وتعتبروا أنتم!

رفعت الأم أحد حاجبيها في قلق وقالت:

- حسبك هذا!

وشرع الرجل المريض الذي جلس الآن إلى المائدة يتحدث من جديد. قال:

- لماذا يقتلون الناس بالعمل؟ لماذا يسلبون الرجل حياته، إن رئيسنا... لقد كنت أعمل في مصنع نفيدوف، إن رئيسنا أهدى ممثلة وعاء من الذهب لتغتسل به، وأهداها أيضًا أضيًا أضيًا من الذهب. إن قواي وحياتي قد ذهبتا في هذا الأضيص، ذلك ما وهبت حياتي من أجله. إن رجلًا قد قتلني من العمل كي يسلي عشيقته بدم حياتي. لقد اشترى لها أضيًا من الذهب بدم حياتي!

فقال يقيم في احتقار:

- لقد خلق الإنسان على صورة الله ومثاله. وهذا ما يفعلون به!

فصاح رييين وهو يضرب المائدة براحة يده:

- أخبر كل الناس عن ذلك!

وأضاف ياكوف بصوت خافت:

- لا تتحمل ذلك!

وضحك أجنات. ولاحظت الأم أن هؤلاء الفتيان الثلاثة ينصتون في فضول النفوس الجائعة التي لا تشبع، ويراقبون ريبين باهتمام كلما تكلم. ولكن كلمات سيفلي حملت إلى وجههم تعبيرًا ساخرًا غريبًا، وبدا عليهم أنهم لا يشعرون بأي شفقة نحو الرجل المريض!

فهمست الأم بصوت خافت، وهي تنحني نحو صوفيا:

- هل ما قاله صحيح؟

فأجابت صوفيا بصوت عال:

- نعم إنه صحيح. وقد كتبوا عن هذه الهدايا في صحف موسكو!

وقال ريبين بصوت أجش:

- ولكن المجرم لا يعاقب أبدًا، مع أنه يجب أن يعاقب... يجب أن يحضر أمام الشعب ويقطع إربًا ويُلقي لحمه الفاسد إلى الكلاب! أوه! إنه لقصاص عظيم ذلك الذي سينزله الشعب بهم عندما يثور! سيريقون دماء كثيرة ليغسلوا الآلام التي يعانونها، وستكون تلك الدماء دماءهم، امتصت من عروقهم، فلهم الحق إذن أن يفعلوا بها ما يشاؤون!

قال الرجل المريض:

- إنني أشعر بالبرد.

ساعده ياكوف على النهوض، وقاده إلى النار!

كانت النار تتأجج الآن في تألق، فترقص حولها ظلال مبهمة، تراقب لعب اللهب المرح. وجلس سيفلي على جذر شجرة ومد يديه الجافتين الشفافتين نحو مصدر الحرارة.

أشار ريبين إلى الرجل المريض بحركة من رأسه وقال لصوفيا:

- إنه يوضح الأمور أكثر مما في الكتب. فعندما تقتل الآلة عاملاً أو تقطع أحد ذراعيه يقولون إن ذلك خطأه هو. ولكن عندما يمتصون كل الدم من إنسان، ويلقونه بعيداً كالقاذورات، لا يوجد تفسير لذلك. إن باستطاعتي فهم القتل المباشر، ولكنني لا أستطيع فهم تعذيب شخص حتى الموت لمجرد التسلية. لماذا يعذبون الناس؟ لماذا يعذبوننا جميعاً؟ لمجرد التسلية، من أجل لذتهم الخاصة حتى يتسنى لهم أن يتمتعوا على هذه الأرض ويشتروا ما يحلو لهم بثمن الدم، يشتروا الممثلات، وحياد السباق، وسكاكين من الفضة وصحاف الذهب، ودمى غالية لأطفالهم، ويقول الرئيس: اعمل، اعمل أكثر وأكثر؛ حتى أستطيع أن أكس المال من عملي؛ كي أشتري لعشيقتي إناء من الذهب تبول فيه.

وبدا للأم، وهي تراقب وتصغي، أن ذلك الدرب البراق الذي اختاره بافل ورفاقه يلعب في ظلمة الليل!

وعندما انتهى العشاء اقتربوا كلهم من النار ليجلسوا حولها. كانت ألسنة اللهب تلعق الخشب بنهم، بينما ارتفع إلى الخلف منها ستار من الظلمة يحجب الغابات والسماء. وجلس الرجل المريض يحدق في النار بعينين واسعتين وهو يسعل دون انقطاع، ويرتجف كأن ما تبقى من حياته يكافح دون صبر لتحرير نفسه من جسد أنهكه المرض. وتراقص ضوء اللهب على وجهه عاجزاً عن إحياء ذلك الجلد الميت، ولكن عينيه فقط كانتا تشعان بنار تلفظ أنفاسها!

فقال له ياكوف وهو ينحني عليه:

- أليس من الأفضل أن تذهب إلى الكوخ يا سيثلي؟

فسأل الرجل المريض وهو يبذل جهدًا:

- لِمَ؟ سأظل هنا... لم يبق لي وقت طويل أستمتع فيه بصحبة الناس.

ونظر حوله وبعد فترة صمت قصيرة استطرد يقول، وقد علت شفثيه

ابتسامة واهنة:

- إنه شيء رائع أن أكون في صحبتكم. فعندما أنظر إليكم يملأ قلبي

الأمل في أنكم ستنتقمون لأولئك الذين سلبوا وقتلهم الجشع!

لم يجبه أحد، وسرعان ما استغرق في النوم وقد مال رأسه دون حياة

على صدره، فقال ريبين بصوت خافت وهو يراقبه:

- إنه يأتي إلى هنا ويجلس فيتحدث دائمًا عن الشيء ذاته، عن الكائن

البشري المخدوع. إن نفسه كلها تطفح بهذه القصة، فهو لا يستطيع رؤية

شيء سواها... كأنها ملصقة على عينه.

فقال الأم مفكرة:

- وما عساه يرى سواها؟ فإذا كان العمل يقتل آلاف الناس يومًا بعد

يوم حتى يتسنى لرؤسائهم أن يلقوا بأموالهم على سائر أنواع السخافات،

فماذا تبقى ليرى الإنسان؟

قال أجنات:

- إن الاستماع إليه ممل، فإن أنت استمعت إلى قصته مرة، لن

تستطيعي نسيانها، ومع ذلك فهو لا ينفك يعزف اللحن ذاته مرة بعد مرة.

فقال ريبين في اكتئاب:

- إن كل شيء محشور في هذا اللحن، حياته كلها، يجب أن تفهم ذلك. لقد سمعت قصته عشرات المرات، ومع ذلك فإنه لا يزال ينتابني الشك في بعض الأحيان. إن هناك لحظات طيبة في الحياة يرفض فيها المرء أن يصدق أن الناس متعفنون بلهاء، وذلك عندما تحب كل الناس، الأغنياء والفقراء على حد سواء. فالأغنياء أيضًا قد ضلوا الطريق، فبعضهم تميمهم الحاجة، وبعضهم الآخر يعميهم الجشع! هبوا جميعًا، فكروا بإخلاص، فكروا تفكيرًا لا يلوي على شيء!

تمايل الرجل المريض، وفتح عينيه ثم استلقى على الأرض، فنهض ياكوف بهدوء، ودلف إلى الكوخ، ثم عاد يحمل غطاء من جلد الماعز لف به ابن عمه وجلس من جديد بجانب صوفيا.

وأضاءت ابتسامة النار اللعوب الأجساد السوداء الملتفة حولها، بينما اختلطت أصوات الناس بقطعة الأخشاب الهادئة وهمس النيران.

وقصت صوفيا عليهم أخبار كفاح شعوب العالم كلها من أجل حقهم في الحياة، تحدثت عن ثورة الفلاحين الألمان القديمة، وبؤس الإيرلنديين، وبطولة العمال الفرنسيين في المعارك العديدة التي خاضوها من أجل الحرية.

وراحت تلك الحوادث التي زعزعت عالم المتخمين والجشعين تبعث إلى الحياة في الغابة المكسوة برداء من المخمل الأسود يلقيه الليل على أكتفائها، وفي ذلك المنبسط الصغير الذي تحده الأشجار وتظله السماء السوداء، ويضيئه لهب النار الذي تحيط به الظلال المشدوكة العدائية. وفي الوقت ذاته ورد ذكر أسماء المناضلين من أجل الحرية

والحقيقة، وراحت شعوب العالم تمر في حديثهم واحدًا تلو الآخر، دامية أنهكتها المعارك.

كان صوت المرأة خافتًا أجش، وبدا كأنه يأتي من الماضي السحيق يبعث الآمال، ويوقظ الثقة في نفوس هؤلاء الرجال الذين كانوا يصغون بصمت إلى قصة إخوانهم في بلدان أخرى، وبينما هم ينظرون إلى وجه صوفيا الشاحب النحيل، راحت القضية المقدسة لسائر شعوب العالم، قضية الصراع الذي لا ينتهي من أجل الحرية، تزداد وضوحًا أمام عيونهم، ووجدوا أن أحلامهم وآمالهم هي نفسها أحلام وأمانى شعوب مجهولة تعيش في الماضي السحيق، الذي يفصله عن الحاضر ستار التاريخ الأسود الدامي، فاتصلوا بقلوبهم وعقولهم بالعالم الفسيح الواسع، حيث وجدوا أصدقاء لهم أُلّف بينهم العزم على تحقيق العدالة على الأرض، ووطدوا ذلك العزم بما عانوا من آلام وبما أراقوا من دماء من أجل حياة أفضل، وانبعث بينهم شعور بالقرابة الروحية، وولد قلب جديد في العالم، قلب يخفق بالرغبة الملحة لمعرفة كل شيء، وفهم كل شيء.

وقالت صوفيا في ثقة:

- سيأتي اليوم الذي يثور فيه العمال في كل أنحاء العالم، ويقولون: «كفانا ما لقينا! لقد تحملنا ما فيه الكفاية من هذه الحياة!»، عندئذ ستنهار تلك السلطة الوهمية التي يتمتع بها أولئك الأقوياء بنهمهم، وستמיד الأرض من تحت أقدامهم، وسيُنبدون نبذًا، ولا يجدون شيئًا يشبثون به! فقال ريبيّن وهو يطرق برأسه:

- حقًا، ليس هناك ما لا نستطيع فعله، إذا ضحينا بكل ما نملك دون

أن نضن بأنفسنا.

أصغت الأم رافعة أحد حاجبيها، تعلقو شفيتها ابتسامة دهشة سعيدة. ورأت أن كل ما بدا لها في صوفيا من حدة ونزق- كل ما لا يليق بطبيعتها- قد تلاشى في حديثها الملتهب المنساب. وراق لها هدوء الليل وتلاعب النار ومحيا صوفيا، وبخاصة انتباه الموجيك الفائق. كانوا يجلسون دون حراك، يبذلون جهدهم كي لا يقطعوا سرد الحكاية، خائفين أن يقطعوا ذلك الخيط البراق الذي يربطهم بالعالم أجمع. وبين الحين والحين، كان أحدهم يضع في حذر شديد قطعة من الحطب في النار، ثم يبعد الشرر والدخان عن المرأتين كلما ارتفعوا.

ونهض ياكوف مرة أخرى وقال في هدوء:

- انتظروا برهة!

وهرول إلى الكوخ، وأحضر بعض الأغذية ووضعها هو وأجنات بهدوء على أكتاف الضيفتين وركبهما. واستطردت صوفيا ترسم صورة ليوم النصر، وتنفخ في مستمعيها من قوتها نفسها، وتوقظ فيهم شعورًا بالوحدة مع كل أولئك الذين يضحون بحياتهم في جهد ضائع لإرضاء أهواء المتخمين الحمقى. لم تضطرب الأم لكلمات صوفيا، ولكن الشعور بالأخوة الذي أثارته تلك الكلمات، ملأ نفسها بالشكر العميق لأولئك الناس الذين يخاطرون بحياتهم كي يقدموا الحب والحقيقة والتفكير الشريف إلى أولئك الذين يستعبدون العمل اليومي، ففكرت وهي تغلق عينيها:

- اللهم ساعدهم!

وعند الفجر أنهت صوفيا قصتها، بعد أن هدّها التعب، ونظرت حولها مبتسمة إلى الوجوه المنيرة التي تعلوها سيماء التفكير المحيطة بها.
فقالت الأم:

- لقد حان الوقت لأن نرحل.

فأجابت صوفيا:

- نعم. لقد حان الوقت!

وأطلق أحد الفتيان زفرة حرّى. وقال ريبين في صوت عذب:

- من سوء الحظ أنكما ذاهبتان؛ فالاستماع إليكما حلو. إنه لشيء عظيم حقاً أن تجعلا الناس يشعرون بوحدتهم. عندما تعرفين أن ملايين الناس يريدون الشيء ذاته الذي تسعين من أجله، فإن قلبك يزداد رقة، ورقة القلب قوة عظيمة!

فقال يقيم ضاحكاً وهو ينهض:

- كن رقيقاً حتى يتسنى للشخص الآخر أن يرفسك في مؤخرتك! من الأفضل أن يرحلا أيها العم ميخائيلو قبل أن يراهما أحد. فحين نبدأ في توزيع هذه المنشورات ستبدأ السلطات في البحث عن الذين أحضروها، وسيقول شخص ما: «أتذكرون الحاجتين اللتين حضرتا إلى هنا؟».

فقاطعه ريبين قائلاً:

- شكراً لك على اهتمامك بأمرنا، وتكبدك المشاق من أجلنا يا أماه!
إنني لا أنفك أذكر بافل عندما أنظر إليك. يا له من عمل رائع ذلك الذي تقومين به!

كان الآن أرق طبعًا، تعلو شفثيه ابتسامة عريضة دافئة، والجو بارد، ولكنه كان يقف هناك دون عطف، قميصه مفتوح يكشف عن صدره، فلم يسع الأم إلا أن تعجب ببنيته القوية. فقالت في رقة:

- من الأفضل أن ترتدي شيئًا، إن الجو بارد.

فأجابها قائلاً:

- إن نفسي دافئة من الداخل!

كان الفتیان الثلاثة يتهايمسون حول النار، بينما استلقى الرجل المريض عند أقدامهم يغطيه جلد الماعز. كانت السماء شاحبة والظلال قد تلاشت وارتعشت أوراق الشجر في انتظار الشمس المشرقة.

فقال ريبين ماذا يده إلى صوفيا:

- حسنًا، أعتقد أن هذا هو الوداع. كيف نستطيع العثور عليك في

المدينة؟

فقالت الأم:

- أنا التي يجب عليك أن تعثر عليها.

اقترب الفتیان الثلاثة من صوفيا ببطء وصافحوها في أدب مشوب بشيء من الخشونة. لقد كان واضحًا أن كل واحد فيهم مفعم بشعور غريب من الفرح فيه ألفة وجمال، وبدا أن هذا الشعور كان يربكهم لجذته عليهم، فكانوا يتسندون إلى هذه القدم تارة، وإلى القدم الثانية تارة أخرى، وهم ينظرون إليها مبتسمين بأعين أمضها الأرض، وقال ياكوف:

- ألا تشربان قليلًا من اللبن قبل أن ترحلا؟

فسأله يقيم:

- ولكن هل يوجد أي شيء من اللبن؟

فقال أجنات باضطراب وهو يمسح شعره ببطء:

- كلا، لقد أرقته...!

فضحك الفتیان الثلاثة!

كانوا يتحدثون عن اللبن، ولكن الأم شعرت بأنهم يفكرون في شيء آخر... بأنهم يشعرون بشعور طيب تجاهها وتجاه صوفيا، وأنهم يتمنون لهما حظاً طيباً، وشعرت صوفيا بالشيء ذاته، فأربكها وملاً نفسها بالتواضع، فلم تستطع إلا أن تقول:

- شكراً لكم، أيها الرفاق!

تبادل الفتیان النظرات، كأن كلماتها دفعتهن قليلاً إلى الأمام، وصدرت عن الرجل المريض سعلة قوية، وخمد الفحم المتأجج حيث كانت النيران.

قال الموجيك بهدوء:

- وداعاً!

وترددت هذه الكلمات الحزينة في آذان المرأتين.

فقالت الأم التي كانت تسير وراء صوفيا:

- يا لروعته، رائع كاللحم. إن الناس يريدون أن يعرفوا الحقيقة يا عزيزتي. حقاً إنهم يريدون معرفتها، إنه يشبه ما يجري في الكنيسة قبل

قداس الصباح يوم عيد الميلاد أو عيد الفصح، فالكاهن لم يأت بعد، وكل شيء مظلم وهادئ ومخيف، ولكن الناس يتجمعون شيئاً فشيئاً، فتوقد شمعة هنا أمام أيقونة، وتوقد أخرى هناك، ويطرد الظلام تدريجياً، ويملاً النور بيت الرب.

فقلت صوفيا في فرح:

- ما أصدق هذا! إلا أن بيت الرب في هذه الحالة هو العالم كله.

فرددت الأم وهي تهز رأسها بالإيجاب:

- العالم كله! إن ذلك رائع جداً، حتى ليصعب تصديقه، وأنت تكلمت جيداً يا عزيزتي... جيداً جداً، وأنا كنت خائفة ألا يحبوك.

صمت صوفيا فترة قصيرة، ثم قالت بهدوء ورزاة:

- إن صحبتهم تجعل الإنسان أكثر بساطة!

واستمرت في طريقهما تتحدثان عن ريبين والرجل المريض والفتيان الثلاثة الذين كانوا يصغون بانتباه، وعبروا عن امتنانهم بتلك الخدمات القليلة في ارتباك لا يخلو من طلاقة، وسرعان ما وصلنا إلى الحقول والشمس تشرق لاستقبالهما، ناشرة في السماء، وهي لم تزل غير مرئية، مروحة شفافة من الأشعة الوردية، وقطرات الندى على العشب تشع بألوان عديدة في فرح ربيعي جذل، واستيقظت العصافير تحيي الصباح بتغريدها المرح، وحلقت غربان ضخمة في الفضاء باعثة نعيقاً مدعوراً، تخفق بأجنحتها الثقيلة، ثم صفر كناري، وتكشف المدى شيئاً فشيئاً، محيياً الشمس المشرقة برفع حجب الليل عن التلال.

وقالت الأم حالمة:

- يتحدث الإنسان في بعض الأحيان ويستطرد في الحديث، فلا تستطيعين فهمه، حتى يقول كلمة بسيطة فجأة توضح كل شيء، هكذا كان الحال مع الرجل المريض. لقد سمعت الكثير، وأنا نفسي أعرف الكثير، عن كيف يرهقون العمال في المصانع وأماكن أخرى، ولكنك تتعودين عليها فلا يكاد يؤثر فيك، إلا أن ما قاله كان فظيحا جدا! مخجلا للغاية يا يسوع الحبيب! أيمن أن يريق الناس حياتهم حتى يتسنى لرؤسائهم أن يتمتعوا بهذه المهازل؟ ليس ثمة عدل في ذلك!

واستقرت أفكار الأم على قضية هذا الرجل التي ألفت انعكاساتها الساخرة على قصص أخرى مماثلة، كانت قد سمعتها، ولكنها نسيتها!

- إنهم مرضى بتخمتهم. لقد عرفت ذات مرة مدير ناحية كان يجبر الموجيك على الانحناء لجواده عندما كان يمر عبر القرية، وكان يلقي القبض على كل من لا يفعل ذلك. ما الذي دفعه إلى عمل كهذا؟ لا أجد تفسيراً لذلك..

أخذت صوفيا تغني أغنية مشرقة ندية كالصباح...

- ٧ -

انسابت حياة الأم في هدوء ودعة عجيبين، يشران فيها الدهشة بعض الأحيان. كان ابنها في السجن، وكانت تعلم أنه سوف يلقي جزاء قاسيا، ولكنها كانت كلما تفكر في هذا يمتلئ ذهنها بصور أندري وفودور

وآخرين، وكانت صورة ابنها، بما في ذلك صور الآخرين الذين يقاسمونهم مصيره، تنمو أمام عينيها مثيرة فيها خواطر لا تلبث أن تتفرع عن غير وعي منها في شتى الجهات، وكأنها شعاعات رقيقة غير متسقة كانت تصل كل مكان، وتلمس كل شيء، محاولة إلقاء بعض الأضواء على سائر الحوادث، وجمعها كلها في لوحة واحدة، وكانت هذه تمنعها عن تركيز ذهنها على أمر واحد فقط، وخصوصاً على شوقها لابنها ومخاوفها عليه.

وسرعان ما رحلت صوفيا لتعود بعد خمسة أيام مرحلة طروباً، لتخفي ثانية خلال ساعات قلائل؛ لكي تظهر من جديد بعد أسبوعين. كان يبدو كأنها تسافر عبر الحياة في دوائر واسعة تعيدها بين الحين والحين إلى أخيها ثانية لتملأ بيته بشجاعتها وموسيقاها.

وصارت الأم تعشق الموسيقى، فكان يبدو لها وهي تستمع إلى أمواج دافئة تضطرب في صدرها وتغسل فؤادها فيخفق في اتساق أكثر باعثاً فيها نبثاً يانعاً من الأفكار التي ازدهرت بالكلمات في سهولة وجمال تحت تأثير الموسيقى، وكأنها بذور رويت جيداً، مدفونة في باطن الأرض.

كان صعباً على الأم أن تعتاد على فوضى صوفيا، التي كانت ملابسها وأعقاب سجائرها ورمادها يشوه منظر البيت، وكان من الصعب عليها أيضاً أن تعتاد على أحاديث صوفيا الحماسية، المتناقضة جداً مع هدوء نيقولاوي وثقته بنفسه، وما في أحاديثه من عذوبة ورزانة، فكانت صوفيا تبدو لها مراهقة تتلهف إلى أن يعتبرها الناس امرأة بالغة، فكانت لا ترى الناس إلا مجموعة من الدمى العجيبة. كانت دائمة الحديث عن قداسة العمل، تزيد بفوضاها مشاغل الأم. كانت تتكلم عن الحرية في طلاقة،

فتدرك الأم أنها كانت تزعج الآخرين بتعصبها ومناقشاتهما التي لا تنتهي .
كانت مليئة بالمتناقضات، وكانت لعلمها بذلك مضطرة إلى معاملتها
في حذر ومن دون أن تشعر نحوها بذلك الاحترام الذي لا يتغير، والذي
كانت تكنه لنيقولاي.

كان نيقولاي شديد الاهتمام بالآخرين وهو ماض في حياته الرتيبة
التي لا تتغير من يوم إلى آخر، ففي الثامنة يتناول شاي الصباح ويقرأ
الجريدة ثم ينقل الأخبار للأم، وكانت الأم وهي تستمع إليه، تدرك
بوضوح مذهل كيف أن آلة الحياة تسحق الناس دون رحمة وهي تحولهم
إلى نقود، واكتشفت أن ثمة مزايا مشتركة بين نيقولاي وأندري، فهو
كالأوكراني يتحدث عن الناس من غير حقد، محملاً إياهم مسؤولية كل
الأخطاء الموجودة في العالم، ولكن لم تكن ثقته في الحياة قوية ولا جذابة
كإيمان أندري. كان يتكلم بصورة دائمة في هدوء قاض صارم شريف،
بينما تتراقص على شفثيه ابتسامة حزن وادعة حين يناقش أكثر الأمور
خطورة وأهمية، وفي عينيه شعاع بارد قاس، فتدرك الأم بذلك أنه لن يغفر
لأي إنسان أي شيء، وأنه لا يقوى على الغفران، فترثي له؛ لأنها كانت
تعلم أنه ليس من السهل عليه أن يكون قاسياً فيزداد شغفها به يوماً إثر يوم.

وفي التاسعة كان يمضي إلى العمل، فترتب المنزل، وتعد الغداء
وتغتسل وترتدي ثياباً نظيفة، ثم تجلس في غرفتها تتطلع إلى الرسوم في
الكتب. كانت آنذاك قد تعلمت القراءة، ولكنها كانت تتطلب منها جهداً
كبيراً فتتعب بسرعة ولا تستطيع أن تدرك العلاقة بين الكلمة والأخرى،
ولكنها كانت تجد لذة طفولية في التطلع إلى الصور التي كشفت لها عن

عالم جديد رائع فهمته واستوعبته واكتشفت أنه يكاد يكون ملموسًا، وانتصبت أمام عينيها مدن ضخمة، وأبنية جميلة، وآلات وسفن وآثار، وكل تلك الثورة التي لا تقدر والتي خلفتها أيدي الإنسان، ثم هبات الطبيعة الكثيرة التي تثير الدهشة والذهول بتباينها واختلاف أنواعها، واستمرت الحياة في الاتساع أمام عينيها فكانت تفتحهما على معجزة بعد أخرى، فتثير روحها المتعطشة بمعرض كنوزها الغزيرة وبجمالها الذي لا ينضب، وكانت تحب، بصورة خاصة، أن تتطلع إلى أطلس علم الحيوان الذي أعطاها- رغم كونه مطبوعًا بلغة أجنبية- صورة واضحة عن ثروة الأرض وجمالها وسعتها.

قالت لنيقولاى ذات يوم:

- ما أوسع العالم!

وكانت تبتهج أكثر ما تبتهج بالحشرات وبالفرشات بشكل خاص، فتدرس الرسوم في دهشة ثم تقول:

- أليست جميلة يا نيقولاى إيفانوفيتش؟ كم من هذا الجمال يوجد في كل مكان، هكذا خافيًا عن أعيننا ومأرا بنا دون أن نراه، والناس يندفعون إلى الأمام من غير أن يعرفوا شيئًا... إذ لا وقت لذلك ولا رغبة. كم ننال من السرور لو عرفنا عن ثروات الأرض، وكم من الأشياء الرائعة نعيش فيها؟ وهذه الأشياء كلها هي لسائر الناس، وكل شيء هو للجميع... أليس كذلك؟

فبتسم نيقولاى وهو يحمل إليها كتابًا آخر مصورًا:

- إنها حقًا كذلك!

وغالبًا ما كان يأتي الناس لرؤيته في الأماسي، وكان من بين ضيوفه
الكسي فاسيليقتش، وهو رجل وسيم ذو وجه شاحب ولحية سوداء... كان
مهيبًا قليل الكلام، ورومان بيتروفيتش، وهو شخص منقط الوجه، مستدير
الرأس يتأفف دائمًا أسفًا على هذا الشيء أو ذاك، وإيخان دانيلوفيتش وهو
رجل صغير الجرم نحيل البنية، ذو ذقن مدببة وصوت مرتفع، سريع النبرات
كثير الضوضاء، حاد كأنه المخراز، وإيجور الذي كان دائم الضحك من
نفسه ومن رفاقه، ومن ذلك المرض الذي يزداد، وكان ثمة أناس آخرون
يجيئون من مدن نائية، ويتبادلون مع نيقولاي الأحاديث الطوال، أو التي
تدور دائمًا حول نفس الموضوع، الطبقة العاملة في العالم أجمع. كانوا
يتناقشون في حماس وهم يلوحون بأيديهم ويشربون كميات كبيرة من
الشاي، وكان نيقولاي يؤلف، بينما هم يتكلمون، نداءات يقرأها بعد
ذلك لرفاقه فينسخونها مباشرة، بينما تجمع الأم في حذر بقايا المسودات
الممزقة وتحرقها.

كانت دائمة التعجب، وهي تصب لهم الشاي، من تلك الحماسة
المسيطرة على أحاديثهم عن حياة الطبقة العاملة ومصيرها، عن أفضل
السبل وأسرعها في نشر الحقيقة بينهم، وعن رفع معنوياتهم، وكثيرًا ما
كانوا يغضبون، فيرشق بعضهم بعضًا بتهم حادة قاسية، ولكنهم يعودون
دائمًا فيستمررون في الجدل.

وأحست الأم بأنها تعرف حياة العمال أكثر مما يعلمون، وبدا لها أنها
ترى بوضوح أكثر جسامة الواجب الذي أخذه على عواتقهم، وجعلها
هذا تنظر إليهم في ترفق وأسف، نظرة الراشد إلى أطفال يلعبون لعبة

الزوج والزوجة، من غير أن يدركوا ما تنطوي عليه تلك العلاقة من مآسي. وعلى غير قصد منها كانت تقارن بين أحاديثهم وأحاديث ابنها وأندري، فتدرك فارقاً لم تكن تفهمه في بادئ الأمر. كانت تشعر بعض الأحيان أن الناس هنا يصيحون بصوت أكثر ارتفاعاً منه في حي العمال، فتفسر ذلك بقولها:

- إنهم يعرفون أكثر، ولهذا يتكلمون بصوت أعلى...!

ولكنها غالباً ما كانت تحس بأن هؤلاء الناس يستفزون بعضهم بعضاً- عن قصد- مظهرين حماسهم. وكان كل منهم يريد أن يبرهن لرفاقه على أن الحقيقة تعني بالنسبة له أكثر مما تعني بالنسبة لهم، فيغضب بعضهم من هذا ويدخلون في مناقشات جافة حادة؛ ليبرهنوا بدورهم على أنهم يكونون للحقيقة احتراماً أكثر مما يكنه غيرهم. كان يبدو أن كلاً منهم يتلهف للقفز إلى مستوى أعلى من غيره، وهذا أزعجها، وبث في نفسها الحزن، فتفكر قائلة وهي تحديق فيهم بجفنين مرتعشين وعينين متوسلتين:

- لقد نسوا كل شيء عن باشا ورفاقه.

كانت تستمع إلى سائر مناقشاتهم بانتباه عظيم، وإن كانت طبعاً لا تفهم شيئاً، ولكنها كانت تسعى لأن تدرك المشاعر من خلف الكلمات، فتجد أن مفهوم الخير عندما يدور حوله النقاش في حي العمال كان مفهوماً على أنه كل واحد، لا يقبل التجزئة، بينما هو هنا مقسم إلى أجزاء صغيرة. إن المشاعر هنا أقوى وأعمق، أما هناك فتبدها أفكار ثابتة. إنهم هنا يتكلمون أكثر عن تمزيق القديم، وهناك يحلمون أكثر بالجديد، ولهذا السبب كانت كلمات ابنها وكلمات أندري أعز لديها وأقرب إلى إدراكها!

ولاحظت أنه كلما جاء أحد العمال لرؤية نيقولاى أصبح أكثر حرية وانطلاقاً معه، فيظهر على وجهه تعبير حلو رقيق، يتحدث بلهجة غير مألوفة قد تكون أكثر فظاظاً، أو أكثر طواعية، وعندئذ تفكر الأم قائلة:

- إنه يحاول أن يتكلم بطريقة يفهمه بها المرء.

ولكن هذا لم يرقها، إذ لاحظت أن العامل أيضاً غير مرتاح، فكان ثمة شيء يكبت مشاعره فيعجز عن مخاطبة نيقولاى بحرية وسهولة، كما كانت تفعل معها العاملة البسيطة.

وذات مرة قالت لأحد الشبان، بعد أن خرج نيقولاى من الغرفة:

- مِمَّ تخاف؟ لست تلميذاً صغيراً يسمع درسه لأستاذه!

فابتسم العامل ابتسامة عريضة وقال:

- حتى السرطان البحري نفسه يحمر عندما يخرج من عنصره... وعلى أي حال فإنه ليس على شاكلتنا.

كانت ساشا تأتي في بعض الأحيان، فلا تمكث طويلاً، وإنما تتحدث على الدوام بلهجة عملية، دون أن تضحك، وعندما تذهب تطرح على الأم نفس السؤال الذي لا يتغير:

- كيف حال بافل ميخائيلوفيتش؟

- لا بأس به، وروحه المعنوية عالية، لله الحمد!

فتقول الفتاة:

- بلغيه تحياتي.

ثم تختفي.

شكت الأم لها ذات مرة تأخيرهم محاكمة بافل، فعبست ساشا، ولم تقل شيئاً، بل راحت أصابعها ترتعش، وودت الأم لو تقول لها:
- أعلم أنك تحببته يا عزيزتي...

ولكن الشجاعة خانتها. وكان وجه الفتاة الرزين، وشفاتها المنضمتان، ولهجتها العملية الجافة تصد كل انطلاق عاطفي. شدت الأم في سكوت وهي تتنهد، على اليد الممدودة إليها وفكرت:

- يا أختاه ما أشقاك!

وجاءت ناتاشا ذات يوم، فسُرت لوجود الأم هناك، ثم قالت فجأة بعد أن قبلتها:

- لقد ماتت أمي... تلك الحبيبة المسكينة!

ثم ألقت برأسها إلى الخلف، ولمست عينيها بحركة سريعة قبل أن تستطرد قائلة:

- يا للمصيبة... إنها لم تبلغ الخمسين من عمرها بعد. كان من الممكن أن تعيش أطول... لكنني مع ذلك لا أستطيع طرد الفكرة من رأسي بأن الموت كان أفضل من الحياة التي عاشتها. لقد كانت وحيدة أبداً... لا يحبها أحد، ولا يحتاج إليها أحد، وكانت مذعورة باستمرار من صيحات والدي... هل تسمين هذه حياة؟... إنما يعيش الغير وهم يرجون شيئاً أفضل، ولكن أمي لم يكن أمامها ما تتطلع إليه في مستقبل حياتها سوى المزيد من الإهانات!

فقالت الأم في تأمل:

- إن ما تقولينه حق... يا ناتاشا، إنما يعيش الناس انتظارًا لما هو أفضل... ولكن إذا لم يكن ثمة شيء يتطلع إليه المرء في المستقبل، فأبي حياة تكون تلك؟

ربت على يد الفتاة، ثم قالت:

- وهكذا... فأنت الآن وحيدة؟

فقالت ناتاشا في رفق:

- وحيدة تمامًا!

فابتسمت الأم... وبعد فترة صمت قصيرة قالت:

- لا بأس من ذلك، فالطيون من الناس لا يعيشون وحدهم طويلًا، فهناك دائمًا آخرون يتعلقون بهم!

- ٨ -

بدأت ناتاشا تعلم في مدرسة تابعة لمصنع نسيج، وراحت الأم تملأها بمنشورات سرية، ونداءات، وصحف.

أصبح ذلك دأبها، فصارت تتكرر عدة مرات كل شهر في زي راهبة أو بائعة متجولة للدانتيل وخيوط الغزل، أو حضيرة ميسورة الحال، أو حاجّة تقيّة ورعة، تجوس خلال المنطقة، وعلى كتفها حقيبة، أو في يدها صندوق ملابس. وكانت دائمًا في القطارات وعلى المراكب، في الفنادق،

وفي الحانات... هي... هي... تلك المرأة الهادئة الرزينة التي تقول الكلمة الأولى للغرباء، وهي تلفت إليها الانتباه من غير خوف، بلطفها وحسن معاشرتها، وبتلك الثقة بالنفس التي يتحلى بها من خَبر الحياة وشاهد فيها الكثير.

كانت تحب أن تتحدث إلى الشعب وتسمع حكاياته، وشكواه؛ لتعرف ما يزعجه. وكان مما يسرها دائماً أن تصادف من ينقم نقمة شديدة وهو يحتج على ضربات القدر ويبحث في إصرار عن جواب أسئلة محددة كل التحديد. وكانت شاشة الحياة البشرية باضطرابها ونضالها المستميت من أجل الخبز اليومي تبسط أمامها. وكانت ترى في كل ناحية، بكل وضوح وجلاء، محاولات سافرة مكشوفة لخداع الناس وسلبهم، والولوغ في دمائهم واستنزاف آخر قطرة للريح منهم. ورأت أن الأرض غنية بما عليها، وعلى الرغم من ذلك فإن الجماهير تعيش في عوز مدقع، وهي تتضور جوعاً في هذه البجوحة. كانت الكنائس في المدن مكتظة بالفضة والذهب الذي لا فائدة منه لله، بينما يقف الشحاذون على الأبواب يرتعشون وهم ينتظرون عبثاً بضعة دراهم تُلقى في أيديهم الممدودة. لقد شاهدت كل هذا من قبل... الكنائس الغنية وثياب الكهنة المطرزة بالذهب وزرائب الفقراء وأسمالهم المزرية... ولكنها رضىت به حينذاك باعتباره أمراً طبعياً، بينما تجده الآن أمراً لا يطاق. بل إنها لتجده إهانة للفقراء الذين هم، فيما تعلم، أقرب إلى الكنيسة، وأكثر حاجة إليه من الأغنياء.

ولقد عرفت من صور المسيح التي رأتها، ومن الحكايات التي سمعتها

عنه أنه كان يرتدي ثيابًا في غاية البساطة، وأنه كان صديقًا للفقراء، ولكنها رأت صورته في الكنائس مزينة بذهب خالص وحرير يخشخش ازدراء لدى رؤية الفقراء، الذين كانوا يقصدون المسيح طلبًا للراحة والطمأنينة. فتذكرت وهي مرغمة كلمات ريبين:

- لقد خُذعوا في الله... أيضًا.

وشرعت دون أن تحس في التقليل من الصلاة، ولكن أخذت تفكر أكثر في المسيح، وفي الناس الذين كانوا دون أن يذكروا اسمه، ودون أن يعرفوا شيئًا عنه، يعيشون فيما يبدو لها، تبعًا لوصاياها، وحسب أسلوبه، معتبرين الأرض مملكة الفقراء، ومناضلين من أجل تقسيم ثرواتها فيما بينهم بالتساوي. كانت تفكر في هذا كثيرًا، فنمت أفكارها وازدادت عمقًا، ثم تشعبت لتشمل كل ما قد رأت وما سمعت: لقد نمت أفكارها واتخذت بريق صلاة تضيء بوهجها الثابت كل هذا العالم المظلم، كل الحياة وجميع الناس، وأحست بأن المسيح الذي أحبته دائمًا بحنان غامض... بعاطفة ممزوجة كان الخوف فيها مرتبطًا بالأمل، والفرح بالأسى، أحست أنه قد أصبح أعز لديها من ذي قبل، وأنه قد تبدل، فغدا أكثر سمواً وإدراكاً، وأعظم بريقاً وبهجة، فكأنه في واقع الأمر بُعث إلى الحياة من جديد، مغموساً في الدم الذي أهدر باسمه في سخاء من قبل أناس يحجمون بتواضع عن لفظ هذا الاسم، اسم صديق الإنسان. كانت تعود إلى نيقولاي بعد كل رحلة من رحلاتها سعيدة متأثرة من كل ما رأت وما سمعت في الطريق، راضية لأنها أدت واجبها على خير وجه.

قالت له ذات مساء:

- جميل أن يسافر المرء هكذا، ويرى الكثير، فإن ذلك يجعلك تفهم الحياة. لقد أزيح عامة الشعب على هامش الحياة حيث يتدللون في الظلام سائلين أنفسهم عن سبب ذلك: لم ينحون بعيداً؟ لم يجوعون في الوقت الذي يكثر فيه الطعام؟ لم يكونون جهلاء في الوقت الذي تكثر فيه الثقافة؟ وأين هو، الإله الرحيم الذي لا فرق لديه بين غني وفقير، بل الكل أولاده المحبون؟ إن الناس يثرون عندما يفكرون في حيوانيتهم. إنهم يحسون بأن الظلم سيمحقهم إذا لم يفعلوا به شيئاً.

وراحت تحس أكثر فأكثر بأن عليها هي نفسها أن تتحدث إلى الشعب عن الظلم في الحياة، فكان يصعب عليها كثيراً في بعض الأحيان مقاومة هذه الرغبة.

وكان نيقولا يبتسم، ثم يحدثها عن بعض عجائب الدنيا في كل مرة يجدها فيها منكبة على رسومها، فتسأله في شغف وهي مذهولة لجرأة الأعمال التي يأخذها الإنسان على عاتقه:

- أمثل هذا ممكن؟

فيروح نيقولا يحكى لها عن المستقبل حكايات كثيرة بإيمان ثابت لا يتزعزع في صدق نبوءته، ناظراً إليها في لطف ورقة من خلال نظارتيه وهو يقول:

- إن رغبات الإنسان لا تحد، كما أن قوته لا تنفذ أبداً، ولكن العالم أبطأ من أن يغني نفسه فكرياً؛ لأن على كل واحد يرغب الآن في أن يصبح مستقلاً أن يجمع نقوداً بدلاً من المعرفة، ولكن عندما يتخلص الناس من الجشع ومن العمل الإجباري.

وقلما كانت تدرك مرامي ألفاظه، غير أنها بدأت شيئاً فشيئاً تفهم
الإيمان الهادئ الذي يوحى بها.

قال لها:

- ليس على الأرض من الأحرار ما يكفي! هذه هي المعضلة.
كانت تفهم هذا، فإنها تعرف أناساً حرروا أنفسهم من الجشع
والخبث، وكانت تعلم أنه لو وجد ثمة عدد كبير من مثل هؤلاء الناس،
لخلت الحياة مما يكتنفها من ظلام ورهبة، ولأصبحت أبسط وأشرق
وأنبّل!

فقال نيقولاى حزيناً:

- إنما يرغم الناس على القسوة!
فهزت رأسها، علامة على موافقتها وتذكرت كلمات الأوكراني.

- ٩ -

وذات يوم عاد نيقولاى، وهو الدقيق في مواعيده، من عمله متأخراً
أكثر من المعتاد، وقال من غير أن يخلع معطفه، فارغاً يديه في عصبية
ظاهرة:

- اليوم... هرب أحد رفاقنا من السجن، يا نيلوفنا، من عساه يكون؟
هذا ما لم أستطع معرفته.

فتمايلت الأم، ثم همست وهي تجلس:

- هل يمكن أن يكون باثل؟

فهز نيقولاي كتفيه وهو يجيب:

- قد يكون، ولكن كيف نساعد على الاختفاء؟ وأين عسانا نعثر عليه؟ لقد كنت أتجول الآن في الشوارع على أمل أن أجده. إنها بلاهة بلا شك... لكن علينا أن نعمل شيئاً، وإني لذهاب من جديد...

فصاحت الأم:

- وأنا كذلك!

فاقترح نيقولاي وهو يهرول مسرعاً:

- ألا يمكنك أن تذهبي إلى إيجور وتري إن كان يعرف شيئاً عن ذلك؟

فألقت على رأسها منديلاً، واندفعت وراءه في الشارع وقد ملأ صدرها الأمل وراحت بقع حمراء تتراقص أمام ناظريها، وقلبها يخفق في عنف، فيدفعها إلى ما يشبه الجري، كانت تسير نحو لقاء هذا الاحتمال مطأطأة الرأس غافلة عن كل ما يحيط بها.

- ماذا لو وجدته هناك؟

كان يستحثها الأمل فتسرع الخطى!

كان الجو حاراً، وكانت تلهث من التعب، حتى إذا بلغت السلم الموصل إلى البيت الذي يسكن فيه إيجور توقفت عاجزة عن المضي قدماً، ثم التفتت تنظر فيما حولها، وإذا هي فجأة ترسل صيحة مقتضبة، ثم تغمض عينيها، فلقد خيل إليها أنها رأت نيقولاي فيزوفشيكوف وهو

يقف قرب بوابة البيت، ويداه في جيبه، ولكنها عندما نظرت ثانية لم يكن
ثمة أي شخص!

وراحت تفكر وهي تصعد درجات السلم وتصيخ السمع جيداً:
- لقد تخيلت ذلك فقط.

وسمعت من الفناء صدى خطوات متمهلة، فتوقفت لحظة، ثم نظرت
إلى أسفل فرأت المجدور مرة ثانية وهو يتسم لها هذه المرة.
صاحت وهي تركض لملاقاته وقلبها يتألم من خيبة الأمل:
- نيقولاي، نيقولاي...

فهمس بصوت هادئ، وهو يشير بيده:
- ارجعي!

فصعدت الدرج بسرعة، ثم دخلت غرفة إيجور، فوجدته مستلقياً
على الأريكة، فغمغمت لاهثة:
- نيقولاي... لقد فر من السجن.

فسألها إيجور بصوته الخشن، وهو يرفع رأسه عن الوسادة:
- أي نيقولاي تعين؟ فهناك اثنان يحملان هذا الاسم؟
- فيزوفشيكوف... إنه آت إلى هنا.

- عظيم!

وفي هذه اللحظة دخل نيقولاي وأوصد الباب خلفه بالمزلاج، وخلع
قبعته ثم وقف يضحك في رقة وهو يجري بيده على شعره. وتحامل إيجور

على مرفقه، ثم هز رأسه قائلاً:

- أهلاً بك...!

فاقترب نيقولاى من الأم مبتسماً، ثم تناول يدها قائلاً:

- لو لم ألتق بك، لما بقي أمامي سوى العودة للسجن ثانية، إذ لست أعرف أحداً في المدينة، ولو عدت إلى الحي لألقوا القبض عليّ في التو. وهكذا أخذت أذرع الشوارع وأنا أفكر طوال الوقت في مدى جنوني عندما أقدمت على الهرب، وفجأة لمحت نيلوفنا تركزض في الشارع فانطلقت أعدو ووراءها.

فسألت الأم:

- وكيف استطعت الفرار؟

فجلس على طرف الأريكة متململاً، ثم هز كتفيه قائلاً:

- إنه الحظ وحده. فقد كنت في الفناء أتمتع بفرصة التهوية، فإذا المجرمون العاديون ينهالون على أحد الحراس ضرباً، وكان هذا الحارس جندياً سابقاً، طُرد من الخدمة بسبب السرقة، فأصبح الآن يتجسس على الجميع، ويشي بهم، وينغص عليهم حياتهم، وهكذا انهالوا عليه يلكمونه بلا حساب، فسادت الفوضى، وانتشر الحراس ينفخون صفاراتهم. نظرت فرأيت البوابات مفتوحة، ووراءها الميدان والمدينة، فسرت صوبها متمهلاً، وكأنني في حلم، حتى إذا صرت في الشارع وقطعت منه مسافة لا بأس بها، عدت إلى وعبي وفكرت: إلى أين عساي أذهب؟ وعندما تطلعت خلفي كانت البوابات قد أغلقت.

قال إيجور:

- هم...هم...ولم لم تعد، وتقرع الباب في أدب وتطلب منهم السماح لك بالدخول؟ وتقول إني أطلب منكم الصنف أيها السادة، فلقد ارتكبت خطأ بسيطاً!

فضحك نيقولاوي:

- أجل إن ذلك جنون بكل تأكيد، غير أنني أسأت التصرف مع رفاقي، إذ إنني خرجت من غير أن أقول شيئاً لأحد منهم. وإذن فهكذا سرت، رأيت جنازة لطفل، فانضمت إليها ومشيت خلف النعش مطرق الرأس لا أطلع إلى أحد أبداً، ثم جلست هناك في المقبرة بعض الشيء أستنشق شيئاً من الهواء، وإذا فكرة تخطر في خاطري على غير انتظار..

فسأل إيجور:

- فكرة واحدة فقط؟

ثم تابع وهو يتنهد:

- لست أظن أنها أحست بضيق في رأسك هذا...

فضحك فيزوفشيكوف ثم هز رأسه قائلاً:

- أوه، لم يعد رأسي اليوم فارغاً كما كان العهد به قبلاً، ولكني أراك لا تزال مريضاً يا إيجور إيشانوفيتش.

فأجاب إيجور وهو يسعل سعالاً جافاً:

- إن كلاً منا يعمل ما يستطيع، هيا، تابع قصتك.

- ثم ذهبت إلى المتحف المحلي، رحت أتجول فيه وأتفرج وأنا لا أكف عن التفكير، إلى أين أنا ذاهب الآن؟ ونقمت على نفسي أيضًا وكنت جائعًا كالدب، فخرجت إلى الشارع ثانية، وأنا أشعر بانقباض. كان رجال الشرطة يراقبون الناس كلهم، ففكرت: حسنًا، إني بهيئتي هذه سيسهل التعرف عليّ، وسرعان ما يلقي بي أمام القاضي، ثم فجأة جاءت بيلاجيا نيلوفنا تركزض نحوي، فانتحيت جانبًا وتبعتها. هذا كل شيء!

فقال الأم كما لو كانت تشعر بذنب:

- لم أرك!

وتفحصت فيزوفشيكوف بعناية ودقة... فبدأ لها أنحل من ذي قبل.

قال فيزوفشيكوف وهو يحك رأسه:

- سيقتلني الرفاق.

فقال إيجور:

- وماذا عن السلطات؟ يبدو أنك لا تشفق عليهم، إذ لا ريب أنهم سيتعقبونك أيضًا.

وفتح فمه، وراح يحرك شفتيه، وكأنه يمضغ الهواء، ثم أضاف قائلاً:

- فلترك المزاح جانبًا. علينا أن نخفيك في مكان ما، وهذا ليس بالأمر الهين، إلا أنه يسرنا كثيرًا. آه لو أستطيع النهوض!

وتنهّد، ثم رفع يده إلى صدره يفركه في ضعف:

فقال نيقولاوي وهو يطرق برأسه:

- يبدو أن مرضك شديد يا إيجور إيفانوفيتش!

وتنهدت الأم، ثم اختلست النظر في قلق إلى الغرفة الصغيرة
المزدحمة فأجاب إيجور:

- هذا من شأني. هيا اسأليه عن بافل يا أماء، واتركي المظاهر جانبًا.
فابتسم فيزوفشيكوف ثم قال:

- أما بافل فعلى أحسن حال، وصحته جيدة، وهو هناك رئيسنا
إلى حد ما، فهو الذي يتكلم مع الرؤساء، ويصدر الأوامر بصورة عامة،
والجميع يحترمونه.

كانت نيلوفنا تهز رأسها وهي تصغي لفيزوفشيكوف وتنظر من زاوية
عينها إلى وجه إيجور المتنفخ المزرق. كان هذا الوجه يبدو بشكل غريب
جامدًا ومجردًا من كل تعبير، ما عدا عينيه اللتين تنطقان بالمرح والحيوية.
هتف نيقولاي فجأة:

- لو أعطيتماني شيئًا آكله، إنني جائع جدًا!
فقال إيجور:

- هناك بعض الخبز على الرف يا أماء، ثم اخرجي إلى المدخل
وأقرعي الباب الثاني إلى اليسار، ستفتح لك امرأة فاطلي منها أن تجيء
إلى هنا، وتحضر معها كل ما تصيبه من طعام.

فقال نيقولاي معترضًا:

- لِمَ كل هذا؟

- لا تقلق، فلن يكون ذلك كثيرًا!

خرجت الأم، وقرعت الباب، وبينما هي تنتظر فكرت في إجور:

- إنه يموت...

وسألتها امرأة من داخل الغرفة:

- من هناك؟

فردت الأم في هدوء:

- لقد جئت من عند إجور إيفانوفيتش... إنه يرجوك أن تأتي إلى غرفته!

فأجابت المرأة دون أن تفتح الباب:

- إني آتية حالًا.

انتظرت الأم برهة من الزمن، ثم عادت وطرقت الباب ففتح في سرعة وظهرت على عتبة امرأة طويلة القامة ذات نظارتين، راحت تسوي أكمامها على عجل ثم سألت:

- ماذا تريدان؟

- لقد بعثني إجور إيفانوفيتش.

- هيا بنا!

ثم هتفت بصوت خافت:

- يخيل إليّ أنني أعرفك... أليس كذلك؟ كيف حالك؟ إن الظلام دامس هنا...

تطلعت إليها الأم، وتذكرت أنها رأتها عدة مرات عند نيقولا في فخطر
في بالها:

- إنهم جميعاً من جماعتنا.

أفسحت المرأة الطريق لبيلاجيا كي تسير أمامها، وسألت:

- هل ساءت حالته؟

- أجل، إنه راقد في سريرته، وهو يركب أن تحملي بعض الطعام.

- هذا ليس ضرورياً!

وبينما هما تدخلان غرفة إيجور، استطاعتا أن تسمعا تنفسه الثقيل.

- إنني ذاهب للقاء أجدادي، يا صديقتي لودميلا فاسيليتنا، لقد تجرأ

هذا الفتى على الخروج من السجن دون إذن السلطات. أعطيه ما يأكله قبل
كل شيء، ثم خبئه في مكان ما.

فهزت المرأة رأسها موافقة وألقت على المريض نظرة خاطفة ثم

قالت:

- كان عليك أن ترسل إليّ منذ اللحظة التي جاؤوك فيها يا إيجور،

إنني أرى أنك لم تتناول دواءك مرتين متتاليتين. يا للعار أيها الرفيق! اتبعني
فسوف يأتون في أي لحظة ليأخذوا إيجور إلى المستشفى!

- وهكذا أنت مصممة حقاً على إدخاله إلى المستشفى؟

- أجل، وسأبقى بجانبك!

- أنت أيضاً؟ يا إلهي الطيب!

- كفاك هذرًا...

وبينما هي تتكلم أصلحت من وضع الغطاء فوق صدر إيجور، وتفحصت نيقولاى بإمعان، ثم رفعت الزجاجات لترى مقدار ما تبقى فيها من الدواء. كانت تتكلم في صوت خافت متساوي النبرات وتنتقل في أرجاء الغرفة برشاقة ولطف.

كانت شاحبة الوجه، يلتقي حاجباها السوداءوان فوق قنطرة أنفها تقريبًا، ولم ترتح الأم لوجهها، بل وجدت فيه كثيرًا من التكبر والعجرفة، أما عيناها فلم تعرفا أبدًا معنى البريق أو الابتسام. كانت دائمًا تخاطب الناس في لهجة آمرة!

تابعت تقول:

- لسوف نترككما الآن، ولكني سأعود في الحال. أعطي إيجور ملعقة من هذا الدواء، ولا تسمحى له بالكلام!

ثم خرجت ومعها نيقولاى، فقال إيجور وهو يتنهد:

- إنها امرأة رائعة، إنها امرأة بسيطة مدهشة يا أماه، فإنها تجهد نفسها كثيرًا.

فردت الأم في لطف:

- كفاك كلامًا، خذ هذا الدواء.

فجرع الدواء وأغمض إحدى عينيه وتابع يقول:

- سوف أموت على أي حال، حتى لو احتفظت بقمي مغلقًا.

وراح يراقب الأم بعينه الأخرى، في حين انفرجت شفتاه ببطء. أما

الأم فأطرقت برأسها، وتملكتها موجة من الرثاء. قال:

- لا بأس من ذلك، فهذا حلم الطبيعة... فإن لذة الحياة تستدعي ضرورة الموت.

فوضعت الأم يدها على جبينه، وقالت مرة أخرى في لطف:

- ألا تستطيع حقاً أن تكف عن الحركة؟

أغمض عينيه، وكأنه يستمع إلى صوت الحشرة في صدره، ثم تابع في عناد:

- ليس في الصمت أي حكمة، يا أماء، فماذا عساني أستفيد منه، بضع ثوان أخرى من عذاب النزع الأخير، بينما أضيع متعة الحديث مع امرأة لطيفة مثلك؟ إني لوائق من أن الناس في العالم الآخر لا يمكن أن يكونوا أطيب من الناس هنا.

فقاطعته الأم في قلق:

- سوف تعود تلك السيدة اللطيفة وتوبخني؛ لأنني تركتك تتكلم.

- إنها ليست سيدة لطيفة، بل هي ثورية ورفيقة، وامرأة رائعة، ولا شك أنها ستوبخك، فهي توبخ كل إنسان.

وفي جهد واضح راح إيجور يقص عليها قصة حياة جارتها، كان في عينيه وميض، فأدركت الأم أنه كان يقصد مداعبتها، فتفكر، بينما هي تنظر إلى وجهه الندي الباهت اللون:

- إنه يموت...

عادت لودميلا، وأغلقت الباب خلفها في عناية، ثم استدارت إلى الأم

قائلة:

- على صديقك أن يغير ملابسه ويغادر غرفتي في أقرب وقت ممكن،
لهذا يجب أن تذهبي وتأتيه بما يرتديه... من سوء الحظ أن صوفيا ليست
هنا، إذ إن من اختصاصها وحدها إخفاء الناس.
فقالت الأم وهي تلقي الشال حول كتفيها:
- إنها قادمة غداً.

كانت كلما كلفت بمهمة، تمتلئ رغبة في تنفيذها حالاً، وعلى أكمل
وجه، حتى لتعجز عن التفكير في شيء آخر، وسألت الآن في صوت جدي
وهي تحرك حاجبيها:
- أي ثياب تفضلين له؟
- لا أهمية لذلك، فسيغادر المدينة ليلاً.

- ذلك أسوأ، إذ لا يكون في الشوارع إلا قليل من الناس، ويكون
رجال الشرطة أشد حذرًا وحيطة، وهو ليس على كثير من الدهاء كما
تعلمين.

أطلق إيجور ضحكة مبحوحة.

فسألت الأم قائلة:

- هل أستطيع زيارتك في المستشفى؟

فأشار برأسه ثم سعل.

سألت لودميلا وهي تمرق الأم بعينيها السوداوين:

- هل تحبين أن نتناوب العناية به؟ إنك تريدين ذلك؟ حسنًا جدًا. أما

الآن فاذهبي بأقصى سرعة ممكنة.

وأمسكت بالأم في حنان، ولكن في حزم، من ذراعها، ثم قادتها صوب الباب حتى إذا خرجتا منه توقفت لتقول في صوت خافت:
- لا تغضبي من إخراجي إياك من هنا هكذا، إذ لا ينبغي أن يتكلم، ثم إنه ما زال لديّ بعض الأمل.

وشدت على يديها حتى طقطقت عظامها، ثم أسبلت عينيها في إعياء.
أخرج اعترافها الأم فغمغمت قائلة:

- يا إلهي! ماذا تقولين؟

فقالت المرأة بصوت خافت:

- انتبهي من الجواسيس حولك.

ورفعت يدها إلى وجهها تفرك صدغيها، وارتعشت شفتاها، في حين انفرجت أساريرها.

قالت الأم في نبرة لا تخلو من الكبرياء:

- إنني أعلم!

وبينما هي تعبر البوابة وقفت برهة، وأصلحت من شالها وهي تختلس النظر فيما حولها.

لقد أصبحت تعرف كيف تميز الجاسوس من بين جمع كبير من الناس دون خطأ تقريباً، إنها تعلم جيداً ما يتوخونه في سيرهم من عدم المبالاة وتلك السهولة المفتعلة في حركاتهم، ومظاهر الملل والضجر التي لا تفلح في إخفاء الشعور بالإثم والحرص الذي يبدو في نظراتهم المذبذبة.

وعندما لم تر شيئاً من هذا القبيل، أسرعت وهي تهبط الشارع، ثم نادت عربية وأمرت سائقها أن يقلها إلى السوق، حيث راحت تشتري ملابس لنيقولاوي وهي تساوم على ثمنها في عناد، وتكيل الشتائم لذلك الزوج السكير الذي يجبرها سكره المتواصل على أن تشتري له ملابس جديدة، ولم تؤثر خرافتها هذه كثيراً في البائعين، غير أن نفسها ارتاحت لها كل الارتياح؛ لأنها تصورت في الطريق أن رجال الشرطة سيدركون ضرورة شراء ثياب جديدة لنيقولاوي فيرسلون بالتالي جواسيسهم إلى السوق... وبنفس الحذر عادت إلى مسكن إيجور، ومن ثم رافقت نيقولاوي حتى حدود المدينة وهما يسيران كل على جانب من الطريق، والأم تضحك طوال الوقت مسرورة لرؤية نيقولاوي يسير معها في تفاعل، مطرق الرأس، وهو يتعثر في أطراف معطفه الرمادي الطويل، وقبعته التي لا تنفك تتدلى إلى أنفه، وفي زقاق جانبي خال التقيا بساشا، فأشارت الأم إلى فيزوفتشيكوف برأسها، ثم عادت إلى البيت وهي تفكر في كآبة:

- ولكن بافل ما زال في السجن... وكذلك أندري...

- ١٠ -

قابلها نيقولاوي في حالة اضطراب شديد، فهتف قائلاً:

- إن إيجور في حالة سيئة للغاية، لقد أخذه إلى المستشفى، وكانت

لودميلا هنا وهي تريد منك أن تذهبي...

- إلى المستشفى؟

وأصلح نيقولاي من وضع نظارتيه بحركة عصبية، ثم ساعد الأم على ارتداء سترتها، وقال بصوت مرتعش وهو يضغط أصابعها في يده الجافة الدافئة:

- هيا خذي هذه الحزمة معك. هل فيزوثشيكوف على ما يرام؟

- أجل!

- سوف أذهب لرؤية إيجور.

كانت الأم منهكة وشعرت من اضطراب نيقولاي بأن كارثة على وشك أن تقع وظلت فكرة موت إيجور تتردد في ذهنها بشدة.

ولكن ما إن دخلت الغرفة الصغيرة النظيفة النيرة التي يرقد فيها فوق أكمة من الوسائد البيضاء وهو يضحك بصوت مبحوح، حتى هدأ روعها وسكنت نفسها، فوفقت برهة على عتبة الباب تنصت إلى ما كان يفضي به إلى الطبيب:

- إن معالجة المريض تشبه الإصلاحات...

فقال الطبيب في صوت قلق:

- كن جادًا يا إيجور.

- ولكني ثوري، ولهذا أمقت الإصلاحات!

فوضع الطبيب يد إيجور على الغطاء في لطف ثم نهض وهو يعبث بلحيته مفكرًا بينما هو يشعر بما في وجه مريضه من انتفاخ. كانت الأم تعرف الطبيب، فهو من أعز أصدقاء إيجور، واسمه إيثان دانيلوڤيتش. اقترب في ببطء من إيجور الذي حياها بأن مد لها لسانه، فاستدار الطبيب وقال:

- آه يا نيلوفثا، مرحبًا بك، ما الذي تحملينه في يدك؟

قال إيجور:

- إنها كتب على ما أظن.

فقال الطبيب الصغير الحجم:

- القراءة ممنوعة عليه!

فشكا المريض قائلاً:

- يريد أن يجعل مني غيبًا أحمق!

وصعدت من صدره زفرة قصيرة مؤلمة، مصحوبة بخشخشة، ثم اكتسى وجهه بقطرات دقيقة من العرق، ولم يستطع رفع يده حتى جبينه إلا في جهد عظيم للغاية، وكان ذلك الجمود الغريب في خديه المتنفخين قد قلب وجهه العريض اللطيف إلى قناع لا حياة فيه، وكانت عيناه الغائرتان وحدهما تبدوان في ابتسامة صافية راضية.

- هيه يا إيسيكولا بيوس، إني متعب، أفلا أستطيع الاستلقاء؟

فأجاب الطبيب في إيجاز:

- كلا، لا تستطيع!

- حسنًا، سوف أستلقي في الدقيقة التي تغادر فيها الغرفة.

- لا تسمح لي بذلك يا نيلوفثا، رتبي له وسائده، وأرجوك أن لا تسمح لي بالكلام، فذلك مضر للغاية.

فأشارت الأم برأسها، أما الطبيب فخرج يسعى في خطوات سريعة

قصيرة، ثم ألقى إيجور برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه، وأصبح عديم الحركة إلا من اهتزاز أصابعه.

كانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء باردة مقبضة للنفس، وكانت رؤوس أشجار الليمون المتشابكة تُرى من خلال النافذة الواسعة، ولطخ صفراء تلمع من خلال أوراقها المغبرة، بفعل لفحات الخريف.

قال إيجور دون أن يفتح عينيه:

- إن الموت يطلبني في بطء وتردد، يبدو عليها أنها ترثي لي، لقد كنت دائماً سهلاً في معاملاتي مع الناس.

رجته الأم وهي تربت على يده في لطف:

- هلا كففت عن الكلام يا إيجور إيفانوفيتش؟

- قريباً سوف أكف عن ذلك.

وتابع في جهد كبير وهو يلهث بين الحين والحين من عناء الحديث لفترات طويلة:

- ما أجمل أن تكوني بيننا، وما أحلى رؤية وجهك. إنني أسأل نفسي أحياناً ماذا سيحدث لك؟ ومما يُرثى له حقاً أن يدرك المرء أنك مثل الآخرين ستذهبين إلى السجن... إلى آخر هذه القصة. هل أنت خائفة من الذهاب إلى السجن؟

فأجابت ببساطة:

- كلا... لست خائفة!

- بالطبع لا، ومع ذلك فالسجن أمر فظيع. إنه السجن الذي فعل بي

ذلك، وإذا أردت الحقيقة فإنني لا أريد أن أموت.

كادت الأم أن تقول: «ربما لن تموت» غير أن نظرة واحدة إلى وجهه جعلتها تغير رأيها.

- كنت أستطيع متابعة النشاط، ولكنني إذا كنت غير قادر على العمل فلا معنى لحياتي، إنها ستكون سخيفة عند ذلك.

وتنهدت الأم وهي تذكر التعبير المحبب لأندري «ذلك صحيح، ولكنه لا يدعو للاطمئنان»، لقد قضت يوماً متعباً، وهي جائعة أيضاً.. وكان تنفس الرجل المريض المبحوح، المتردد على وتيرة واحدة يملأ الغرفة، وينزل على الجدران الملساء عاجزاً مقهوراً. كانت رؤوس أشجار الليمون خارج النافذة مثل سحب منخفضة داكنة بشكل مرعب محزن، وكان كل شيء هادئاً بصورة غريبة في السحر ينتظر معذباً قدوم الليل.

قال إيجور وهو يغمض عينيه ويلوذ بالصمت:

- أحس بأن حالتي سيئة للغاية!

ف قالت الأم:

- نم، فقد تشعر بتحسن!

ثم أنصتت إلى تنفسه، ونظرت فيما حولها، وعادت إلى الجلوس دون حراك لدقائق قليلة تحت قبضة الحزن الباردة... ثم أغفت.

أيقظها صوت مكتوم عند الباب، فانتفضت ورأت أن عيني إيجور مفتوحان. قالت بصوت رقيق:

- لا بد أنني أغفيت فاصفح عني!

فأعلن في مثل رقة صوتها:

- أنا الذي أطلب الصفح.

كان الشفق يحملق من خلال النافذة والبرد يجتاح الغرفة، وأصبح كل شيء مغمورًا في ظلمة عجيبة، وامتد ظل أسود لوجه المريض.

سمعت الأم رفيف أوراق الشجر، ثم صوت لودميلا تقول:

- أتجلسان هكذا في العتمة تنهامسان؟ أين مفتاح النور؟

وعلى حين غرة فاضت الغرفة بنور أبيض، فلاح خيال لودميلا وسطها بقامتها المديدة وظهرها المستقيم.

مرت رعشة باردة في جسد إيجور كله، فرفع يده إلى صدره.

فصاحت لودميلا وهي تركض إليه:

- ماذا أصابك؟

فرمق الأم بعينين جامدتين بدتا الآن متسعيتين كثيرًا، براقتين بشكل غريب، وفتح فاه، ورفع رأسه ومد يده إلى الأمام، فتناولتها الأم ونظرت في وجهه وهي لا تجرؤ على التنفس، وفي حركة تشنجية عنيفة ألقي برأسه إلى الخلف وقال في صوت مرتفع:

- لقد انتهى كل شيء.

وسرت في جسده رعشة سريعة، فسقط رأسه خائرًا عند كتفه، وانعكس نور المصباح البارد المعلق فوق سريره ميتًا، في عينيه المفتوحتين.

همست الأم:

- أواه يا عزيزي!

وخطت لودميلا نحو النافذة في ببطء، ثم وقفت تنظر عبرها إلى الخارج، وصاحت على غير توقع بصوت أجش غير مألوف:

- لقد مات!

انحنى فوق النافذة وقد اعتمدت عليها بمرفقيها، ثم سقطت على ركبتيها فجأة خائرة القوى، وكأنها تلقت ضربة عنيفة على أم رأسها. كانت يداها فوق وجهها.

صلبت الأم يدي إيجور فوق صدره، وأصلحت وضع رأسه على الوسادة ثم مسحت دموعها وذهبت للودميلا فمالت عليها تمسح على شعرها الكثيف، فرفعت لودميلا رأسها في ببطء ثم نظرت إليها بعينين باهتتين ونهضت وهي تهمس بصوت راعش النبرات:

- لقد عشنا في المنفى معاً، وذهبنا إلى هناك معاً وقضينا المدة المحكوم بها علينا معاً. كان لهذا وقع سيئ أحياناً إذ لم تكن لنا طاقة باحتماله وقد خانت الكثيرين شجاعتهم.

واعترتها نوبة من البكاء المرتفع الجاف تغلبت عليها بإرادتها في جهد عظيم، ثم اقتربت من الأم ووجهها يطفح بحنان كثيب جعلها تبدو أصغر مما هي عليه وتابعت في همس سريع وهي تبكي من غير دموع:

- أما مرحه فلم يكن ينتهي. كان يضحك دائماً ويمزح مخفياً آلامه الخاصة ليشجع الضعفاء منا. كان أبداً طيباً، لطيفاً مجاملاً، وهناك في

سيبيريا كثيرًا ما تفسد البطالة الناس وتقودهم إلى أن يطلقوا العنان لغرائزهم الدنيئة، ولكم كان هو يعرف كيف يحارب كل هذا، آه لو تعلمين أي رفيق رائع كان. لقد كانت حياته الخاصة تعسة كل التعاسة، ولكن أحدًا قط لم يسمع من شفثيه كلمة شكوى أو تبرم واحدة، ولقد كنت صديقة عزيزة لديه أدين للطفه بالشيء الكثير، فلقد أعطاني كل ما في وسعه من ثراء فكره، ومع ذلك لم يطلب أي جزاء بالرغم من إعيائه ووحدته، بل لم يطلب أدنى عطف أو عناية شخصية.

اقتربت من إيجور، وانحنت عليه تقبل يده، ثم قالت بصوت خافت حزين:

- أيها الرفيق... يا رفيقي الطيب العزيز، شكرًا لك... شكرًا لك من صميم قلبي. وداعًا! لسوف أتابع العمل كما عملت أنت دائمًا... دون كلل أو ملل، وبإيمان قوي لا يتزعزع، طوال حياتي... وداعًا!

ثم راح جسدها ينتفض وهي تجهش بالبكاء. ووضعت رأسها عند قدمي إيجور على السرير. كانت الأم تبكي في صمت وسخاء، وهي تحاول لسبب ما أن لا تبكي عليه. كانت تريد أن تعزي لودميلا بحنان وعطف، وساورتها الرغبة في أن تبثها كلمات الحب والجوى، ومن خلال دموعها نظرت إلى وجهه الغائر وإلى عينيه نصف المغمضتين كما لو كان فقط مغفياً، وإلى شفثيه الزرقاوين اللتين ترسم عليهما ابتسامة خفيفة. كان كل شيء ساكنًا وبراقًا لدرجة مؤلمة.

دخل إيفان دانيلوفيتش بخطواته السريعة القصيرة، وتوقف فجأة في منتصف الغرفة، ثم رفع يديه في جيبه وسأل في صوت عصبي مرتفع:

- متى حدث ذلك؟

فلم يحر أحد جوابًا، فمسح جبينه واتجه صوب إيجور وهو يترنح قليلاً، وبعد أن ضغط على يده ابتعد جانباً وقال:

- لم يكن ذلك مفاجأة، كان يجب أن يحدث هذا لمن في مثل قلبه قبل ستة أشهر... على الأقل.

وفجأة انكسر صوته الحاد المرتفع كثيراً، المتسم بهدوء مفتعل، فاستند إلى الحائط وراح يطرف عينيه في سرعة، ويعبث بلحيته في عصبية وهو يراقب الامراتين قرب السرير، ثم قال بصوت هادئ:

- وهذا شخص آخر يفارقنا!

نهضت لودميلا وذهبت لتفتح النافذة، وبعد لحظة كانوا يقفون جميعاً بالقرب منها يحدقون في ليل الخريف القاتم، وكانت النجوم تتلألأ فوق رؤوس الأشجار الداكنة، معمقة فراغ السماء اللامتناهي.

أخذت لودميلا ذراع الأم واستندت على كتفها في سكون، ووقف الطبيب مطرق الرأس، يمسح نظارتيه، ومن خلال النافذة أتت أصداء ليل المدينة المنهكة، وداعب وجوههم نسيم بارد وحرك شعرهم أيضاً، فارتجفت لودميلا في حين راحت دمة تنساب على خدها، وفي مدخل البيت كانت أصوات متكسرة مذعورة ووقع أقدام سريعة مضطربة، غير أن الثلاثة ظلوا ساكنين لا حراك فيهم عند النافذة يحملقون في بهمة الليل.

وعندما أحست الأم أن وجودها في الغرفة لم يكن مستحباً سحبت ذراعها في لطف، وذهبت إلى الباب حيث انحنت لإيجور.

فسألها الطبيب في صوت هادئ خفيض، ودون أن يلتفت إليها:

- هل أنت ذاهبة؟

- أجل.

ولما أصبحت خارج المستشفى راحت تفكر في لودميلا وكيف استطاعت أن تكظم نשיجها:

- إنها لا تعرف حتى كيف تبكي!

وتنهدت إذ تذكرت آخر ما قاله إيجور قبل أن يموت.

وراحت تتذكر وهي تهبط الشارع عينيه البراقتين ومرحه الدائب والقصص المسلية التي كان يرويها ثم فكرت قائلة:

- ما أصعب العيش على الطيبين منا وما أسهل الموت عليهم. ترى كيف سأموت؟

ورأت بعين فكرها لودميلا والطبيب واقفين إلى نافذة تلك الغرفة البيضاء الزاهية بالضياء وعيني إيجور الميتين ترنوان إلى الخلف منهما، وعلى حين فجأة غمرها رثاء عظيم للجنس البشري.

وبتنهيدة عميقة حشت خطاها يهزها شعور غامض، ثم فكرت، وهي تستكين قائمة، ولكن جرأة تعتمل فيها من الداخل:

- يجب أن أسرع!

قضت الأم يومها التالي برفقته، تعد الترتيبات اللازمة للجنائز، وفي المساء بينما هي وصوفيا ونيقولا ي يشربون الشاي ظهرت ساشا، ثرارة تتدفق حيوية بشكل غريب. كانت وجنتها متوقدتين، وعيناها تلمعان فرحًا، فبدت كأنها تطفح بأمل بهيج للغاية. وكان مزاجها معاكسًا لجو الكآبة الذي خيم عليهم وهم يستعيدون فيه الذكريات عن إيجور، ولم يتمشى مزاج ساشا مع الجو السائد وإنما أثار غيظها، فبدت هي كالنار تندلع في الظلمة على حين غرة.

أخذ نيقولا ي ينقر على المائدة بأصابعه وهو يفكر قائلاً:

- لست كعادتك اليوم يا ساشا!

فقالت وهي ترسل ضحكة سعيدة مقتضبة:

- لست كعادتي؟ ربما!

فتطلعت إليها الأم في عتاب صامت، بينما قالت صوفيا لتذكرها:

- لقد كنا نتحدث عن إيجور إيفانوفيتش.

فهتفت ساشا قائلة:

- أي إنسان رائع كان هو! إنني لم أره قط دون ابتسامة على محياه، وكان دائماً يطلق النكات، وكيف كان يعمل... لقد كان فناناً في الثورة، وسيداً من سادة التفكير الثوري، بأي قوة وبساطة، كان يرسم لوحاته عن

العنف والخداع والظلم.

كانت تتكلم في هدوء وتبتسم في تأمل ابتسامة لم تستطع أن تطفىء نار الغبطة التي استطاعوا رؤيتها كلهم، وإن لم يستطع أحد منهم فهمها. لم يشاءوا أن يسمحوا لمزاج ساشا المرح بأن يحل محل حزنهم، فراحوا يدافعون على غير وعي منهم عن حقهم في الانغماس في الحزن عن طريق محاولة إشعارها بما يشعرون به، فقالت صوفيا وهي ترمق ساشا بنظرة مدققة:

- وها هو الآن قد مات!

فألقت ساشا عليهم نظرة سريعة مستفسرة ثم عبست. أطرقت برأسها وراحت تصفف شعرها في سكون، وبعد فترة من الصمت الرهيب، رفعت بصرها على حين غرة وقالت:

- لقد مات... ماذا يعني هذا... مات؟ ما الذي مات؟ هل مات احترامامي لإيجور أو حبي له كرفيق، أو تفهمي لآرائه؟ هل اختفى ذلك الشعور الذي أثاره في قلبي، أو معرفتي به كإنسان شريف شجاع؟ هل مات كل هذا؟ إن ذلك لا يموت بالنسبة لي... أبدًا. وأظن أننا نتسرع كثيرًا عندما نقول عن شخص ما... إنه مات. لقد ماتت شفتاه، أما كلماته فستظل حية في قلوب الأحياء.

جلست في تهيجها إلى المائدة الثانية، وارتكزت عليها بمرفقيها، وتابعت في هدوء وتفكير أكثر من السابق مبتسمة لرفاقها بعينين غائمتين:

- قد يبدو ما أقول حماقة أيها الرفاق، ولكنني أومن في خلود

الشرفاء، خلود أولئك الذين أعطوني سعادة في هذه الحياة الرائعة، هذه الحياة التي تهزني بتشابكها المدهش وغناها بالظواهر الطبيعية، ونمو الأفكار العريضة في نفسي عزة قلبي لدي. لعلنا نبخل بعواطفنا كثيرًا فإننا نعيش كثيرًا مع أفكارنا، وهذا يدعو إلى عرقلة شخصياتنا، إننا نحكم على الأشياء ولا نحس بها.

فسألت صوفيا مبتسمة:

- هل وقع لك حادث سعيد؟

فقلت ساشا:

- أجل حادث سعيد على ما يخیل إليّ. لقد قضيت الليل بطوله أحداث فيزوفشيكوف. إنني لم أحبه قط من قبل، كنت أظنه فظًا جاهلاً، وقد كان كذلك في الواقع. كان مفعماً أبداً بعداء أسود مريض لكل إنسان. لقد كان يضع نفسه في وسط كل الأشياء كأنه مركز الثقل، يقول في فظاظة وخبث: أنا، أنا، أنا. لقد كان ضيق الأفق بشكل فظيع.

ابتسمت، ثم تطلعت إليهم بعينين مضئيتين:

- ولكنه الآن يقول أيها الرفاق، ويجب عليكم أن تسمعه كيف يقولها، إنه يقولها بنوع من الحنان الخجول لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. فهو الآن بسيط، مخلص، وذو رغبة جامحة في العمل. فلقد عرف نفسه، فكتشف نقاط القوة والضعف فيها، ولكن أهم ما في الأمر أنه تولد عنده شعور صادق «بالرفقة» والزمالة!

كانت الأم سعيدة وهي تنصت لساشا، إذ كانت تكتشف أن بإمكان

مثل هذه الإنسانية الصارمة أن تكون لطيفة، مريحة، ولكنها في الوقت نفسه وفي مكان ما من أعماق قلبها ظلت تفكر بتأثير من الغيرة.

- ماذا حدث لبافل؟

تابعت ساشا تقول:

- إنه يفكر في رفاقه، وهل تعلمون بماذا حاول إقناعي؟ بأن علينا أن نساعدهم على الفرار. إنه يقول إن ذلك سهل بسيط للغاية.

رفعت صوفيا رأسها وسألت في لهفة:

- إنها فكرة يا ساشا! ماذا تقولين؟

ارتجف قدح الشاي في يد الأم، فعقدت ساشا حاجبها وهي تحاول أن تخفي انفعالاتها، وبعد فترة من الصمت قالت وهي تبتسم في سعادة:

- إن صح ما يقوله، فإن من واجبنا أن نحاول... إن من واجبنا أن نجرب.

احمر وجهها فجأة، وجلست من غير أن تتكلم.

فكرت الأم وهي تبتسم:

- يا حبيبتي!

وابتسمت صوفيا أيضًا، بينما راح نيقولا ي ينظر إلى ساشا ويضحك، فرفعت الفتاة رأسها ورمقتهم جميعًا بنظرة قاسية صارمة. كانت شاحبة الوجه، وعيناها تلمعان، ونبراتنا جافة يشوبها الغيظ. قالت:

- إنني أفهم لماذا تضحكون. إنكم تظنون أن لدي دافعًا شخصيًا لعمل ذلك.

فسألتها صوفيا في خبث وهي تنهض وتقترب منها:

- لماذا يا ساشا؟

وأحست الأم بأن ساشا قد جرح شعورها... وأنه كان على صوفيا أن لا تقول ذلك، فتنهدت ونظرت إليها موبخة.

هتفت ساشا قائلة:

- إذن فأنا أرفض التدخل في شيء، لست أقوى على المشاركة في ذلك؛ ما دمتم تعتقدون أنه...

فقال نيقولا في هدوء:

- تعالي، تعالي يا ساشا!

اقتربت الأم منها وأخذت تمسح شعرها، فأمسكت الفتاة بيدها ورفعت وجهها المتورد، فابتسمت الأم وتنهدت عندما خانتها الكلمات. جلست صوفيا على الكرسي بجوار ساشا وطوقت كتفها بذراعها، وقالت وهي تنظر في عينيها بابتسامة مازحة:

- إنك بطة مضحكة!

- ربما كان من البلاهة أن...

فقالت صوفيا:

- كيف يمكن أن تخطر لك مثل هذه الأفكار؟

ولكن نيقولا قاطعها بلهجة عملية فقال:

- طبعاً يجب أن ندبر أمر هروبهم، إذا كان مثل هذا الأمر ممكناً. لكن

علينا قبل كل شيء أن نعرف إن كان رفاقنا في السجن يريدوننا أن نفعل ذلك.

فأطرقت ساشا برأسها.

وأشعلت صوفيا سيجارة، وألقت بعود الثقاب في الزاوية وهي ترنو إلى أخيها.

أما الأم فتنهدت قائلة:

- بالتأكيد إنهم لا يستطيعون أن يرفضوا، ولكني لا أصدق أن هذا ممكن.

وكانت الأم تتلهف أن تسمعهم يؤكدون لها أن ذلك ممكن، ولكنهم لم يفعلوا.

فقالت صوفيا:

- يجب أن أرى فيزوفشيكوف!

قالت ساشا:

- سأخبرك في الغد أين ومتى باستطاعتك أن تقابليه.

فسألته صوفيا وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً:

- وما هي مشاريعه؟

- سيعهد إليه بصف الحروف في المطبعة الجديدة، وحتى ذلك

الوقت سيعيش مع حارس الغابة.

كانت ساشا متجهمة، وقد استعاد وجهها حزنه المعتاد، وكانت

تتكلم باقتضاب.

قال نيقولاى وهو يقترب من الأم التي كانت تغسل الأقدام:

- عليك أن تعطي بافل رسالة صغيرة عندما تذهبين لزيارته بعد غد،
فأنت تعلمين أن علينا أن نعرف...

فأسرعت الأم تؤكد له:

- إني أعلم.... إني أعلم، سأتدبر الأمر كي أعطيها له!

قالت ساشا:

- إني ذاهبة الآن.

وغادرت البيت بعد أن صافحت كل واحد منهم في سرعة وصمت،
منتصبه القامة، وبخطوات ثابتة حازمة أكثر من المعتاد.

وعندما غادرت البيت وضعت صوفيا يديها على كتفي الأم وراحت
تهزها على الكرسي إلى الأمام والخلف!

وسألتها قائلة:

- هل في استطاعتك أن تحبي مثل هذه الابنة يا نيلوفنا؟

فهتفت الأم وهي على وشك البكاء:

- آه لو أستطيع رؤيتهما معاً ليوم واحد فقط!

فقال نيقولاى في رقة:

- أجل، فإن قليلاً من السعادة لا يؤذي أحداً، ولكن أحداً لا يقنع
بالقليل، فإن السعادة إذا كثرت أصبحت رخيصة.

وذهبت صوفيا إلى البيانو وأخذت تعزف لحناً حزيناً.

- ١٢ -

كان يقف، في صبيحة اليوم التالي، حوالي ثلاثون أو أربعون على بوابة المستشفى ينتظرون خروج نعش رفيقهم، وقد تغلغل بينهم الجواسيس الذين راخوا يصغون لهتافاتهم ويسجلون في أذهانهم الوجوه والسلوك والكلمات. بينما اصطف عبر الشارع فريق من رجال الشرطة وهم يحملون المسدسات على جنوبهم. وثارت ثائرة الجمهور من وقاحة الجواسيس ومن الابتسامات الصفراء التي كانت تعلو شفاه رجال الشرطة الذين كانوا على استعداد ليبرهنوا على قوتهم في كل لحظة، وراح بعض الناس يخفون ضجرهم بالمزاح، في حين راح آخرون يشخصون بتجهم إلى الأرض حتى يتجنبوا سماع الإهانات، وظل آخرون، كانوا قد عجزوا عن إخفاء مشاعرهم، يلقون ملاحظات جارحة عن السلطات المذعورة من أناس لم يتسلحوا بغير الكلمات. كانت سماء الخريف الشاحبة الزرقة تلمع في صفاء فوق حجارة الطريق الرمادية التي تناثرت عليها أوراق صفر راح الهواء يذروها عند أقدام الناس.

وقفت الأم وسط حشد وراحت تفكر في أسي، بينما هي تنظر إلى الوجوه المألوفة:

- لا يوجد منكم الكثير، وليس بينكم عمال تقريباً.

وانفتحت البوابة، وخرج منها رجال يحملون النعش الذي غُطيَ

بأكاليل من الزهور مربوطة بأشرطة حمراء، فأسرع الجمهور المنتظر يرفع قبعاته، فبدا كأن سرباً من الطيور السوداء قد خفقت بأجنحتها على حين غرة، واندفع في الحشد ضابط شرطة طويل القامة له شارب كث أسود على وجه أحمر، يتبعه الجنود وهم يدفعون الناس في فظاظة، ويضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة في عنف وشدة.

أمر الضابط في صوت أجش:

- ارفعوا الأشرطة.

فأحاط به الرجال والنساء وراحوا يتكلمون بانفعال وهم يلوحون بأيديهم ويدفع بعضهم بعضاً، ولمعت أمام عيني الأم وجوه شاحبة منفعة ذات شفاه مرتجفة، وانحدرت الدموع على خدي النساء.

وعلا صوت فتى يقول:

- فليسقط العنف!

ثم لم يلبث أن ضاع في ضجيج الجدل.

حز هذا في نفس الأم، فالتفت إلى فتى رث الثياب يقف إلى جوارها في غيظ:

- إنهم لا يسمحون لكم حتى أن تشيعوا الجنازة كما تشاؤون.
يا للعار!

ونما شعور العداء، بينما راح غطاء النعش يترنح فوق رؤوس القوم وأشرطة الحرير الحمراء في الهواء فتلمس الرؤوس والوجوه تحتها فتشير حفيفاً ثائراً.

أشفقت الأم من وقوع اصطدام فراحت تهمس في سرعة ذات اليمين
وذات الشمال:

- ليأخذهم الشيطان إن كان ذلك رأيهم في الموضوع... ليأخذوا
الأشرطة، ففي استطاعتنا أن نستمر بدونها.

وعلا صوت أحدهم حادًا قويًا خلال الضوضاء:

- إننا نطالب بحقنا في تشييع رفيقنا إلى مثواه الأخير... رفيقنا الذي
عذبتموه حتى الموت... وراح صوت مرتفع ينشد:

- لقد سقط، ضحية نبيلة...

انزعوا الأشرطة... اقطعها يا كوفلوف.

وعلا صليل سيف، فأغمضت الأم عينيها في انتظار صرخة، لكن
القوم غمغموا فقط، وكشروا عن أنيابهم كالذئاب الجائعة، ومن ثم تقدموا
في سكون مطأطيء الرؤوس يملؤون الجو بوقع خطى أقدامهم.

كان النعش يطفو فوق رؤوس الجميع بأكاليله المهشمة وأشرطته
المقطعة، بينما يترنح إلى جانبهم فرسان الشرطة على جيادهم. كانت
الأم تسير على الرصيف فلا تستطيع رؤية النعش نفسه، إذ كان الجمهور
المحيط به يزداد دون أن يشعر بذلك أحد، حتى ملأ الشارع كله، وخلف
الحشد كانت أشباح فرسان الشرطة العادية تنتصب أيضًا وثمة آخرون
يسيرون راجلين على جانبي الموكب وأيديهم على مقابض سيوفهم،
وفي كل مكان كانت الأم تستطيع تمييز أعين رجال المباحث الحادة وهي
تتفحص الوجوه.

أنشد صوتان كئيبان:

- وداعًا أيها الرفيق، وداعًا!

فصاح أحدهم:

- في استطاعتنا أن نستغنى عن ذلك، سيروا في صمت أيها السادة.

كان في هذه الصيحة شيء يبعث الرهبة، حتى إن الأغنية الحزينة انقطعت، وسكن لغط الحديث فلم يعد يُسمع سوى وقع الأقدام الحزين المتسق على بلاط الشارع، وقد ارتفع هذا الصوت فوق رؤوس القوم وطغى عاليًا إلى السماء الشفافة، وهو يهز الفضاء كالرعدة الأولى التي تبشر بعاصفة لما تزل بعيدة. وراحت ريح باردة تشتد شيئًا فشيئًا تذرو غبار شوارع المدينة وأقذارها على وجوه القوم فتعلق بشعورهم وثيابهم، وتعمي أعينهم، وتصفعهم في صدورهم ثم تدور حول أقدامهم.

كانت تلك الجنازة الصامتة بدون كهنة أو ترتيل مؤثر، وهذه الوجوه الغارقة في التفكير، وهذه الحواجب المقطبة تملأ نفس الأم بالرعب، فدارت في ذهنها خواطر وانية وضعتها في قالب من الألفاظ الحزينة:

- لستم كثيرين يا من تهبون للدفاع عن الحقيقة...

سارت مطرقة الرأس، وبدا لها أنه ليس إيجور الذي يدفنونه، وإنما شيء آخر... شيء قريب منها عزيز عليها وحيوي بالنسبة لها، وأحست بوحشة وضيق، وتملك قلبها إحساس من تدمير وهلع وشعور بالنفور من أولئك القوم الذين كانوا يدفنون إيجور، ففكرت قائلة:

- لم يكن إيجور يؤمن بالله، شأن هؤلاء جميعًا.

ولم تشأ أن تسترسل في التفكير، فتنهدت محاولة تحرير نفسها من حمل ثقيل:

- يا إلهي! يا يسوع العزيز، أيمكن أن أكون أنا أيضًا... مثل هذا...؟
بلغوا المقبرة، وظلوا طويلاً يدورون حول القبور خلال دروب ضيقة،
حتى وصلوا بقعة من الأرض كانت مزروعة بصلبان قصيرة بيضاء، وفي
صمت تجمعوا حول القبر المفتوح. كان سكون الأحياء الكثيف بين القبور
ينذر بشيء فظيع، جعل قلب الأم يكف عن الخفقان، وراحت الريح تعوي
وتصفر بين الصلبان وتنفس الأزهار المهشمة فوق غطاء التابوت.

ووقف رجال الشرطة على أهبة العمل وعيونهم على رئيسهم، وكان
يقف على رأس اللحد شاب فاره الطول ذو وجه شاحب اللون، وحاجبين
سوداوين وشعر طويل.

صاح ضابط الشرطة في صوت أجش:

- أيها السادة...

وبدأ الشاب يقول في صوت واضح مرتفع:

- أيها الرفاق...

فصاح الضابط:

- لحظة واحدة فقط، يجب أن أحذركم بأنني لا أستطيع أن أسمع
بأي خُطْبَ على الإطلاق.

فأجاب الشاب في هدوء:

- أريد أن أقول كلمات قليلة ليس غير. أيها الرفاق فلنقسم على قبر

صديقنا ومعلمنا بأننا لن ننسى أبداً ما علمنا إياه، وأن كلاً منا سيحضر على الدوام طيلة حياته قبر تلك السلطة التي هي مصدر كل آلام وطننا... تلك السلطة الشريرة المضطهدة التي يسمونها: الأوتوقراطية.

فصاح الضابط:

- اعتقلوه.

ولكن صوته غرق في عاصفة من الصيحات:

- فلتسقط الأوتوقراطية!

وشق رجال الشرطة طريقهم بين الحشد صوب الخطيب الذي تجمع حوله أصدقاؤه لحمايته.

فصاح وهو يلوح بيده:

- عاشت الحرية!

دفعوا الأم جانباً، فاستندت مذعورة على أحد الصليبان وأغمضت عينيها وهي تتوقع صفعة، وأصمّت أذنيها زمجرة الأصوات المختلطة، ومادت الأرض تحت قدميها وكانت تلتقط أنفاسها في صعوبة بسبب الريح وبسبب خوفها، وراحت صفارات رجال الشرطة تدوي منذرة بالخطر، وأخذت أصوات خشنة تصدر الأوامر، وطفقت النساء يصحن في اضطراب وأعمدة السياج تتحطم، وأحذية ثقيلة تضرب الأرض الجافة في عنف. استمر ذلك زمناً طويلاً، حتى إنها لم تعد تستطيع احتمال الوقوف هناك مغلقة العينين.

نظرت حولها واندفعت تجري إلى الأمام صائحة وذراعاها مفتوحتان،

ولم يكن رجال الشرطة بعيدين عنها، بل كانوا في ممر ضيق بين القبور يحيطون بالشاب وهم يطردون عنه أولئك الذين اندفعوا لحمايته.

ولمعت السيوف العارية باردة بيضاء، تسطع تارة فوق الرؤوس وتهوي وسط الناس تارة أخرى، وارتفعت عيدان القصب وأعمدة السياج المهشم كسلاح للدفاع، وقد اختلط الحشد الثائر في رقصة مجنونة يسيطر عليها وجه الشاب ومن خلال عاصفة الانفعالات هذه جاء صوته القوي:

- أيها الرفاق، لا تبددوا قواكم...

كان لكلماته وقع بالغ، فرمى القوم عصيهم وشرعوا يهربون، غير أن الأم ظلت تتابع السير قدمًا تدفعها قوة لا تقاوم، فرأت نيقولاى وقبعته فوق مؤخرة رأسه يدفع الحشد الثائر ويقول معاتبًا:

- هل فقدتم عقولكم؟ هدئوا من روعكم!

خيل إليها أنها ترى دمًا على إحدى يديه فصاحت وهي تندفع نحوه:

- نيقولاى إيثانوفيتش اذهب من هنا.

- إلى أين أنت ذاهبة؟ سوف يضربونك.

أحست بيد على كتفها، ثم رأت صوفيا تقف إلى جوارها حاسرة الرأس شعثناء الشعر تمسك بصبي صغير من يده، وكان ذلك الصبي الذي لم يتجاوز مرحلة الطفولة تمامًا، يمسح دمًا عن وجهه ويتمتم بشفاة مرتعشة:

- دعيني أذهب... ليس هذا بذى بال...

فقالت صوفيا بسرعة:

- اعتني به... خذيه إلى بيتنا، إليك هذا المنديل لتضمدي وجهه.

وعندما وضعت يد الصبي في يد الأم راحت تعدو وهي تقول:

- اذهبي بسرعة، وإلا فإنهم سيلقون القبض عليك.

كان الناس يتناثرون في المقبرة في سائر الاتجاهات، ورجال الشرطة يخطون في ثناقل بين القبور وهم يتعثرون في أطراف معارفهم الفضفاضة يشتمون ويلوحون بسيوفهم، بينما راح الصبي يرمقهم بعيني ذئب.

فصاحت الأم وهي تمسح وجهه بالمنديل:

- أسرع!

فقال وهو يبصق دمًا:

- لا يزعجك أمري، ذلك لا يؤذي. لقد ضربني بقبضة سيفه إلا أنه أخذ نصيبه، فلقد ناولته ضربة من عصاي جعلته يعوي كالكلاب، ولكن انتظري.

وراح يصيح وهو يهز قبضة يده المملوطة بالدم:

- هذا لا شيء بالنسبة لما سيحيي، فسوف نسحقكم دون قتال إذا ما نهضنا يومًا ما.

- جميعنا نحن العمال.

فحثته الأم وهي تتخذ طريقها نحو الفتحة الصغيرة في سياج المقبرة:

- أسرع!

وتخيلت أن أفراد الشرطة ينتظرونهما في الحقل العاري في الجهة

الأخرى من السياج، وأنهم سيندفعون نحوهما ويضربونهما، ولكنها
قوبلت بالصمت والفراغ عندما وصلت البوابة، فاختلست النظر إلى
الحقل المكسو بنسيج رمادي من غبش الخريف، فقالت:

- هيا، دعني أضمد وجهك!

فقال:

- لا تقلقي، فلست خجلاً منه، لقد كان قتلاً شريفاً، أعطاني هو
نصيبي وأعطيته أنا نصيبه.

ربطت الأم الجرح في سرعة، كانت رؤية دم الصبي تملؤها شفقة
عليه، فغمرتها موجة من الرعب عندما أحست بدفء الدم ولزوجته،
وجرت عبر الحقل مع الصبي سريعاً دون أن تنبس ببنت شفة، فسألها
ساخراً عندما رفع الضماد عن فمه:

- إلى أين أنت ذاهبة بي، أيتها الرفيقة؟ أستطيع أن أذهب دون
مساعدتك.

ولكنها أحست بارتعاش يده، ورأت أنه يترنح على قدميه، وظل
يتكلم وي طرح الأسئلة دون أن ينتظر لها جواباً وصوته يزداد ضعفاً.

وسألته الأم قائلة:

- من أنت؟

- من أنت؟ أنا سمكري واسمي إيفان، ولقد كنا ثلاثة في حلقة إيجور
إيفانوفيتش الدراسية... ثلاثة من السمكريين وكان المجموع أحد عشر
شخصاً. لقد كنا مغرمين به بشكل كبير رحمه الله، بالرغم من إنني لا أومن
بالله...

نادت الأم في أحد الشوارع عربية، وعندما أجلست إيثان همست
قائلة:

- لا تقل شيئاً.

وراحت في عناية تضمد فمه، فرفع يده إلى وجهه ثم تركها تسقط في
حجره واهنة، أضعف من أن تقاوم ضد الضماد، وظل يغمغم من ثنياته:

- لا تظنوا أنني سوف أنسى هذا أبداً، أيها الرجال الطيبون، قبل
أن يأتي كان ثمة طالب يدعى «تيتوفيتش»... يعلمنا... علم الاقتصاد
السياسي... لقد اعتقلوه...

أحاطت الأم إيثان بذراعها، ثم ألقت برأسه إلى صدرها، وفجأة غلب
على أمره وصمت، أما هي فخدرها الخوف وهي تنظر خفية فيما حولها.
كانت تخاف أن يجيء رجال الشرطة لملاقتها من خلف إحدى الزوايا،
فإذا ما رأوا رأس إيثان المضمدة أمسكوا به وقتلوه.

سأل السائق وهو يتململ في مقعده ويبتسم منشرح الصدر:

- سكران؟

فقالت الأم وهي تتنهد:

- آه... لقد شرب أكثر مما يحتمل!

- هل هو ابنك؟

- أجل إنه حذاء، أما أنا فطاهية.

- إن حياتك لشاقة... هم... م..

وبهزة من سوطه التفت السائق مرة ثانية:

- هل سمعت عن القتال الذي دار في المقبرة قبل قليل؟

وسأل في نبرة خافتة:

- يبدو أنهم دفنوا واحدًا من أولئك الشبان السياسيين... واحد من أولئك الذين يقفون ضد السلطات العليا، ويبدو أن الذين دفنوه كانوا جميعًا من صنف واحد... أريد أن أقول إنهم أصدقاء، راحوا يصيحون: فلتسقط السلطات العليا، إنها هي التي تسرق الشعب، فهجمت الشرطة وراحت تكيل لهم الضربات. يقولون إن بعضهم جرح حتى الموت، ولكن الشرطة نالت نصيبها أيضًا.

وسكت لحظة ثم قال:

- يوقظون الموتى هكذا!

وأضاف في صوت مرتعب وهو يهز رأسه ارتياحًا:

- إنهم لا يعطون الموتى فرصة للراحة.

كان رأس إيفان يضرب صدر الأم في رقة ونعومة، والعربة تقفز فوق بلاط الشارع، وقد استمر السائق يغمغم وهو مستدير نصف استدارة:

- ثمة اضطراب بداخل الشعب، والفوضى تنتشر. جاء الجنود في الليلة السابقة إلى أحد جيرانا، حيث ظلوا ينيشون حتى الصباح، وبعد ذلك جروا معهم حدادًا يقول الناس إنهم سيأخذونه إلى النهر في جوف الليل ويغرقونه هناك. لقد كان الحداد رجلًا طيبًا للغاية.

فسألته الأم:

- ما اسمه؟

- الحداد؟ سافل... سافل يفشنكو. إنه ما زال صغير السن، ولكنه يعرف الكثير، يبدو أن المعرفة الكثيرة ممنوعة. كان يأتي إلينا ويقول: «أي نوع من الحياة تحيون أيها الحوذيون؟» فنقول: «إنها أسوأ من حياة الكلاب!».

فقال الأم:

- لقد وصلنا.

فأيقظ وقوف العربية إيفان، الذي أرسل أنينًا خافتًا.
قال الحوذي:

- إنه فاقد الوعي. تلك هي نتيجة الشودكا!

وفي صعوبة جمّة راح إيفان يترنح في الفناء، وهو يحتج طوال الوقت قائلاً:

- إنني على ما يرام... وأستطيع أن أسير بمفردي.

- ١٣ -

كانت صوفيا قد عادت إلى البيت، وكانت عصبية، مضطربة تمسك سيجارة بين أسنانها، وبعد أن وضعها الصبي الجريح على الأريكة، حلت ضمادة رأسه في سرعة، ثم راحت تلقي الأوامر وهي تزوي ما بين عينيها لتتقي الدخان المنبعث من سيجارتها.

- لقد أحضره، إيثان دانيلو فيتش. أمتعة أنت يا نيلوفنا؟ أصابك الذعر، أليس كذلك؟ حسنًا، استريح الآن. أعط نيلوفنا كأسًا من النبيذ يا نيقولا ي.

كانت الأم تشكو من الصدمة التي تلقتها قبل قليل، وتجد صعوبة في التنفس، وتحسّ بألم حاد في صدرها، فغمغمت قائلة:
- لا تقلقوا من أجلي.

ولكنها كانت برمتها تستدعي انتباهًا وعطفًا، ورعاية ومواساة.
خرج نيقولا ي من الغرفة المجاورة، فرأت أن يده مضمّدة، كان معه الطبيب إيثان دانيلو فيتش، وهو أشعث الشعر منتصب كالقنفذ، فذهب مباشرة إلى إيثان حيث انحنى عليه قائلاً:

- ماء، كثيرًا من الماء، وبعض القطن وقطعة قماش نظيفة.
فاتجهت الأم نحو المطبخ، ولكن نيقولا ي أخذها من ذراعها وقادها إلى غرفة الطعام قائلاً في لطف:
- قيل ذلك لصوفيا، وليس لك. أخشى أن تكوني مضطربة، أأست كذلك يا عزيزتي؟

وعندما التقت عينا الأم بعينيها الفاحصتين الحادثتين لم تستطع ضبط نفسها أكثر من ذلك، فراحت تنسج:

- أوه ما أفزع ما حدث! لقد ذبحوا الناس، وقطعوه إربًا...
فقال نيقولا ي، وهو يهز رأسه ويناولها كأسًا من النبيذ:

- لقد رأيت ذلك. إن كلا الجانبين قد فقد صوابه ولكن لا تدعي ذلك

يزعجك. لقد ضربوا بجوانب السيوف، ويبدو أن ثمة شخصاً واحداً جراحه خطيرة. لقد حدث ذلك أمام عيني واستطعت أن أجره خارج المعركة.
هدأ صوت نيقولاوي ونور الغرفة ودفئها من روع الأم، فنظرت إليه ممتنة تسأل:

- وهل ضربوك أيضاً؟

- أظن أنني فعلت ذلك بنفسني... إذ اصطدمت يدي على غير اهتمام مني بشيء ما فكشطت عنها البشرة. هيا خذي قليلاً من الشاي، إن البرد شديد في الخارج وأنت لا ترتدين ثياباً ثقيلة.

أرادت أن تتناول الكأس، فإذا بها تلاحظ دمًا جافاً يغطي أصابعها، وفي الحال ألقت بيدها في حجرها، كانت تنورتها رطبة، رفعت حاجبيها وفتحت عينيها وأخذت تحملق في أصابعها فحفق قلبها... ثم أحست بدوار.

- باقل أيضاً... قد يفعلون به الشيء نفسه!

دخل إيفان دانيلوفيتش الغرفة مرتدياً صديرية وقد شمر أكمامه، فأجاب على استفهام نيقولاوي الصامت في صوت مرتفع:

- إن الجرح الذي في وجهه ليس خطيراً، ولكن في جمجمته كسراً وإن كان ليس سيئاً للغاية، إنه فتي صلب العود، ولكنه فقد كمية كبيرة من الدم. هل نرسله إلى المستشفى؟

فقال نيقولاوي:

- لماذا؟ دعوه يبقى هنا.

- هذا اليوم، ولربما غدًا أيضًا، فسيكون من الأفضل لي إذا كان في المستشفى، إذ ليس لدي متسعًا من الوقت لزيارة المرضى في منازلهم. هل ستكتبون منشورًا عن هذا الذي حدث في المقبرة؟

فقال نيقولا ي:

- سأفعل.

ونهضت الأم في هدوء واتجهت ناحية المطبخ...

فسألها نيقولا ي وهو يعترضها في قلق:

- إلى أين أنت ذاهبة يا نيلوفنا؟ ستمكن صوفيا من عمل كل شيء دون مساعدتك.

فاختلست النظر إليه، ثم هزت كتفها قائلة وهي تطلق ضحكة غريبة:

- إني برمتي مغطاة بالدم!

وبينما كانت تبدل ثيابها في غرفتها الخاصة ظلت تتساءل متعجبة من رباطة جأش أولئك القوم ومقدرتهم في التغلب على مثل تلك الأشياء المرعبة بكل سهولة، فهدأت هذه الخواطر من روعها، وطردت المخاوف من قلبها، وعندما دخلت إلى الغرفة التي كان يستلقي فيها الصبي الجريح وجدت صوفيا منحنية عليه وهي تقول:

- هراء، أيها الرفيق!

فاحتج في وهن:

- سوف أعترض سبيلكم!

- كف عن الكلام... ذلك خير لك!

وقفت الأم خلف صوفيا ويدها على كتفها، ثم ابتسمت في وجه الصبي الأبيض وهي تقص عليه كيف أربعها في العربة بما تتمم من أمور غريبة، فإذا عينا إيثان تشعان في حمية، قال في خجل:

- يا لي من أحقق!

فقالت صوفيا وهي تسحب عليه غطاؤه:

- سوف نترك الآن... هلا رقدت؟

ودخلتا غرفة الطعام حيث جلسوا مدة طويلة يتناقشون في حوادث اليوم، وراحوا، وهم ينظرون إليها وكأنها شيء قد أمسى من الماضي البعيد، يتطلعون إلى المستقبل في ثقة، ويضعون الخطط لأعمال الغد. كانت وجوههم متعبة، ولكن أفكارهم جريئة.

وكانوا يتحدثون عن عملهم لا يخفون عدم رضاهم عن أنفسهم. فتململ الطبيب في مقعده بعصبية، وقال محاولاً أن يلفظ صوته الحاد المرتفع:

- إن الدعاية ليست كافية هذه الأيام والعمال الشباب على حق... فعلياً أن نزيد من دعايتنا. إن العمال مصيرون. أنا أقول لكم ذلك.

فتجهم نيقولاى وقال بنفس النغمة التي تحدث بها الطبيب:

- إننا نسمع شكاوى من كل جهة عن عدم كفاية المطبوعات، ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من توفير مطبعة حسنة، ولودميلاً تنهك نفسها للغاية، ولسوف تنهار إذا لم تقدم لها يد المساعدة.

فسألت صوفيا:

- وما رأيك في فيزوفشيكوف؟

- إنه لا يستطيع أن يعيش في المدينة، ولن يبدأ في العمل قبل أن نحصل على المطبعة الجديدة، ولكننا في حاجة إلى شخص آخر قبل أن نتمكن من عمل ذلك.

فسألت الأم في هدوء:

- أفلا أصلح أنا لذلك؟

فحدجها ثلاثتهم بأبصارهم لثواني قليلة من غير أن ينبسوا ببنت شفة، ثم هتفت صوفيا قائلة:

- إنها لفكرة رائعة!

فقال نيقولا في جفاف:

- إن العمل شاق عليك يا نيلوفنا، فعليك أن تعيشي خارج المدينة، وهذا يعني أنك لن تستطيعي رؤية بافل... وعلى العموم...

فقالت وهي تتنهد:

- إن ذلك لا يهم بافل كثيرًا، وكذلك الأمر بالنسبة لي في الحقيقة، فتلك الزيارات مؤلمة للغاية، فليس مسموحًا لي أن أتكلم معه. إني أقف هناك فقط وأنظر إليه كالبلهاء، بينما يروحون هم يحدقون في فمي ليتأكدوا من أنني لا أقول ما لا يقال.

كانت منهكة من حوادث الأيام القليلة الماضية، والآن عندما لاحت فرصة للمعيشة بعيدًا عن مأساة المدينة تشبثت بها في لهفة:

- ماذا يدور في خلدك يا إيثان؟

فرع الطبيب رأسه المطرق وأجاب في تجهم:

- إني أفكر في قلة عددنا؟ يجب علينا أن نعمل بنشاط أكثر من ذي قبل. وعلينا أن نقنع بافل وأندري بأنه يجب أن يهربا، إذ إنهما أئمن من أن يجلسا هناك دون أن يفعلوا شيئًا.

فعبس نيقولاوي وهز رأسه، ونظر إلى الأم التي سارعت بالنهوض والخروج من الغرفة عندما أدركت بأنهم يترددون في الحديث عن ابنها في حضورها، وهي جريحة الكبرياء لأنهم تجاوزوا رغبتها. وبينما هي مستلقية في سريرها، متسعة العينين تنصت إلى غمغمة الأصوات الخافتة، ملأ نفسها إحساس بالهلع والقلق.

كان النهار مظلمًا بشكل غير معقول، يبعث في النفس شعورًا بالويل والشر، ولكنها لم تشأ أن تفكر في هذا، وإنما أزاحت كل الانطباعات المقلقة جانبًا، وركزت كل انتباهها حول بافل. كانت تريده أن يكون حرًا ولكنها كانت خائفة في الوقت نفسه، فهي تحس بأن الحوادث التي حولها ستصل الذروة وستؤدي إلى اصطدام عنيف.

وكان عمل الناس الصامت يفتح المجال أمام البلاء المنتظر، فيزداد سخطهم بصورة ملحوظة، فكانت تسمع من كل ناحية كلمات حادة ناقمة، وتجد أن كل منشور يثير مناقشات حادة في السوق، في الحوانيت وبين الخدم وأرباب المهن، وكانت تعليقات مذعورة، متبلبة وساخطة في بعض الأحيان تتبع كل اعتقال في المدينة، وراحت أكثر فأكثر تسمع أناسًا بسطاء يستعملون الكلمات التي كانت ترعبها ذات مرة: انتفاضة،

اشتراكيون، سياسة، وإذا كانوا يقولونها في سخرية فقد كان من السهل تمييز السخرية وراء الفضول، وإذا كانوا يقولونها في خبث فقد كان يمكن اكتشاف الخوف وراء الخبث، وإذا كانوا يقولونها عن تفكير فقد كان الرجاء والوعيد وراء التفكير. وفي ببطء أخذت دوائر الاضطرابات تتسع فوق المياه السوداء لهذه الحياة الأسفة، وقد أخذت الآراء التي كانت نائمة تستيقظ، والخضوع الهادئ المألوف للحوادث اليومية يهتز. كانت تستطيع رؤية كل هذا بوضوح أكثر من سائر الناس؛ لأنها أعرف منهم بسماء الحياة العابسة، وهي إذ ترى فيها الآن غضون التفكير والسخط تفرح وتقلق: تفرح لأنها ترى في ذلك عمل ابنها، وتقلق لأنها تعلم أنه لو هرب من السجن فسيأخذ مكانه في الطليعة حيث يشتد عليه الخطر ويكون عرضة للهلاك.

كانت صورة ابنها بعض الأحيان تتخذ لها أبعادًا كأحد أبطال القصص، تحمل بين طياتها كل ما سمعته من كلام طيب ومثير: كلام كل من أعجبت بهم، وكل ما كانت تعرفه عن الألمعية والبطولة، وفي تلك الأثناء كان ينتابها شعور بالاعتزاز والفخر، فتأمل شأنه بنشوة هادئة. كانت تفكر:

- سيكون كل شيء على ما يرام!

وكانت مشاعر الأمومة تتزاحم في صدرها فتطرد معظم المشاغل الإنسانية وتأتي عليها كما تأتي النار على الهشيم مخلقة فكرة واحدة تتلظى خلل الرماد المتبقي من نيران نشوتها وهي تتلوى من الألم:

- سيقتلونه... سيقضون عليه.

جلست ظهر ذات يوم مقابل بافل في مكتب السجن تحديق في وجهه، وقد برز فيه شعر لحيته، بعينين غائمتين وهي تفتش عن فرصة مناسبة لتناوله الرسالة المخفاة بين أصابعها.

قال لها بصوت خافت:

- إني على ما يرام، وكذلك الآخرون. كيف حالك أنت؟

فأجابت بصورة آلية:

- على ما يرام. لقد مات إيجور إيفانوفيتش...

فهتف بافل:

- أواه!

ثم أطرق برأسه في ببطء.

وتابعت الأم في براءة:

- لقد أثار رجال الشرطة معركة أثناء الجنازة، اعتقلوا فيها أحد الفتيان.

فأتى معاون مدير السجن بحركة من أسنانه، ثم هب واقفاً وهو يغتم:

- ألا تعلمين أن الحديث في هذه الأمور ممنوع؟ ليس مسموح أن تتحدثي في السياسة.

ونَهَضَت الأم أيضاً، ثم قالت وكأنها تعتذر:

- لم أكن أتحدث عن السياسة، وإنما عن معركة، فالحقيقة أنهم تعاركوا، لا بل حطموا رأس أحد الفتيان.

- نفس الشيء، يجب عليّ أن أسألك عدم ذكره، لا تذكرني أي شيء لا يهكم شخصياً، يهم عائلتك وبيتك، والأشياء المماثلة.

وإذ أدرك أنه يتلعثم، جلس إلى مكتبه من جديد، وراح يقلب بعض الأوراق وهو يضيف مجهداً:

- فأنا الذي يسأل في مثل هذه الأمور!

ومن غير أن تحول بصرها عنه، أسرعَت الأم تلقي بالورقة الصغيرة في يدي باقل، ثم تنهدت، وقد أزاحت عن ظهرها عبئاً ثقيلاً.

قال المعاون:

- إنك لا تفهمين ما هو مسموح لك بالحديث عنه!

فضحك باقل قائلاً:

- ولا أنا أفهم!

فأشار مغتاظاً:

- إذن فلا معنى من المجيء هنا. إنكما لا تعرفان ما تتحدثان عنه،

ورغم هذا تستمران في المجيء هنا... لإزعاج الناس!

فسألت الأم:

- هل ستجري المحاكمة في القريب؟

- لقد كان النائب العام هنا قبل عدة أيام، وقال إن ذلك سيتم في القريب...

وتبادلا بعض الملاحظات الأخرى التافهة، ولاحظت الأم أن بافل يحدق فيها بحنان. كان هادئًا وصارمًا كعادته دائمًا، لم يتغير فيه شيء، اللهم إلا بياض يديه ولحيته التي جعلته يبدو أكبر سنًا. كانت تريد أن تقول له شيئًا سارًا... أن تدعه يعرف شيئًا عن نيقولا، وهكذا وفي نفس اللهجة التي بادلته بها الملاحظات البريئة قالت له:

- لقد رأيت بالأمس ابنك في العماد...

فبحث بافل عينيها في استفهام صامت، بينما راحت هي تنقر على خديها بأصابعها، لتذكره بأثار الجدري على وجه فيزوفشيكوف:

- إن الصبي على أحسن حال، ولسوف يحصل على عمل في القريب العاجل.

ففهم ابنها، وهز رأسه وعيناه تضحكان في سعادة، وقال:
- هذا رائع!

فاختتمت حديثها راضية عن نفسها متأثرة بسعادته:

- حسنًا، أظن أن هذا كل شيء!

وضغطت على يدها بشدة مودعًا، وقال:

- شكرًا لك يا أماه.

وتدفق الشعور البهيج بتقارب قلبيهما في رأسها كالنبض الحامي، فضغطت على يده في صمت وهي عاجزة عن العثور على كلمات تجيبه بها.

وعندما عادت إلى البيت وجدت ساشا في انتظارها. كانت الفتاة تزورها عادة في الأيام التي تذهب فيها للسجن، غير أنها لم تكن تسأل عنه أبدًا، فإذا لم تذكره الأم من تلقاء نفسها، كانت تُرضي فضولها بالتطلع طويلاً في عيني الأم. أما في هذه المرة فقد لاقتها في استنفهام قلق:

- كيف حاله؟

- إنه على ما يرام.

- هل أعطيته الرسالة؟

- أجل. كان يجب أن تري كيف سربتها إليه!

- هل قرأها؟

- هناك؟ كيف يستطيع ذلك؟

فقالت الفتاة في بطة:

- أوه! نعم، لقد نسيت. علينا أن ننتظر أسبوعًا آخر... أسبوعًا

بكامله... هل تظنين أنه سيقبل؟

وعبست ساشا، وراحت تنظر إلى الأم مليًا، فقالت الأم وهي غارقة

في لجة من التفكير:

- لا أدري، ولماذا لا يقبل، إن لم تكن في الأمر خطورة.

فهزت ساشا رأسها وسألت:

- هل تعلمين ماذا يستطيع المريض أن يأكل؟ إنه جائع!

- يمكنه أن يأكل أي شيء، انتظري ثانية وسـ...—

فدخلت إلى المطبخ ثم تبعتها ساشا.

- هل لي أن أساعدك؟

- يا إلهي.. كلا!

انحنى الأم وتناولت وعاء من الموقد.

فقالت الفتاة في هدوء:

- انتظري...

شحب وجهها واتسعت عيناها ألماً، في حين راحت تهمس بشفتين مرتعشتين:

- أردت أن أسألك... إني واثقة من أنه لن يقبل... ولذلك أرجوك أن تتحدثي معه في ذلك الأمر. إننا في أشد الحاجة إليه، أخبريه أن ذلك ضروري من أجل القضية. قولي له إنني خائفة على صحته، وإنك لترين بنفسك... فيوم المحاكمة لم يحدد بعد.

كان واضحاً أنها تتكلم في جهد، فصوتها أخذ يضطرب، وقد انتصبت قامتها كل الانتصاب، وحولت عينيها بعيداً، ثم أطبقتهما في إعياء، وغصت شفتيها، واستطاعت الأم أن تسمع طقطقة أصابعها المقبوضة.

أقلق هذا الانفجار العاطفي نفس الأم، غير أنها فهمت ساشا، فطوقتها بذراعيها وقالت لها في أسى:

- إنك على حق؟ كل هذا حمق، إرهاب للأعصاب.

ثم قالت بلهجة عملية هادئة:

- حسنًا. فلنطعم مريضنا.

وجلست بجانب إيثان وراحت تسأله إن كانت رأسه تؤلمه، فأجاب وهو يسحب الغطاء حتى ذقنه مرتبكا وهو يغشو بعينه، كما لو كان النور أشد من أن تحتمله عيناه:

- ليس كثيرًا، فما زالت الأشياء تبدو لي كأنها في غمام، وإني لأحس بالضعف.

ثم أدركت ساشا أنه يخجل من تناول الطعام في حضورها، فنهضت وغادرت الغرفة، بينما جلس إيثان في فراشه يتبعها بعينه ويغمغم قائلاً:

- يا له من جمال!

كانت له عينان زرقاوان مرحتان، وأسنان بيضاء منتظمة، وصوت متغاير النبرات.

سألته الأم:

- كم عمرك؟

- سبعة عشر عامًا.

- وأين والدك؟

- في القرية. لقد أقمت هنا منذ بلغت العاشرة، لقد جئت عندما أنهيت دراستي، ما اسمك أيتها الرفيقة؟

كانت الأم تبتهج وتتأثر بشدة كلما ناداها الناس بيا رفيقة.

فسألته مبتسمة:

- لماذا تريد أن تعرف؟

فقال موضحًا بعد فترة ارتباك قصيرة:

- لقد أخبرنا أحد تلامذة حلقتنا الدراسية... أي أحد أولئك الذين يعلموننا... عن أم العامل بافل فلاسوف. هل تذكرين مظاهرة أول مايو؟
فهزت الأم رأسها متيقظة:

وأعلن الفتى في افتخار وجد له صدى في قلب الأم:

- كان بافل أول من رفع رايتنا عبر الشوارع، ولم أكن هناك. كنا نريد أن ننظم مظاهرة خاصة بنا، ولكنها فشلت، فلقد كنا قلائل جدًّا، غير أننا سننظمها في العام القادم وسترين.

واستطاع أن يتنفس في جهد من شدة الترقب، ثم اختتم حديثه ملوِّحًا بملعقته:

- كانت أم فلاسوف هي التي أتكلّم عنها، ولقد انضمت للحزب بعد ذلك، ويقولون عنها ببساطة إنها أعجوبة.

ابتسمت الأم ابتسامة عريضة، فقد أبهجها أن تنصت لمديح الصبي. كان ذلك مبهجًا ومربكًا في الوقت نفسه. كانت تريد أن تقول له: «إنني أنا أم فلاسوف ذاك»، ولكنها قالت لنفسها بدل ذلك في سخرية لطيفة: «أنت عجوز حمقاء، هذا هو أنت!».

وفجأة قالت في انفعال وهي تنحني على الصبي:

- هيا، كل شيئًا آخر، فعليك أن تسرع وتشفى من أجل القضية.
وانفتح باب الشارع مفسحًا السبيل لأنفاس الخريف الباردة الرطبة،

فرفعت الأم بصرها لتجد صوفيا واقفة هناك وكلها ابتسام وازدهار.

- يا إلهي، لو رأيته وقد تعقبني الجواسيس، لظننت أنني وريثة شرعية، لقد آن لي أن أرحل من هنا... حسناً، كيف حالك يا إيفان؟ أتشعر بتحسن؟ ما هي أخبار بافل يا نيلوفنا؟ هل ساشا هنا؟

ونظرت إلى الأم والصبي بلهفة بعينيها الرماديتين وهي تشعل سيجارة وتساءل أسئلة لم تكن تتوقع أجوبة عنها، فابتسمت الأم وهي ترقبها وفكرت قائلة:

- لقد أخذوا يعدونني أنا ضمن هؤلاء الطيبين من الناس.

وانحنت الأم مرة أخرى على إيفان وقالت:

- عَجِّل بالشفاء يا بني!

ثم دخلت إلى غرفة الطعام حيث وجدت صوفيا تتحدث مع ساشا:

- لقد أعدت حتى الآن ثلاثمائة نسخة، وستقضي على نفسها لو استمرت على هذا النحو. إن ما تفعله هو البطولة بكل بساطة، وإنه لشرف أن يعيش المرء بين أولئك القوم يا ساشا، وأن يكون رفيقهم ويعمل معهم. فأجابت الفتاة في نعومة:

- حقاً إنه لكذلك.

وبينما هم يتناولون العشاء ذلك المساء استدارت صوفيا للأمام وقالت:

- ينبغي أن تقومي بزيارة أخرى للريف يا نيلوفنا.

- حسناً، ومتى؟

- هل تظنين أن باستطاعتك أن تدبريها في ثلاثة أيام؟

- أستطيع.

فقال نيقولاى:

- عليك في هذه المرة أن تستأجري جواد البريد وتسلكي طريقاً أخرى عبر منطقة نيكولسكوي.

كان عابساً مقطب الجبين، ولم يكن هذا بالشيء اللائق، إذ كان هذا يفسد عليه ما اعتاده من هدوء رقيق.

فلاحظت الأم قائلة:

- إن الطريق طويلة جداً عبر نيكولسكوي، أما استئجار جواد...

فقال نيقولاى:

- إذا أردت الحقيقة فإنني ضد مثل هذه الرحلة، فالأمور ليست هادئة هناك... لقد جرت بعض الاعتقالات... ويبدو أنهم ألقوا القبض على بعض المدرسين. علينا أن نكون أكثر حذراً. أليس من الأفضل لو انتظرنا بعض الوقت؟

فقالت صوفيا وهي تنقر على المائدة بأصابعها:

- ينبغي أن نزودهم بالمطبوعات دون انقطاع!

ثم سألت فجأة:

- هل أنت خائفة من الذهاب يا نيلوفنا؟

فتألمت الأم من ذلك وقالت:

- هل حدث أن انتابني الخوف قبل ذلك؟ لم أكن خائفة في المرة الأولى، والآن لماذا أنت...

وأطرقت برأسها من غير أن تكمل الجملة. كانت تحس كلما سألوها إن كانت خائفة، أو إن كانت ترى أن هذا أو ذلك الشيء ملائمًا، أو إذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الأمر أو ذاك، كانت تحس أنهم يتوسلون إليها لعمل معروف، وأنهم بذلك ينحونها جانبًا ويعاملونها خلاف ما يعاملون بعضهم بعضًا. قالت بصوت مختنق:

- لماذا أنتم تسألونني إن كنت خائفة؟ إنكم لا تسألون بعضكم بعضًا مثل هذه الأسئلة!

خلع نيقولاي نظارتيه، ثم أعادهما مرة ثانية وهو ينظر مليًا إلى أخته. وأحست الأم بانزعاج من الصمت المتوتر، فنهضت بشعور المذنبه وأرادت أن تقول شيئًا، ولكن صوفيا أوقفتها بأن أمسكت يدها وهي تقول في رقة:

- سامحيني، فلن أفعل ذلك ثانية!

وحمل هذا ابتسامة إلى وجه الأم، وبعد دقائق قليلة كان ثلاثتهم يتناقشون في الرحلة المقترحة باهتمام بالغ.

- ١٥ -

كانت الأم عند الفجر تسير متلكئة في إحدى عربات البريد على طريق غسلتها أمطار الخريف. وكانت ريح باردة تهب بين الحين والحين، ورذاذ

الوحل يتطاير في كل جهة. استدار الحوذي نحوها في مقعده ليشتكو إليها
في صوت أخن:

- وهكذا قلت له... أعني لأخي... فلتتقاسم، قلت له...

وفجأة لسع بسوطه ظهر الجواد الأيسر وصاح في غضب:

- هيا سر يا ابن الساحرة!

كانت غربان الخريف السمينة تنتقل في قلق فوق أخاديد الأرض
العارية، بينما راحت ريح باردة تصفر في كل الأرجاء، فتشد الغربان
أعطافها لتواجه هجمات الريح التي نفشت ريشها وطيرتها عن أقدامها،
مضطرة إياها أن تنتقل في تكاسل إلى بقعة أخرى.

تابع الحوذي قائلاً:

- وهكذا راح يجردني من حصتي، فوجدت أنه لم يعد ثمة شيء أضع
يدي عليه...

كانت الأم تصني إليه وكأنها في حلم، وحوادث السنين القليلة
الأخيرة تتدفق عبر ذاكرتها، فتجد نفسها تساهم فيها جميعاً بنشاط جم.
كانت ظروف الحياة في الماضي تخلق في مكان بعيد، دون أن يعرف أحد
من خلقها ولأي غاية. أما الآن فإن قسمًا كبيرًا منها قد تبدل أمام عينيها،
وبمساهمتها الشخصية، وجعلها هذا راضية عن نفسها رغم كونها غير
واثقة في قواها بعد، فارتبكت وامتلاً صدرها بالحزن.

كان كل ما حولها يسير في بطء، وغيوم رصاصية يلاحق بعضها
بعضاً في تناقل عبر السماء، والأشجار الرطبة على جانبي الطريق تلوح

بأغصانها العارية فوق المارة، والحقول تفسح مكانها للتلال المنخفضة التي اختفت بدورها.

كان صوت الحوذي الأخن، وصدى أجراس الجوادين، وحفيف الرياح الرطبة ينصهر كله ليشكل تيارًا متذبذبًا يتدفق في مثابرة فوق الحقول.

تابع الحوذي قائلاً وهو يتأرجح على مقعده:

- إن الفردوس نفسه لصغير بالنسبة لإنسان ثري. وهكذا بدأ يعصرني... وكانت السلطات كلها صديقة له.

وعندما بلغ المحطة، فك سرج الجوادين، ثم قال للأم في نبرة شاكية:

- هلا أعطيتني خمسة كويكات أشرب بها كأسًا؟

أعطته قطعة النقود فقبلها في راحته وقال:

- سأشرب فودكا بثلاثة منها، أما الاثنان الباقيان فمن أجل الطعام!

وبعد الظهرية بلغت الأم، منهوكة القوى، باردة الأطراف، مدينة نيكولسكوي، فذهبت إلى المحطة كي تشرب قديرًا من الشاي، وجلست في مقعد قرب النافذة، وقد وضعت حقيبتها الثقيلة تحت أحد المقاعد. من النافذة كانت تستطيع رؤية ميدان صغير مغطى بعشب أصفر قد داسته الأقدام، وبناء رماديًا قاتمًا ذا سقف منقوش... هو بناء محافظة المنطقة المحلية، وكان ثمة فلاح أصلع، لا يرتدي معطفًا فوق قميصه يجلس على الشرفة وهو يدخن غليونًا، وكان خنزير يرمى العشب في الميدان وهو يهز أذنيه في تهيج، ويحرك رأسه، ثم يدفن أنفه في التراب.

كانت الرياح تسوق الغيوم في كتل قاتمة كبيرة، وكان كل شيء هادئًا، مظلمًا وموحشًا كئيبيًا، كما لو كانت الحياة مضطجعة في انتظار أمر ما.

وفجأة جاء أحد رجال الشرطة برتبة جاويش يعدو بجواده عبر الميدان حتى بلغ عتبة بناء المحافظة، فلوح بسوطه في الفضاء وصاح في الفلاح، فترددت صيحاته في النافذة، ولكن كلماته ضاعت. نهض الفلاح وأشار بيده إلى الأفق البعيد، فقفز الفارس عن جواده وألقى إلى الفلاح باللجام، واتجه متهاديًا إلى درجات البناء حيث أمسك بالحاجز ثم اختفى من خلال الباب.

عاد كل شيء إلى هدوئه، وضرب الجواد بحافره مرتين في الأرض اللينة، ثم دخلت إلى الغرفة فتاة في زهرة العمر، ذات شعر أصفر مضافور في جديلة قصيرة، وعينين ناعستين في وجه مستدير، وهي لا تفتأ تعض شفتيها وتهز رأسها، تحمل صينية مثقلة بالأطباق.

قالت الأم:

- أسعدت مساء، يا عزيزتي.

- أسعدت مساء.

وعندما وضعت أدوات الشاي على المائدة، صاحت الفتاة فجأة منفعلة:

- لقد أمسكوا بلص... ولسوف يأتون به إلى هنا!

- ومن هو؟

- إني لا أدري!

- وسرق من؟

فأعادت الفتاة تقول:

- لا أدري، لقد سمعت فقط أنهم أمسكوا به، وذهب حارس المحافظة ليدعو رئيس الشرطة.

نظرت الأم عبر النافذة، فرأت الميدان وقد تجمع فيه الفلاحون. كان بعضهم يجيء في هدوء وتناقل، وآخرون يندفعون في سرعة لمشاهدة المنظر وهم يزررون أثناء ذلك معاطفهم الجلدية. احتشدوا عند عتبة البناء وهم ينظرون إلى مكان ما ناحية اليسار.

نظرت الفتاة أيضًا من خلال النافذة، ثم ذهبت تعدو خارج الغرفة وقد دفعت خلفها الباب، فأجفلت الأم من الصوت ودفعت حقيبتها تحت المقعد إلى أبعد من ذي قبل، ثم ألقت بشال على رأسها وأسرعت نحو الباب وهي تكبت رغبة جامحة في الجري.

وعندما بلغت الشرفة لفح البرد عينيها وصدرها، فوجدت صعوبة في التقاط أنفاسها، وترنح ساقاها من تحتها. كان رييين آتيًا عبر الميدان، مكبل اليدين خلف ظهره، وعلى جانبيه يسير شرطيان يضربان الأرض بعصيهما، وهما يسيران والحشد ينتظر صامتًا أمام الشرفة.

انتصبت الأم مصعوقة لا تستطيع أن تحول عينيها عن هذا المنظر، بينما كان رييين يغمغم بشيء لم تستطع أن تفهمه، ولكن كلماته لم تخلف أثرًا في فراغ قلبها المظلم.

سحبت نفسًا عميقًا، وجمعت شتات نفسها. كان يقف بالقرب

من الشرفة فلاح أزرق العينين ذو لحية عريضة شقراء، يحملق فيها مليًا
باهتمام بالغ، ثم سعلت وفركت خنجرتها بيدين ترتعشان ذعرًا:

سألته وهي تتحامل على نفسها قائلة:

- ماذا حدث؟

فأجاب وهو يستدير عنها بعيدًا:

- تحققي من ذلك بنفسك!

ثم جاء فلاح آخر ووقف إلى جوارها.

فوقف الشرطيان اللذان يقودان رييين أمام الحشد الذي ظل يزداد،
وإن كان الناس صامتين.

وفجأة ارتفع صوت رييين فوق رؤوسهم:

- أيها المؤمنون المخلصون! هل سمعتم عن المنشورات التي تشرح
الحقيقة السافرة عن حياتنا نحن الفلاحين؟ حسنًا، ومن أجل هذه الكتابات
أنا أدفع الآن الثمن، فأنا الذي وزعتها على الناس!

اقترب الحشد من رييين أكثر فأكثر، كان صوته هادئًا ثابتًا، الأمر الذي
أعاد للأمم وعيها وقوتها.

فقال الفلاح الثاني في هدوء محدثًا الفلاح الأزرق العينين:

- أسمعت هذا؟

فرفع الآخر رأسه، ثم نظر إلى الأم مرة ثانية من غير أن يجيب. فنظر
الآخر إليها بدوره، كان أصغر سنًا من الأول، ذا لحية سوداء شعناء، ووجه

نحيل مغطى بالنمش، ثم ابتعد كلاهما، ففكرت الأم:

- إنهما خائفان!

أصبحت أكثر اهتمامًا من ذي قبل، ومن حيث تقف في الشرفة كان باستطاعتها أن ترى في وضوح وجه ميخائيلو إيفانوفيتش القائم، وبريق عينيه الملهب. كانت تريده أن يراها بدوره، ولهذا وقفت على رؤوس أصابعها، ومطت عنقها في اتجاهه.

كان القوم ينظرون إليه بارتياح كئيب، من غير أن ينبسوا ببنت شفة، ولم تكن تسمع الحديث الخافت إلا في الصفوف الخلفية من الحشد.
قال ريبيّن في صوت مرتفع فيه إجهاد:

- أيها الفلاحون صدقوا ما جاء في هذه المنشورات، فقد أدفع حياتي كلها ثمنًا لها، لقد ضربوني وعذبوني، وهم يحاولون أن يعرفوا من أين جئت بها، وسيضربونني ثانية، ولكنني على استعداد لتحمل كل شيء؛ لأن ما ترويه المنشورات هو الحقيقة بعينها، والحقيقة يجب أن تكون أعز علينا من خبزنا اليومي، هذه هي القضية!

وهتف أحد الفلاحين الواقفين على مقربة من الشرفة:

- لِمَ يقول هذا؟

فأجاب ذو العينين الزرقاوين:

- سيان لديه الآن، فلا يموت المرء سوى مرة واحدة!

كان القوم ما زالوا يقفون هناك من غير أن ينبسوا بشيء، وهم يحملقون في ريبيّن بكآبة وتجهّم، ويبدو كأن كابوسًا ثقیلاً يجثم على صدورهم!

خرج الجاويش مترنحًا إلى الشرفة وصرخ بصوت ثمل:

- من يتكلم هناك؟

وفجأة هبط الدرج وأمسك بريين من شعره، ثم أخذ يهزه ويصيح:

- أهو أنت؟ يا ابن العاهرة؟!

تأثر الجمهور، وشرع في الغمغمة، بينما أطرقت الأم برأسها في عذاب يائس، ولكن صوت ريبن تردد مرة أخرى:

- انظروا أيها الأخيار!

فصفعه الجاويش على أذنه قائلاً:

- اخرس!!

فترنح ريبن وحنى كتفيه قائلاً:

- إنهم يوثقون يدي المرء، ثم يفعلون ما يحلو لهم به!...

وظل الجاويش يقفز أمام ريبن مثل كلب يحمل في فمه قطعة من

العظم، وهو يضربه بقبضته في وجهه وصدره ومعدته!

صاح أحدهم من الحشد:

- كف عن ضربه!

وجاء صوت آخر يؤيده:

- لماذا تضربه؟!

فقال الفلاح الأزرق العينين وهو يشير إلى رفيقه:

- هيا بنا نذهب.

وسارا يتلكآن، والأم تتبعهما بنظرة حانية، ثم شعرت بارتياح عندما
رأت الجاويش يعدو صاعدًا الدرج إلى الشرفة وهو يصيح هازًا قبضته:

- اجلباه هنا، سأريه!

وعلا صوت مرتفع من بين الحشد، أدركت الأم منه أن الفتى ذو
العينين الزرقاوين هو الذي كان يصيح:

- لا تتركوهم أيها الأصدقاء، فسيضربونه حتى الموت إن أخذوه، ثم
يقولون إننا نحن الذين فعلنا ذلك، لا تتركوهم يأخذونه!

وصاح ميخائيلو:

- أيها الفلاحون! أفلا ترون ماذا تشبه حياتكم؟ أفلا تستطيعون أن
تدركوا كيف يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم؟ كل شيء يأتي
منكم! إنكم أنتم أعظم قوة على وجه الأرض، وأي حقوق تملكون؟ ألا
إنكم لا تملكون إلا حق الموت جوعًا....!

أخذ الفلاحون فجأة يصيحون وهم يقاطعون بعضهم بعضًا:

- إنه يقول الحقيقة!

- ادعوا رئيس الشرطة، أين هو رئيس الشرطة؟

- لقد ذهب الجاويش يدعوه!

- من؟ ذلك السكران؟

- ليس من شأننا أن ندعوا السلطات!

وازداد اللغط:

- هيا تكلم، فلن ندعهم يمسوك بسوء!

- فكوا يديه!

- حذار أن يمسوك!

فقال ريبيّن وهو يطغي على كل الأصوات بنبراته العميقة الرنانة:

- إن الحبال تؤذي يدي، وأنا لن أهرب أيها الفلاحون! فإني لا أستطيع أن أختبئ من الحقيقة التي تعيش في داخلي.

انفصل بعض الرجال عن الحشد، ووقفوا جانباً يتبادلون الملاحظات وهم يهزون رؤوسهم، ولكن أخذت الجماهير الرثة الثياب تتسابق، وهي أشد ما تكون هياجاً، تغلي عروقهم، حول ريبيّن الذي انتصب من بينهم وكأنه يزأر في غابة، يلوح بذراعيه فوق رأسه ويصيح:

- شكراً لكم أيها القوم الطيبون! شكراً لكم! فإذا نحن لم نفك أيدي بعضنا بعضاً، فمن يفعل لنا ذلك؟

ومسح لحيته ثم رفع يداً ملطخة بالدم:

- هذا هو دمي... يسفك من أجل الحقيقة!

هبطت الأم درجات الشرفة، ولكنها إذ لم تستطع رؤية ميخائيلو من الحشد، عادت وتسلمت الدرج من جديد تعتمل في قلبها سعادة غامضة!

- أيها الفلاحون! انتبهوا لهذه المشورات واقرواها، لا تصدقوا الكهنة والسلطات عندما يخبرونكم أن المبشرين بالحقيقة هم الكفرة والثوار، فالحقيقة تجوب في أرجاء الأرض خفية، تفتش لها عن عش بين الشعب، إنها كالسيف والنار بالنسبة للسلطات، وهم لا يستطيعون تقبلها

لأنها ستسلخ جلودهم وتحرقهم. إن الحقيقة صديق طيب لكم! وهي
عدو لدود لهم، ولهذا تجوب أرجاء الأرض في خفية.

وارتفعت الهتافات من جديد بين الحشد:

- أصبحوا السمع أيها المؤمنون المخلصون...

- ستكون نهايتك سيئة، أيها الأخ!

- من الذي سلمك للبوليس؟

فأجاب أحد رجال الشرطة قائلاً:

- الكاهن...

فأطلق اثنان من الفلاحين أيماً مغلظة!

ثم ارتفع صوت أحدهم محذراً:

- انتبهوا، أيها الشباب!

- ١٦ -

كان قائد الشرطة قادماً صوب الحشد، وهو رجل فارع الطول متين
البنية مستدير الوجه، يرتدي قبعة مائلة فوق أذن واحدة، وقد انحرف أحد
شاربيه إلى أعلى، والثاني إلى أسفل، فبدا وجهه منحرفاً بشكل ثابت
في ابتسامة كئيبة. كان يحمل سيفاً في يده اليسرى ويلوح باليمين في
عنف... وقد استطاع سائر الناس سماع وقع خطواته الثابتة الثقيلة وهو
يتقدم، فتباعد الحشد يفسحون له الطريق، وقد ذابت ضوضاؤهم كأنها

ماء يغيض في الأرض. كان كل واحد كئيبيًا متجهم الوجه، فشعرت الأم بعينيها تلتهبان، وبعضلات جبهتها ترتجف، وأحست برغبة في الانضمام للحشد من جديد، فانحنت إلى الأمام، ووقفت ثابتة لا تتحرك.

سأل قائد الشرطة وهو يقف أمام رييين ويقيسه بعينه:

- ما هذا؟ لم تُركت يده من غير قيد؟ اربطوهما أيها الجنود!

كان صوته عاليًا، رنانًا، ولكن لا حياة فيه. فأجاب أحد رجال الشرطة:

- كانا مربوطين، وفكهما الشعب!

- ما هذا؟ الشعب؟ أي شعب؟

ثم رمق الحشد الذي كان يقف أمامه في نصف دائرة، وراح يسأل دون أدنى تبدل في صوته الذي لا حيوية فيه:

- من هو الشعب؟

ولمس الفلاح ذو العينين الزرقاوين بجانب من مقبض سيفه.

- أظن أنك أنت الشعب يا تشوماكوف؟ حسنًا، ومن أيضًا؟ أنت

يا ميشين؟

ثم أمسك بأحدهم من لحيته بيده اليمنى قائلاً:

- من الأفضل لكم أن تنسحبوا من هنا، أيها الأوغاد، وإلا فسأريكم!

لم يكن في سحته أثر للغضب أو التهديد، وإنما كان يتكلم في هدوء، ويضرب الناس بحركة مألوفة من ذراعيه الطويلتين، فتراجعوا من أمامه مطرقي الرؤوس، مشيحين بوجوههم عنه!

فقال لرجلي الشرطة:

- حسنًا، وماذا تفعلان هنا؟ اربطايديه قلت لكما!
وأطلق سيلاً من الشتائم، ثم حملق في ريبين مرة أخرى وعوى قائلاً:
- ضع يديك خلفك ظهرك... أنت...

فقال ريبين:

- لا أريدهما أن يربطايدي، فلن أهرب ولن أقاوم، لِمَ إذن تربطان
يدي؟

فسأل قائد الشرطة وهو يقترب منه:

- ما هذا؟

فقال ريبين وهو يرفع صوته:

- لقد حان الوقت لمنعكم من تعذيب الشعب، أيها الوحوش! ولكن
سوف تنالون نصيبكم في القريب العاجل!

وقف قائد الشرطة ينظر في وجهه بشاربين مرتعشين، ثم تراجع خطوة
إلى الخلف، وصاح بصوت كله دهشة:

- يا ابن الكلب! إذن هكذا تتكلم!

وفجأة وجهه إلى وجه ريبين صفعة رنانة!

فصاح ريبين وهو يتقدم صوبه:

- لن تستطيعوا أن تقتلوا الحقيقة بقبضاتكم، وليس لديك الحق في
ضربي، أيها الكلب القذر.

فعوى قائد الشرطة:

- ليس لدي الحق؟ أنا؟

ورفع قبضته مرة أخرى مصوبًا على رأس ريبن، الذي انحنى، فأخطأته اللكمة حيث كادت أن تجعل قائد الشرطة يختل توازنه، فقهقه أحدهم من الحشد وهو ينفخ من منخريه، في حين ارتفع صوت ريبن الغاضب من جديد:

- إني أحذرك من المساس بي، أيها الشيطان!!

فأجال قائد الشرطة النظر فيما حوله، ووجد الناس قد تجمعوا في حلقة كثيفة قاتمة، فصاح القائد:

- نيكيتا! أين نيكيتا؟

فتقدم من وسط الحشد فلاح قصير القامة، متين البنية، يرتدي معطفًا من جلد الخراف، وقد أطرق برأسه الكبير الأشعث إلى الأرض، فقال قائد الشرطة وهو يفتل شاربيه في هدوء:

- يا نيكيتا، ناوله لكمة على أذنه... لكمة جيدة!

فتقدم الفلاح ووقف أمام ريبن، ثم رفع رأسه، فصنعه ريبن على وجهه بلكمات قوية ثابتة.

- انظروا، فقط أيها الناس، كيف يخنقكم هؤلاء الوحوش بأيديكم نفسها، انظروا وفكروا في ذلك جيدًا!

فرفع الفلاح يده في بطاء، ثم وجه إلى ريبن لكمة معتدلة إلى رأسه. فصاح قائد الشرطة قائلاً:

- أهكذا تضربه، يا ابن الحرام؟

ثم ارتفع صوت من الحشد:

- يا نيكيتا! لا تنس أن هناك إلهاً.

فصاح قائد الشرطة وهو يمسك بالفلاح من عنقه:

- اضربه! قلت لك!

ولكن نيكيتا طأ رأسه، ثم انتحى جانباً وهو يغمغم:

- لقد فعلت ما فيه الكفاية.

- ماذا؟!

واختلج وجه قائد الشرطة، فضرب الأرض بقدمه، ثم انطلق نحو رييين وهو يشتم، فتردد بعد ذلك صدى صفعة ترنح لها رييين، فرفع ذراعه، ولكن صفعة أخرى رمته أرضاً، وإذا بقائد الشرطة ينهال عليه ركلاً في صدره وجانبيه ورأسه:

وارتفعت من الحشد غممة غاضبة، وبدأ الناس يتحركون ضد القائد، ولكنه لاحظ ذلك فقفز للوراء مستلاً سيفه من غمده.

- ما هذا؟ ثورة؟ آها! إذن هكذا؟

وارتعش صوته ثم انقطع، وهو يرسل صيحات قصيرة عديمة الجدوى، وكما خانته صوته، كذلك خانته قوته، فطأ رأسه وارتخى كتفاه، وراح ينظر حوله وهو يرجع للوراء متحسباً الأرض بقدميه في عناية، ثم صاح في صوت أجش:

- حسنًا، خذوه من هنا، فإني ذاهب، تعالوا الآن، ألا تعلمون بأنه مجرم سياسي أيها الأوغاد؟ ألا تعلمون أنه يحرض الشعب ضد القيصر؟ وتدافعون عنه! هكذا فأنتم عصاة أيضًا؟ أليس كذلك؟

كانت الأم تقف بلا حراك، بل وبدون أن تطرف عيناها، وقد خارت قواها، ولم تعد تستطيع أن تفكر، كأنها ترزح تحت كابوس حلم ثقيل وقد غلبها الخوف والإشفاق، وكانت صرخات الناس المتجهمة المتألّمة، الغاضبة ترن في رأسها كالأبواق، وكانت تسمع صوت قائد الشرطة المرتجف، وهمسات بعض الآخرين:

- إذا كان مذنبًا، فقدموه للمحكمة...

- أرفق يا صاحب الشرف...

- الحقيقة أنه ليس هناك من قانون يسمح بهذه المعاملة.

- هذا صحيح، فلو كان مثل هذا الشيء محتملاً لاستطاع أي شخص أن يضرب الآخرين، وسيكون ذلك أمرًا رائعًا...!

انقسم الحشد إلى فريقين، أحاط أحدهما بقائد الشرطة يصيح به ويحاجه، بينما التف الفريق الآخر، وهو الأقل عددًا، حول الرجل المنطرح على الأرض، وراح يغمغم متوعدًا، وساعد عدد من الفريق الصغير ريبين على النهوض، وعندما حاول الشرطي أن يقيدا يديه من جديد، صاحوا قائلين:

- لا تتعجلا أيها الشيطانان!

مسح ميخائيلو الأقدار والدم عن وجهه ولحيته، ثم نظر فيما حوله

في سكون، فوق بصره على الأم التي أجفلت وانحنت في اتجاهه وهي تلوح بذراعيها بالرغم منها، ولكنه استدار عنها، ثم عادت عيناه تبحثان عن وجهها من جديد.

وبدا لها أنه انتصب ورفع رأسه، وأن خديه الملطخين بالدماء يرتعشان.

- لقد عرفني... أيمكن حقاً أن يكون قد عرفني؟

ثم أشارت إليه برأسها، وهي ترتعش برمتها في لهفة مخيفة، وفي اللحظة التالية لاحظت أن الفلاح ذا العينين الزرقاوين يقف إلى جواره ويرنو إليها أيضاً، وملأتهما نظرتاه بالرعب مرة ثانية!

- ماذا أفعل؟ لسوف يأخذونني أيضاً!

قال الفلاح شيئاً لريين الذي أجاب بهزة من رأسه، ثم قال في صوت واضح وجريء على الرغم من ارتعاشه.

- حسناً! فلست وحيداً على الأرض! ولن يستطيعوا أبداً أن يسجنوا الحقيقة بأسرها، ولسوف تبقى ذكراي في كل مكان كنت فيه، حتى لو مزقوا العش... وأخذوا سائر الرفاق.

وخطر ببال الأم:

- إنه يعني بقوله هذا!

- ولكن اليوم الذي ستخلق فيه النصور حرة، قادم لا ريب فيه، وسيحطم الشعب أغلاله.

وأحضرت إحدى النساء دلواً من الماء وراحت تغسل به وجه ريين،

وتبكي وهي تفعل ذلك، فيختلط صوتها المرتفع الشاكي بالكلمات التي كان يقولها ريبين، حتى إن الأم لم تستطع تمييزها، وجاء فريق من الفلاحين يتقدمهم قائد الشرطة، فصاح أحدهم:

- أحضروا عربة لتأخذ السجين من هنا! يا ترى من يقع عليه الدور هذه المرة؟!

ثم جاء صوت قائد الشرطة يتكلم في نبرة جديدة، أقرب إلى الشكوى، وقال:

- أستطيع أن أخبرك، ولكنك لا تستطيع أن تضربني. لا... إنك لا تجرؤ، أيها الكبير الرأس! فصاح ريبين قائلاً:

- هل الأمر كذلك حقاً؟ من تحسب نفسك... الله؟

وغطى انفجار من الهتافات المكتومة صوته.

- لا تتناقش معه أيها الأخ! إنه أحد رجال السلطات.

- لا تغضب منه يا صاحب السعادة، فهو لا يملك نفسه.

- هدى من روعك أيها الساذج!

- سيأخذونك إلى المدينة، الآن!

- ثمة في المدينة اعتبار أكثر للقانون.

كانت صيحات القوم كلها استعطاف وتلطف، تختلط في دوي غامض يعبر عن بعض الأمل، وأمسك الشرطيان بريبين من ذراعيه وقاده

فوق سلم المحافظة، ثم عبر الباب.

وأخذ الفلاحون يتفرقون شيئًا فشيئًا، ولكن الأم شاهدت الفلاح ذا العينين الزرقاوين آتيًا إليها، وهو يحدجها من تحت حاجبيه المنخفضين، فتخاذلت ركبها، وراح اليأس يمسك بقلبها مشيرًا فيها موجة الغثيان، ففكرت:

- يجب أن لا أذهب، لا ينبغي.

وأمسكت بالحاجز وراحت تنتظر.

كان قائد الشرطة يقف على الشرفة ملوحًا بذراعيه ويتكلم مؤنبًا، وقد ارتفع صوته من جديد جافًا لا حياة فيه:

- إنكم لمجانين يا أبناء الكلاب، إذ تدسون أنوفكم في أمور لا تعرفون عنها أي شيء. هذه قضية تتعلق بالدولة، أيها الخنازير! إن من واجبك أن تتوجهوا إليّ بالشكر، واجبك أن تركعوا لي على ركبكم امتنانًا لطيبتي معكم، فلو شئت أرسلتكم جميعًا إلى الأشغال الشاقة!

كان حوالي أربعة وعشرون فلاحًا يقفون حاسري الرؤوس ينصتون إليه، وتكاتف الظلام، بينما أخذت السحب تنخفض إلى الأرض أكثر فأكثر، واقترب الفلاح ذو العينين الزرقاوين من الشرفة، حيث تقف الأم وقال:

- هل رأيت ما حدث؟

فأجابت الأم في رقة:

- أجل!

فسأل وهو ينظر في عينها مباشرة:

- ما شأنك أنت هنا؟

- إنني أشتري تطريزاً من الفلاحات... وأصوفاً أيضاً.

فمسح الفلاح لحيته في بطاء، ثم قال في تبرم، وهو ينظر إلى باب

البناء:

- إن نساءنا لا يصنعن هذه الأشياء!

فحدجته الأم بنظرة سريعة، وانتظرت الفرصة الملائمة للرجوع إلى الداخل. كان وجه الفلاح وسيماً متأملاً، وعيناه حزيتين، وكان مديد القامة عريض المنكبين، يرتدي قفطاناً مرقعاً، وقميصاً نظيفاً من القطن، وسروالاً داكناً من صنع البيت، وحذائين باليين في قدميه العاريتين.

وأرسلت الأم لسبب ما، تنهيدة ارتياح، ثم قالت فجأة، وهي تستسلم لحدس كان أسبق من أفكارها المضطربة:

- هل يمكنني أن أقضي الليل عندك؟

ولم تكذ تطرح هذا السؤال حتى أصبح كل شيء فيها شديد التوتر: عظامها وعضلاتها، فانتصبت ثم نظرت إلى الرجل في ثبات وراحت أفكار حادة تنحبس في ذهنها: سأكون حطام نيقولاوي إيفانوفيتش، ولن أرى بافل مرة ثانية لفترة طويلة... طويلة من الزمن، ولسوف يضربونني.

فأجاب الفلاح دون تسرع، وعيناه مثبتتان في الأرض، بينما هو يسحب قفطانه فوق صدره:

- تبتين الليل عندي؟ لم لا؟ إلا أن كوخى حقير جداً!

فقلت الأم:

- لست معتادة على أحسن منه.

فقال الفلاح موافقاً وهو يرفع رأسه ويقيسها بعينه:

- حسناً.

كان الليل متأخراً، وكان وجهه وعيناه يلمعان في الظلمة.

قالت الأم في رقة، وهي تحس كأنها تهبط نشراً من الأرض:

- إذن سأجيء معك في الحال، فقد تحمل لي حقيتي؟

- حسناً.

رفع كتفيه، ثم شد أطراف قفطانة، وقال:

- ها هي العربة قد جاءت.

وظهر ريبن على الشرفة، وقد لف رأسه ووجهه في شيء رمادي،

وقيدت يده، فجاء صوته في الغسق البارد:

- وداعاً أيها الناس الطيبون، فتشوا عن الحقيقة، وأكنزوها، وثقوا

بالإنسان الذي يحمل إليكم الكلمة الشريفة، ولا تبخلوا بأنفسكم في

الدفاع عن الحقيقة.

فصاح قائد الشرطة:

- أغلق فمك! اهمز هذه الجياد، أنت أيها الشرطي الأحمق!

- ما الذي ستخسرونه؟ انظروا كيف تعيشون.

وانطلقت العربة، فصاح ريبن الذي كان يجلس بين اثنين من رجال

الشرطة:

- لماذا أنتم تستمرون جوعاً حتى الموت؟ إذا نلتم حريتكم
فستحصلون على الخبز والعدالة. وداعاً أيها القوم الطيبون!

ابتلعت صوته زمجرة العجلات، ووقع الحوافر، وصيحات قائد
الشرطة. فقال الفلاح بهزة من رأسه:

- لقد انتهى كل شيء.

ثم التفت إلى الأم قائلاً:

- انتظري هنا في المحطة، فسأعود بعد دقيقة.

دخلت الأم إلى الغرفة، وجلست إلى المائدة أمام الساموفار، والتقطت
قطعة من الخبز، نظرت إليها لحظة، ثم أعادتها إلى الصحن، لم تكن لها
رغبة في الطعام... فموجة الغثيان انتابتها من جديد. أحست بحرارة لم
ترتح إليها، فقد أنهكها المرض، وجفف الدم من قلبها، وأصابها بدوار
شديد. ظلت ترى وجه ذلك الفلاح الأزرق العينين... كان وجهاً غريباً،
ناقصاً بطريقة ما، يوحي بعدم الثقة. لم تشأ أن تظن أنه سيخونها، ولكن
هذه الفكرة تطرقت إلى ذهنها، وجثمت ثقيلة على قلبها، ففكرت في وهن:

- لقد لاحظني... لقد لاحظني... وخمن!

ولم تنم الفكرة أكثر، إذ كان مطبق عليها في حمأة المرض واليأس.

وراح الصمت المطبق الذي حل محل الضوضاء في الميدان يكشف
عن أن القرويين كانوا خائفين، فزاد هذا من شعورها بالوحدة، مما ملأ
نفسها بظلمة قاتمة كالرماد في نعومته وقتامته!

وظهرت الفتاة في عتبة الباب من جديد قائلة:

- هل آتيك بيض مقلي؟

- لا تقلقي، فلست أشعر برغبة في الأكل، فقد أربوني بصيحاتهم وصرخاتهم.

واقتربت الفتاة من المائدة قائلة:

- كان يجب أن تري كيف لطمه قائد الشرطة!

ثم قالت في همس منفعل:

- لقد كنت واقفة على مقربة منه، لقد خلع أسنانه، فرأيتة يصبقتها بعيني، وكان الدم كثيفاً، أحمر يشوبه السواد... أما عيناه فقد ورمتا تلك الليلة. إنه يعمل في القار، وجاويش الشرطة يرقد فوقه ثملاً للغاية، وما زال يطلب المزيد من الخمر، وهو يقول إن ثمة عصابة كاملة منهم، وإن ذلك الملتحي رئيسهم. لقد اعتقلوا ثلاثة منهم، ولكن أحدهم هرب، لقد أمسكوا بمعلم مدرسة ينتمي إلى عصابتهم، إنهم لا يؤمنون بالله، وهم يحاولون دائماً إقناع الناس بعدم الإيمان به، حتى يتمكنوا هم من سرقة الكنائس... هذا دأبهم! إن بعض فلاحينا رثوا لحالته، ولكن الآخرين يقولون كان يجب أن يشنق. إن لدينا الكثير من الفلاحين الأشرار هكذا!

كانت الأم تصغي بانتباه لحديث الفتاة السريع المترابط، محاولة أن تتغلب على مخاوفها وترقبها الموحش. كانت الفتاة سعيدة فيما يبدو بأن تجد شخصاً يصغي لها، فراحت تثرثر بحماس متزايد.

- يقول أبي إن سبب كل هذا هو الموسم الرديء، إذ لم تغل لنا الأرض شيئاً خلال سنتين، لقد كانت قاسية على الفلاحين، وهذا هو الذي

غير من طباعهم فجعلهم يصيحون ويتشاجرون في القرية، وفي ذات يوم، بينما كانوا يبيعون ممتلكات فاسكوف كي يوفوا بها ديونه، ضرب عمدة القرية ضربة عنيفة على وجهه وهو يقول: «إليك ديونك».

وسمع وقع أقدام ثقيلة عند الباب، فأمسكت الأم بالمائدة، ووقفت على قدميها. دخل الفلاح الأزرق العينين من غير أن يخلع قبعته وقال:

- أين حقيبتك؟

ورفعها بسهولة وهزها قائلاً:

- فارغة! خذي هذه المرأة إلى كوخى يا مراكا.

ثم خرج من غير أن يلتفت ورائه. فسألت الفتاة:

- هل ستمضي الليلة هنا؟

- أجل، لقد جئت في طلب قماش مطرز... إنني أشتري هذا النوع من القماش، فأوضحت الفتاة قائلة:

- إنهم لا يشتغلون بالمطرزات هنا، إنهم يشتغلونها في تنكوفو وداريينا، ولكن ليس هنا.

- إذن فسأذهب غداً إلى هناك.

وبعدما دفعت الأم ثمن الشاي، بعثت البهجة في قلب الفتاة إذ NFحتها ثلاثة كويكات، ثم خرجتا والفتاة تسير بخفة فوق الأرض المبلولة بقدميها الحافيتين، قالت:

- سأذهب لداريينا، إذا أردت ذلك، وسأخبر النساء بأن يحضرن مطرزاتهن إلى هنا، وهذا يوفر عليك الركوب. وعلى أي حال، فالمسافة

اثنا عشر فرسخًا.

فقالت الأم وهي تستريح لتلحق بها:

- لا تقلقي يا عزيزتي.

وأنعشها الهواء البارد، وصح عزمها على شيء ما، أخذ ينمو في بطنه واضطراب، ولكن كان ثمة أمل فيه، ولرغبتها في أن تعجل نموه، ظلت تسأل نفسها: «ماذا عساي أفعل؟ لو أتلفت كل شيء...».

كان الليل باردًا نديًا، وكانت أضواء حمراء ترتجف وتلمع في نوافذ الكوخ. وكان الصمت يقطع بصيحات الرعاة وبخوار القطعان الناعس، وكانت القرية ملتفة في ظلمة وكرب. قالت الفتاة:

- ها نحن قد وصلنا، لقد اخترت مكانًا حقيرًا لتقضين فيه الليل، إنه

فلاح معدم!

وتحسست الباب وفتحته، ثم نادى بجرأة:

- أيتها العمة تاتانيا؟

ثم ولت الأدبار، وجاء صوتها خلال الظلمة:

- وداعًا!

- ١٧ -

ودخلت الأم، ثم رفعت يدها إلى عينيها لترى الكوخ بشكل أوضح، كان صغيرًا، ولكنها سرعان ما ذهلت لنظافته. نظرت إليها امرأة شابة من

وراء الموقد، وهزت رأسها دون أن تتكلم، ثم اختفت ثانية. كان ثمة مصباح يشتعل على المائدة، وكان صاحب الكوخ يجلس إلى المائدة ينقر عليها بأصابعه في عصبية وهو يتفحص عيني الأم، ثم قال بعد برهة:

- ادخلي، اذهبي يا تاتانيا ونادي بويتر بسرعة.

وخرجت المرأة دون أن تنظر إلى الأم، التي اتخذت مقعدًا مقابلًا له وراحت تنظر فيما حولها، فلم تر حقيبتها في أي مكان. كان الكوخ طافحًا بصمت موحش لا يقطعه سوى ذبذبة المصباح من وقت لآخر، وكان يكدرها وجه الفلاح القلق العابس الذي يروح ويجيء في غموض أمام عينيها.

سألت نفسها على حين غرة وقد ألم بها الذعر:

- أين حقيتي؟

فهز الفلاح كتفيه وأجاب:

- لن تضيع.

ثم أضاف في لهجة خافتة:

- لقد قلت هناك في المحطة إنها فارغة عمدًا لكي تسمع الفتاة، ولكنها ليست فارغة، إنها ثقيلة جدًا.

فسألت الأم:

- حسنًا، وأي غرابة في ذلك؟

فنهض واتجه إليها ثم همس وهو ينحني:

- أنت تعرفين ذلك الرجل؟

فأجابت الأم في صوت حازم، رغم أن السؤال فاجأها على غير انتظار:

- نعم.

وبدا أن تلك الكلمة الموجزة قد أضاعت بغتة كل شيء من الداخل، موضحة بذلك الأشياء، فتنهدت بارتياح واستقرت على المقعد. وابتسم الفلاح ابتسامة عريضة وقال:

- لقد جال بخاطري ذلك عندما أشرت إليه هناك، فرد على إشارتك. لقد همست له سائلاً إن كان يعرف الواقعة هناك على الشرفة؟ فسألت الأم على عجل:

- وماذا قال؟

- لقد قال: ثمة كثيرون منا، ثمة كثيرون... هذا ما قاله.

وحملق الفلاح مستفهماً في عيني ضيفته، ثم قال وهو يبتسم:

- إنه لرجل قوي! وشجاع يقول دون لف أو دوران... أنا من فعل ذلك! ويستمر يقول ما عليه أن يقول، غير آبه لما ينزلون به من ضرب! ارتاحت الأم أكثر فأكثر إلى صوته المتردد الضعيف، ووجهه غير المتكامل، وعينه الكحيلتين الصريحتين.

وراح قلقها وإعيائها يفسحان المجال شيئاً فشيئاً لرثاء عميق من أجل ريبين، ثم صاحت في غضب مرير وقد انخرطت في البكاء:

- يا للأوغاد! يا للوحوش!

فابتعد الفلاح وهو يهز رأسه في تفجع قائلاً:

- السلطات تجعل الناس يحبونهم!

ثم قال في سرعة وهو يستدير ثانية للأم:

- انظري، ألا يوجد صحف في الحقيقة؟

فأجابت الأم ببساطة وهي تمسح دموعها:

- بل يوجد، لقد أحضرتها من أجله.

قبض بيديه على لحيته عابسًا، ووقف محملقًا في الزاوية.

قال بعد فترة من الصمت:

- لقد جيء بها إلى هنا من أجلنا، وكذلك الكتب، ونحن نعرف ذلك

الرجل... لقد رأيته.

ثم وقف وفكر ثانية وسأل:

- ماذا تنوين أن تفعلي بها الآن... الحقيقة؟

فقالت الأم وهي تنظر إليه في تحد:

- سأتركها معك!

لم يعترض، ولم يظهر أي استغراب، وقال:

- حسنًا!

وبإشارة منه عبر فيها عن رضاه، جلس إلى المائدة وهو يتخلل لحيته

بأصابعه.

ظل شبّح ريبين الذي نكلوا به وأسألوا دمه، يلاحقهما في غير
رحمة، ويطردهما عدا ذلك من الأفكار، فقضى الألم والسخط على سائر
مشاعرهما، فلم تعد الأم تفكر في الحقيقة، أو في أي شيء آخر، وانهمرت
دموعها بسخاء، وإن كان وجهها صارمًا، وصوتها ثابتًا، وهي تقول:

- ألا فلتحل عليهم اللعنة إلى الأبد، جزاءً لهم على إهانتهم للبشر،
وسلبهم!

فأجاب الفلاح في هدوء:

- إنهم أقوياء، إنهم أقوياء جدًا!

فهتفت الأم غاضبة:

- ومن أين يستمدون هذه القوة؟ إنهم يستمدونها منا، نحن عامة
الناس، كل شيء مستمد منا.

كان الفلاح يضايقها بوجهه الطيب المبهّم في الوقت ذاته.

قال في تناقل مفكرًا:

- أجل... العجلة...

وأصاخ بأذنيه على حين غرة، وانحنى في اتجاه الباب وقال:

- إنهم قادمون!

- من؟

- أصدقاء على ما يبدو.

دخلت زوجته يتبعها فلاح آخر ألقى بقبعته في الزاوية واتجه صوب

المائدة وقال:

- حسنًا.

هز الأول رأسه، ثم قالت زوجته حيث كانت تقف إلى جوار الموقد:

- قد تكون ضيفتنا جائعة؟

فقالت الأم:

- كلا، لست كذلك.

فاستدار الفلاح الثاني إليها، ثم قال بصوت سريع متكسر:

- اسمحي لي أن أقدم نفسي، اسمي بيوتر بيجوروف ريبينين، ولقبي «البومة»، لقد فهمت شيئًا أو اثنين من عملك، إنني أستطيع أن أكتب وأقرأ... لست غبيًا تمامًا!

فأمسك باليد التي مدت إليه وقال:

- انظر يا ستيبان، إن فارفارا نيكولايفنا سيدة لطيفة، فيما أعتقد، ولكنها تقول إن هذا العمل جنوني ويجلب الضرر، وتقول بأن الشباب الصغار والطلاب يملؤون رؤوس الناس بالهراء. لكننا، أنت وأنا، نستطيع أن نرى أنهم ألقوا القبض على فلاح أصيل هذا اليوم. والآن انظر هنا... ها هي امرأة في منتصف العمر، ليست من السادة، فيما أظن، لست من السادة، أليس كذلك؟

كان يتكلم في تسرع، ولكن بوضوح، دون أن يقف ليلتقط أنفاسه، ولحيته ترتجف في عصبية، وعيناه لا تفتآن تمعنان النظر في وجه الأم وقوامها. كانت ملابسه ممزقة ومهلهلة، وشعره أشعث، كما لو كان

خارجًا لتوه من قتال، يملؤه الفرح بالنصر. أحبته الأم لروحه الطيبة؛ ولأنه كان يعبر عن أفكاره ببساطة وصراحة، فابتسمت له وهي تجيب عن سؤاله، فهز يدها من جديد، وأرسل ضحكة خافتة قصيرة وقال:

- إنه عمل نظيف... عمل رائع يا ستيان، ألم أقل لك بأنه صادر عن الشعب نفسه؟ ولكن تلك السيدة الرائعة... إنها لا تخبرك الحقيقة، فهي تؤدي نفسها إن روت لك الحقيقة. أوه، إنني أحترمها بالطبع... ولا حاجة لتقرير ذلك، إن لها روحًا طيبة وهي تريد أن تساعدنا... ولو قليلًا من غير أن تسبب لنفسها أدنى مضرة. ولكن عامة الناس يندفعون قدمًا إلى الأمام، من غير أن يخافوا من إيذاء أنفسهم. هل ترى الفارق؟ إنهم يتأذون دائمًا، مهما فعلوا، لذا فالأمر لديهم سواء. والكلمة الوحيدة التي يسمعونها أبدًا هي: «قف»، مهما تكن الطريق التي يسلكون.

فقال ستيان وهو يهز رأسه:

- لقد فهمت! إنها قلقة على حقيبتها!

فغمز بيوتر الأم، دلالة المعرفة، وقال مؤكدًا:

- لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام يا أماه، فحقيبتك في منزلي، عندما حدثتيني اليوم... إنك أيضًا انخرطت في هذا العمل، وإنك تعرفين ذلك الشخص... قلت له: «كن على حذر يا ستيان! فعلينا أن لا نقع في خطأ في مثل هذه القضية»، ولكنك على ما يبدو عرفت من نكون أيضًا، عندما كنا واقفين هناك إلى جوارك، فالمرء لا يخطئ وجه الشريف إذا رآه... ولا يرى الكثير منهم إذا شئت الحقيقة. لا تقلقي على حقيبتك.

ثم جلس إلى جانبها وراح ينظر إليها مستفهمًا:

- إن كنت تحبين التخلص مما فيها، فسنكون جد سعداء بمساعدتك،
حيث يمكننا الاستفادة من هذه الكتب.

فقال ستيان:

- إنها تريد أن تتركها كلها معنا!

- هذا رائع يا أماء، ولسوف نجد مكانًا لكل شيء.

وبضحكة مقتضبة قفز على قدميه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

- قطعة من حظ نادر الوجود! وإن لم يكن ذلك عجبًا فيما أعتقد...
الحبل ينقطع من مكان فيربط من مكان آخر. إن الجريدة عظيمة يا أماء،
وهي مفيدة جدًا... إنها تقود العُمي، والأسياء لا يابهون كثيرًا. إني أعمل
نجارًا عند سيدة تبعد سبعة فراسخ من هنا، إنها امرأة رزينة، فهي تعبرني
الكتب وكل ما هو من هذا القبيل، فيقرأ المرء في بعض الأحيان شيئًا
يفتح الأعين حقًا! وعلى العموم فنحن ممتنون لها. ولكنني أريتها ذات مرة
هذه الجريدة، وكان يجب أن ترى كيف أخذتها، لقد قالت: «لا تقرأ هذه
الصحف يا بيوتر، إنهم جماعة من التلاميذ الخبثاء الذين يكتبون مثل هذه
الأشياء، ولن تستفيد من قراءتها سوى الوقوع في المشاكل... السجن
وسيبيروا»، هذا ما قالت.

وصمت من جديد دقيقة ثم قال:

- هذا الرجل يا أماء... هل هو أحد أقربائك؟

فضحك بيوتر دون ضوضاء، وهز رأسه، كما لو كان فرحًا من شيء
ما! فأسرعت الأم تقول كما لو كان خطأً منها أن تنكر قرابتها لربيين:

- ليس هو بالقرب، ولكن أعرفه منذ زمن طويل، وأحترمه مثل أخ لي... أخ كبير!

لم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن شعورها، فآلمها ذلك وأنشأت تبكي من جديد. وساد الكوخ صمت متحفز ثقيل. كان بيوتر يقف منحني الرأس كما لو كان يستمع إلى شيء ما، وكان ستيبان جالسًا ومرفقاه على المائدة وهو لا يفتأ ينقر في عصبية، وكانت امرأته تستند على الموقد، فشعرت الأم بأن عيني المرأة مثبتتان عليها. وكانت الأم تختلس النظر بين الحين والحين إلى وجه المرأة الشابة البيضاء الشكل، في التقاطيع السوداء والأنف المستقيم والذقن الحادة المدببة، كانت عيناها الخضراوين حادتين يقظتين.

قال بيوتر متأملًا:

- إذن فهو صديق لك... إن له عقلًا خاصًا به، إنه يملك ذلك! وهو يعتد بنفسه كثيرًا، وهو رائع جدًا. أي رجل هو، يا تاتانيا؟ وأنت تقولين.. فقاطعته تاتانيا قائلة وهي تضغط شفتي ثغرها الصغير:

- هل هو متزوج؟

فقالت الأم في أسى:

- إنه أرمل!

فقالت تاتانيا في صوت عميق غني النبرات:

- هذا إذن هو سبب شجاعته، فالرجل المتزوج لا يسلك مثل هذا السبيل، سيكون خائفًا!

فصاح بيوتر:

- وماذا بالنسبة لي؟ أأست متزوجاً؟

فأألت المرأة وهي تبأسم ابتأسماء ملتوية وتتأجنب عينيه:

- اسأأ... اسأأ أيها الجار، وماذا أفأأ أنت؟ إنأ تتأألم فقط،
وتأقرأ بعض الأأيان كأأاً أو كأأين. إن فأأوك وستيبان تتهاأسان في رأأ
ما مأألم لا يفيد الشعب كأأاً.

فأأأأ الفأأ في هأوء، وأأ استأاء لإهانأها:

- كأأرون من الناس يصأون إلأأ، وأنا إن صأ التعبير... أشبه
بالأأميرة في أألي هنا، لا فأولي إن...

نأر ستيبان إلى زوأأه من أأر أن أأألم، أأ أطرق برأسه من أأأأ،
فأأأأ أأأأأأ:

- أأ أأزوج الفأأ؟ لأنه في أأأة إلى أأأة أأأل معه. أأأل ماذا؟

فأأأأر ستيبان في أأأة:

- أأأل لأأأ ما أأأأأ من أأأل؟

- أأ أأأ في هذا أأأل؟ أن أأأأ نصف أأأ من أوم لأوم؟ وإن
أأ لأأأ أطفال، فأأل لأأأ أأأ الكأأل لأأأأأ بهم مع أأ هذا
أأأل، وأأأر من هذا فأأل لأأأ ما أأأأ لأأأل.

أأأأ إلى الأم وأأأأ إلى أوارها وهي تتأألم أأأ ما أأأأة أو
أأأة:

- رزقت طفلين، عذب أحدهما حتى الموت وهو في الثانية من عمره، والآخر ولد ميتاً، وكل ذلك بسبب ذلك العمل اللعين. هل حمل إليّ شيئاً من السعادة؟ إنني لا أرى معنى في أن يتزوج الفلاح، فهو يوثق يديه، في الوقت الذي قد يكون في استطاعته أن يعيش كيفما شاء، مناضلاً من أجل حياة أفضل، وعندها يستطيع أن يسير مباشرة وراء الحقيقة، مثل هذا الرجل، أليس الأمر كذلك يا أماه؟

فقالت الأم:

- أجل، إنه كذلك يا عزيزتي، وإلا فلن يكون لنا ثمة أمل في تغيير هذه الحياة.

- ألدريك رجل؟

- لقد مات، إن لي ابناً...

- وهل يعيش معك؟

فقالت الأم:

- إنه في السجن.

وكان الألم المعتاد الذي أثارته فيها هذه الكلمات ممزوجاً الآن بالكبرياء.

- هذه هي المرة الثانية التي يلقون به في السجن لأنه يبذر بذور الحقيقة التي يريدها الله بين الشعب. إنه شاب، وسيم، ذكي. إنه هو الذي فكر في صحيفتكم، وهو الذي هدى ميخائيلو إيفانوفيتش إلى الطريق المستقيم، على الرغم من أن عمر ميخائيلو ضعف عمره. قريباً سوف

يعقدون محاكمة، وسيرسل ابني إلى سيبيريا، ولكنه سيهرب، ويعود هنا، ليواصل هذا العمل.

كان إحساس الكبرياء، وهي تتكلم، ينمو مفسحاً الطريق لصورة واضحة لبطلها، جعلت الكلمات تتدافع إلى شفيتها فتخنفها. كان من الضروري أن تجد شيئاً بهيئاً ومعقولاً توازن به ظلمة ذلك النهار، تلك الظلمة التي ما برحت فظاعتها السخيفة ووحشيتها الوقحة تنزلان عليها كابوساً ثقيلاً؛ ولذلك راحت وهي تخضع لطلب طبيعتها السليمة تجمع كل ما هو صاف وبهي في شعلة واحدة عظيمة، أعمتها بومضها الشديد.

- ثمة كثيرون آخرون مثله، وكل يوم يولد منهم أكثر فأكثر، وسيمضون حتى نهاية أيامهم يناضلون من أجل الحقيقة والحرية.

ضربت بالحذر عرض الحائط، ومن غير أن تذكر أي أسماء راحت تتحدث عن كل ما عرفته عن العمل السري الجاري من أجل تحرير الجماهير من الاستغلال. وبينما هي تصف أناساً أعزاء على قلبها، راحت تسكب في كلماتها تلك القوة العظيمة وذلك الفيض من الحب الذي أحالته تقلبات الحياة أزهاراً بعد طول انتظار. كانت هي نفسها تنظر في بهجة إلى أولئك القوم الذين يبدون في مخيلتها، يضيئهم شعورها ويمجدهم.

- وهذا العمل يسير في جميع أنحاء الأرض، في كل مدينة وقرية، فلا حد لقوة الناس الطيبين، وهي تنمو، وستظل تنمو باستمرار حتى تحين ساعة انتصارنا!

كان صوتها ينساب في ثبات، فلم تكن تجد صعوبة في العثور على

الكلمات التي كانت تنتظم في سلك كحبات المسبحة الملفوفة في خيط رغبتها المتين لتطهير قلبها من دم ذلك النهار وقذارته. كانت ترى أن أولئك الفلاحين قد تأثروا بما قالت، فجلسوا دون حراك، وأعينهم تشخص في وجهها. كانت تسمع تنفس المرأة المتلاحق إلى جانبها، فيقوي ذلك من إيمانها بما تقول، وبما تعد به أولئك القوم.

- إن كل أولئك الذين يحيون حياة شاقة، كل أولئك الذين أهلكهم العوز، كل أولئك الذين سحقهم الأغنياء وخدم الأغنياء بدون حق، يجب على كل أولئك أن ينضموا للذين يموتون في السجن ويعذبون من أجل إخوانهم. إنهم يسرون من غير أن يفكروا بأنفسهم، على طريق السعادة لكل الشعوب، ودون أي محاولة للخداع، يقولون: صعبة هي الطريق، ولا يجبرون أحدًا على أن يسلكها. لكن إذا أخذ المرء مكانه إلى جانبهم مرة، فلن يتركهم أبدًا؛ لأنه يدرك أن ذلك هو الحق، وتلك هي الطريق وليس من سبيل آخر.

كانت قد هزتها السعادة؛ لأنها تصنع ما تمت أن تصنعه منذ زمن بعيد. إنها الآن تخبر الحقيقة للشعب بنفسها!

- يمكنكم أن تتبعوا أولئك القوم باطمئنان، فهم لن يرضوا بالريح اليسير، ولن يتوقفوا قبل القضاء على كل خداع وكل جشع وكل شر. لن يطووا أيديهم حتى يتجمع الشعب بأسره ويصيح بصوت واحد: أنا السيد، ولسوف أضع بنفسي القوانين التي يتساوى أمامها الجميع!

وفجأة شعرت بأنها متعبة، فتوقفت عن الكلام وتطلعت إلى المستمعين مدركة في سعادة بالغة أن كلماتها لم تذهب هباء. ظل الرجال

يرمقونها في رجاء: كان بيوتر واضعاً ذراعيه فوق صدره، مضيقاً فرجة عينيه، بينما راحت ابتسامة ترفرف على شفتيه، وكان ستيان يستند بأحد مرفقيه إلى المائدة، بينما كان منعطفاً إلى الأمام بكل جسده، كأنه لم يزل منصتاً، وكان وجهه في الظل، ولعله لهذا السبب بدا الآن أكثر اكتمالاً من ذي قبل. أما زوجته التي كانت تجلس إلى جوار الأم، فقد كانت تجلس ومرفقاها على ركبتيها تتفحص الأرض.

قال بيوتر بصوت خافت، وهو يتهالك على المقعد:

- إنها كذلك!

انتصب ستيان ونظر إلى زوجته ومد ذراعيه، كما لو كان يريد أن يضم جميع الحاضرين. وقال مفكراً:

- إذا بدأت مرة هذا النوع من العمل، تعين عليك أن تبذل قصارى جهدك!

فقال بيوتر في حياء:

- لا سبيل إلى الرجوع... في هذا!

فقال ستيان:

- يبدو أن العمل يشمل كثيراً من الناس.

فقال بيوتر:

- إنه يشمل العالم كله!

استندت الأم إلى الجدار، وألقت برأسها إلى الخلف وهي تصغي إلى الكلمات الهادئة التي يحكمون بها على الأشياء. نهضت تاتانيا ونظرت فيما حولها، ثم جلست ثانية. كان ثمة بريق بارد في عينيها الخضراوين وهي ترمق الفلاحين في ازدياء واستياء، ثم استدارت صوب الأم فجأة وقالت:

- لا بد أنك قد رأيت من أنواع الأسى هذا النهار ما يكفي وزيادة!

- لقد رأيت!

- إني أحب أن أسمع حديثك، فكلماتك تضرب على أوتار القلب، وعندما أسمعك أفكر، أواه يا إلهي! لن أوفر جهداً في سبيل الحصول على نظرة إلى مثل هذا النوع من الناس الذين تتحدثين عنهم، وعلى الحياة نفسها. ماذا نرى نحن هنا؟ إننا مجرد قطع من الأغنام، هذا هو كل شيء! فأنا على سبيل المثال، إني أعرف كيف أقرأ وأكتب، وإني أقرأ كتباً، وأفكر كثيراً... وإني لا أنام الليالي بعض الأحيان لكثرة التفكير، ولكن ما جدوى ذلك؟ إذا توقفت عن التفكير، ذبلت للاشيء، وإذا واصلت فأيضاً للاشيء.

كان في عيناها سخرية، وكان يبدو أحياناً أنها تعض الكلمات كالخيوط. لم يقل الفلاحون شيئاً. كانت الريح تصفع زجاج النافذة، وتتمتع بعدوبة في المدخنة، وتخشخش في القش على السطح، وكان كلب ينبح، ومن

حين لآخر كانت قطرة من المطر تقع على الشباك، وكان نور المصباح يرتعش حتى يكاد ينطفئ كي يعود فيستعيد الحياة ويستمر في اللهب بتألق وثبات.

- ظللت أقول لنفسي عندما سمعتك تتحدثين: هذا ما ولد الناس من أجله! وإنه لمضحك... ولكن يبدو أنني كنت أعرف كل ذلك. غير أنني لم أسمع شيئاً مثله من قبل، كما أن أفكاراً مثل هذه لم تراودني قط.
فقال ستيان في بضع، وهو يعقد ما بين حاجبيه:

- الأفضل أن نأكل شيئاً، وأن نطفئ النور يا تاتانيا، فقد يلاحظ الناس أن النور في بيت آل شوماكوف يضيء أطول من المعتاد هذه الليلة، وهذا لا يؤذينا، ولكنه قد يؤذيها هي.

فنهضت تاتانيا، واتجهت صوب الموقد، وابتسم بيوتر.

- أجل، فعلينا أن نرقب خطواتنا هذه الأيام أيها الجار بمجرد أن تظهر هذه الصحف...

- لست أفكر في نفسي، فلن تكون الخسارة كبيرة، إذا اعتقلوني.

اقتربت زوجته من المائدة وقالت:

- انهض.

فنهض ووقف يراقبها وهي تعد المائدة، فلاحظ بابتسامة ساخرة:

- أنتم وأنا، أيها الأخوة، نسائي حوالي خمسة كوبيكات للباقة الواحدة، وذلك عندما يكون مئة منا في كل باقة أيضاً.

رثت الأم له... كانت محبتها له تزداد بمقدار معرفتها به، وبعد حديثها

أحست بنظافتها من قذارة اليوم، كانت راضية عن نفسها، تريد الخير لسائر الناس.

قالت:

- إنك مخطئ، فينبغي أن لا تقبل الثمن الذي يقدره لك أولئك الذين يمتصون دمك، عليك أن تقدر السعر الذي يلائمك، سعر ما في داخلك، السعر الذي يضعه أصدقاؤك، وليس أعداؤك.

فهتف الفلاح في صوت خافت:

- أي أصدقاء لنا؟ إننا نحارب دائماً على كسرة خبز!

- ولكني أخبرك بأن لنا أصدقاء.

فأجاب ستيان مفكراً:

- قد يكون، ولكن ليس هنا.

- لمَ لا تحاولون أن تجدوهم هنا؟

فكر ستيان لحظة قبل أن يجيب:

- هم...م... أجل، أعتقد أن هذا هو ما يجب أن نفعله.

فقالت تاتانيا:

- اجلس، فالعشاء جاهز.

وبينما هم يأكلون استعداد بيوتر، الذي بدا متأثراً بشدة بما أخبرتهم

الأم، حيويته من جديد وقال:

- عليك أن تغادري في الصباح الباكر يا أماه، حتى لا تلفتي أي انتباه،

اركبي مباشرة حتى المحطة الثانية دون أن تمرى بالمدينة، خذي عربة البريد.

فقال ستيان:

- ولمَ ذلك؟ سأقودها بنفسى!

- يجب أن تفعل ذلك!! وإذا سألوك: هل أمضت الليلة عندك؟ «نعم، لقد فعلت» وأين هي الآن؟ «لقد قدتها إلى المحطة» آها! إذن فأنت من ساعدها على الفرار، وهكذا تذهب إلى السجن، أرايت؟ لا معنى إلى التسرع في الذهاب إلى السجن، فكل شيء يأتي في موعده، حتى القيصر نفسه يموت عندما تحين ساعته كما يقول المثل، وأما هذه المرأة فقد قضت الليلة هنا ببساطة، ثم استأجرت ليلاً الجياد ورحلت. كثيرون هم الذين يقضون الليلة هنا باعتبار أن قريتنا تقع على الطريق الرئيسة.

فتساءلت تاتانيا في سخرية:

- من علمك أن تكون جباناً هكذا يا بيوتر؟

فقال بيوتر وهو يضرب بيده على ركبته:

- على المرء أن يتقن الأمور أيها الجارة: متى يتقدم، ومتى يحجم. هل تذكرى الصدمة التي صدموا فاجانوف بها، عندما مسك بتلك الصحيفة؟ إنك لا تستطيعين الآن أن تقنعيه بتناول كتاب بين يديه، لا بالحب ولا بإغراء المال. لكن ثقي بي يا أماه فإنني وغد شرس، وسأحمل هذه الصحف والكراريس، بالقدر الذي تشائين، وفي الأمكنة التي تريدين. صحيح أن أغلب قومنا لا يستطيعون القراءة، وهم يخافون بالإضافة إلى

ذلك، ولكنك تعصّرين بعض الأحيان، لدرجة أنك لا تملك إلا أن تفتح عينيك وتساءل نفسك ماذا تعمل في ذلك، وهذه الكراريس تخبرك ببساطة: فكر! استعمل عقلك! فبعض الناس الذين لا يقرأون يعرفون أكثر من الذين يقرأون، أولئك الممتلئة بطونهم. لقد ضربت في جميع أنحاء هذه المنطقة ورأيت كل شيء. يمكننا أن نتدبر الأمور، لكن علينا أن نستعمل عقولنا، وأن نكون دهاة إذا كنا نود تفادي القبض علينا من البداية، فالسلطات، فيما يبدو، قد اشتهمت أن الفلاح لا يشعر بالصدقة تجاههم... لقد كف عن الابتسام، ولم يعد ودودًا، ولو بدرجة بسيطة، ويظهر على العموم، كما لو كان يريد أن يقطع صلته بالسلطات. ففي ذلك اليوم في سمولياكوف- تلك القرية القريبة من هنا- جاءوا ليجمعوا الضرائب، فقابلهم الفلاحون بالهراوات في أيديهم! فلم يراوغ رئيس السلطة وإنما صاح قائلاً: إذن فأنتم ضد القيصر أيها الأوغاد؟ وكان ثمة فلاح اسمه سبيتاكين تكلم بعده مباشرة قائلاً: لتذهب إلى الجحيم أنت والقيصر. فأني مصير هو ذلك، إذا كان يسرق منك القميص؟ إلى هذا الحد وصلت الأمور يا أماء. طبعًا لقد رموا سبيتاكين في السجن، ولكن ليس كلماته، فحتى الشباب اليافعين يتذكرون ماذا قال. إن كلماته تسير هاتفة صارخة.

لم يأكل أي شيء، وإنما استمر يتكلم في همس سريع، وهو يختلس النظر فيما حوله بعينين لامعتين سوداوين، مقدمًا للآم في سخاء ملاحظاته عن حياة الريف، كما لو كانت نقودًا تدر من كيس للدراهم.

قاطعته ستيبان مرتين ليقول له:

- الأفضل لك أن تأكل شيئًا.

وفي كلتا المراتين تناول بيوتر كسرة من الخبز وملعقة من الطعام وراح يروي قصصه بطلاقة قُبْرَة تنشد إحدى الأغنيات. وعندما انتهى العشاء هب على قدميه فجأة وهو يهز يده مصافحاً:

- حسنًا. لقد آن لي أن أعود إلى البيت. طبت مساء يا أماء، قد لا نلتقي ثانية، ولكني أريد أن تعلمي بأني أعتبر كل هذا رائعًا للغاية، رائعًا أن ألقاك وأن أستمع إليك. هل هناك شيء آخر في حقيبتك تلك إلى جانب الصحف؟ لسوف تحضر إليك حقيبتك في دقيقة واحدة فقط، هيا يا ستيان. طبتم مساء وحظًا سعيدًا!

أصبح ضجيج الصراخ مسموعًا بعد ذهابهم، وعصفت الريح فوق السطح، وزمجرت في المدخنة، وراح مطر دقيق يضرب النافذة، وهيات تاتانيا للأم سريرًا من أغطية تناولتها من خزانة صغيرة فوق الموقد وفردتها على الدكة.

قالت الأم:

- إنه فتي ينبض حيوية.

فحملت فيها المرأة الأخرى:

- إنه يشير كثيرًا من الضوضاء، ولكن هذا لا يؤثر كثيرًا.

فسألت الأم:

- وزوجك؟

- إنه على ما يرام.. إنه رجل طيب، لا يشرب الخمر، ونحن سعيدان بعضنا مع بعض، ولكنه ضعيف الشخصية.

وانتصبت، ثم قالت بعد فترة صمت قصيرة:

- ماذا علينا أن نفعل الآن؟ أفلن نشور؟ بالطبع سنشور، هذا ما يفكر فيه كل امرئ، ولكن كل إنسان يفكر فيه لنفسه في الوقت الذي يجب أن يفكر فيه عاليًا، وعلى أحدهم أن يخطو الخطوة الأولى.

وجلست على الدكة قائلة:

- لقد قلت إن فتيات من السادة يشتركن في مثل هذا العمل، فيختلطن بالعمال ويقرأن لهم. ألا يضقن ذرعًا بذلك؟ ألا يخفن؟

وعندما سمعت جواب الأم سحبت نفسًا عميقًا، وأطرقت بعينها ثم أحت رأسها قائلة:

لقد وقعت في أحد الكتب التي أقرأها، على تعبير «حياة لا معنى لها»، وفهمته في الحال، إذ إنني أعرف تلك الحياة حق المعرفة. إن المعاني موجودة، ولكنها كلها غير مترابطة، كالخراف بلا راع، هذه هي الحياة التي لا معنى لها. بودي أن أهرب منها دون أن ألفت إلى الوراء مرة واحدة لو أستطيع. إنك تشعرين بتعاسة فائقة عندما تدركين الأمور!

استطاعت الأم أن ترى تلك التعاسة في البريق الجاف الذي تشع به عيناها الخضراوان، وفي وجهها الناحل، وسمعتها في صوتها، فأرادت أن تواسيها:

- ولكنك تدركين طريق الخلاص يا عزيزتي...

فقاطعتها تاتانيا في صوت رقيق:

- هذا لا يكفي، فعليك أن تعرفي كيف الخلاص... حسنًا، إن سريرك جاهز.

سعت إلى الموقد، ووقفت هناك من غير أن تتكلم: هادئة، منتصبه القامة، غارقة في التفكير. استلقت الأم في ثيابها، كان جسمها يؤلمها من الإنهاك لدرجة أنها أطلقت أنة مقتضبة. أطفأت تاتانيا المصباح، وعندما خيم الظلام على الكوخ راحت تتكلم في نبرات خفيفة ثابتة، فبدأ صوتها كأنه يمسح شيئًا عن وجه العتمة المستوي.

- أرى أنك لا تصلين، وأنا أيضًا لا أومن بالله ولا بالعجائب.

انقلبت الأم على جنبها. كانت الظلمة التي لا قرار لها تشخص إليها مباشرة من خلال النافذة، بينما راحت أصوات خافتة وأصداء ضئيلة تزحف عبر الصمت، وأجابت تاتانيا من الخوف، بما يشبه الهمس:

- أما بالنسبة لله، فلست واثقة، ولكني أومن بالمسيح، إنني أومن بكلماته: أحب جارك كما تحب نفسك، إنني أومن بذلك.

ظلت تاتانيا صامتة، وكانت الأم تستطيع أن تميز حدود جسدها الناقصة المرسمة رمادية اللون على جدار الموقد الأسود. كانت تقف جامدة لا تتحرك، فأغلقت الأم عينيها في أسى، وفجأة سمعت المرأة تقول في برود:

- لن يكون في إمكاني أبدًا أن أغفر لله أو للإنسان من أجل موت أطفالتي، أبدًا!

فأنهضت بيلاجيا نفسها في قلق، وروحها مدركة ذلك الأذى المستتر

خلف الكلمات، قالت في لطف:

- إنك ما زلت صغيرة، سيكون ثمة أطفال آخرون.

فهمست المرأة بعد فترة من الصمت:

- أبدأ، إن فيَّ بعض العيب، فالطبيب يقول إنني لن أستطيع إنجاب أطفال آخرين.

عدت فأرة عبر الغرفة... ورن شيء بصوت مرتفع حطم السكون،
وعلا مرة أخرى صوت سقوط المطر على السطح وهو يعبث بالقش كما
تفعل أصابع نحيلة.

كانت قطرات المطر تتساقط على الأرض في وجوم مراقبة مرور تلك
الليلة الخريفية البطيء.

وبينما الأم تغفو، سمعت وقع أقدام ثقيلة في الخارج، ثم في المدخل،
وفتح الباب في حذر، ثم جاء من خلاله صوت رجل يقول:

- أأنت في فراشك يا تاتانيا؟

- كلا.

- هل هي نائمة؟

- أظن ذلك.

وانبثق نور وتذبذب، ثم ابتلعه الظلام، وسعى الفلاح إلى فراش الأم
حيث أصلح من وضع المعطف الذي ألقيه على قدميها، فتأثرت الأم
لعنايته، ثم أغمضت عينيها من جديد وهي تبسم. خلع ستيلان ثيابه دون
أن ينبس ببنت شفة، ثم صعد على السلم، فصمت كل شيء!

استلقت الأم دون حراك تنصت في انتباه إلى تموجات الصمت
الواجم، بينما انتصب أمام عينيها وجه ريبين الملطخ بالدم.

كانت ثمة حركة على السلم.

- هل ترى أي قوم يقومون بهذا العمل؟ شيوخ عملوا طيلة حياتهم،
وشربوا كؤوس الآلام حتى الثمالة، وكان هذا وقت راحتهم، ولكنهم
يفعلون هذا بدلاً منك أنت... الشاب الذكي. أوه يا ستيان!

فأجاب الفلاح بصوته العميق الغني النبرات:

- يجب أن أفكر في ذلك جيداً قبل كل شيء.

- لقد سمعت هذا من قبل.

ظلاً صامتين دقيقة، ثم تابع ستيان قائلاً:

- هذه هي طريق البداية، أولاً نتحدث إلى الفلاحين على انفراد...
ألكسي ماكوف على سبيل المثال... إنه يستطيع أن يقرأ، ومعنوياته عالية
وناقم على السلطات، وسيرجي شورين أيضاً فلاح ذكي، وكينازيث
شريف، لا يخاف، وهذا يكفي في البداية. إننا نريد أن نتصل بذلك النوع
من الناس الذين أخبرتنا عنهم. سأخذ فأساً وأذهب للمدينة، كأني أريد أن
أربح بعض المال الإضافي بتكسير الحطب. علينا أن نكون حذرين، كانت
مصيبة عندما قالت إن على المرء أن يقدر قيمة نفسه بنفسه، ولناخذ ذلك
الفلاح اليوم، فهو لن يستسلم، حتى ولو وقف أمام الإله الأعظم، ونيكيثا
ذاك؟ لقد برهن على أن لديه ضميراً.

- لقد ضربوا رجلاً أمامكم مباشرة، وكل ما فعلتموه هو أنكم وقفتم

فاغرين أفواهكم!

- مهلاً، يجب أن تكوني فرحة؛ لأننا لم نضربه بأنفسنا... ذلك الرجل!
ومضى يهمس لفترة طويلة وهو يخفض صوته أحياناً فلا تستطيع الأم
أن تلتقط كلماته إلا بصعوبة، ويتحدث في أحيان أخرى بصوت عميق
واضح النبرات، وغالباً ما كانت زوجته توقفه:

- صه! ستوقظها!

واستغرقت الأم في نوم ثقيل هبط عليها كسحابة حملتها بعيداً.
فأيقظتها تاتانيا عندما أطل الفجر الرمادي من النوافذ وانسل صوت
جرس الكنيسة طافياً عبر السكون البارد، معلناً نهاية حراسة الليل.
- لقد أشعلت الساموفار. خذي قدحاً من الشاي، فإنك ستبردين إذا
رحلت إثر نهوضك من النوم مباشرة.

وبينما كان ستيبان يمشط لحيته الشعثاء، سأل الأم عن عنوانها في
المدينة. وجدت أن وجهه قد تحسن خلال الليل... وأصبح أكثر اكتمالاً.
ضحك قائلاً وهم يشربون الشاي:

- ما أغرب ما حدث ذلك!

فسألت تاتانيا:

- ماذا؟

- تعارفنا بمثل هذه البساطة.

فقالت الأم وهي تفكر:

- ثمة بساطة عجيبة في كل ما يتعلق بعملنا.

كان الرجل وزوجته حزينين عندما افترقا عن الأم، كانا يتكلمان قليلاً، ولكنهما أظهرهما اهتماماً براحتها، تجلى في عدد لا يحصى من الأمثلة.

وعندما جلست على كرسي عربة البريد، راحت تفكر كيف سيبدأ ستيان عمله بحذر وهدوء، كأنه خلد^(١)، ولكنه سيكون عنيداً لا يقهر، وسترن شكوى زوجته في أذنيه باستمرار، وستلمع عيناها الخضراوان على الدوام بذلك اللهب الداوي، كما أنها لن تتحرر أبداً من ذلك الحزن المتعطش للانتقام الذئبي الشرس، حزن أم على طفلها الميتين.

وتذكرت ريبين... جراحه، ووجهه، وعينه الملتهبتين وكلماته، فانقبض قلبها بإحساس مرير من العجز إزاء مثل هذه الوحشية. لم تبرح صورة ميخائيلو منتصبه أمام عينيها طوال طريق العودة إلى المدينة، مرتسمة على قرار ذلك النهار القاتم. كانت تراه واقفاً هناك: صلباً، ذالحية سوداء، وقميص ممزق، ووجه ينزف دمًا، ويدها معقودتان خلف ظهره، رجلاً يطفح بالغضب، وبالإيمان في الحقيقة التي يزود عنها. وفكرت الأم في القرى التي لا يحصى لها عدد، الجاثمة على الأرض، وفي الناس الذين ينتظرون سرّاً مجيء العدالة، وفي آلاف الناس الذين يقضون حياتهم كلها في عمل، صامتين دون جدوى، وبلا أمل في ما هو أفضل.

رأت الحياة حقلاً صخرياً غير محروث ينتظر الحارث في صمت ولهفة. وبدا أنه يقول للناس الأحرار الشرفاء:

(١) الخلد: نوع من الحيوان - المعربان.

- ازرعوني ببذور الحقيقة والعقل، وسأكافئكم على أتعابكم مائة ضعف!

وإذ استعادت النجاح الذي تكلفت به جهودها، أحست بفرحة غامرة
كبتها في صدرها بتواضع جم!

- ١٩ -

فتح لها نيقولاى الباب، في غير هندام، في يديه كتاب، فحياها في سرور:

- عدت بمثل هذه السرعة؟ لم أكن أنتظر قدومك!
وراحت عيناه اللطيفتان تطوفان من خلف نظارته، وساعدها على خلع ثيابها، وأخذ يحملق فيها بابتسامة والهة. قال:

- لقد فتشوا بيتنا في الليلة الماضية، وخشيت أن يكون قد وقع لك حادث ما، ولكنهم لم يعتقلوني... لو كنت اعتُقلت لأخذوني بكل تأكيد.
واستمر في الحديث وهو يقودها إلى غرفة الطعام:

- سيتردونني طبعًا، ولكن ذلك لن يزعجني، فقد سئمت الجلوس إلى مكتب وإحصاء الفلاحين الذين يملكون جيادًا.

كانت الغرفة تبدو وكأن مارداً جباراً، في نوبة مزاح، قد هز جدران المنزل حتى انقلب عاليه سافله، فالصور ملقاة على الأرض، وأوراق الحيطان منزوعة ومتدلية كالأشرطة، وفي مكان ما قد اقتلعت عارضة

من أرض الغرفة، وإطار النافذة مخلوع، ورماد من الموقد قد تناثر على الأرض، فهزت الأم رأسها لرؤية هذا المنظر المألوف، ونظرت إلى نيقولاي ملياً وهي تحس فيه صفة جديدة.

كان الساموفار البارد يقبع على الطاولة، وبجانبه أدوات الشاي غير المغسولة، والجبن والسجق يجثمان على الورق بدل الأطباق. كان غطاء المائدة مغطى بالكتب وفتات الخبز والفحم. أطلقت الأم ضحكة مقتضبة، فابتسم نيقولاي في أسف قائلاً:

- بالطبع ساهمت في تلك الفوضى الشاملة، ولكن لا بأس في ذلك، لقد ظننت أنهم سيعودون من جديد يا نيلوفنا، ولهذا لم أرتب المكان! حسناً كيف كانت رحلتك؟

وقع السؤال ثقيلاً على قلبها، وانتفضت أمامها صورة ريبين من جديد، فخجلت من نفسها، إذ لم تتحدث عنه في الحال. انحنت الأم، وبدأت تقدم تقريرها، محاولة الاحتفاظ بهدوئها، وعدم حذف أي شيء من الوقائع التي حدثت. قالت:

- لقد اعتقلوه.

فامتقع وجه نيقولاي وقال:

- أحقاً؟

أوقفته الأم بإشارة منها، وتابعت كما لو كانت تقف أمام العدالة نفسها محتجة على ذلك التعذيب الذي شاهدته مصوباً على كائن بشري، فشحب وجه نيقولاي، واستلقى على كرسيه وعض شفتيه، ثم خلع نظارته

بيطء ووضعها على المائدة، ومسح يده على وجهه، كأنه يزيل عنه شبكة عنكبوت غير مرئية.

احتدت ملامحه فجأة، فبرز عظم وجنتيه، وارتعش خيشوماه. لم تره الأم مثل ذلك قط، فأخافها ذلك!

ولما انتهت، نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقد دفع قبضتيه عميقًا في جيبه، فغمغم من خلال أسنانه المطبقة:

- لا بد أنه شخص عظيم، لسوف يكون بائسًا في السجن، فالناس الذين على شاكلته يجدونه قاسيًا.

استمر يضغط على قبضته إلى أسفل ليهدئ أعصابه، ولكن كانت الأم قد لاحظت هياجه، فقاسمته ذلك. ضيق من فرجة عينيه حتى أصبحت أشبه بحد الخنجر.

وعندما أخذ يتكلم كان يفعل ذلك بغضب بارد، وهو ما زال يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

- تصوري فظاعة ذلك! حفنة من الأفراد الحمقى يضربون أي فرد يشاؤون، ويقتلونه من أجل الاحتفاظ بسيطرتهم على الشعب. إن الهمجية في ازدياد، والقسوة تصبح قانون الأرض! فكري في ذلك فقط! إن بعضهم يهيج كالوحوش الضارية لأنهم يدركون أنهم فوق القانون، إنهم مرضى بعطش دنيء إلى التعذيب... هذا الداء الكريه يغني العبيد عن إطلاق العنان لأهوائهم العبودية وغرائزهم الحيوانية، وآخرون قد تسمموا برغبة الانتقام وثمة آخرون أيضًا قد صمت آذانهم، وتوحشت نفوسهم لكثرة ما نالوا من جلد. لقد فسد الناس، جميع الناس!

توقف عن الكلام وأطبق أسنانه.

- المرء يصبح متوحشاً رغم أنفه في هذه الحياة المتوحشة!

تغلب على شعوره ذاك في جهد عظيم، واستدار إلى الأم الباكية في هدوء تقريباً وفي عينيه بريق ثابت، وقال:

- علينا أن لا نضيع أي وقت يا نيلوفثا! علينا أن نملك زمام أنفسنا بأيدينا يا عزيزتي!

وسعى إليها وعلى ثغره ابتسامة حزينة، وضغط على يدها قائلاً:

- أين حقيبتك؟

- في المطبخ.

- ثمة جواسيس يرابطون على بوابتنا، فلن نستطيع أن نخرج من الدار شيئاً كثيراً من غير أن نلاحظ، ولا يوجد مكان نخفي فيه تلك الأشياء، فإني أتوقع أن يقوموا بتفتيش آخر هذه الليلة، ولذلك لا بد لنا، مهما يكن من مدعاة للأسف، أن نحرق كل شيء.

فسألت الأم:

- تحرق ماذا؟

- كل شيء في حقيبتك!

فهتت الأم فجأة ما يدور بخلد، فلم تستطع رغم كآبتها كبح جماح ابتسامة اعتزاز. قالت:

- لا يوجد ثمة شيء... ولا كراس واحد!

وأخبرته بما حدث، فعادت قوتها إليها، وهي تتكلم بالتدريج!
عبس نيقولاى قلقاً بادئ الأمر، ولكن سرعان ما حلت سيماء من
الدهشة بدل العبوس، وأخيراً قاطعها في انفعال:
- ولكن هذا رائع! أي حظ تملكين!
وأمسك بيدها قائلاً:

- إن إيمانك بالشعب لمؤثر حقاً، وإني أحبك كما لو كنت ... كما
لو كنت أُمي بعينها!
فابتسمت وهي تراقبه متعجبة من انقلابه هكذا نشيطاً ومنتعشاً لهذه
الدرجة.

قال وهو يفرك يديه ضاحكاً:

- إن الأمور بهية كما يبدو، فقد قضيت وقتاً طيباً في هذه الأيام القليلة
الآخيرة، أقرأ وأتحدث للعمال، وأراقبهم، إنهم وهم يتركونك دائماً
بإحساس طاهر نقي. إنهم لرائعون يا نيلوفنا! أعني شباب العمال، إنهم
أقوياء شديداً والحساسية وذوو شغف للتعليم! وعندما ننظرين إليهم لا
تملكين إلا أن تحسي بأن روسيا ستصبح ذات يوم أكثر البلدان ديمقراطية
في العالم!

وصمت، ثم رفع إحدى يديه كما لو كان يقسم قائلاً:

- ولكنني أصبحت بليداً، فقد قضيت هنا سنة كاملة تقريباً، وأنا
أجلس بين الكتب والأرقام. إنه لشيء مرعب! إني معتاد على العيش بين
العمال، وأحس الآن أنني لست في المكان الملائم لي. ففي أي مكان آخر

أكون متوترًا بعض الشيء وتحت كابوس ثقيل. أما الآن فلسوف أعيش كرجل طليق مرة أخرى. سأكون معهم طيلة الوقت، وسأعمل معهم. هل تفهمين؟ سأكون في مهد أفكار جديدة، في طاقة فتية خلاقة. إن ذلك لبسيط رائع بصورة مذهشة، إنه يبعث في الإنسان القوة والشباب، إنه لأسلوب في الحياة كثير الثراء يا نيلوفنا!

وضحك في سعادة متملکًا وعيه، فأدرکت الأم فرحته وشاطرته إياها. وهتف نيقولا ي:

- وأنت؟ وأنت أيضًا شخص رائع! ما أكثر الحيوية التي تصفين بها الناس، وما أكثر ما تجيدين فهمهم.

ثم جلس إلى جوار الأم، وقد أدار وجهه المتألق جانبًا بادئ الأمر، وراح يسرح شعره بيده؛ ليخفي ارتبأكه، ولكنه استدار بعدئذ إليها وهي تعطيه تقريرًا بسيطًا وحيًا عن تجاربها، وهتف قائلاً:

- يا له من حظ سعيد! كان ثمة إمكانية كبرى كي تعتقلي بسهولة، ولكن بدلاً... أجل يبدو أن الفلاحين يستيقظون، وهذا أمر طبيعي لا غير. تلك المرأة... أستطيع رؤيتها بوضوح... نحن بحاجة إلى إرسال أناس خاصين ليتعلموا في القرية. أناس؟ ليس لدينا الكفاية تقريبًا! إننا بحاجة إلى مئات!

فقالَت الأم في رقة:

- آه لو كان بافل طليقًا، وأندري أيضًا!

نظر إليها، ثم أطرق يبصره قائلاً:

- قد يكون قاسياً عليك أن تسمعيني أقولها يا نيلوفثا، ولكنني أعرف
بافل جيداً، إنه لن يختار الهروب من السجن أبداً. إنه بحاجة إلى تلك
المحاكمة، إنه بحاجة إلى فرصة يظهر فيها نفسه، وهو لن يرفض مثل هذه
الفرصة أبداً. ولماذا يرفض؟ سوف يهرب من سيبيريا!

فقالت وهي تتنهد:

- حسناً، أعتقد أنه يعرف ذلك أفضل!

ثم قال نيقولا ي بعد لحظة وهو يرمقها من خلال نظارته:

- أود أن يأتي فلاحك ذاك سريعاً ليزورنا. يجب أن نكتب منشوراً
عن رييين للفلاحين، فذلك لن يؤذيه أبداً، ما دام هو نفسه قد أعلن عن
كل شيء. سأكتبه اليوم وستقوم لودميلا بطبعه في الحال، ولكن كيف
ستصلهم المنشورات؟

- سأخذها أنا!

فهتف نيقولا ي في عجل:

- لا، شكرًا لك. ولكن ألا يستطيع فيزوفشيكوف أن يفعل ذلك؟

- قد أحدثه عن ذلك.

- حديثه، وعلميه كيف.

- ولكن ماذا سأفعل أنا؟

- أوه، سنجد لك عملاً.

وجلس إلى مكتبه، فاسترقت النظر إليه وهي تنظف المائدة، ولاحظت

أن الريشة تهتز بين أصابعه، وكانت عضلات عنقه تختلج أحياناً، وعندما ألقى برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه، كان باستطاعتها أن ترى رعشة ذقنه فأقلقها ذلك.

قال أخيراً وهو ينهض:

- إنه جاهز، خذي هذه الورقة واخفيها في مكان ما من ثيابك...
ولكن إذا جاء الجنود فسيفتشوك أنت أيضاً!

فأجابت في هدوء:

- يمكنهم أن يذهبوا إلى الشيطان!

وجاء الطبيب إيثان دانيلو فيتش ذلك المساء، سأل وهو يذرع الغرفة في خطى سريعة:

- ما الذي أقلق السلطات على حين غرة؟ لقد فتشوا سبعة منازل في الليلة الماضية. أين مريضتي؟

فأجاب نيقولا:

- لقاد غادر البارحة. فاليوم هو السبت، ولا يستطيع التخلف عن حلقاته الدراسية.

- ذلك جنون... أن يجلس المرء في حلقة دراسية وهو مكسور
الجمجمة!

- لقد بذلت قصارى جهدي لإقناعه، ولكنني لم أستطع.

فقالت الأم:

- يمكنكم أن تتأكدوا من أنه يريد أن يظهر نفسه، انظروا إليّ... لقد جرح الآن فقط!

رماها الطبيب بنظرة عجلى وعبس في سخرية وقال:

- أي مخلوقة قاسية القلب أنت؟

- حسنًا يا إيثان، ليس ثمة داع لإبقائك هنا، ونحن ننتظر ضيوفًا...
اخرج! أعطه المنشور يا نيلوفنا.

فهتف الطبيب قائلاً:

- منشور آخر!

- أجل، خذه وأعطيه للمطبعة.

- لقد أخذته وسأعطيه. هل من شيء آخر؟

- لا شيء، هناك جاسوس يقف على البوابة.

- لقد رأيته. وثمة واحد آخر على بابنا أيضًا. حسنًا، إلى اللقاء، إلى اللقاء أيتها المرأة القاسية القلب! وبالمناسبة أيها الأصدقاء، إن القتال في المقبرة قد انقلب إلى أمر حسن رغم كل شيء، فالمدينة بأسرها تتحدث عنه، والمنشور الذي كتبتموه رائع حقًا، وجاء في الوقت المناسب تمامًا. إن رأيي على الدوام أن معركة جيدة لأفضل من سلام لا خير فيه!

- حسنًا، اخرج من هنا!

- لن تقول إنك مضيف. يدك يا نيلوفنا. ذلك الصبي قد ارتكب عملاً أحمق حقًا. هل تعرفين أين يقطن؟

فأعطاه نيقولاى العنوان:

- سأذهب لأراه في الغد. إنه فتى طيب، أليس كذلك؟
- جدًا.

فقال الطبيب وهو في طريقه إلى خارج المنزل:

- علينا أن نعتني به، فلديه عقل جيد فوق كتفيه، إن شابًا مثله هم الذين يجب أن يكونوا «الانتلجنسيا»^(١) العمالية لتأخذ مكاننا عندما نغادر إلى تلك الشطآن، حيث فيما أعتقد لا يوجد فروق طبقية.

- لقد أمسيت كثير الثرثرة في هذه الأيام الأخيرة يا إيفان!
- ذلك لأن معنوياتي مرتفعة، وهكذا، فأنت تتوقع الذهاب إلى السجن؟ أتمنى لك راحة طيبة!
- شكرًا، ولكنني لست تعبًا.

وسرت الأم لاهتمامهم بأمر هذا الصبي من الطبقة العاملة.

جلست هي ونيقولاى للعشاء، بعد أن غادر الطبيب، وراحا يتحدثان في هدوء بانتظار زوارهما في الليل، حدثها نيقولاى عن كل شيء... عن رفاقه في المنفى، وعن أولئك الذين هربوا وتابعوا العمل تحت أسماء مستعارة، وكانت الجدران العارية تردد كلماته، فكان أقاصيصه عن أولئك الأبطال المتواضعين، الذين يضحون بأنفسهم من أجل بناء عالم جديد لا يمكن تصورها الآن. عانق الأم ظل رقيق، عانقها بهيام، فامتلاً قلبها بحب لأولئك الناس المجهولين، الذين انصهروا في مخيلتها في

(١) الانتلجنسيا: الفئة المثقفة - المعربان.

فرد واحد عظيم كان يتحرك إلى الأمام في بطء، ولكن في ثبات مزيحًا قشرة القرن القديمة المصنوعة من الأكاذيب؛ لكي يتمكن الناس من رؤية حقيقة الحياة الواضحة البسيطة. كانت هذه الحقيقة الكبرى المتولدة أبدًا دون انقطاع تدعو الجميع دون تمييز، وتعد كلاً منهم بالتححرر من الجشع والحقْد والخداع... تلك الوحوش الثلاثة التي ترعب العالم وتستعبده. كانت تلك الصورة تثير فيها شعورًا يشبه ذلك الشعور الذي تحس به عندما كانت تجثو أمام الأيقونة في نهاية يوم خالته أقل تبعًا من الأيام الأخرى. أما الآن فقد نسيت تلك الأيام، غير أن الإحساس الذي كانت تثيره قد اتسع وانتشر وأصبح أكثر لمعانًا وفرحة يستقر أعماق فأعماق في روحها ويزهر كشيء حي.

وفجأة هتف نيقولاى:

- الجنود!

فأجابت الأم وهي تلقي عليه نظرة عجلَى:

- يمكنهم أن يذهبوا إلى الشيطان، كما قلت لك!

- يمكنهم. ولكن آن لك أن تذهبي إلى فراشك يا نيلوفنا. لا بد أنك

متعبة جدًا... أي بنية قوية تملكين! كل هذا الخطر والانفعال وأنت راضية.

ولكن شعرك الآن يبيض. حسنًا، اذهبي وتمتعي بقليل من النوم!

- ٢٠ -

أيقظ الأم قرع شديد على باب المطبخ، وأيًا كان القارع، فقد كان

يقرع بإصرار ومثابرة. كان الظلام لا يزال مخيمًا، وثمة شيء مفزع في القرع العنيد، فألقت الأم شيئًا على كتفها بسرعة وذهبت إلى المطبخ، وتوقفت عند الباب وسألت:

- من هناك؟

فأجاب الصوت الغريب:

- أنا؟

- من أنت؟

وتضرع الشخص الغريب بصوت خافت:

- افتحي الباب.

رفعت الأم المزلاج وفتحت الباب بقدمها، فدخل أجناد وهتف في فرح:

- إذن لم أخطئ!

كان يعلوه الوحل حتى خاصرته، ووجهه رماديًا، وعيناه غائرتين، وشعره الأجعد متدل من جميع الجهات من تحت قبعته، وما إن أغلق الباب حتى همس:

- إننا في إشكال.

- إنني أعرف!

تعجب الفتى لدى سماع ذلك، فسألها مضيقًا عينيه:

- كيف تعرفين؟

شرحت له الأمر شرحًا مقتضبًا، وسألته:

- هل اعتقلوا الشخصين الآخرين، رفيقك؟

- كانا متغييبين، لقد استدعيا للجندية فذهبا، ولكنهم اعتقلوا خمسة،
بما فيهم العم ميخائيلو.

وأخذ نفسًا عميقًا وأضاف بعد ضحكة مقتضبة:

- أنا الوحيد الباقي. لا بد أنهم يبحثون عني.

فسألته الأم:

- وكيف استطعت الهرب؟

انفرج الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة فرجًا صغيرًا، فهتف أجنات
وهو يجلس على مقعد وينظر حوله:

- أنا، قبل قدومهم بدقيقة أو دقيقتين، هرع الرجل الذي يعمل في
الغابة، وقرع نافذتنا وقال: تنبهوا أيها الرجال، إنهم في إثركم!

وضحك بهدوء، ومسح وجهه بقميصه، وأضاف يقول:

- حسنًا، ولم يستطع أي شيء أن يزحزح العم ميخائيلو، بل قال لي:
«أجنات، اذهب إلى المدينة سريعًا، أتذكر المرأة العجوز؟» وكتب لي
رسالة وهو يكلمني، ثم قال: «هاك، خذ هذه الرسالة لها»، فزحفت على
الأعشاب وسمعتهم بكل تأكيد قادمين. كانوا كثيري العدد يزحفون من
جميع الجهات، يا لهم من شياطين! وأحاطوا بمكان عملنا، فانبطحت بين
الأعشاب فمروا من جانبي، ثم نهضت وأخذت أسير إلى هنا باذلاً كل
جهدي. لقد قضيت في الطريق ليلتين ويوم دون توقف.

كانت ترى في وجهه أنه مسرور من نفسه. كانت هناك ابتسامة تمن
في عينيه البنيتين، وشفته الحمراء وان ترتجفان باستمرار.

فقال له وهي تقترب من الساموئيل:

- ساعد لك شيئاً بعد دقيقة.

- هاك الرسالة.

رفع قدمه بصعوبة متأوهاً متجهماً من الألم وهو يضعها على المقعد،
وبدا يقولاي في الباب، فقال مضيقاً عينيه:

- مساء الخير أيها الرفيق، دعني أساعدك.

وانحنى إلى الأمام، وأخذ يفك الخرق القذرة الملفوفة حول قدم
أجنات، فهتف الفتى ساحباً قدمه بعيداً وناظراً إلى الأم في دهشة:

- لا تفعل ذلك.

فقال متجاهلة نظرتة:

- يتعين علينا أن نفرك قدميه بالكحول!

فأجاب يقولاي:

- بالطبع!

زفر أجنات مرتبكاً.

أخذ يقولاي الرسالة فسوى الورقة الرمادية المتجعدة، وأمسكها
بالقرب من عينيه، وأخذ يقرأها:

«لا تتخلي عن عملنا أيتها الأم، وقولوا لتلك المرأة الطويلة التي

تنتمي إلى طبقة النبلاء، ألا تنسى أن تكتب أكثر من أي وقت مضى عن قضيتنا. الوداع. ريبين».

وتدلت يد نيقولاى التي تحمل الرسالة، وغمغم:

- شيء غير عادي!

جلس أجنات يراقبهما وينظف بحذر أصابع قدميه، وحاولت الأم أن تخفي الدموع التي تجمعت في عينيها وهي تحمل حوض ماء إلى أجنات وترقع أمامه ثم تتناول قدمه، فصاح في فزع وهو يسحب قدمه ويخفيها تحت الموقد:

- يجب ألا تفعل هذا!

- أعطني قدمك وأسرع في ذلك!

فقال نيقولاى:

- سأحضر بعض الكحول.

أخفى الفتى قدمه أكثر فأكثر تحت المقعد وغمغم:

- ما هذا؟ أهو مستشفى؟

وأخذت الأم تفك الخرق عن قدمه الأخرى، واستنشقت أجنات الهواء بصوت عال، وأخذ يلوي رقبته وهو ينظر إلى الأم التي قالت بصوت مرتجف:

- لقد ضربوا ميخائيلو إيثانوفيتش.

فهتف الفتى في هدوء:

- هل ضربوه حقاً؟

- نعم. لقد كان في حالة سيئة عندما أحضروه إلى نيكولسكوي،
وهناك صفعه الجاويش ومدير البوليس ورفسائه حتى أصبح كل جسده
دامياً!

فقال الفتى مقطباً:

- إنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك!

وهز كتفيه ثم أضاف:

- إنني أخاف منهم أكثر مما أخاف من ألف شيطان. وهل ضربه
الموجيك أيضاً؟

- لقد ضربه واحد منهم عندما أمره مدير الشرطة أن يفعل ذلك... أما
الآخرين فكانوا على أحسن ما يرام حتى إنهم انحازوا إليه وصاحوا بأن
ليس للبوليس أي حق في ضربه.

- هم... لقد بدأ الموجيك يدركون مَنْ بجانب مَنْ، ولم.

- يوجد بينهم أناس عاقلون أيضاً.

- هناك أناس عاقلون في كل مكان، إن الحاجة هي التي تدفعهم إلى
الحالة التي هم عليها. إنهم طيبون هناك، ولكن من الصعب العثور على
الطيبين.

أحضر نيقولاى زجاجة كحول ووضع بعض الفحم في الساموفار،
ثم خرج دون أن يتكلم. راقبه أجناد في صمت، وسأل الأم بعد أن خرج
نيقولاى:

- من الطبيب؟
- لا يوجد أطباء هنا! كلنا رفاق.
- فقال أجنات مبتسمًا:
- يبدو لي أن الأمر مضحكًا!
- وعبرت ابتسامته عن الشك والارتباك.
- ما الذي يبدو مضحكًا؟
- كل شيء عمومًا. ففي أحد الجوانب... يدمون لك أنفك، وفي الجانب الآخر يغسلون لك قدميك. ما الذي في الوسط؟
- ففتح نيقولاى الباب وقال:
- في الوسط أناس يلحقون أيدي الذين يدمون أنفك، ويمصون دماء أولئك الذين تُدَمَّى أنوفهم. ذلك الذي في الوسط!
- إن هذا يقارب الحقيقة على ما أعتقد.
- نهض الفتى وخطا عدة خطوات حازمة ثم قال:
- كأنهما قدمين جديدتين. شكرًا.
- وذهبوا إلى غرفة الطعام لتناول الشاي، وتحدث لهما أجنات عن حياته بصوت عميق وقور:
- كنت أقوم بتوزيع صحيفتنا... إنني جلدٌ أتحمّل السير!
- فسأله نيقولاى:
- هل هناك عدد كبير من الناس يقرؤونها في الريف؟

- كل من يستطيع القراءة، حتى وإن كانوا أغنياء. بالطبع لا يأخذ الأغنياء الصحيفة منا. إنهم أذكىاء يعرفون أن الفلاحين على استعداد لإراقة دماء أصحاب الأرض ليسحبوا الأرض من تحت أقدامهم. وعندما يتم ذلك سيقسمون كل شيء حتى لا يبقى بعد ذلك أصحاب أرض وعمال. إن ذلك واضح. إذن فلماذا يبدأ القتال؟

بدا غاضبًا، ونظر إلى نيقولاوي مستفسرًا تعتريه الشكوك، فابتسم نيقولاوي ولم ينبس ببنت شفة، واستطرد أجناد يقول:

- إذا قاتلنا العالم أجمع اليوم وانتصرنا، ثم بقي غداً أغنياء وفقراء، فما جدوى ذلك؟ كلا، شكرًا لك! إنك لا تستطيع الضحك منا... إن الأغنياء كالرمل الجاف، إنهم لا يبقون في مكان واحد، بل يتعيشون في كل الاتجاهات. أوه! كلا لن نقبل ذلك!

فضحكت الأم وقالت:

- حسنًا، لا تفقد أعصابك.

وقال نيقولاوي مفكرًا:

- إن الأمر الذي يؤرقني هو، كيف نستطيع أن نوصل المنشور عن اعتقال ريبين إلى جماعتك بأسرع وقت؟

أصاخ الفتى بأذنيه ثم سأل:

- هل يوجد منشور كهذا؟

- نعم!

فقال الفتى فارغًا يديه:

- أعطنيه!

فضحكت الأم بهدوء، ثم قالت دون أن تنظر إليه:

- ولكنك متعب، وقلت إنك خائف!

فقال بلهفة عملية وهو يسوي شعره الأجدع براحة يده:

- إن الخوف شيء، والعمل شيء آخر. لم تضحكين؟ إنك امرأة طيبة
أيضاً.

فهتفت الأم، محاولة أن تخفي الفرح الذي أثاره في نفسها:

- إنك طفل ساذج!

فغمغم غاضباً:

- هم... هم.... طفل!

قال نيقولاوي وهو ينظر إليه بطرف عينه بلطف:

- يجب أن لا تعود أنت إلى هناك.

فسأل أجنات ساخطاً:

- لِمَ، وإلى أين أذهب إذن؟

- سيأخذ المنشورات شخص آخر، وما عليك إلا أن تعطيه تعليمات

مفصلة عما يجب أن يعمل، وكيف. هلا فعلت ذلك؟

فقال أجنات في لهجة عدم رضى:

- حسناً!

- سنعطيك جواز سفر جديد، ونجد لك عملاً كحارس غابة!

رفع الفتى بصره بسرعة، وقال في انزعاج:

- ماذا سأفعل إذا أتى الموجيك لسرقة الحطب، أأمسكهم؟ إن هذا العمل لا يلائمني.

ضحكت الأم، وضحك نيقولاوي كذلك. فتألم الفتى وشعر باضطراب، فقال له نيقولاوي مطيئاً خاطره:

- لن تحتاج إلى إلقاء القبض على الموجيك. لا تقلق لذلك.

قال أجنات مبتسمًا في ارتياح:

- إن ذلك طيب، ولكنني أود العمل في مصنع، إنهم يقولون إن عمال المصانع أذكىء للغاية!

نهضت الأم وذهبت إلى النافذة وقالت حاملة:

- إن الحياة شيء مضحك، يضحك الإنسان خمس مرات في اليوم، ويبكي خمس مرات أخرى. حسنًا! هل انتهيت يا أجنات، لقد حان الوقت لتصيب شيئًا من النوم.

- لست نعسانًا.

- هيا بنا، هيا بنا.

- إنك قاسية جدًا، أليس كذلك؟ حسنًا! إنني قادم، شكرًا للشاي... ولعطفك!

وما إن آوى إلى فراش الأم حتى حك رأسه وغمغم لنفسه:

- ستعلق بكل هذه الأشياء رائحة القطران الآن... لا جدوى من كل

هذه الجلبة... إنني لست نعساناً... ما أسرع ما كان بشأن هؤلاء الذين في
الوسط، أولئك الشياطين!

واستغرق في النوم قبل أن يدرك، وأخذ يشخر بصوت عال، وفمه
نصف مقفل وحاجباه مرتفعان.

- ٢١ -

كان يجلس في تلك الأمسية قبالة فيزوفشيكوف في غرفة صغيرة من
الطبقة الدنيا من البناء يقول بغموض:

- أربع مرات على النافذة الوسطى...

فسأل نيقولاوي بلهفة:

- أربع؟

قال وهو يقرع المائدة بأصابعه:

- أولاً ثلاثة... هكذا:

ونقر على المائدة بأصابعه قائلاً:

- واحد، اثنين، ثلاثة، ثم انتظر وبعدها واحد.

- فهمت!

- وسيفتح لك موجيك، أحمر الشعر، الباب ويسألك: «هل أتيت في

طلب القابلة؟» فتقول: «أجل، من أجل زوجة صاحب المصنع!»، هذا كل

شيء وسيفهم هو.

وجلسا متلاصقي الرأس، وكليهما: قوي، حسن البنية، يتحدثان في صوت خفيض، بينما وقفت الأم تراقبهما مكتوفة الذراعين، وراق للأم الطرقات الغامضة وكلمات السر، ففكرت في نفسها:

- إنهم لا يكبرون الأطفال بكثير.

وأضاء مصباح على الحائط بعض الدلاء المهشمة وأجزاء صغيرة من الحديد ملقاة على الأرض، وكانت رائحة الصدأ والدهان والرطوبة تعبق جو الغرفة.

كان أجنات يرتدي معطفًا ثقيلًا مصنوع من قماش خشن يبدو أنه يروقه، ورأته الأم تربت على كفه في رقة، ويلوي رقبته ليرى كتفيه، ففكرت:

- أطفال... أطفال مباركون.

قال أجنات ناهضًا:

- هذا كل شيء. لا تنس أن تذهب أولاً إلى موراتوف وتسأل عن الجد.

فأجاب فيزوفشيكوف قائلاً:

- لن أنسى!

ولكن ذلك لم يرض أجنات، فأعاد تفسير القرع والإشارات وكلمات السر، قبل أن يمد يده محيياً قائلاً:

- بلغهم تحياتي. سترى أنهم جماعة طيبة، أولئك الناس.

وخفض بصره ونظر إلى معطفه ولمسه موافقاً، ثم سأل الأم:

- أحان الوقت لكي أذهب؟

- هل ستجد الطريق؟

- بالتأكيد، الوداع أيها الرفاق.

ومضى مستقيم الكتفين، رافع الصدر، وقبعته الجديدة تميل على إحدى أذنيه، ويديه مدسوستان بشجاعة في جيب سرواله، وتدلّت خصلات من الشعر الأشقر الأجدع على صدغيه.

قال فيزوفشيكوف مقترباً من الأم بهدوء:

- إذن لقد عهد إليّ بعمل أيضاً، فقد بدأ الضجر يتتابني، وأخذت أفكر لم هربت من السجن، فأنا لا أقوم بعمل هنا سوى الاختباء ليل نهار، بينما كنت أتعلم أشياء هناك. فقد دفعنا باثلاً إلى استخدام عقولنا. ما الذي تم تقريره بشأن هربهم يا نيلوفنا؟

قالت متنهدة لا شعورياً:

- لست أدري!

وضع نيقولا يداً ثقيلة على كتفها، ومال عليها وقال:

- ما عليك إلا إقناعهم بذلك، سيصغون لك، فليس هناك أسهل من ذلك. انظري، ها هو حائط السجن، وبجانبه مصباح في الشارع، ويوجد عبر الشارع فضاء... فعلى الشمال توجد المقبرة، وعلى اليمين شوارع وعمارات. وفي كل يوم يأتي عامل لتنظيف المصباح، فيضع سلماً بجانب الحائط، ويتسلقه، ثم يثبت سلماً من الحبال في أعلى الحائط ثم يلقي به إلى ساحة السجن... هاك! وفي داخل السجن يعرفون متى يحدث

ذلك فيقنعون المجرمين بإثارة شغب، أو يقومون به بأنفسهم، فينهمك الحراس، بينما يقوم الفارين بتسلق السلم. واحد... اثنين... ثلاثة، وينتهي كل شيء. إن الأمر بسيط هكذا!

كان يشير بيديه وهو يشرح خطته التي بدت واضحة وبسيطة ومحكمة التدبير. لقد كانت تجده دائماً أبله، بطيء التفكير، تنظر عيناه إلى كل شيء في رغبة سيئة وشك، ولكنهما بدتا الآن عينين مختلفتين... كانتا تشعان بنور دافئ وهو يحاول إقناعها.

- هذه هي النقطة... سيقومون بها في النهار... في النهار لاحظي! من ذا الذي يشك في أن سجيناً يحاول الهرب في وضح النهار، عندما يكون السجن بأجمعه على قدم وساق؟

فسألته الأم مرتعشة:

- أليس ممكناً أن يطلقوا النار؟

- من؟ لا يوجد هناك جنود، والحراس يستخدمون مسدساتهم في دق المسامير فقط.

- إنها تبدو سهلة للغاية.

- ولكنك سترين. عليك إقناعهم. لقد أعددت كل شيء... سلم الحبال والسنارة للجبل، وصاحب البيت الذي أسكن فيه سيكون العامل الذي ينظف المصباح!

سعل شخص ما خلف الباب وحرك قدميه، وسمعت خشخشة قطع من المعدن.

فقال نيقولاي:

- ذلك هو!

وبدا في الباب حوض استحمام من الصفيح وغمغم صوت أجش:

- ادخل من هنا أيها الشيطان العجوز!

ولمحا فوق الحوض وجهًا بآشًا، ذا عيين جاحظتين وشعر أبيض،
وشارب.

ساعده نيقولاي في حمل الحوض، ودخل الغرفة رجل طويل، انتفخ
خديه الحليقين في سعال حاد، ثم بصق، وحيا الضيوف بصوت أجش:

- كيف حالكم؟

فهتف نيقولاي:

- هيا اسأليه.

- عم؟

- عن خطة الهرب.

قال الحداد، وهو يمسح شاربه بأصابع قدرة:

- آه!

- إنها لا تستطيع أن تصدق أنها بهذه السهولة يا كوف فاسيليثتش!

قال الحداد بهدوء:

- ألا تستطيع! ألا تستطيع؟ على ما أعتقد أنها لا تريد! أما أنت وأنا،

فإننا نريد، ولهذا نصدق!

وانحنى فجأة، وقد انتابته نوبة سعال، وبعد أن انقضت النوبة وقف في منتصف الغرفة لفترة ما يفرك صدره ويتفحص الأم بعينين جاحظتين.

فقالت الأم:

- إن باثل ورفاقه سيبتون في هذا الأمر.

خفض نيقولا ي رأسه، وسأل الحداد جالسًا:

- من هو باثل؟

- ابني!

- ما اسمه الأخير؟

- فلاسوف.

فهز رأسه بالإيجاب، وأخرج كيس تبغه وأخذ يملأ غليونيه وقال:

- لقد سمعت به، لا بل ابن أخي يعرفه... ابن أخي في السجن أيضًا... إنه يدعى يفشنكو، هل سمعت به؟ اسمي جوبون. سيضعون كل الشباب خلف القضبان عما قريب... وبهذا يفسحون لنا المجال أكثر نحن الكبار! لقد قال لي أحد رجال البوليس إنهم سيرسلون ابن أخي إلى سيبيريا. إنهم قادرون على ذلك... أولئك الكلاب!

وأخذ يدخن غليونيه باصقًا على الأرض باستمرار، ثم استدار إلى نيقولا ي وقال مازحًا:

- إذن فهي لا تريد؟ إن ذلك من شأنها. عندما يكون المرء حرًا طليقًا، في وسعه أن يشرع في السير إذا ما تعب من الجلوس، أو يأخذ في الجلوس إذا ما تعب من السير. إذا نهبوك فاقفل عينيك، وإذا ضربوك

لا تبك ولا تصرخ، أما إذا قتلوك فستكون تلك آخرتك، الكل يعرف ذلك.
ولكنني سأخرج ابن أخي من هناك. كن متأكدًا من ذلك.

ذهلت الأم للطريقة التي فاه بها جملته، وغبطته على الإيمان الذي قال
به الكلمات الأخيرة.

وأخذت تفكر في نيقولاوي وهي تهبط الشارع، فيلطم الريح والمطر
وجهها:

- كم تغير! إن ذلك أمر لا يمكن تصديقه!

وعندما تذكرت الحداد، غمغت كأنها تصلي:

- إذن فأنت ترى أنني لست الوحيدة التي اتبعت طريقًا جديدًا في
الحياة!

ثم تحولت أفكارها إلى ابنها، وفكرت:

- لو أنه يوافق!

- ٢٢ -

بينما هي تودع بافل، في مكتب السجن في الأحد التالي، شعرت به
يدفع كرة صغيرة من الورق في راحتها، فانتفضت، كأن الورقة لسعت
يدها، ونظرت إلى وجهه متسائلة، ولكنها لم تجد فيه أي جواب. كانت
عينا بافل تشعان بابتسامتهما المعتادة الهادئة المصممة، فقالت متنهدة:

- الوداع!

ومد يده إليها ثانية، ومررت سحابة من الحنان على وجهه، وقال:

- الوداع يا أماء!

فانتظرت متعلقة بيده، قال:

- لا تقلقي، ولا تكوني غاضبة!

كانت هذه الكلمات، والخط العنيد بين حاجبيه، هما جوابها.

فغمغمت خافضة رأسها:

- يا أله! ... ما الذي تقوله؟

وهرعت خارجة دون أن تلقي نظرة أخرى عليه؛ كي لا يرى الدموع في عينيها، وارتجاف شفيتها. طوال الطريق إلى البيت كان يبدو أن يدها التي تحمل الورقة تؤلمها، وتدلى ذراعها ثقيلًا كأنها تلقت ضربة على كتفها، وسلمت، لدى وصولها إلى البيت، الرسالة إلى نيقولا، ووقفت تنتظره وهو يلمس الورقة، وفي قلبها بصيص من أمل.

ولكن نيقولا لم يعزز هذا الأمل ويبرره، بل قال:

- كنت أعرف ذلك. هذا هو ما كتبه: «لن نحاول الهرب أيها الرفاق، إننا لا نستطيع... بل لا يستطيع أحد منا ذلك، فإننا سنفقد الاحترام، إذا هربنا. ولكن حاولوا مساعدة الفلاح الذي اعتقل أخيرًا. إنه يحتاج إلى مساعدتكم، ويستحق كل شيء يستطيعون عمله له؛ فهو في حالة سيئة هنا، يتشاجر مع السلطات كل يوم، لقد قضى حتى الآن، أربعًا وعشرين ساعة في الزنزانة، وسيضربونه حتى الموت. إننا جميعًا نطلب منكم مساعدته، عزوا أمي وسلوها، قولوا لها كل شيء، وهي ستفهم!»!

رفعت الأم رأسها، وقالت في صوت مرتجف:

- ماذا هناك لتقولوه؟ لقد فهمت!

أدار نيقولاي سريعاً وجهه جانباً، وأخرج منديله ونظف أنفه، وغمغم
مثبتاً نظارته وهو يذرع الغرفة:

- والحقيقة أنه لما كان عندنا وقت على كل حال.

فقالت الأم عابسة، بينما خيم الحزن على قلبها كسحابة:

- حسناً. دعوه إذن يُحاكم!

- هاك، لقد استلمت الآن رسالة من رفيق في سانت بطرسبرج.

- وعلى كل حال فهو يستطيع الهرب من سيبيريا، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد يستطيع، وقد كتب هذا الرفيق يقول إن المحاكمة
ستجري عما قريب، أما الحكم فقد تقرر، وهو نفيهم جميعاً، لقد حول
هؤلاء اللصوص محاكمهم إلى مهزلة. فكري في ذلك، لقد تقرر الحكم
في سانت بطرسبرج حتى قبل إجراء المحاكمة!

قالت الأم بحزم:

- لا تهتم يا نيقولاي إيفانوفيتش. لا يتعين عليك أن تعزيني أو تفسر
لي. إن بافل سيعمل الشيء الصواب. إنه لن يتألم هو، ولن يحمل رفاقه
على التألم من أجل لا شيء، وهو يحبني أيضاً. في وسعك أن ترى بنفسك
كم يفكر بي، فهو يقول: فسر لها... عزها.

وخفق قلبها بسرعة، وشعرت بدوار، فهتف نيقولاي في صوت عال

غير عادي:

- إن ابنك رائع. إنني لا أستطيع أن أصف لك مدى احترامي له.

فاقترحت الأم قائلة:

- لنفكر في طريقة لمساعدة ريبين!

كانت تريد أن تفعل شيئاً في تلك الدقيقة بالذات... أن تذهب إلى مكان ما، أن تسير حتى تنفذ قواها!

قال نيقولاوي وهو لا يزال يذرع الغرفة:

- حسناً، ولكننا في حاجة إلى ساشا...

- إنها ستأتي. إنها تأتي في كل يوم أذهب فيه لرؤية بافل.

جلس نيقولاوي على الأريكة بجانب الأم، وحنى رأسه مفكراً وعض شفته، ثم برم لحيته وقال:

- مما يؤسف له أن אחتي بعيدة...

- سيكون رائعاً لو تمكنا من تحقيق ذلك وبافل لا يزال هناك... إن ذلك سيسعده!

وصمتا فترة من الوقت، قالت الأم بعدها فجأة:

- ولكنني لا أفهم، لماذا يريد ذلك...؟

وهب نيقولاوي واقفاً، ولكن الجرس دق في تلك اللحظة، فتبادلا نظرة خاطفة، ثم أضاف قائلاً:

- إن تلك ساشا على الأرجح!

فسألته الأم بصوت خافت أيضاً:

- ما الذي سنقول له؟

- هم...!

- إنني آسفة كثيرًا من أجلها!

وتكرر قرع الجرس، ولكن أقل حزمًا في هذه المرة، كأن الشخص
الواقف خلف الباب يتردد في الدخول، فهرع نيقولاوي والأم نحو الباب،
ولكن عندما وصلا للمطبخ تنحى نيقولاوي وقال:

- من الأفضل أن تذهبي وحدك!

سألت الفتاة بشجاعة عندما فتحت الأم الباب:

- هل رفض؟

- أجل!

قالت ساشا ببساطة، وقد شحب وجهها:

- كنت أعرف أنه سيرفض.

وفكت أزرار معطفها، ثم أعادت إقفاله، وحاولت أن تلقيه عن
كتفيها، وقالت:

- ريح ومطر... يا له من جو سيئ. هل هو بخير؟

- نعم.

قالت ساشا ببساطة وهي واقفة تتفحص يدها:

- بخير وسعيد؟

فقالت الأم، دون أن تنظر إلى الفتاة:

- لقد كتب يطلب منا محاولة تدبير فرار ريبين.

قالت الفتاة ببطء:

- هل فعل ذلك؟ إذا فعلنا ذلك فإنني أعتقد أنه يجب علينا أن نستخدم
خطةنا القديمة.

فقال نيقولا، وقد ظهر فجأة في الباب:

- وأنا أعتقد ذلك... أهلاً ساشا!

مدت الفتاة يدها.

- لم لا نفعل ذلك؟ فالكل يقولون إنها خطة طيبة؟!

- ولكن من الذي سينفذها؟ فكلنا مشغولون جداً.

فقالت ساشا بسرعة ناهضة:

- دعوني أنفذها! إن لديّ الوقت!

- حسناً، ولكن عليك أن تتصلي بالآخرين...

- سأفعل ذلك. سأذهب حالاً!

وأخذت تزرر معطفها من جديد، ولكن بحركات ثابتة هذه المرة من
أصابعها النحيلة.

فقالت الأم:

- استريح بعض الشيء أولاً.

فأجابت الفتاة بابتسامة هادئة:

- لست متعبة!

وصافحتها في صمت، وخرجت بيروود وصرامة كعهدھا!
ذهبت الأم ونيقولاي إلى النافذة وراقباھا وهي تعبر الحديقة وتختفي
من الباب. صفر نيقولاي برقة، ثم جلس إلى المائدة، وشرع يكتب. أما
الأم فقد قالت مفكرة:

- ستشعر بتحسن لو وجدت شيئاً يشغلها.

فأجاب نيقولاي:

- بالطبع ستشعر بتحسن!

ثم التفت إليها، تعلق وجهه الرقيق ابتسامة وقال:

- يبدو أنه فاتك أن تتجرعي ذلك الكأس يا نيلوفنا. إنك لم تتألّمي من
أجل الرجل الذي أحبيته، هل تألّمت؟

فقالت الأم وهي تأتي بحركة من يدها:

- بوه!... إن الشيء الوحيد الذي شعرت به، هو الخوف من أنهم
سيزوجونني!

- ألم تشعرين بميل نحو أحد؟

- لا أذكر. أعتقد أنني شعرت، لا بد أنني شعرت بميل نحو شخص
ما، ولكنني لا أذكر. لقد ضربني زوجي ضرباً مبرحاً، بحيث إنه طرد كل
شيء حدث قبل الزواج من رأسي.

أنهت كلامها ببساطة وهي تنظر إليه بكآبة وحزن.

عاد نيقولاي إلى المائدة، وغادرت الأم الغرفة لفترة قصيرة، وعندما

عادت كان غارقاً في الذكريات، فقال لها وهو ينظر إليها في حنان:

- أما أنا فقد مرت بي تجربة كتجربة ساشا... كنت أحب فتاة... فتاة رائعة. كنت في نحو العشرين عندما قابلتها، فأحببتها منذ ذلك الحين. إنني أحبها حتى الآن كما كنت أحبها عند ذاك... بكل قلبي شاكرًا إلى الأبد.

كانت تستطيع الأم، من حيث كانت تقف بجانبه، أن ترى النور الصافي الدافئ الذي يشع من عينيه. لقد أمسك بمسند كرسي أمامه ووضع رأسه على يديه، وجلس ينظر إلى مكان ما بعيدًا جدًا، وجسده اللين القوي يمتد نحو منظر ما، كما تمتد الزهرة نحو الشمس.

فقالت الأم مقترحة:

- ولم لا تتزوجها؟

- لقد تزوجت منذ أربع سنوات!

- ولكن لم لم تتزوجها في بادئ الأمر؟

فكر برهة ثم قال:

- لسبب ما لم يتم ذلك. فعندما كنت طليقًا، كانت هي في السجن أو في المنفى، وعندما كانت هي طليقة كنت أنا في السجن. إن ذلك يبدو كساشا وبافل، أليس كذلك؟ وأخيرًا أرسلوها إلى سيبيريا لمدة عشر سنوات... إلى أبعد المناطق، وكنت أود أن أتبعها، فخرجت وخجلت هي، وهناك التقت بشخص آخر... شخص رائع... أحد رفاقي، فهربا معًا، والآن يعيشان في الخارج.

خلع نيقولاى نظارته ومسحها، ثم وضعها فى النور ومسحها ثانية.

فهمت الأم فى حنان وحب وهى تهز رأسها:

- يا لصديقى المسكين!

شعرت بالأسف من أجله، ولكن شيئاً ما فى منظره جعلها تبتسم فى الوقت ذاته، كما تبتسم الأم لطفلها، وغير مكانه، ثم تناول قلمًا، وجعل يحركه فى تناسق مع كلماته، بعد أن استطرد قائلاً:

- إن الحياة العائلية تستنفد طاقة الرجل الثورى... ليس فى وسعها أن تفعل شيئاً آخر حىال ذلك... الأطفال، وعدم الاستقرار، وضرورة العمل لإطعام العائلة... بينما ينبغى على الثورى أن يضاعف طاقته دائماً، حتى يستطيع توسيع نشاطه، فالأيام تتطلب ذلك. فمن واجبنا دائماً أن نسير فى مقدمة الجميع؛ لأننا نحن العمال الذين اختارهم التاريخ لتحطيم العالم وبناء عالم جديد. فإذا تأخرنا، مستسلمين لإعيائنا، أو لتخدير نصر صغير حققناه، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ يقارب خيانة القضية. ليس هناك من نستطيع أن نسير معه جنباً إلى جنب دون أن نلحق الضرر بقضيتنا، ويجب علينا أن لا ننسى أبداً أن واجبنا ليس تحقيق فوز صغير، بل الانتصار الكامل...

وأصبح صوته أكثر حزماً، ووجهه أكثر شحوباً، وعيناه تشع منهما القوة الهادئة المألوفة.

وقرع الجرس مرة أخرى، وكان القادم هذه المرة لودميلا. كان خذاها حمراوين من البرد، وجسدها يرتجف فى معطف خفيف بالنسبة لهذا الفصل البارد.

قالت في غضب وهي تخلع حذاءها الواقى من المطر:

- ستجري المحاكمة في الأسبوع القادم!

فهتف نيقولاى من الغرفة المجاورة:

- هل أنت متأكدة؟

هرعت الأم إليه، غير متأكدة إن كان الخوف أو الفرح هو الذي يشير تلك الضجة في صدرها، وتبعنها لودميلا تقول وفي صوتها ظل من السخرية:

- نعم إنني متأكدة، وقد اعترفوا بصراحة في المحكمة أن الحكم قد قرر الآن. كيف يعجبك ذلك؟ هل تخاف الحكومة أن يكون موظفوها متهاونين تجاه أعدائها؟ هل تخاف أن يصبح خدامها أناس شرفاء، على الرغم من كل الوقت والجهد اللذين صرفتهما في تسميم أفكارهم؟ وجلست على الأريكة، وفركت خديها النحيلين بيديها، وعبرت عيناها عن ازدراء تام، وأخذت نبرة صوتها تزداد غضباً!

فقال نيقولاى محاولاً التسرية عنها:

- لا تضيعي جهدك يا لودميلا، إنهم لا يستطيعون سماعك كما تعرفين.

أصغت الأم إليها، ولكنها لم تع شيئاً، فقد تسلطت على عقلها فكرة واحدة: «ستجري المحاكمة في الأسبوع القادم».

وشعرت فجأة باقتراب قوة هائلة، فوق قوة البشر!

عاشت الأم في ظل الكآبة والقلق والاضطراب يومًا أو يومين، ثم ظهرت ساشا في اليوم الثالث، فقالت لنيقولاي:

- كل شيء معد... اليوم الساعة الواحدة.

فسأل في تعجب:

- أبهذه السرعة؟!!

- هل تسرعت؟ كان عليّ أن أجد ملابسًا ومكانًا لريبين ليذهب إليه، وقام جوبون بالبقية. سيهرع ريبيّن إلى الزاوية، حيث سيقابله فيز وفشيكوف ويسلمه معطفًا وقبعة ويرشده إلى الطريق، وسأقابله أنا بعد ذلك، فأسلمه ملابس أخرى.

فسأل نيقولاي:

- حسنًا، ولكن من هو جوبون هذا؟

- إنك تعرفه. إن حلقة دراسة الميكانيكيين التي كنت تقودها كانت تجتمع في غرفته.

- أذكر... يا له من رجل عجيب!

قالت ساشا مفكرة، وهي تنظر عبر النافذة:

- إنه جندي متقاعد يعمل الآن حدادًا، ولكنه جاهل للغاية، ومع هذا فهو يحقد حقًا عميقًا على كل أنواع العنف، وهو فيلسوف نوعًا ما.

وتجمع في رأس الأم وهي تستمع إلى ساشا قرار مبهم:

- يود جوبون أن يهرب ابن أخيه... أتذكر يفشكنكو؟ لقد كنت تحبه،
كان دائماً أتيق الهندام.

هز نيقولاي رأسه بالإيجاب، واستطردت ساشا تقول:

- لقد أعد كل الترتيبات، ولكنني بدأت أشك في نجاح المحاولة،
ستتم عندما يخرج المساجين لاستنشاق الهواء، ولكنني أخاف أنه عندما
يرون السلم، سيود عدد كبير منهم استخدامه.

وأغلقت ساشا عينيها وصمتت، واقتربت الأم.

- وسيفسدون المحاولة لبعضهم بعضاً!

كان ثلاثتهم واقفين بجوار النافذة، الأم خلف نيقولاي وساشا، فبعث
حديثهم السريع شعوراً مختلطاً في صدرها، فقالت فجأة:
- سأذهب أنا أيضاً.

سألت ساشا:

- ولم؟

فنصحها نيقولاي قائلاً:

- لا تذهبي يا عزيزتي، قد يحدث لك شيء ما... لا تذهبي.

نظرت الأم إليه، ثم قالت برقة، ولكن بحزم:

- كلا، إنني ذاهبة!

وتبادلا نظرات سريعة، ثم قالت ساشا هازة كتفيها:

- إنني أفهم!

والتفتت إلى الأم ولفت ذراعها حول كتفها، وقالت في بساطة أثرت في الأم:

- ولكن يجب أن تدركي أنه ليس من فائدة في الأمل!

فقالت الأم وهي تدنيها من نفسها بيد ترتعش:

- إنني أعرف يا عزيزتي... ولكن خذيني معك... لن أكون في طريقك! يجب أن أذهب! إنني لا أستطيع أن أصدق أن من الممكن حقاً... الهرب.

قالت ساشا لنيقولاي:

- إنها ذاهبة معنا!

فأجاب نيقولاي خافضاً رأسه:

- كما تقولين...

- ولكن يجب ألا يرانا أحد هنا... ستذهبن أنت إلى بناية المجمع، حيث يمكنك مراقبة حائط السجن من هناك. لكن ما الذي ستقولينه لو استجوبوك؟

قالت الأم في لهفة:

- سأجد ما أقوله!

فحذرتها ساشا قائلة:

- لا تنسي أن حراس السجن يعرفونك! وإذا رأوك هناك...

- لن يروني!

انتعشت الأم من الأمل الذي كان في صدرها فترة من الزمن، ثم التهب الآن حامياً، وفكرت:

- لعله سيهرب هو أيضاً!

وبعد ساعة كانت في المجمع بقرب السجن. كانت ريح عاتية تعصف فتلطم ثوبها، وتنفض على الأرض المتجمدة، وتهز حاجز الحديقة العاجز أثناء مرورها، ثم تندفع بكل قواها تلطم حائط السجن، فتلتقط صيحات الناس من فناء السجن وتقذف بها في دوامة إلى السماء، حيث كانت السحب المتسابقة تتيح بصيصاً سريعاً إلى الأعماق الزرقاء المتوارية خلفها.

وكان خلف الأم الحديقة، وأمامها المقبرة، والسجن إلى يمينها يبعد سبعين قدماً، وبالقرب من المقبرة كان يروض جندي جواداً، بينما كان يقف جندي آخر بالقرب منه يقرع الأرض بقدمه صارخاً ضاحكاً ومصفراً، ولم يكن هناك أي شخص آخر بالقرب من السجن.

فمرت بالقرب منهم متجهة إلى الحاجز الذي يضم المقبرة، تنظر خلفها، وإلى يمينها، وشعرت فجأة بأن ركبتها وهنتا، وبأن قدميها تغوصان في الأرض، فقد ظهر من الزاوية عامل تنظيف المصابيح، يحمل سلماً على أحد كتفيه، مسرعاً كعمال المصابيح، فطرفت عيناها من الخوف، ونظرت إلى الجنديين. كانا يقفان في مكان واحد، بينما راح الجواد يركض حولهما. نظرت إلى الرجل الذي يحمل السلم، فرأته قد وضع السلم على الحائط وراح يتسلقه ببطء، وعندما وصل إلى القمة لَوَّح

بذراعيه، ثم نزل بسرعة واختفى في المنعطف. وخفق قلب الأم بعنف، ومرت الثواني ببطء. كان السلم يكاد يكون مخفياً على حائط السجن الأسود، الملطخ الذي تخلق عنه لونه، حيث انحسر الدهان في بعض أماكن؛ فكشف الطوب من تحته. فجأة ظهر رأس أسود فوق الحائط، ثم جسمًا هبط الحائط وزحف إلى الجانب الآخر، وظهر رأس آخر في قبعة ممزقة، وتدحرجت كرة سوداء على الأرض واختفت وراء المنعطف. نهض ميخائيلو ونظر حوله، ثم هز رأسه..

فهمست الأم وهي تفرع الأرض بقدمها:

- اركض! اركض!

ودوت أصوات في أذنيها، وسمعت صرخات عالية، وظهرت رأس ثالثة فوق الحائط، فأمسكت الأم بصدرها وراقبته بأنفاس متقطعة، لقد اندفع الرأس الأشقر لشاب حليق الذقن ينتزع نفسه انتزاعاً، ثم اختفى في اللحظة ذاتها خلف الحائط. وازداد الصراخ، وأصبح أكثر علواً واضطراباً، وحملت الريح أصوات الصفارات الحادة عبر الهواء. سار ميخائيلو طول الحائط، ومر بالأم، وعبر الفضاء بين السجن وبيوت المدينة. فكرت الأم، لو أنه يسرع في سيره أكثر، ولا يرفع رأسه عاليًا هكذا! فأى شخص سبق أن رأى وجهه مرة، سيتذكره دون شك، فهمست:

- أسرع! أسرع!

وقرع شيء في الجانب الآخر من حائط السجن، وسمعت صوت تحطم زجاج، فوقف أحد الجنديين وقدميه مثبتتان في الأرض، يشد حبل الجواد، بينما رفع الآخر يده إلى فمه وأخذ يصيح في اتجاه السجن،

وعندما انتهى أدار أذنه مع اتجاه الرياح ليلتقط الجواب.

وقفت الأم في انتباه متوتر، تلتفت إلى كل الجهات، وعلى الرغم من أن عينيها رأت كل شيء، إلا أنها لم تصدق أي شيء؛ فالذي كانت تتصوره معقدًا للغاية، ومشحونًا بالخطر، اتضح أنه سريع وبسيط، فغمرتها هذه السرعة وبلدت ذكاءها. اختفى ريبين، وبرز رجل فارغ يرتدي معطفًا طويلًا في أول الشارع، تركض أمامه فتاة صغيرة، وهرع من إحدى زوايا السجن ثلاثة حراس، يسرون بقرب بعضهم بعضًا، وقد مدوا أذرعهم اليمنى، وهرع أحد الجنديين لمقابلتهم، بينما أخذ الثاني يلف حول الجواد، محاولًا أن يقفز إلى ظهره، ولكن الحيوان الجامح قفز في الهواء، فبدأ كأن كل شيء يقفز معه. تكرر صوت الصفارات في تصميم مجنون، فأرغم دويها البائس الأم إلى إدراك الخطر، فارتعشت، وسارت بمحاذاة حاجز المقبرة، دون أن ترفع عينيها عن الحراس، ولكنهم اختفوا مع الجنود في إحدى زوايا السجن الأخرى، وتبعهم بعد ذلك رجل ذو معطف مفتوح، فعرفت فيه مساعد مدير السجن، وظهر على المسرح جنود، وأخذ الناس يتجمعون.

ومرت الرياح في رقصة معقدة، كأنها مسرورة، تحمل إلى أذني الأم صفيراً وصيحات متقطعة واهنة... فجعلتها الضجة مسرورة، وأخذت تحت خطاها، وفكرت:

- كان في وسعه أن يفعل ذلك بالسهولة ذاتها!

وفجأة هرع جنديان من المنعطف، وصاح أحدهم متقطع الأنفاس:

- قفي! هل رأيت رجلًا... له لحية؟

أشارت في اتجاه الحداثق، وقالت في هدوء:

- لقد هرب في اتجاه الحداثق.

وسألت في هدوء:

- لقد هرب إلى هناك، ولكن لِمَ؟

- يجوروث، انفخ صفارتك!

ذهبت الأم إلى البيت، وشعرت بالأسف من أجل شيء ما، يملأ قلبها شعور بالمرارة والأسى، ومرت بها عربة عندما وصلت إلى الشارع، بعد أن عبرت المجمع، فنظرت إلى داخلها، ورأت شاباً ذا شارب أشقر ووجه شاحب متعب، ورآها هو أيضاً، كان يجلس جانباً، ولهذا كان كتفه الأيمن أعلى من كتفه الأيسر.

حيّاهما نيقولاى بانسراح وسألها:

- حسنًا، ماذا حدث؟

- كل شيء حدث على ما يرام.

وقصت عليه قصة الهرب، وهي تحاول أن تتذكر كل التفاصيل، ولكنها كانت تتكلم كأنها تقص قصة سمعتها من شخص آخر، وتشك في صحتها.

قال نيقولاى وهو يفرك يديه:

- إن الحظ معنا، إن الشيطان وحده هو الذي يعرف كم كنت قلقاً أن يحدث لك شيء، اسمعي يا نيلوفنا، وخذي نصيحة صديق، ودعي مخاوفك من المحاكمة، فكل ما اقترب موعدها، كل ما اقترب موعد

إطلاق سراح باثل، فقد يتمكن من الهرب وهو في طريقه إلى المنفى. أما فيما يتعلق بالمحاكمة، فستكون هكذا...

ومضى يصف لها طريقة المحاكمة، وبينما كان يتكلم أدركت أن ثمة شيء هو نفسه يخافه، على الرغم من محاولته التسرية عنها، فسألته فجأة: - هل أنت خائف أن أقول شيئاً في المحكمة يجب ألا أقوله؟ أو أنني سأطلب منهم شيئاً؟

وقفز في الهواء، ولوح بيديه مستعيذاً، وقال في لهجة استياء:

- بالطبع لا!

- إنني خائفة، ولا أنكر ذلك، ولكني لا أعرف ممّ أنا خائفة.

وتوقفت عن الكلام، وتجولت عيناها في الغرفة.

- أخاف في بعض الأحيان أن يحدثوا باثل في فضاظة، فيقولون له أيها الموجيك! يا ابن الموجيك ما الذي تريده؟ باثل ولد يتباهى بنفسه، فسيجيهم، ويكيل لهم، أو أن يعلق أندري بحدة. والآخرين أيضاً رؤوسهم صلبة، وإذا لم يتحملوا ذلك... وحكموا عليهم حكماً آخر... فلن نراهم مرة أخرى!

قطب نيقولا ي حاجبيه، ولم يجب، بل تخلل لحيته بأصابعه.

قالت بلطف:

- إنني لا أستطيع أن لا أفكر في هذه الأمور، فلهذا السبب إن المحاكمة... مخيفة للغاية! فعندما يشرعون في تفحص كل شيء ووزنه... يالهول ذلك...

كانت متأكدة أن نيقولاى لم يفهمها، فزاد ذلك من صعوبة التعبير عن
مخاوفها...!

- ٢٤ -

كان خوفها، كالعفونة، ينمو في صدرها ويخنقها. ولم تستطع أن
ترفع رأسها أو تسير مستقيمة الظهر وهي تشق طريقها إلى المحكمة عندما
حل يوم المحاكمة.

وحياها الناس الذين تعرفهم من حي العمال، فهزت رأسها لهم وهي
تشق طريقها بين الجماهير العابسة. في أروقة المحكمة وقاعاتها قابلت
أقرباء المتهمين الذين تحدثوا إليها أيضًا بأصوات خفيضة، فشعرت أن
الكلمات عبث، ولم تستطع فهمها. كانوا جميعًا مصابين بالحزن نفسه،
فأدركت الأم ذلك، وضاعف ذلك من انقباضها.

قال سيزوف وهو يفسح لها مكانًا على المقعد:

- اجلسي.

جلست صاغرة، وأصلحت ثوبها، ثم نظرت حولها. كانت نقط
خضراء وحمراء وخيوط صفراء ترقص أمام عينيها.

وتمتت امرأة تجلس بالقرب منها:

- إن ابنك هو الذي أوصل ابننا جريشا إلى هذا!

فقال سيزوف عابسًا:

- توقفني عن الكلام يا نتاليا.

نظرت الأم إلى المرأة، كانت أم صمايلوف، وكان يجلس زوجها بجانبها، وهو رجل أصلع الرأس، حسن الطلعة، ضامر الوجه، ذا لحية كثة حمراء، كان ينظر باستمرار إلى الأمام، وقد ضيق عينيه، فترتجف لحيته من جراء التوتر المسيطر عليه.

كان ضوء بليد ينسكب في قاعة المحكمة من خلال نوافذ عالية تغطيها الثلوج من الخارج، وكانت صورة القيصر معلقة بين النوافذ في إطار مزين لامع، تختفي جوانبه وراء غضون الستائر الثقيلة الكستنائية، وأمام الصورة كانت هناك مائدة مغطاة بقماش أخضر تمتد من الحائط إلى الحائط، ووضعت دكتان من الخشب بمحاذاة الحائط الأيمن وراء القضبان، بينما كان يشغل الناحية اليسار صفان من المقاعد مكسوة بجلد كستنائي اللون، وكان حجاب صامتون يرتدون ملابس رسمية ذات ياقات خضراء وأزرار صفراء يغدون ويروحون، بينما امتلأ الجو المضطرب بالهمس ورائحة دواء. كل هذا- الألوان، واللمعان، والأصوات والروائح- كان يؤدي البصر والسمع، وينفذ إلى البدن مع التنفس، ويملأها بخوف مبرح أجوف. وفجأة تكلم شخص بصوت عال، فأجفلت الأم، وعندما وقف الجميع وقفت هي أيضًا ممسكة بيد سيزوف. فتح باب طويل إلى اليسار ودخل منه، مترنحًا رجل عجوز على عينيه نظارتان، ويرتجف سالفان رقيقان أبيضان على صدغيه السوداوين.

وكانت شفته العليا الحليقة تتدلى في فمه الخالي من الأسنان، ووجنتاه وذقنه تراح على ياقة لباسه المرتفعة، فتوحي بأن لا رقبة له. كان

يساعده شاب فارع الطول، ذا وجه مستدير أحمر، كأنه من الزخرف، وأتى خلفهما ثلاثة أشخاص يرتدون ملابس موشاة بالذهب، وفي إثرهم ثلاثة يرتدون الملابس المدنية.

وقضوا وقتاً طويلاً وهم يتخذون مجالسهم على المائدة الطويلة، وعندما تم ذلك انحنى شخص حليق الوجه قليل الاكتراث، على الرجل العجوز وأخذ يهمس له وهو يحرك شفثيه المنتفختين. كان الرجل العجوز منتصب القامة بشكل غريب دون حراك وهو يصغي إليه، بينما كان في وسع الأم أن تميز، خلف نظارته، نقطتين صغيرتين لا لون لهما. وعند طرف المائدة، أمام مكتب، كان يقف رجل أصلع يتنحج، ويقلب في وثائق.

انحنى الرجل العجوز إلى الأمام وبدأ يتكلم، تفوه بالكلمات الأولى في وضوح، ولكن ما تلى ذلك من كلمات كان خليطاً مضطرباً.

- إنني أعلن... أدخلوهم...

وهمس سيزوف إلى الأم وهو يلكرها بكوعه واقفاً:

- انظري!

وفتح الباب خلف القضبان، ودخل منه جندي يحمل سيفه المجرد على كتفه وتبعه بافل، وأندري، وفيدور مازن والأخوان جوزيف وصمايلوف، وبوكين وصوموف، وخمسة شبان آخرين، لم تكن الأم تعرف أسماءهم.

ابتسم بافل لها، وابتسم أندري ابتسامة عريضة، وهز رأسه محيياً، وبدا

أن ابتساماتهما وحيوية وجهيهما، وحر كاتهما، أنعشت جو قاعة المحكمة المصطنع، وخبا يريق الذهب فوق الملابس الرسمية، وتجددت شجاعة الأم بسبب الثقة والحيوية التي جلبها المساجين إلى القاعة معهم. ارتفعت همهمة من المقاعد الخلفية، حيث كان الناس حتى ذلك الحين ينتظرون، وقد خيمت عليهم الكآبة، وهمس سيزوف:

- إنهم ليسوا بخائفين!

وأخذت أم صمايلوف تبكي.

وأتى التحذير الصارم:

- صمت!

وقال الرجل العجوز:

- يجب أن أحذركم...

كان باثل وأندري يجلسان بجانب بعضهما على الدكة الأولى مع مازن وصمايلوف والأخوان جوزيف. كان أندري قد حلق ذقنه وترك شاربته ينمو فتدلى على جانبي فمه وجعل وجهه المستدير يبدو كوجه القط، وكان ثمة شيء جديد في التعبير الذي على وجهه... شيء حاد وصارم حول فمه، وظلال قاتمة في عينيه. وظهر خط أسود على شفة مازن العليا، واستدار وجهه، وكان صمايلوف أجعد الشعر كدأبه دائماً. أما إيثان جوزيف، فقد كان يبتسم ابتسامة عريضة كشأنه.

وغمغم سيزوف وهو يخفض رأسه:

- آه! فيدور! فيدور!

أصغت الأم إلى الأسئلة غير الواضحة التي كان يوجهها الرجل العجوز إلى المساجين دون أن ينظر إليهم، بينما كان رأسه يرتاح دون حراك على ياقته. أصغت إلى أجوبة ابنها الهادئة المقتضبة، وشعرت بأن كبير القضاة ومساعدوه لن يستطيعوا أن يكونوا قساة معه، وأدركت، وهي تتفحص الوجوه وراء المائدة الطويلة، محاولة أن تخمن نتيجة المحاكمة، أن أملاً بدأ ينمو في قلبها.

وقرأ الموظف ذو الوجه الخزفي وثيقة بصوت غير معبر، ممل للغاية، حتى إن المستمعين جلسوا شاردي اللب. انخرط أربعة محامين في نقاش حاد مع القضاة، كانت حركاتهم سريعة وقوية، فذكروها بالطيور السوداء الكبيرة.

وفاض المقعد الواقع على أحد جانبي الرجل العجوز بجسد أحد القضاة السمين، الذي كان ذا عيين صغيرتين مدفونتين في الشحم، وعلى جانب الرجل العجوز الآخر كان يجلس قاضي مستدير الكتفين، ذا سالفين حمراوين ووجه شاحب، كان يريح رأسه المتعب على مسند المقعد ويغلق عينيه نصف غلقة، تاركًا العنان لأفكاره. أما النائب العام فقد كان على وجهه أيضًا علامات التعب والضعف، وفي الخلف جلس العمدة، وهو بدين جليل يتحسس خديه دائمًا، وكان مارشال النبلاء أشيب الشعر، ذا خدين حمراوين ولحية طويلة وعيين واسعتين وديعتين. أما المحافظ، فقد كان يبدو أن كرشه الكبير يسبب له بعض الحرج، لهذا كان يغطيه دائمًا بأطراف معطفه التي كانت دائمًا تنزلق!

وأتى صوت بافل حازمًا قائلاً:

- ليس هنا مجرمون أو قضاة، إنما هنا أسرى ومن أسروهم فقط.
وساد الصمت، ولعدة ثوان لم تسمع الأم أي شيء سوى صرير قلم
سريع، وخفقان قلبها.
وبدا أن كبير القضاة كان يستمع أيضًا بترقب ما الذي سيحدث بعد
ذلك.

ترك مساعده وأخيرًا قال:

- هم... أندري ناخودكا! هل تقر بأنك مذنب؟
نهض أندريه ببطء، ونصب قامته، وملس على شاربيه، ثم نظر إلى
الرجل العجوز من تحت حاجبين مقطبين متدليين، وأجاب في صوته
البطيء المتناسق وهو يهز كتفيه:
- كيف باستطاعتي أن أقر أنني مذنب؟ فأنا لم أقتل أحدًا، ولم أسرق
أي شيء. كل ما هنالك أنني ضد طريقة في الحياة تجعل الناس يسرقون
ويقتل بعضهم بعضًا.

فقال الرجل العجوز بجهد:

- كن أكثر اقتضابًا في أجوبتك!
وارتفعت همهمة من المقاعد الخلفية، وأخذ الناس يتهايمسون
ويتحركون، كأنهم يحررون أنفسهم من خيوط الكلمات التي حاكها
الرجل ذو الوجه الخزفي حولهم.

وهمس سيزوف:

- أأسمعين ما يقولون؟

- أجب يا فيودور مازن...

فففز فيودور على قدميه وقال:

- كلا، لن أجب.

كان وجهه أحمر وعيناه تومضان، ولسبب ما كانت يده خلف ظهره.

تنفس سيزوف بشدة، وحملت الأم في دهشة، واستطرد فيودور

يقول:

- إنني أرفض أن يكون لي محام يدافع عني، وأرفض أن أقول أي

شيء، وأعتبر هذه المحاكمة غير قانونية! من أنتم؟ هل منحكم الشعب

الحق لتحكموا علينا؟ إنه لم يمنحكم! وأنا أرفض أن أعترف بسلطتكم!

وجلس، وأخفى وجهه الأحمر خلف كتف أندري.

وهز القاضي البدين رأسه إلى كبير القضاة وهمس بشيء في أذنه،

وفتح القاضي ذو الوجه الشاحب عينيه، وألقى نظرة جانبية على المساجين،

وكتب شيئاً بقلم رصاص على الورق الذي أمامه، وهز المحافظ رأسه

وحرك قدميه؛ ليتمكن من إراحة كرشه على ركبتيه وتغطيته بيديه، ودون

أن يحرك رأسه اتجه الرجل العجوز بكامل جسمه نحو القاضي الشاحب

اللون وحرك شفثيه في همس، فحنى الآخر رأسه، وقال مارشال النبلاء

شيئاً للنائب العام، وحاول العمدة، وهو لا يزال يتحسس خديه، التقاط

كلماته، ثم بدأ كبير القضاة يتحدث من جديد بصوته الممل.

وهمس سيزوف إلى الأم في دهشة:

- أسمعت كيف كالحا لهم؟ لقد كان أحسنهم جميعاً!

فابتسمت الأم محتارة، وبدالها أن كل شيء كان مقدمة متعبة لا لزوم لها، للشيء الفظيع الذي كان سيحدث عما قريب، فيحطمهم جميعاً بفظاعته البالغة. لكن كلمات باثل وأندري كانت تبدو خالية من الخوف قوية، كأنهما تفوها بها في بيتهما الصغير في حي العمال، بدلاً من قاعة المحكمة. تحركت الأم بفعل الهبة الحماسية التي سببها فيودور، وكانت ثمة شجاعة في هذه المحاكمة، ومن حكمها على نشاط الناس الذين يجلسون خلفها، شعرت بأنها ليست الوحيدة التي أدركت هذه الشجاعة.

وسأل الرجل العجوز:

- ما رأيك؟

نهض النائب العام الأصلع، ووضع إحدى يديه على المكتب وهو يلقي خطاباً سريعاً، مستشهداً بالأرقام، ولم يكن هناك ما يخيف في لهجة صوته.

وفي الوقت ذاته شعرت الأم بإحساس جاف واخز في قلبها، وأدركت إدراكاً مبهمًا أن هناك شيئاً عدائياً في الجو لا يلوح بقبضتيه ويصرخ، بل ينمو ببطء وخفية، كان يحلق بالقرب من القضاة، ويبدو أنه يغلفهم في سحابة كثيفة تعزلهم عن أي شيء يحدث خارجها. نظرت الأم إلى القضاة، ولكنها لم تستطع فهمهم، فهم لم يغضبوا من باثل وفيودور كما توقعت، ولم يشتموهما، وبدالها أنهم لا يعلقون أهمية على الأسئلة التي يوجهونها. كان موقفهم ينم عن عدم اكتراث، يعملون على إرغام أنفسهم على سماع الأجوبة، كأنهم يعرفون كل شيء سلفاً ولا أهمية لأي شيء.

كان يقف أحد الجنود الآن أمامهم، يقول في صوت عميق أجش:

- يقال إن بافل فلاسوف هو المحرض الرئيس!

فسأل القاضي البدين في فتور:

- وماذا عن ناخودكا؟

- وهو أيضًا...

ونفض أحد المحامين وقال:

- هل لي أن أقول كلمة؟

فسأل الرجل العجوز:

- هل من اعتراضات؟

وبدا أن جميع القضاة يعانون من سوء صحتهم، وأن إعياء شديدًا يتجلى في تصرفاتهم وأصواتهم، وتعبر وجوههم أيضًا عن هذا الإعياء والضجر. وكان واضحًا أنهم يجدون في كل هذا- ألْبستهم، وقاعة المحكمة، والجنود والمحامين، وضرورة جلوسهم في الكراسي يوجهون الأسئلة ويستمعون إلى الإجراءات- أمورًا مرهقة!

وكان ذلك الضابط الشاحب الذي تعرفه، واقفًا أمامهم الآن يروي ما يعرفه عن بافل وأندري في صوت عال متباطئ.

ففكرت الأم وهي تصغي إليه:

- إنك لا تعرف الكثير!

ونظرت إلى الأشخاص الذين خلف القضبان، دون أدنى خوف أو شفقة عليهم، لم يكن باستطاعتها أن تشفق عليهم، فهي لا تشعر نحوهم

إلا بالحب والدهشة الهادئة والحب الملهب. كانوا يجلسون هناك مستندين إلى الحائط، شباناً أقوياء، يعيرون انتباهاً ضئيلاً إلى حديث الشهود الممل والقضاة، ونقاش المحامين مع النائب العام، ويضحك أحدهم بسخرية بين آن وآخر، ويلقي بملاحظة إلى رفاقه الذين تلوح على وجوههم البسمة الساخرة ذاتها. كان باثل وأندري يهمسان دون انقطاع تقريباً إلى أحد محامي الدفاع، وكانت الأم قد رآته في بيت نيقولاي في الليلة السابقة. أما مازن، وقد كان أكثر انفعالاً واضطراباً من الآخرين، فقد كان يصغي إلى حديثهم، وفي بعض الأحيان كان صمايلوف يقول شيئاً ما إلى إيثنان جوزيف، فيلكره إيثنان، ويحاولان جاهدين ألا يضحكا حتى لا يزيد احمرار الوجه أو تنتفخ الخدود، فيضطرا إلى تنكيس رأسيهما. وقد انفجر إيثنان ضاحكاً مرتين، فجلس منكمشاً بعض الوقت، محاولاً استعادة زمام نفسه.

ولكن المساجين كانوا شباناً، تتحدى فتوتهم كل محاولة لكبت غليانها الحيوي.

لمس سيزوف مرفقها برفق، فالتفتت إليه ووجدته مسروراً، وقلقاً بعض الشيء، وهمس:

- انظري كم هم شجعان هؤلاء الشباب! كأنهم أسياد حقيقيون!

واستمر الشهود يتحدثون في قاعة المحكمة في سرعة عديمة اللون، بينما يتكلم القضاة مرغمين لا مباليين. ثناء القاضي البدين وغطى فمه بيد سمينة، أما القاضي الأحمر السالفين، فقد أصبح أكثر شحوباً من ذي قبل، وأخذ يضغط صدغيه بأصابعه بين حين وآخر، وينظر إلى السقف

متألمًا بعينين لا تريان، وكان النائب العام يدون ملاحظة بين حين وآخر، ثم يتابع حديثه الهامس مع مارشال النبلاء الذي كان يمشط لحيته البيضاء، ويحملق بعينه الكبيرتين الجميلتين، ثم يتسم ويلوي رقبته. أما العمدة فقد جلس واضعًا إحدى رجليه على الأخرى، ينظر إلى أصابعه التي كان يحركها باستمرار فوق ركبته.

وبدا أن المحافظ، وقد أراح كرشه على ركبته واحتضنه بذراعيه، هو الشخص الوحيد المصغي إلى همهمة الأصوات الرتيبة، اللهم إلا إذا كان الرجل العجوز الجالس دون حراك كدوارة الريح في يوم سكنت فيه الريح، جديرًا بأن يُضَفَى عليه هذا الشرف أيضًا. استغرق هذا وقتًا طويلًا للغاية، حتى إن المستمعين تخذروا من الضجر.

قال الرجل العجوز ناهضًا:

- إنني أعلن....

وضاعت بقية كلماته خلف شفثيه الرقيقتين، وسمع صوت تنهدات وهتافات، وسعال، وحفيف أقدام، وقيد المساجين إلى الخارج وهم يتسمون ويهزون رؤوسهم إلى أقربائهم وأصدقائهم. صاح إيفان جوزيف:

- لا تفقد الشجاعة يا إيجور!

وخرجت الأم وسيزوف إلى الأروقة، فسألها الرجل العجوز:

- هل نذهب إلى الحان فتنناول قدحًا من الشاي؟ فلا يزال لدينا ساعة ونصف الساعة.

- إنني لا أريد حقًا.

- وأنا أيضًا. ما رأيك في هؤلاء الشبان؟ إنهم يجلسون هناك كأنهم الناس الوحيدون على وجه الأرض، وكأن الآخرين لا معنى لهم على الإطلاق. وفيودور ذلك...!

واقترب منهما والد صمايلوف، وقبعته في يده، فسأل وابتسامة حزينة تعلق شفتيه:

- هل رأيتما ابني جريجوري؟ لقد رفض أي دفاع، وأبى حتى التحدث إليهم، لقد كان أول من فعل ذلك. أما ابنك يا بيلاجيا، فقد كان يؤيد وجود محامين، ولكن ابني يقول لا فائدة من ذلك، وقد رفض أربعة منهم بعد ذلك.

كانت زوجته تقف بجانبه وهي تطرف جفنيها كثيرًا كي تمنع الدموع من الانهماك، وتمسح أنفها بطرف منديلها.

واستطرد صمايلوف يقول ممسكًا بلحيته، ناظرًا إلى الأرض:

- يا له من شيء مضحك! فعندما تنظرين إليهم، هؤلاء الأوغاد، لا يسعك إلا أن تفكري وتتأسفي؛ لأنهم عرضوا أنفسهم لهذه المشاكل، ثم تعودين فتفكرين، لعلهم على حق رغم كل شيء، لا سيما عندما ترين كيف يزداد عددهم في المصنع، فالبوليس يلقي القبض على واحد تلو الآخر، ولكنهم يستمرون في ازدياد، كالسمك في النهر، فيدفعك هذا إلى التفكير بأنه لعل القوة بجانبهم؟!

فقال سيزوف:

- من الصعب علينا فهم هذه الأمور يا استيفان برتوفيتش.

فقال صمايلوف موافقاً:

- حقاً من الصعب علينا!

فقالت زوجته وهي تنتحب بصوت عال:

- إنهم جماعة أصحاب، أولئك الأوغاد!

ثم استدارت إلى الأم وعلى محياها العريض المترهل ابتسامة وقالت:

- لا تغضبي مني يا نيلوفنا. لقد ألقيت اللوم على ابنك منذ برهة

بسبب ابني، ولكن الشيطان وحده هو الذي يعرف من المعلوم أكثر من

غيره. هل سمعت ما قاله رجال البوليس والجواسيس عن جريجوري؟

لقد قام بنصيبه ذلك النصاب الأحمر الشعر!

كانت فخورة بابنها، دون أن تقدر شعورها، ولكن الأم قدرتها،

وأجابت عليها بابتسامة رقيقة وكلمات منبعثة من قلبها:

- إن القلوب الفتية تكون دائماً أسرع إلى إدراك الحقيقة...

وتجول الناس في أروقة المحكمة، وشكلت جماعات تتحدث في

أصوات خفيضة مضطربة، ولم يكن هناك شخص واقف بمفرده تقريباً،

وكانت كل الوجوه تعبر عن الלהفة في التحدث وتوجيه الأسئلة، وسماع

ما يود الآخرون قوله. كانوا يسرون جيئة وذهاباً في الممر الأبيض الضيق

المحصور بين جدارين، كأن ريحاً قوية عصفت بهم، وبدوا كأنهم يبحثون

عن شيء قوي يستطيعون إلقاء مرساهم حوله.

وكان شقيق بوكين الكبير، وهو شاب طويل أبيض كأخيه، يلوح

بذراعيه بقوة، محاولاً إثبات شيء ما. كان يقول:

- إن ذلك كليبانوف، المحافظ، ليس له أي شأن هنا...

فقال أبوه، وهو رجل عجوز ضئيل، وهو يلقي نظرات حذرة حوله:

- أقفل فمك يا قسطنطين!

- كلا، لن أقفله! فهناك إشاعات أنه قتل أحد موظفيه في العام

الماضي بسبب زوجة الموظف، وهو يعيش معها الآن، فما تسمي ذلك؟

وبالإضافة إلى ذلك فإن كل شخص يعرف أنه لص...

- بالله عليك يا قسطنطين!

قال صمايلوف:

- إنك على حق! إنك على حق! لا تستطيع أن تقول إن المحاكمة

كانت عادلة...

سمعه بوكين فتقدم منه وسحب الآخرين وراءه، كان وجهه أحمر،

واستمر يلوح بيديه، وصاح يقول:

- عندما يكون الأمر قضية قتل أو سرقة، فإن المتهمين يحاكمون أمام

محلفين... أمام العامة... الفلاحين وأهالي المدينة والعمال، ولكن عندما

يعارض الناس السلطات، فإن السلطات نفسها هي التي تحاكمهم! فماذا

تسمي ذلك؟ إن أنت أهنتني ولكمتك على خدك، ثم نصبت أنت نفسك

حكمًا لتصدر عليَّ حكمًا، ستجدني بالطبع مذنبًا! لكن من هو المخطئ

أولاً؟ أنت بالطبع.

وفرق حارس أشيب الشعر، معقوف الأنف، غطى صدره بالميداليات،

الحشد، وهز إصبعه في وجه بوكين قائلاً:

- توقف عن الصياح، فأنت لست في حانة!

- حسناً، إنني أفهم! لكن إذا ضربتك، وكنت أنا القاضي، فمن تعتقد...

فقال الحارس متوعداً:

- إنني أعتقد أن من الأفضل أن أُلقي بك في الخارج، ذلك ما أعتقد!

- تلقي بي في الخارج؟ ولم؟

- لأنك تثير هذه الضجة، أُلقي بك إلى الشارع!

نظر بوكين إلى الذين حوله، وقال في صوت خفيض:

- إن الشيء الوحيد الذي يريدونه هو تكميم أفواه الناس!

فصاح الرجل العجوز بفظاظة:

- بالطبع، ماذا تعتقد؟

هز بوكين كتفيه، وأخذ يتحدث بصوت خفيض:

- ولكن لِمَ لا يسمح للناس بحضور المحاكمة؟ لم يسمحون

للأقرباء فقط؟ إذا كانت محاكمتك عادلة، فدع كل الناس تسمعها! ما الذي تخافه؟

فقال صمايلوف مؤكداً بصوت عال:

- إن المحاكمة غير عادلة، وليس ثمة أدنى شك في ذلك!

كانت الأم تود أن تقول له ما سمعته من نيقولاوي عن المحاكمة،

ولكنها لم تفهم كل شيء، ثم إنها نسيت بعض الكلمات، فسارت بعيداً، محاولة أن تتذكرها، فلاحظت أن شاباً رفيع الشارب يراقبها. كان يضع يده اليمنى في جيب سرواله، مما جعل كتفه الأيسر يبدو أوطأ من كتفه الأيمن، الأمر الغريب الذي بدا مألوفاً للآم نوعاً ما، ولكنه أدار ظهره سريعاً، فنسيته منهمكة في أفكارها!

ولكنها سمعت بعد دقيقة شخصاً يسأل بهدوء:

- هي؟

فأناه الجواب:

- نعم.

فالتفتت حولها، كان الرجل ذو الكتف المرتفع واقفاً بالقرب منها يتحدث إلى شاب ذي لحية سوداء يرتدي معطفاً قصيراً وحذاء يبلغ إلى ركبتيه.

فحاولت مضطربة أن تتذكره، ولكنها لم تستطع. انتابتها رغبة لا تقاوم في التحدث إلى الناس عن قضية ابنها؛ كانت تريد أن تسمع ما الذي سيقولونه ضده حتى تتمكن من تقدير حكم المحكمة، فقالت في حذر متوجهة إلى سيزوف:

- أهذه طريقة لإجراء محاكمة؟ يقضون كل وقتهم محاولين أن يجدوا من ارتكب هذا، دون أن يعيروا أي انتباه للسبب الذي من أجله فعلوا ذلك، وكلهم شيوخ أيضاً، إن الشباب يجب أن يحاكمه الشباب. فقال سيزوف موافقاً:

- يجب أن يكون ذلك، فمن الصعب علينا أن نفهم أمورًا كهذه، وهز رأسه مفكرًا.

وفتح الحارس باب قاعة المحاكمة، وصاح:

- أيها الأقرباء... أبرزوا بطاقاتكم!

فقال شخص ما، معلقًا في سخرية:

- بطاقات، كأننا في سيرك!

كانت نقمة مبهمة تجتاح الناس، فقد أصبحوا أكثر هرجًا، وأقل اضطرابًا، وأخذوا يدخلون في مناقشات مع الحراس.

- ٢٥ -

غمغم سيزوف بشيء ما وهو يستعيد مكانه على المقعد، فسألته الأم:

- ما الذي قاله؟

- لا شيء على وجه التحديد. إن الناس مجانين أغبياء...

وسمع رنين جرس، وصاح شخص:

- نظام في المحكمة...

ونفض الجميع مرة أخرى عندما دخل القضاة، واحتلوا أماكنهم حسب النظام السابق، واقتيد المساجين إلى مقاعدهم.

مالت الأم بكل جسمها إلى الأمام، متوقعة من جديد حدوث شيء مخيف. وقف النائب العام إلى يمين القضاة، متجهًا إليهم متكئًا بأحد

مرفقيه على المكتب، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وحرك يده اليمنى ملوحًا، وأخذ يتكلم. لم تستطع الأم التقاط كلماته الأولى؛ فقد كان صوته ينساب غليظًا غير متناسق، وفي بعض الأحيان سريعًا، وفي أحيان أخرى بطيئًا. كانت الكلمات تنساب في بعض الأحيان بطيئة مملّة، كغرز دقيقة، ثم تنفجر فجأة وتحوم كالذباب حول قطعة من السكر، ولكنها لم تحدث شيئًا مخيفًا مرعبًا فيها.

كانت الكلمات تنساق عبر الغرفة باردة كالثلج، رمادية كالرماد، تملأها شيئًا فشيئًا بشيء كريحه كغبار دقيق جاف، وكان يبدو أن هذه الخطبة، المنمقة للغاية، الخالية من كل شعور، لم تصل إلى بافل ورفاقه، وكان واضحًا أنها لم تؤثر فيهم مطلقًا. كانوا يجلسون هناك دون اضطراب كعهدهم أبدًا، يتحدثون في هدوء، ويتسمون في بعض الأحيان، أو يعبثون في أحيان أخرى ليخفوا ضحكهم.

وهمس سيزوف:

- إنه يكذب؟

لم تكن متأكدة من ذلك، كان النائب العام يتهم كل المساجين دون استثناء، فبعد أن تحدث عن بافل، أخذ يتحدث عن فيودور، وعندما انتهى من فيودور انتقل إلى بوكين. كان يبدو أنه يحزمهم جميعًا في حقيبة واحدة، لكنها لم تكتف بالمعنى الصوري لكلماته الذي لم يؤثر فيها أو يخفها، فهي ما برحت تتوقع شيئًا مخيفًا، فبحثت عنه خلف كلماته، وفي وجهه وعينه، ويده البيضاء التي لا ينفك يلوح بها في رشاقة، ومع ذلك كان هناك شيء مخيف. كانت تعرف أن ثمة شيء مخيف، ولكنها لم

تستطع الإمساك به وتعريفه بالرغم من تحذير قلبها.

نظرت إلى القضاة، كانوا ضجرين من الخطاب، فوجههم العديمة الحياة، الصفراء الرمادية، خالية من أي تعبير.

نشرت كلمات النائب العام ضبابًا لا تراه العين، تكاثف حول القضاة وخلفهم في سحابة من عدم المبالاة والانتظار المتعب. كان كبير القضاة يجلس جامدًا مستقيمًا، ومن وقت لآخر كانت النقطتان الرماديتان خلف نظارتيه تذوبان في اتساع وجهه العديم اللون.

وبينما هي تنظر إلى عدم المبالاة الباردة، وذلك الانعزال العديم الشعور، لم يسعها إلا أن تسأل نفسها:

- أحقًا هم يجلسون في محاكمة؟

وجعل سؤالها هذا قلبها ينقبض، فيعتصر تدريجيًا خوفها، تاركًا وراءه شعورًا حادًا بالألم!

انتهى خطاب النائب العام على غير انتظار، أنهى كلامه بكلمات قليلة أخيرة، وانحنى للقضاة، ثم جلس يفرك يديه، فهز مارشال النبلاء رأسه إليه، وفتح عينيه. أما العمدة فقد مد يده، بينما نظر المحافظ إلى كرشه وابتسم، ولكنه بدا أن القضاة لم يسروا من الخطاب، فظلوا في مقاعدهم دون حراك.

قال الرجل العجوز، ممسكًا بورقة بالقرب من وجهه:

- والآن ستستمع المحكمة إلى محامي الدفاع عن فيدوسييف وماركوف وزاجاروف!

ووقف المحامي الذي رآته الأم في بيت نيقولاى، كان وجهه عريضاً تبدو عليه سيماء الود، ذا عينين صغيرتين تومضان، كأن بهما نضالان حادان يبرزان من تحت حاجبيه الحمرأوين، يقطعان الهواء مثل المقص. كان يتكلم بصوت عال واضح، دون تسرع، ولكن الأم لم تستطع متابعة خطبته.

همس سيزوف في أذنها:

- هل فهمت ما يقول؟ هل فهمت؟ إنه يقول إن المساجين مختلي العقل، إن ذلك لا يبدو كابني فيودور.

كانت كئيبة للغاية بحيث لم تستطع الإجابة، وازداد شعورها بالألم، بحيث أصبح حملاً ثقيلاً على قلبها. كان واضحاً لها الآن أنها كانت تتوقع عدالة، كانت تتوقع أن ترى وزناً أميناً لابنها وقضاته، ثم كانت تتوقع أن يستجوبه القضاة لفترة طويلة، وفي عناية، عما يدور في داخله، كما أنهم سيسلطون أعيناً فاحصة على أفكاره وأعماله، وعندما يرون الحقيقة، فسيعلنون بصوت عالي عادل:

- إن هذا الرجل على حق!

ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. فبدأ أن مسافة شاسعة لا توصف تفصل الذين يحاكمون عن قضاتهم، وأن المساجين لا يأبهون لقضاتهم. فقدت الأم في غمرة تعبها وإعيائها كل اهتمام في المحاكمة، فلم تعد تسمع ما يقال، وفكرت في امتعاض:

- أئسمون هذه محاكمة؟

وهمس سيزوفا مؤيداً:

- عليك بهم!

كان محام آخر يتحدث الآن. رجل صغير، ذو وجه حاد القسماة شاحب اللون، ساخر، وكان القضاة يقاطعونه باستمرار.

وقفز النائب العام في غضب، وقال شيئاً عن سير المحاكمة، نفوه بعده الرجل العجوز باحتجاج ضعيف واهن. أصغى المحامي مطرق الرأس في احترام، ثم استأنف خطابه. فقال سيزوفا:

- تكلم في لب الموضوع.

واجتاحت المستمعين موجة من الهياج، لا بل العدا، بينما كانت اتهامات المحامي الحادة تسليح جلد القضاة القاسي، الذين كان يبدو أنهم يقتربون من بعضهم بعضاً، عابسين متجهمين؛ ليتفادوا طعنات بلاغته الحادة.

كان بافل قد نهض عندئذ، فساد الغرفة الهدوء فجأة، وانحنى الأم إلى الأمام.

تحدث بافل في هدوء:

- كعضو في حزب، إنني لا أعترف إلا بالحكم الذي يصدره عليّ حزبي! ولهذا لست أتحدث مدافعاً عن نفسي، ولكن بناء على طلب رفاقي، الذين رفضوا أيضاً الدفاع عن أنفسهم، أن أوضح لكم تلك الأشياء التي لم تفهموها، لقد أطلق النائب العام على مظاهرتنا تحت راية الاشتراكية الديمقراطية اسم «ثورة ضد السلطات الحاكمة»! وكان

ينظر إلينا طيلة الوقت على أننا أناس يحاولون الإطاحة بالقيصر. إنني أريد أن أوضح أننا لا نعتبر الحكم الفردي هو القيد الوحيد الذي يقيد بلادنا، ولكنه القيد الأول الذي من واجبنا أن نحرر شعبنا منه.

وأصبح السكون أكثر عمقًا، وهو يتحدث بصوته الحازم، وبدا كأن القاعة تتسع، ويرتفع بافل ويوضع في مكان عال.

وتململ القضاة، في ضيق وقلق، في مقاعدهم، وهمس مارشال النبلاء بشيء إلى القاضي ذي الوجه المترهل الذي هز رأسه موافقًا، وهمس في أذن الرجل العجوز اليمنى، بينما همس القاضي المعتل في أذنه اليسرى، فأصبح الرجل العجوز موزعًا بين اليمين واليسار، وقال شيئًا ما بصوت عال، ولكن صوته ضاع في تيار خطبة بافل الدقيقة العريضة:

- نحن اشتراكيون، وهذا يعني أننا ضد الملكية الخاصة الفردية، هذا النظام الذي يفكك المجتمع، ويغري الناس بعضهم ببعض، ويخلق عدااء بين المصالح لا سبيل إلى إزالته، ويدفع إلى الكذب والخداع، محاولًا إخفاء أو تبرير هذا العدااء، ويفسد كل الناس بالأكاذيب، والنفاق والبغضاء. إننا نؤمن أن مجتمعًا ينظر إلى الفرد على أنه وسيلة لإثراء الآخرين، ليس غير مجتمع لا إنساني، يعادي مصالحنا، فنحن لا نستطيع قبول أخلاقياته الكاذبة المرائية، إننا نفصح سخرية موقفه ووحشيته تجاه الفرد. فنحن نريد أن نناضل، وسنناضل، ضد كل أشكال الاستعباد الجسدي والأخلاقي المفروض على الفرد من مجتمع كهذا. سنناضل ضد كل أساليب سحق البشر في سبيل مصالح الجشع الأناني. نحن عمال، نحن الناس الذين يصنعون كل الأشياء، من دمي الأطفال حتى الآلات الجبارة، من كدهم

وعملهم، ومع هذا فنحن محرومون من حق الدفاع عن كرامتنا الإنسانية. إن باستطاعة أي إنسان أن يستغلنا من أجل مآربه الشخصية. لكننا نريد الآن أن نحقق درجة من الحرية تمكننا في المستقبل من أخذ مقاليد السلطة في أيدينا. إن شعاراتنا بسيطة للغاية: «تسقط الملكية الخاصة»، «كل وسائل الإنتاج في يد الشعب»، «كل السلطة في يد الشعب!»، «لا يُعفى من العمل أحد!»، وفي وسعكم أن تروا الآن أننا لسنا مجرد متمردين!

وضحك بافل ضحكة مقتضبة، ثم تخلل شعره بأصابعه في بطنه، وشع نور عينيه الزرقاوين أكثر من أي وقت مضى.

وقال الرجل العجوز بصوت مرتفع واضح:

- إنني أطلب منك أن تتكلم في جوهر الموضوع!

والفتت كي ينظر إلى بافل، وتصورت الأم أن نورًا جشعًا خبيثًا التمع في عينه اليسرى الخابية، ونظر كل القضاة إلى ابنها، عيونهم ثبتت إلى وجهه، يمتصون قواه، متعطشين إلى دمائه عليها تنعش أجسادهم المنهكة المتعبة، ولكنه كان يقف هناك فارغًا مستقيمًا، قويًا شجاعًا، رافعًا يده يقول:

- إننا ثوريون، وسنبقى ثوريين، ما دام ثمة أناس لا يفعلون شيئًا سوى إصدار الأوامر، والآخرين لا يفعلون شيئًا سوى العمل. نحن ضد المجتمع الذي أمرتم، أيها القضاة، بالدفاع عن مصالحه. نحن أعداؤه الذين لا نهادن، وأعداؤكم أيضًا، ولا يمكن التوفيق بيننا إلى أن نتنصر في نضالنا، وإننا، نحن العمال، لعلى يقين أننا سنتنصر! فأسيادكم ليسوا أقوياء كما يعتقدون! إن تلك الملكية الخاصة التي يضحون من

أجل حمايتها وتوسيعها بحياة الملايين الذين تحت إمرتهم، تلك القوة التي تمنحهم السلطة والقوة علينا، تثير النزاع بينهم، فتحطمهم جسديًا ومعنويًا. إن تكاليف الدفاع عن الملكية الخاصة باهظة للغاية، وفي الواقع إنكم جميعًا، يا أسيادنا، أكثر شبهًا بالعبيد، منا نحن؛ فأنتم مستعبدون روحياً، بينما نحن جسديًا فقط. أنتم عاجزون عن التخلص من نير عبودية التقاليد والتحيز، ذلك النير الذي قتلكم روحياً. لكن لا شيء يحول بيننا وبين أن نكون أحرارًا روحياً، فالسموم التي تغذوننا بها أضعف من الترياق الذي تصبونه، رغم إرادتكم، في عقولنا، وإن معرفتنا للحقيقة تزداد كل وقت، وتجذب أحسن الناس وأفضلهم، كل أولئك الأنقياء روحياً، حتى أولئك الذين من وسطكم. انظروا فقط... فقد أصبحتم الآن لا تجدون من يدافع عن مبادئ طبقتكم، لقد استنفدتم كل الحجج التي في استطاعتها أن تنقذكم من ضغط العدالة التاريخية الساحق، فأنتم عاجزون عن خلق أي أفكار جديدة، فقد أجذبتم فكريًا، أما أفكارنا فتنمو، وتزداد قوة، تلهم الجماهير وتعبئهم من أجل النضال في سبيل الحرية. إن وعي الدور العظيم الذي ستلعبه الطبقة العاملة يوحد سائر عمال العالم في قوة واحدة هائلة، وليس هناك ما تستطيعون به معارضة تجديد الحياة الذي يحملونه إلى العالم، سوى الوحشية والخداع. لكن الخداع واضح للغاية، أما الوحشية فتثير النقمة، فالأيدي التي تطبق على أعناقنا اليوم سوف تمتد إلينا غدًا في مصافحة أخوية. فطاقتكم هي طاقة آلية كمضاعفة الذهب، وهي تقسمكم إلى فئات متنازعة مصيرها أن يلتهم بعضها بعضًا. أما طاقتنا فتكمن في وعينا الحيوي المتزايد دومًا لتضامن سائر العمال. فكل ما تفعلونه إجرام؛ لأنه يحول الناس إلى عبيد. فأكاذيبكم وجشعكم وشروركم، قد خلقت

عالمًا من الأبالسة والوحوش لإخافة الناس، وإنه لواجبنا نحن أن نحرر الناس من هذه الوحوش. لقد انتزعتهم الإنسان من الحياة ودمرتموه، ولكن الاشتراكية ستأخذ هذا العالم الذي دمرتموه وتعيد بناءه في وحدة عظيمة شاملة، ولن يوقف أي شيء تفعلونه ذلك!

توقف بافل برهة، ثم رد في نبرات أقوى وأرق:

- لن يوقف أي شيء تفعلونه ذلك!

تهامس القضاة فيما بينهم، وكشروا بصورة غريبة، دون أن يرفعوا عيونهم الجشعة عن وجه بافل. شعرت الأم أنهم يلوثون جسده القوي بأعينهم التي كانت مليئة بالحسد على صحته وقوته وحيويته. أصغى المساجين إلى خطاب رفيقهم بانتباه شديد، ووجوههم شاحبة، وعيونهم تشع بالسرور والسعادة. ونهلت الأم كل كلمات ابنها، فأصبحت مطبوعة في عقلها في صفوف متراصة.

وقاطع الرجل العجوز بافل عدة مرات، محاولاً توضيح شيء ما، وابتسم في إحدى المرات ابتسامة حزينة. كان بافل يتوقف كل مرة، ولكن ليستطرد في هدوء حازم، مرغماً الناس على الاستماع إليه، مخضعاً إرادة القضاة إلى إرادته، ولكن الرجل العجوز صاح أخيراً ومد يده، فأتخذ صوت بافل نغمة ساخرة:

- كدت أن أنتهي. ليس لي رغبة في إهانتمكم شخصياً، بل على العكس، فمنذ أن جلست هنا شاهداً مرغماً على هذه المهزلة التي تسمونها محاكمة، أوشكت أن أعطف عليكم. فبالرغم من كل شيء أنتم كائنات بشرية، وإنه لشيء مهين دائماً أن نرى الكائنات البشرية - حتى أولئك

الذين يعادون قضيتنا - منحطين إلى هذا الدرك في خدمة القوة الغاشمة،
محرومين كل الحرمان من شعورهم بالكرامة الإنسانية!
واتخذ مجلسه، دون أن ينظر إلى القضية، بينما كانت الأم تراقبهم
متقطعة الأنفاس.

كان وجه أندري مشرقاً وهو يضغط يد بافل، أما صمايلوف ومازن
والآخرين، فقد انحنوا نحوه، فابتسم بافل مرتبكاً من إعجاب رفاقه، ونظر
إلى أمه وهز رأسه كأنه يقول لها:

- هل أنت راضية؟

فأجابت بتنهيدة سعيدة، واجتاحت وجهها موجة دافئة من الحب.

وهمس سيزوف:

- لقد بدأت الآن المحاكمة الحقيقية! لقد وضحت الأمور للغاية،
أليس كذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب، دون أن تقول شيئاً، سعيدة لأن ابنها تكلم
بهذه الشجاعة... لعلها كانت أكثر سعادة؛ لأنه أنهى خطابه... ولكن
سؤالاً واحداً استمر يتقلب في ذهنها:

- والآن، ماذا هم فاعلون؟

لم يقل ابنها شيئاً جديداً عليها، فقد كانت تعرف كل أفكاره، ولكنها شعرت هنا أمام المحكمة، لأول مرة، بالانجذاب الغريب نحو عقيدته. كانت مذهولة لرزانة بافل. كان خطابه بالنسبة لها نجمة متألقة تمثل إيمانه بقضيته وانتصاره الأخير. توقعت أن يبدأ القضاة نقاشاً حاداً معه الآن، يناقضونه بغضب، ويقدمون آراءهم، ولكن أندري نهض وتمايل، ثم رمى القضاة بنظرة من تحت حاجبيه وقال:

- يا حضرات المحامين المحترمين...!

فقال القاضي المعتل بصوت عال غاضباً:

- إنك تخاطب قضاة، وليس محامين!

ولاحظت الأم شيئاً من الخبث على وجه أندري، كان شارباه يرتعشان، ولاحظت بريقاً خبيثاً مألوفاً في عينيه، وفرك رأسه بشدة بيده الطويلة النحيلة، ثم تنهد وقال هازئاً رأسه:

- هل الأمر كذلك؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة، بل محامين.

فقال الرجل العجوز بجفاء:

- تحدث في لب الموضوع.

- في لب الموضوع؟ حسناً جداً إذن. لنفرض أنني حملت نفسي

على الاعتقاد أنكم حقاً قضاة، رجالاً شرفاء، مستقلين...

- إن المحكمة ليست في حاجة إلى توصياتك!

- حقاً؟ حسناً، ولكنني سأدلي بها على كل حال. فلنقل إنكم أناس لا مأرب لهم، غير متحيزين، دون «هذا لكم»، «وهذا لنا»، إن أمامكم شخصين: أحدهما يقول: «لقد سرقني وضربني حتى العظم»، ويقول الآخر: «إن لي الحق في سرقة الناس وضربهم حتى العظم؛ لأنني أملك سوطاً...»!

فسأله الرجل العجوز رافعاً صوته:

- أليس لديك ما تقوله في جوهر الموضوع؟

كانت يده ترتجف، فابتهجت الأم لرؤيته غاضباً، ولكنها استاءت من سلوك أندري... فهو لا يتناسق، نوعاً ما، مع خطبة ابنها، إنها تريد أن تكون حجبهم جدية، رزينة!

نظر الأوكراني في صمت إلى الرجل العجوز قبل أن يتابع حديثه في رزانة وهو يمسح حاجبيه:

- في جوهر الموضوع؟ ولم أنكلم في جوهر الموضوع معكم؟ لقد قال لكم رفيقي كل ما يجب أن تعرفوه في الوقت الحاضر، وسيقول لكم آخرون البقية عندما يحين الوقت!

رفع الرجل العجوز نفسه في مقعده وصاح:

- اجلس! الذي يليه... جريجوري صمايلوف!

زم الأوكراني شفثيه وجلس، دون تسرع. نهض صمايلوف ووقف بجانبه وهو يدفع خصلات شعره الأجدع إلى الوراء وقال:

- لقد دعا النائب العام رفاقي برابرة، وأعداء للحضارة.

- لا تتحدث عن أي شيء لا يختص بمحاكمتك!

- هذا يخصها، ليس هناك أي شيء لا يخص الناس الشرفاء، ثم إنني

أرجوك ألا تقاطعني، ما الذي تسمونه حضارة... ذلك ما أود معرفته؟

قال الرجل العجوز، كاشفًا عن أسنانه السفلى:

- لسنا هنا لنناقشك! لا تنحرف عن القضية!

طراً على القضاة بدلاً بعد تصرف أندري... كأنهم نزعوا عنهم شيئاً،
فظهرت بقع حمراء على وجوههم الرمادية، وأخذت شرارات خضراء
باردة تلمع في عيونهم. لقد امتعضوا من خطاب بافل، لكن قوة كلماته
أرغمتهم على احترامه، والمحافظة على المظاهر. لكن الأوكراني نزع
المظاهر، وكشف عما تحتها!

فأخذوا يتهامسون، مكشرين، يلوحون بشدة لا تليق بهم.

- إنكم تدربون الناس كي يصبحوا جواسيس، وتفسدون النساء
والفتيات، وتحولون الرجال إلى لصوص وقتلة، وتسممونهم بالشودكا
والحروب الدولية والأكاذيب والفسق والبربرية... تلك هي حضارتكم!
إننا أعداء لمثل هذه الحضارة!

فصاح الرجل العجوز:

- إنني أطلب منك...

ولكن صمايلوف رد عليه، أحمر الوجه، متألق العينين:

- إننا نحترم ونقدر تلك الحضارة الأخرى التي ينادي بها الناس الذين

تلقون بهم في السجن؛ كي يقضوا أو يفقدوا عقولهم...

- اجلس. الذي يليه... فيودور مازن!

هب فيودور الصغير على قدميه منتصبًا، نحيلًا كالخنجر:

- إنني أقسم بالله أن أستمّر في العمل!

وشحب وجهه كثيرًا، بحيث لم ترَ إلا عينيه، وصاح:

- إنني أعلم أنكم قد أصدرتم حكمكم عليّ، ولكنني أقسم أنني سأهرب، بغض النظر إلى أين سترسلونني، وسأتابع العمل طيلة حياتي.

ورفع يده كأنه يتخذ قسمًا:

- إنني أقسم على ذلك!

أرسل سيزوف فحيحًا عاليًا، وتململ في مقعده، واجتاحت الجمهور موجة من الهمس والاضطراب، وبكت إحدى النساء، بينما انتابت أحد الحضور نوبة سعال. نظر الجنود إلى المساجين في ذهول أبله، ثم إلى الجمهور في غضب، وتمایل القضاة في مقاعدهم إلى الأمام والخلف، وصاح الرجل العجوز:

- الذي يليه... إيفان جوزيف.

- لا أريد أن أقول شيئًا!

- الذي يليه... فاسيلي جوزيف.

- وكذلك أنا!

- فيودور بوكين!

فنهض الفتى الأبيض الباهت اللون بثاقل، وأخذ يقول وهو يهز رأسه:

- يجب أن تخجلوا من أنفسكم. إنني رجل لم أصب إلا القليل من الثقافة، ولكنني أستطيع مع ذلك فهم ماهية العدل.

ورفع ذراعه فوق رأسه وصمت، وقد أغلق عينيه نصف إغلاقاً، كأنه ينظر إلى شيء بعيد، فصاح الرجل العجوز مندهشاً غاضباً، وهو يرتمي إلى الوراء في مقعده:

- ما هذا؟!

- اذهبوا إلى الجحيم!

وجلس مقطب الوجه. كان ثمة شيء في غاية الأهمية في كلماته، شيء من العتاب الساذج الحزين، شعر به كل شخص، حتى إن القضاة أصاحوا بسمعهم، كأنهم يتوقعون سماع صدى كلماته فيوضح أكثر ما تفوه به. خيم صمت جامد على القاعة، قطعت غصص من البكاء مبهمة، وأخيراً هز النائب العام كتفيه، وأرسل ضحكة مقتضبة، وسعل مارشال النبلاء، وابتدأ الناس يتهايمسون من جديد. فهمست الأم إلى سيزوف:

- هل سيتكلم القضاة؟

- لقد انتهى كل شيء عدا الحكم!

- كل شيء؟

- كل شيء!

لم تستطع تصديق ذلك.

تململت أم صمايلوف باضطراب على المقعد دافعة بيلاجيا بكتفيها
ومرفقيها، ثم سألت زوجها:

- ما هذا؟ لا يمكن أن تكون قد انتهت، هل يمكن؟

- يمكن كما سترين قريباً.

- بكم سيحكمون على ابننا جريشا؟

- لا تتكلمي.

كان الجميع يعون أن ثمة اعتداء وقع، ثمة تمزيق وتحطيم، وأخذوا
يطوفون بأعينهم دون فهم، كأنهم يراقبون احتراق كتلة لامعة لا يمكن
تحديد معالمها، كما أن أهميتها غير واضحة، ولكن قوتها لا تقاوم.
وراح الناس، في عجزهم عن فهم الشيء العظيم الذي تكشف لهم فجأة،
ينفسون عن شعورهم في أشياء تافهة يفهمونها. سأل بوكين الكبير في
همس مرتفع:

- اسمعوا... لم لا يتركونهم يتحدثون. لقد تركوا النائب العام يقول
كل شيء، وما يشاء.

وكان أحد الحجاب يقف بالقرب من المقاعد، فلوح بيده فوق
رؤوس الناس، وقال محذراً:

- هدوء... هدوء.

وانحنى صمايلوف خلف ظهر زوجته وتفوه بجمل متقطعة:

- حسناً. لنقل إنهم مذنبون، ولكن أعطوهم الفرصة للتفسير! ضد من

هم؟ هذا ما أريد أن أعرفه؟ وأنا أيضاً يثير ذلك اهتمامي...

فحذره الحاجب هازاً إصبعه في وجه صمايلوف:

- صه!

فهز سيزوف رأسه في كآبة.

ثبتت الأم عينيها على القضية، فلاحظت أن اضطرابهم تزايد وهم يتحدثون معاً، فلفح صدى أصواتهم البارد النحيل وجهها، وجعل خديها يرتعشان، تاركاً في فمها طعمًا كريهاً مزعجاً، وشعرت، لسبب ما، أنهم يتحدثون عن أجساد ابنها ورفاقه، عن أطرافهم الفتية وعضلاتهم الطافحة بالدم الحار والحيوية، فمثل هذه الأجسام أثارت في نفوسهم حسد المتسولين الدنيء، وجشع المرضى المنهكين للزج.

فتلمظوا بشفاهم، كلهم شهوة إلى هذه الأجساد التي في وسعها أن تعمل وتزداد غنى، وتخلق وتعرف المسرات. لكن هذه الأجساد تسحب الآن من الدوران اليومي، وترفض، ويعني هذا أنه لا يمكن امتلاكها، واستغلالها، واستهلاكها، ولهذا السبب أثار الفتية في نفوس القضية الشيوخ النقمة المدمرة المتعطشة إلى الثأر التي تشعر بها الحيوانات التي ترى الطعام الطازج أمامها، ولكنها تفتقر إلى القوة للإمساك به، تلك الحيوانات التي لم تعد قادرة على أن تصيب شبعاً من قوة المخلوقات الأخرى، بل كل ما تستطيع عمله عندما ترى وسيلة لإرواء غليها تفلت منها هو الزمجرة والعواء.

واتخذت الأفكار الغريبة الفجة شكلاً أوضح في مخيلتها وهي تدرس القضية باهتمام أكثر. كانوا يبدون أنهم لا يبذلون أي جهد لإخفاء جشعهم والغيظ العاجز لمخلوقات جائعة تدرك معنى الولايم والشيع الذي

يجتاحهم، وكان مخيفاً بالنسبة لها، هي المرأة والأم التي كان جسد ابنها أعز عليها مما يسمى الروح، أن تراقب عيونهم البليدة تزحف على وجهه، وتلمس صدره، وكتفيه وتحتك بلحمه الحي، كأن الاحتكاك سيدفع الدم الذي ينساب في عروقهم الضامرة وعضلاتهم المنهكة، وقد انتعشوا بعض الشيء الآن من الشهوة والحسد اللذين ثارا في نفوسهم نتيجة لتأمل هؤلاء الفتيان الذين قدر لهم أن يدينوهم، وبهذا يحرمون أنفسهم من أجسادهم، وخيل لها أن باطل كان يعي هذا اللمس اللزج الكريه، فينظر إليها مرتجفاً. كان باطل ينظر إليها في هدوء وحنان، وفي نظرتة ظل من الإعياء، فيhez رأسه إليها من وقت لآخر ويبتسم، وقرأت في ابتسامته التي كانت شبيهة بالمداعبة:

- الحرية... عما قريب!

نهض القضاة في تلك الدقيقة، فنهضت الأم أيضاً، وقال سيزوف:

- ها هم ذاهبون.

فسألت:

- من أجل الحكم؟

- نعم!

وانقطع التوتر الذي كان يسيطر عليها فجأة، فشعرت بدوار من التعب، وارتجف حاجباها، وانبعثت حبات من العرق على جبينها، واجتاح قلبها شعور ثقيل من خيبة الأمل، تحول بسرعة إلى حقد على المحكمة والقضاة، وشعرت بصداع، فضغطت رأسها بيدها ورفعت بصرها. كان

أقرباء المساجين قد ذهبوا إلى القضبان، وامتلأت قاعة المحكمة بهمهمة الأحاديث، فذهبت هي الأخرى إلى باثل، وتناولت يده وأنشأت تبكي، يعصف بها الألم والفرح، تائهة في دوامة من العواطف المتضاربة. تحدث إليها باثل في رقة، بينما أخذ الأوكراني يضحك ويتندر!

وكانت كل النساء تبكي، لا من الحزن فقط، ولكن بفعل العادة أيضًا. لم يكن ثمة حزن ساحق، يسقط دون أن يرى وعلى غير انتظار، بل كان هناك ضرورة الافتراق عن أبنائهم، وحتى هذا كان أيضًا قد ارتفع وخفت وطأته؛ نتيجة لانفعالات اليوم، فنظر الآباء والأمهات إلى أبنائهم بمشاعر مختلطة، فيها الارتباب والتشكك من الشباب، وشعورهم الطبيعي بالتفوق، كلها ممتزجة، بشكل غريب، بشيء يشبه الاحترام.

وأفلتت الأفكار الحزينة التي تراودهم عن كيفية استمرار حياتهم أمام التعجب الذي أوحى به هؤلاء الفتیان الذين تكلموا بشجاعة ودون خوف، عن إمكانية خلق طريقة حياة أخرى وأفضل.

وكبتت المشاعر بسبب عدم القدرة على التعبير عنها، وأطلقت الكلمات بتبذير، ولكن فيما يختص بأمور بسيطة، كالملابس والغسيل والصحة.

وكان بوكين الكبير يلوح بيده وهو يحدث شقيقه:

- إن العدالة كل ما يهمنا، لا شيء غير ذلك!

فأجاب الأصغر:

- اعتني بطائر الزرزور.

- سأعتني به!

وأخذ سيزوف ابن أخيه من ذراعه وقال له:

- حسنًا يا فيودور إنك ستتركنا.

وانحنى فيودور وهمس بشيء في أذنه وهو يبتسم في سرور.

وابتسم الحارس، ولكن سريعًا، ثم طرد الابتسامة وتنحى.

حدثت الأم ابنها مثل بقية النساء تمامًا، عن الملابس وعن صحته، ولكنها كانت تريد أن توجه إليه آلاف الأسئلة عن ساشا، وعنهما هي نفسها، وعنه هو، وفوق كل هذا، غمرها حب دافق لابنها والرغبة في إسعاده، وأن تكون عزيزة عليه. تلاشى الخوف مما سيحدث، تاركًا خلفه رعشة غير مستحبة فقط، تراودها كلما تذكرت القضية والانطباع الأسود الذي تركته المحاكمة نفسها.

وولد في داخلها فرح عظيم يتألق، لم تفهم تمامًا كنهه، ولكنها قبلته في خفر وحياء، وإذ رأت الأوكراني يتحدث إلى الناس، وعرفت أنه يحتاج إلى الحنان أكثر من بافل، التفتت إليه، وقالت:

- إنني لا أؤمن كثيرًا بمحاكماتكم هذه!

فسأل وعلى وجهه ابتسامة امتنان:

- ولم يا نينكو؟ إن الطاحونة عتيقة، ولكنها لا تزال تطحن...

فقال في تردد:

- إنها لم تخف أحد، ولكنها لم توضح شيئًا، مَنْ المُحق وَمَنْ

المخطئ؟

فهتف أندري:

- أوه! أوه! إذن فهذا ما كنت تريدينه! هل تعتقدين أنهم مهتمين
بالوصول إلى الحقيقة؟

قالت متنهدة مبتسمة:

- كنت أعتقد أنها ستكون مخيفة.

- نظام...! محكمة!

فهرع الناس إلى أماكنهم.

واعتمد كبير القضاة على المائدة بيد واحدة وأمسك باليد الأخرى
ورقة بالقرب من وجهه وأخذ يقرأ في صوت رفيع يشبه الصفير.

قال سيزوف منحنيًا إلى الأمام:

- إنه يقرأ الحكم!

وخيم السكون على القاعة، وقد وقف الجميع، أعينهم مثبتة على
الرجل العجوز الذي كان يبدو ضئيلاً مستقيماً كعصا تمسك بها يد لا
تُرى، وكان بقية القضاة وقوفاً أيضاً: المحافظ رأسه مائل إلى أحد الجانبين
وعيناه مثبتتان على السقف، والعمدة يده مصلبتان على صدره، ومارشال
النبلاء يمشط لحيته، والقاضي المعتل، وزميله البدين، والنائب العام،
كلهم يحملقون في المساجين.

وخلف القضاة كان القيصر ينظر من صورته، متألقاً في بزة حمراء،
وعلى وجهه الأبيض علامات عدم المبالاة، بينما كانت ذبابة تزحف عليه
الآن.

قال سيزوف متنهّداً في ارتياح:

- النفي! شكرًا لله لقد انتهت. لقد كنت خائفًا أن تكون الأشغال الشاقة! إن هذا أفضل يا أماء!

فقال في صوت متعب:

- كنت أعلم أنه سيكون كذلك!

- حسنًا، ولكنه الآن تأكد، لا يمكن التنبؤ بما قد يفعلون.

والتفت إلى المساجين الذين يقادون خارج القاعة وهتف:

- الوداع يا فيودور... وكلكم جميعًا. ليرضى الله عنكم!

هزت الأم رأسها إلى ابنها في صمت وإلى الآخرين، وشعرت برغبة في البكاء، ولكنها خجلت من نفسها!

- ٢٧ -

دهشت الام عندما غادرت المحكمة أن رأت الليل قد حل. كانت الأنوار تضيء عند زوايا الشارع، والنجوم تتلألأ في السماء، وقد تجمعت جماعات من الناس بالقرب من المحكمة، الثلج يتكسر في الهواء البارد، وأصوات فتية تتردد، ونظر رجل يرتدي قبعة رمادية إلى سيزوف، وسأل بسرعة:

- ما هو الحكم؟

- النفي!

- للجميع؟

- نعم!

- شكرًا!

وسار الرجل مبتعدًا.

قال سيزوف:

- أترين؟ كلهم مهتمون!

وفجأة أحاط بهم نحو عشر فتيات وفتيان، فجذب صراخهم أناس آخرين إلى الجماهرة الصغيرة. توقفت الأم وسيزوف وسُئلا عن الحكم، وكيف تصرف المساجين، وعن الذين خطبوا، وماذا قالوا... وكانت سائر هذه الأسئلة تطفح باهتمام أصيل، مما جعل الأم سعيدة بأن تجيب عنها.

وقال شخص ما:

- أيها السادة! هذه هي والدته بافل فلاسوف.

فسيطر السكون على الجميع في الحال.

- اسمحي لي أن أصفحك!

وأمسكت يد قوية بأصابع الأم، وصاح منفعلاً:

- إن ابنك مثال الشجاعة لنا جميعًا.

وترددت صيحة مرتفعة:

- ليحيى العمال الروسيون!

وازداد الهتاف وتضاعف، منطلقًا تارة هنا وتارة هناك، وهرع الناس

من كل صوب يلتفون حول سيزوف والأم. نفخ الجنود صفاراتهم، ولكنها لم تستطع إغراق الهتافات، وضحك سيزوف، وبدا للأم كل هذا كحلم لذيد، فكانت تبتسم وتنحني وتصافح أيدي الناس، بينما تملأ دموع الفرح عينيها. كانت قدماها ترتجفان من الإعياء، ولكن قلبها الطافح كان يعكس كل الانطباعات كسطح بحيرة صافٍ برّاق.

وأخذ شخص يقف بجانبها يتحدث بصوت واضح مضطرب:

- أيها الرفاق، إن الوحش الذي يلتهم الشعب الروسي قد أطبق اليوم أسنانه الجشعة.

قال سيزوف:

- من الأفضل أن نذهب يا أماء.

أنت ساشا في تلك اللحظة وأمسكت الأم من ذراعها وقادتها إلى الجانب الآخر من الشارع، وقالت:

- هيا تعالي قبل أن يبدأ شجار، أو يقوم البوليس باعتقال أحد، ثم سألت:

- النفي؟ إلى سيبيريا؟

- نعم.

- وكيف تكلم؟ لكنني أعرف... كان أشجعهم جميعاً وأبسطهم، وبالطبع أكثرهم صرامة، إن له طبيعة حنونة حساسة، ولكنه يخاف إظهارها.

هدأت كلمات جيبها، التي همست بها في حماس، من روع الأم،

ومدتها بقوة جديدة، فسألت ساشا، وهي تضغط على يدها بحنان:

- متى ستذهبن للانضمام إليه؟

أجابت الفتاة وهي تنظر في ثقة أمامها:

- حال أن أجد من يأخذ عملي. وعلى أي حال، فإنني أنتظر صدور الحكم عليّ، وأعتقد أنه سيكون النفي إلى سيبيريا أيضًا، فإذا كان كذلك سأطلب منهم إرسالني إلى المكان الذي هو فيه!

وأتى صوت سيزوف:

- في تلك الحالة، قدمي له تحياتي، قل لي له: «من سيزوف» فقط، إنه يعرفني، إنني عم فيودور مازن!

التفتت إليه ساشا، ومدت يدها وقالت:

- إنني أعرف فيودور، اسمي ساشا.

- واسم عائلتك؟

قالت:

- ليس لي أب!

- تُوفي؟

- كلا، ليس متوفي!

وزحف شيء عنيد حازم إلى صوت الفتاة، وانعكس على وجهها:

- إنه من أصحاب الأملاك، وهو الآن مدير ناحية... إنه ينهب

الفلاحين!

قال سيزوف في اضطراب:

- هم...!

وسار، خلال السكون الذي خيم، بجانب الفتاة، وأخذ يحدجها بنظرات جانبية.

قال أخيراً:

- حسنًا، إلى اللقاء يا أماء، سأذهب إلى اليسار. إلى اللقاء يا فتاتي. إنك قاسية على والدك، أليس كذلك؟ بالطبع إن هذا من شأنك...

فصاحت ساشا في انفعال:

- إذا كان ابنك شريرًا... إذا كان يأذي الناس وأنت تحترقه، ألن تتبرأ منه؟

أجاب الرجل العجوز بعد برهة:

- حسنًا... ربما كنت أفعل ذلك!

- ستتبرأ منه، لو كانت العدالة أعز عليك من ابنك، وهي أعز عليّ من أبي!

فابتسم سيزوف، وهز رأسه وقال متنهدًا:

- حسنًا، إنك لفتاة رابطة الجأش! لو أن لديك القوة أن تستمري هكذا، فإنك ستغلبين على الشيوخ! إنك لقوية جدًا! حسنًا، إلى اللقاء، وأطيب تمنياتي! ولكن لم لا تكونين أكثر رحمة بالناس؟ إلى اللقاء يا نيلوفنا. عندما ترين باثل، قللي له إنني سمعت خطابه، ولم أفهم كل ما جاء فيه، لقد كان بعضه صعب الهضم، ولكنه كان عمومًا جيدًا.

ورفع قبعته واختفى وراء الزاوية في بطاء...

قالت ساشا، مبتسمة وهي تتبعه بعينها الواسعتين:

- يبدو أنه شخص طيب!

وجدت الأم أن وجه الفتاة كان أكثر رقة وحناناً اليوم عن المؤلف، وعندما وصلتا إلى البيت، جلستا بجانب بعضهما على الأريكة، وأخذتا يتحدثان عن رحلة ساشا المنتظرة إلى مكان باقل. كان السكون مخيماً، ورفعت ساشا حاجبها الغزيرين، ونظرت إلى الفضاء بعيون واسعة حاملة، كان على وجهها الشاحب سيماء التفكير الهادئ:

- وعندما يولد أطفالكما سأتي إليكما للعناية بهما، ولن تكون حياتنا هناك أسوأ مما هي عليه هنا، ولن يكون صعباً على باقل أن يجد عملاً... فهو يستطيع أن يقوم بأي عمل يدوي...

ونظرت ساشا إلى الأم متسائلة وقالت:

- ألا تنوين الذهاب معه الآن؟

فأجابت الأم متنهدة:

- وما عساه يريد بي؟ سأكون عقبة في طريقه، لو أراد الهرب، إنه لن يقبل أن أذهب.

هزت ساشا رأسها:

- إنك على حق. لن يقبل...

وأضافت الأم، وعلى وجهها مسحة من الفخر:

- ثم لديّ عمل هنا!

فأجابت ساشا:

- نعم، وهذا مهم.

وأنت ساشا فجأة بحركة كأنها تلقي بشيء، ثم بدأت تتكلم في هدوء وبساطة:

- إنه لن يستمر في العيش هناك، وبالطبع سيهرب.

- وماذا عنك؟ وعن الطفل، إن كان ثمة طفل؟

- سنرى عندما يحين وقت ذلك. يجب ألا يفكر بي، وأنا لن أسمح
لنفسي أن أعترض سبيله. سيكون صعب عليّ أن أفترق عنه، ولكنني
أستطيع تحمل ذلك، لن أعترض سبيله أبدًا!

كانت الأم تدرك أن ساشا قادرة على فعل ما تقول، فشعرت بالأسى
من أجل الفتاة. قالت وهي تضمها:

- سيكون ذلك صعبًا عليك يا عزيزتي.

ابتسمت ساشا في عذوبة، وازدادت من الأم قربًا. دخل نيقولا في
تلك اللحظة متعبًا منهوك القوى، فقال وهو يخلع معطفه:

- من الأفضل أن تخرجي قبل أن يفوت الأوان يا ساشا. إن جاسوسين
يتبعاني منذ الصباح... بصورة مكشوفة للغاية، حتى إن رائحة الاعتقال
تفوح منها، إن حدسي لا يخدعني أبدًا. لقد حدث شيء ما! هاك خطاب
بافل... لقد قررنا طباعته، خذيه إلى لودميلا واطلبي منها أن تعمل بأقصى
سرعتها، فقد ألقى خطابًا رائعًا يا نيلوفنا! احترسي من الجواسيس يا ساشا!

وفرك يديه المتجمدتين وهو يتكلم، ثم ذهب إلى مكتبه، وأخذ يخرج أوراقاً من درجه، مزق بعضها، أما البعض الآخر فقد وضعه جانباً. كان يبدو متعباً قلقاً.

- لم يمض وقت طويل منذ نظفت هذه الأدراج. إن الشيطان وحده يعلم من أين جاءت كل هذه الأشياء الجديدة! أعتقد أن من الأفضل إن لم تقضي الليلة في البيت يا نيلوفنا. ما رأيك؟ إنه لأمر ممل أن يشاهد المرء هذه المهزلة، وبالإضافة إلى هذا، فقد يعتقلونك أنت أيضاً، ثم إننا في حاجة إليك لتتقلبي هنا وهناك توزعين خطاب باثل...

- وماذا عساهم يريدون مني؟!

لوح نيقولا ي بيده وقال بحزم:

- إن لي أنف يشم مثل هذه الأمور، ثم إنك تستطيعين تقديم مساعدة كبيرة إلى لودميلا، فلا تجازفي.

سرّت الأم لفكرة المساهمة في طباعة خطاب ابنها، فقالت مذهولة من نفسها:

- إذا كان الأمر كذلك سأذهب، إنني لم أعد أخاف أي شيء. شكراً لك أيها الرب!

فهتف نيقولا دون أن ينظر إليها:

- رائع، ولكن من الأفضل أن تقولي لي أين حقيتي وثيابي؟ فبفضل سيطرتك، استوليت على كل شيء، حتى أصبح يستحيل عليّ العثور على ممتلكاتي!

كانت ساشا تحرق ورقًا في الفرن، وتمزج الرماد بالفحم.

فقال نيقولا ي مادًا يده:

- لقد حان وقت ذهابك يا ساشا، إلى اللقاء. لا تنسي أن ترسلي لي كل الكتب المهمة التي تظهر. إلى اللقاء أيتها الرفيقة العزيزة. كوني حذرة! فسألت ساشا:

- هل تتوقع حكمًا طويل الأجل؟

- من يعرف؟ ربما، إن لديهم أدلة ضدي. أليس من الأفضل أن تذهبي معها يا نيلوفنا؟ فمن الصعب متابعة شخصين في وقت واحد. أجابت الأم:

- حسنًا. سأرتدي معطفي وقبعتي.

تفحصت نيقولا ي بعناية، ولكنه كان كعهده دائمًا، اللهم إلا قلقًا ما، كان يغلف تعابير الرقة واللفظ المألوفة التي كانت تكسو وجهه. لم تكن تصدر عن هذا الرجل، الذي أصبح أعز عليها من الآخرين، أي حركات تنم عن عصبية، أو إشارات تدل على الاضطراب والانفعال. لقد كان دائمًا يبدي للجميع اهتمامًا متساويًا، وكان دائمًا لطيفًا، هادئًا ووحيدًا. ولا زال الآن بالنسبة للجميع ما كان عليه من قبل، رجلًا يعيش حياة خفية باطنية متقدمة نوعًا ما عن حياة الآخرين. كانت تدرك أنه وجد فيها روحًا أقرب إليه، فأحبته حبًا مترددًا غير واثق من نفسه. أما الآن، فإن الشفقة التي تشعر بها نحوه أضحت لا تطاق، ولكنها لم تجرؤ على إظهارها خوفًا من أن يغضب نيقولا ي ويرتبك، فيبدو في هذه الحالة مضحكًا نوعًا ما.

وعندما عادت إلى الغرفة، وجدت نيقولا يمسكًا بيد ساشا وهو يقول:

- عظيم! إنني لعلّى يقين من أن ذلك سيكون أحسن شيء لك وله،
فقليل من السعادة الشخصية لا يؤذي أحد. هل أنت مستعدة يا نيلوفنا؟
واقترب منها مبتسمًا ورفع نظارتيه:

- حسنًا، إلى اللقاء... بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، ليس أكثر من ستة
أشهر، كما أرجو... ستة أشهر! إنها لمدة طويلة من الحياة! اعتني بنفسك.
والآن دعيني أقبلك!

وأحاطها بذراعيه، نحيلاً رقيقاً، ونظر إلى عينيها وقال ضاحكاً:

- يبدو أنني وقعت في حبك حتى أعانقك بهذه الطريقة...!
قبلت جبينه وخديه، دون أن تنبس بكلمة، ولكن ذراعيها كانا يرتجفان
فسحبتهما حتى لا يلاحظهما.

- كوني حذرة غداً بشكل خاص. أرسلني في الصباح صبيّاً صغيراً إلى
هنا- لودميلا تعرف مثل هذا الصبي - حتى تتحققوا ما حدث. حسنًا، إلى
اللقاء أيتها الرفيقتان. إن كل شيء كما يجب أن يكون عليه.

وعندما خرجتا قالت ساشا في هدوء:

- إذا اضطر يوماً أن يذهب لملاقة الموت، سيذهب بمثل هذه
البساطة، مسرعاً بعض الشيء، وعندما يجابه الموت وجهًا لوجه، سيرفع
نظارتيه ويقول قبل موته: «عظيم»!

فقالَت الأم هامة:

- لقد أصبحت أحبه كثيرًا!

- إنه يدهشني، ولكنني لا أحبه، بل أحترمه كثيرًا. إنه لطيف، وحتى
حنون في بعض الأحيان، ولكن ثمة شيء جاف فيه... إنه ليس إنسانًا
بصورة كافية. يبدو أننا مطاردتان، فمن الأفضل أن نفترق... لا تذهبي إلى
لودميلا، إذا شعرت أن هناك من في إثرك.

قالت الأم:

- لن أذهب!

فأكدت ساشا عليها:

- لا تذهبي، بل تعالي إلى بيتي. إلى اللقاء الآن.

واستدارت بسرعة، وعادت أدراجها من حيث أتت!

- ٢٨ -

كانت الأم تجلس، بعد بضع دقائق، في غرفة لودميلا الصغيرة،
بجانب الموقد تتدفأ، وكانت لودميلا تذرع أرض الغرفة في بطاء، وهي
ترتدي ثوبًا أسود ذا حزام جلدي، فتملأ الغرفة بحفيف ثوبها ورنين صوتها
الآمر.

وكانت النار تطلق وتزأر في الموقد، وهي تمتص الهواء، بينما
صوت المرأة ينساب في تناسق:

- الناس بلهاء أكثر منهم أشرارًا، فهم لا يستطيعون رؤية سوى ما هو

أمام أعينهم، وما يمكن فهمه في الحال - أي كل ما هو قريب من اليد ورخيص - فالأشياء البعيدة فقط هي الثمينة العزيزة، وعندما تفكرين في الأمر تجددين أن كل الناس ستكون هنا وأفضل حالاً لو أن الحياة تختلف عما هي عليه الآن... لو كانت أيسر والبشر أعقل، ولكن تحقيق ذلك سيستغرق زمناً طويلاً.

ووقفت بغتة أمام الأم، وقالت في اعتذار:

- إنني لا أرى الناس إلا قليلاً، وعندما أراهم فإنني أروح أخطب فيهم.
لا بد أنك تظنين أنني بلهاء!

فقالت الأم:

- لماذا؟

وحاولت أن تكتشف أين تقوم هذه المرأة بطبع منشوراتهم، ولكنها لم تستطع. كان يقوم في هذه الغرفة بنوافذها الثلاث المواجهة للشارع أريكة وحافطة كتب ومائدة وكراسي وسرير، وكانت في إحدى الزوايا مغسلة وفي الأخرى موقد، وصور معلقة على الجدار. كان كل شيء جديداً ونظيفاً وفي حالة جيدة، وكان شبح صاحبة البيت يلقي على سائر الأشياء ظلاً بارداً. أحست الأم أن ثمة شيئاً مخيفاً، ولكنها لم تستطع تخمين مكانه. تطلعت إلى الأبواب، كانت قد دخلت أحدها وهو يفضي إلى ردهة صغيرة، وكان ثمة باب آخر مرتفع وضيق، إلى جوار الموقد.

قالت متمالكة نفسها، وهي تحس أن لودميلا تراقبها:

- لقد جئت في عمل.

- إني أعلم ذلك، فالناس لا يأتون لرؤيتي لغير ذلك!

لاحظت الأم أن ثمة شيئاً غريباً في لهجة لودميلا، فنظرت في وجهها، ورأت أن هناك ظل ابتسامة على شفيتها الرقيقتين، كما كانت عيناها تشعان في كآبة من خلف نظارتيها، فنظرت الأم جانباً ومدت يدها بخطاب بافل:
- إليك هذا. يريدون منك أن تطيعه في أسرع وقت ممكن، ثم قالت إنه من المتوقع أن يُعتقل نيقولا.

دست لودميلا الورقة في حزامها في صمت وجلست، فالتمعت النار حمراء على زجاج نظارتيها، وراح ضوءها الدافئ يتلاعب فوق وجهها الجامد، ثم قالت في حزم وهدوء، بعد أن فرغت الأم من حديثها:
- عندما يأتون ورائي، فسوف أطلق النار عليهم. إني أمتلك الحق في الدفاع عن نفسي ضد العنف، ولا بد لي من القتال، ما دمت أدعو الآخرين إلى ذلك.

وانزاح لمعان النار عن وجهها، تاركاً إياه صارماً متكبراً كعادته أبداً، ففكرت الأم بغتة في موجة من رثاء:
- هذه ليست طريقة للحياة.

راحت لودميلا تقرأ خطاب بافل بنوع من التردد، ولكنها ما لبثت أن أصبحت مهتمة به وهي تتابع القراءة، وفي النهاية قلبت الصفحات واحدة تلو الأخرى في لهفة ونفاد صبر، وعندما انتهت من ذلك نهضت واقفة وشدت كتفيها، ثم اقترب من الأم وقالت:
- إنه لخطاب رائع حقاً!

ووقفت لحظة تفكر وهي مطرقة الرأس:

- لم أشأ أن أحدثك عن ابنك... فأنا لم ألتق به قط، كما أنني لا أحب الحديث في الموضوعات المؤلمة. إني أعرف ماذا يعني إرسال إنسان عزيز عليك إلى المنفى، ولكنني كنت أتساءل: هل أنت مسرورة لأن لديك مثل هذا الابن؟

فقالت الأم:

- أجل!

- أو لست خائفة؟

فأجابت الأم بابتسامة وقورة:

- ليس بعد الآن.

مسحت لودميلا شعرها الأملس بيد واحدة ثم استدارت نحو النافذة، ومر ظل على وجهها، لعله كان خيال ابتسامة مكبوتة.

- سوف أبدأ الطباخة في الحال، تمدي قليلاً، فقد قضيت يوماً صعباً، ولا بد أنك متعبة، تمدي على السرير، فأنا لن أنام، وحتى قد أوقظك في الليل لتساعديني. أطفئي المصباح عندما تستعدين للذهاب إلى الفراش.

ألقت قطعتين من الخشب في الموقد، ثم دلفت إلى الخارج عبر الباب الضيق، بعد أن أغلقته وراءها بإحكام. راقبتها الأم وهي تغادر الغرفة، ثم شرعت تخلع ثيابها وهي تفكر بها:

- إنها حزينة لسبب ما...

كانت الأم منهكة، ولكنها أحست باطمئنان غريب، وبدأ كل شيء

يضيء في عينيها بنور لطيف عذب، يغمر روحها في هدوء عظيم. لقد
عرفت هذا الاطمئنان من قبل، فهو يجيئها دائماً بعد كل انفعال عنيف،
ولقد كان يبعث في نفسها بعض القلق ذات يوم، ولكنه الآن لا يعمل إلا
على توسيع آفاق روحها وتوطيدها بشعور عتيّ جبار.

أطفأت المصباح، ثم تسلقت إلى السرير البارد، وانكملت بارتياح
تحت الغطاء، وفي الحال استغرقت في نوم عميق.

عندما فتحت عينيها، كانت الغرفة تطفح بنور نهار شتائي صاف
أبيض بارد، فتطلعت لودميلا إليها من الأريكة، حيث كانت تضطجع وبين
يديها كتاب، ثم ابتسمت بطريقة غير معتادة.

فهمت الأم في ارتباك:

- يا إلهي! أي مخلوقة أنا! هل الوقت متأخر جداً؟!

فأجابت لودميلا:

- صباح الخير! إنها العاشرة الآن. انهضي، وسوف نتناول الشاي.

- لمَ لم توقظيني؟

- كنت على وشك أن أفعل ذلك، ولكنني عندما اقتربت منك كنت
تبتسمين في نومك بعدوبة، فلم يطاوعني قلبي على ذلك.

نهضت عن الأريكة بحركة خفيفة، وسعت إلى السرير، حيث انحنى
فتبينت الأم في عينيّ الشابة الخابيتين تعبيراً عرفته وأحبته.

- بدالي إزعاجك شيء مؤلم... ربما كنت تحلمين حلمًا سعيدًا.

- إنني لم أفعل.

- هذا لا يهم، فقد أحببت ابتسامتك، كانت هادئة ووادعة و... بشكل لا يمكن أن يوصف.

وضحكت لودميلا، وكانت ضحكتها رقيقة مخملية.

- لقد حملني ذلك على التفكير فيك، هل حياتك شاقة؟

فارتجف حاجبا الأم وهي تتساءل إذا كانت كذلك أم لا؟ ثم هتفت لودميلا:

- لا بد أن تكوني كذلك.

فقالت الأم في ببطء:

- لست واثقة، فهي تبدو شاقة أحياناً، ولكنها كثيرة الامتلاء... وكل ما فيها مهم جداً، ومثير للدهشة، والشيء فيها يتبع الآخر بسرعة عظيمة... وكما صار يحدث غالباً، أحست بموجة مفاجئة من القلق، فامتلاً ذهنها بالأفكار والصور، فجلست في السرير، وراحت تتصيد لها ما يناسبها من الألفاظ.

- إنها تستمر وتستمر... متجهة كلها إلى هدف واحد... ولكن ذلك صعب أحياناً. الناس يتألمون وينكل بهم... بصورة قاسية... ولا يسمح لهم أن يكونوا سعداء. ذلك صعب للغاية!!

ألقت لودميلا برأسها للوراء، وحملت بحنان:

- ولكنك لا تتحدثين عن نفسك.

فنهضت الأم عن السرير وشرعت ترتدي ثيابها.

- أنى لك أن تفكري بنفسك بعيدًا عن الآخرين عندما تحبين هذا،
وذاك، وتخافين من أجلهم جميعًا، وتشفقين عليهم جميعًا، كل ذلك
الحشد الضخم من الناس في قلبك... كيف تستطيعين أن تنفصلي عنهم؟
وقفت برهة وسط الغرفة غير مكتملة اللباس، ضائعة التفكير،
وأحست أنها لم تعد تلك المرأة التي كانت مفعمة بالشكوك والمحاذير
من أجل ابنها، المشغولة بالتفكير في كيف تستطيع إنقاذ جسده. تلك
المرأة لم يعد لها بعد الآن وجود، فلقد انسحبت، وذهبت إلى مكان ما
بعيدًا جدًا، أو لعلها احترقت بنار عاطفتها، فظهر ذلك روحها، وكررها ثم
شحنها بقوة جديدة.

وبحث قلبها، تنصت لخفقاته، خائفة من إحياء المخاوف القديمة
من جديد.

سألت لودميلا وهي تقترب منها:

- ما الذي تفكرين فيه؟

فأجابت الأم:

- لست أدري.

وفي صمت تبادلنا النظرات، وابتسمتا، ثم خرجت لودميلا من الغرفة
وهي تقول:

- إنى أتساءل، ماذا حدث لساموئيل.

نظرت الأم عبر النافذة، كان يومًا مشمسًا باردًا، وكان قلبها كذلك
مشمسًا ولكن دافئًا. كانت تريد أن تتحدث عن كل شيء، أن تتحدث

طويلاً وفي غبطة، بشعور غامض من الامتنان لشخص ما من أجل كل ما دخل في روحها، وأخذ يلتهب الآن هناك بذلك النور المحجب الذي يسبق مغيب الشمس وعادتها رغبة في الصلاة التي لم تمارسها منذ زمن طويل. لمع عبر ذهنها وجه فتى وسمعت صوتاً واضحاً ينادي: «تلك هي أم بافل فلا سوف!» ورأت عيني ساشا النديتين اللامعتين، وصورة ريبن القاتمة، ووجه ابنها البرونزي الصارم، ونظرة نيقولاوي الخجولة المرتبكة، ثم امتزج كل هذا بغتة في زفرة عميقة واحدة، واختلط في سحابة شفافة ألوانها من قوس قزح، غمرت كل أفكارها، وألقت في قلبها إحساساً بالسلام.

قالت لودميلا وهي تدخل إلى الغرفة من جديد:

- لقد كان نيقولاوي محقاً، فقد اعتقلوه. لقد أرسلت الصبي للاستطلاع كما أشرت عليّ، فقال إن ثمة رجالاً من الشرطة في الحديقة، كما أنه رأى شرطياً يختبئ وراء البوابة، والجواسيس في كل مكان. الصبي يعرفهم.

فقالت الأم وهي تهز رأسها:

- يا للرجل المسكين!

وتنهدت، ولكن من غير حزن، مما أذهلها في سرها.

قالت لودميلا في ثقة والعبوس يعلو وجهها:

- لقد كان أخيراً يعلم العمال في المدينة، وإنني أعتقد بأنه قد آن له أن يُعتقل، لقد قال له رفاقه أن يذهب، ولكنه لم يستمع إليهم. أخشى أن الناس في مثل هذه الحالات يجب أن يرغموا على الذهاب، لا أن يقتنعوا بذلك.

وفي تلك اللحظة بدا في فرجة الباب صبي أسود الشعر، مورد الخدين، ذو عينين زرقاوين جميلتين، وأنف أقني، قال:

- هل آتي بالساموثرار؟

فقالت:

- إذا سمحت يا سيرجي!

ثم استدارت للأم وقالت:

- إنه تحت وصايتي!

وجدت الأم أن لودميلا على غير عاداتها هذا النهار، فهي أكثر بساطة، وأكثر تجانسًا. كان في حركات جسدها الرشيقه كثير من الجمال والقوة، مما خفف من حد وجهها الشاحب الصارم، وقد سَوِدَ عمل الليل الدوائر تحت عينيها، وأصبح المرء يحس بوتر مشدود جدًّا في روحها. أدخل الصبي الساموثرار.

- اسمح لي أن أقدمك يا سيرجي، هذه بيلاجيا نيلوفنا، أم أحد العمال الذين حوكموا بالأمس!

فانحنى سيرجي من غير أن يتكلم، وهز يد الأم مصافحًا، وخرج من الغرفة وعاد برغيف من الخبز، ثم اتخذ مكانه على المائدة. حاولت لودميلا، بينما هي تصب الشاي، أن تقنع الأم بالعدول عن الذهاب إلى البيت، حتى يتبين من الذي كان ينتظره رجال الشرطة.

- لعلهم ينتظرونك أنت، فمن المحتمل أن يرسلوا في طلبك للاستجواب.

فقالت الأم:

- فليفعلوا! وليقتلونني، إذا أرادوا... فليس في ذلك ضرر كبير. آه لو يوزع أولاً خطاب باقل!

- لقد صففت الأحرف، وسيكون لدينا غداً عدد كاف من النسخ للمدينة ولحي العمال. هل تعرفين ناتاشا؟

- طبعاً أعرفها.

- خذهم إليها.

كان الصبي يقرأ الورقة، وبدأ أنه لا يستمع لحديثهما، ولكنه كان ينظر إلى وجه الأم بين الحين والآخر، فأحبت عينيه اللامعتين، وراحت تبتسم له. كانت لودميلا تتكلم عن نيقولا في دون حزن، فتجد الأم ذلك طبيعياً جداً. مر الوقت في سرعة، فما انتهوا من طعام الإفطار حتى كان الوقت ظهراً، فهتفت لودميلا:

- لقد تأخرنا!

وفي هذه اللحظة قرع شخص ما الباب في سرعة، فنهض الصبي، ونظر إلى لودميلا متوقفاً.

- افتح الباب يا سيرجي، من عساه يكون؟

ومن غير اضطراب وضعت يدها في جيب سترتها وقالت للأم:

- إن كانوا جنوداً، فقفّي أنت هناك في الزاوية يا بيلاجيا نيلوفنا، وأنت

يا سيرجي...

فقال الصبي وهو يخرج:

- إنني أعرف.

ابتسمت الأم، فلم تعد هذه الاستعدادات تقلقها... كما أنها لا تتوقع أي كارثة.

ولكن ضيفهم لم يكن سوى الطبيب الصغير، قال بسرعة:

- قبل كل شيء، لقد اعتقل نيقولا، آها! هكذا فأنت هنا يا نيلوفنا! ألم تكوني في البيت عندما أخذه؟
- لقد أرسلني هنا!

- هم! أخشى أن ذلك لا يفيد. وثانيًا نسخ بعض الفتيان في الليلة الماضية حوالي خمسمائة نسخة من الخطاب، لقد رأيته... لم تكن سيئة... كانت واضحة ونظيفة، وهم يريدون أن يوزعوها الليلة في المدينة، ولكنني ضد ذلك، إذ أعتقد أن من الأفضل أن توزع في المدينة النسخ المطبوعة، وأن تحفظ هذه في مكان آخر.

قالت الأم في لهفة:

- سأخذها أنا لنتاشا، أعطيها.

كانت لهفتها عظيمة؛ كي توزع خطاب ابنها بأسرع ما يمكن؛ كي تنشر كلماته فوق الأرض بأسرها، فراحت تثبت عينيها متوسلة في وجه الطبيب، وهي تنتظر جوابه. قال في غير ثقة وهو يخرج ساعته:

- الشيطان وحده يعلم إن كان عليك أن تقومي بذلك الآن. إنها الحادية عشرة والدقيقة الأربعون الآن. ثمة قطار في الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسون يوصلك إلى هناك في الخامسة والرابع، أي عند

المساء، ولكن لن يكون الوقت متأخرًا على أي حال، يبدو أن المشكلة المهمة ليست هذه..

فقالت لودميلا عابسة:

- كلا، ليست هذه هي المشكلة.

سألت الأم وهي تتحرك في اتجاهه:

- وما هي المشكلة المهمة؟ أن ينجز العمل على خير وجه فقط!

ورشتها لودميلا بنظرة فاحصة، ثم قالت وهي تمر بيدها على جبينها:

- إن من الخطر عليك أن تفعلي ذلك.

فسألت الأم في إصرار حار:

- لماذا؟

فأجاب الطبيب بنبرات متكسرة:

- هذا هو السبب، لقد غادرت البيت قبل اعتقال نيقولاي بساعة

واحدة فقط، وذهبت إلى المصنع، حيث أنت معروفة كعمة نيقولاي،

وبعد ذلك بقليل وجدت في المصنع منشورات ممنوعة، وكل ذلك يشكل

أنشطة جميلة حول عنقك.

فقالت الأم في لهفة:

- لن يلحظني أحد، وإذا اعتقلوني بعد عودتي، وسألوني أين كنت...

وترددت لثانية من الزمن، ثم صاحت:

- أنا أعرف ما سأقول. سأذهب مباشرة من هناك إلى الحي، وإني

أعرف هناك صديقاً اسمه سيزوف، وسأقول إنني ذهبت مباشرة إلى بيته بعد المحاكمة ليخفف بعضنا عن بعض؛ فلقد حوكم ابن أخيه أيضاً، ولسوف يقف إلى جانبي.

وإذ تأكدت أنهما يميلان إلى تلبية رغبتها استمرت في إصرارها، آملة الإسراع في إقناعهما، حتى استسلما في النهاية. قال الطبيب بعد إحجام:

- حسناً، خذيهما!

لم تقل لودميلا شيئاً، وإنما اكتفت بأن تذرع الغرفة تائهة الفكر. كان وجهها يبدو قاتمًا نحيلًا، وعضلات عنقها المشدودة تظهر الجهد الذي تبذله كي تمنع رأسها من السقوط فوق صدرها. لاحظت الأم ذلك فابتسمت قائلة:

- إنكم قلقون عليّ، ولكنكم لا تقلقون على أنفسكم إطلاقاً.

فقال الطبيب:

- أوه، نعم، إننا نفعل... فنحن مضطرون إلى ذلك... وإننا لقساء جداً مع أولئك الذين نراهم يضيعون قوتهم من أجل غاية غير جيدة. حسناً لسوف تتسلمين نسخ الخطاب في المحطة.

وشرح لها كيف سيتم ذلك، وقال عندما فرغ من ذلك:

- والآن، نتمنى لك حظاً سعيداً.

ولكنه بدا مستاء لأمر ما عندما غادر المكان، فسعت لودميلا إلى الأم وقالت وهي ترسل ضحكة هادئة:

- إنني أفهمك.

وأخذت ذراع الأم وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً مرة أخرى.

- إن لي، أنا أيضاً، ابناً، إنه في الثالثة عشرة من عمره، ولكنه يعيش مع أبيه. إن زوجي مدعي عام مساعد، والصبي معه، ماذا سيصير منه؟ إنني دائمة التفكير في ذلك...

وانكسر صوتها:

- إنه يتربى على أيدي عدو واع لسائر الناس الذين أحبهم وأعتبرهم أروع الناس على الأرض، ولقد يشب ابني ليكون عدوي أنا بالذات، إنني لا أستطيع أن أتركه يعيش معي... فأنا أحيا تحت اسم مستعار، وإنني لم أراه منذ ثماني سنوات، ثماني سنوات... يا لها من زمن طويل!

وقفت عند النافذة، وراحت تنظر إلى السماء الشاحبة المقفرة:

- لو عاش معي لكنت أقوى، ولما كان ذلك الألم يحز في قلبي.. لو مات... لكان ذلك أسهل عليّ...

فتنهدت الأم، وقلبها يتمزق بالرأفة والحنو:

- يا لك من عزيزة مسكينة!

فتمتمت لودميلا بابتسامة مريرة:

- يا لك من محظوظة! إنه لشيء رائع حقاً للأم والابن أن يقفا جنباً إلى جنب... وهذا شيء نادر للغاية.

قالت بيلاجيا متعجبة من نفسها:

- أجل، إنه رائع.

ثم قالت وهي تخفض صوتها وكأنها تبوح بسر:

- كلنا جميعاً... أنت، ونيقولاي إيفانوفيتش، وكل الذين يتبعون الحقيقة... كلنا جميعاً نقف جنباً إلى جنب! لقد أصبحنا جميعاً أقرباء على حين غرة وإني لأفهمكم جميعاً. إني لا أستطيع أن أفهم دائماً ما تقولون، ولكنني أفهم كل شيء آخر.

فتمتت لودميلا قائلة:

- أجل إنه كذلك... إنه كذلك...

ووضعت الأم يدها على صدر لودميلا وتابعت حديثها بما يشبه الهمس، كأنها كانت ترى في عين ذهنها الأشياء التي قالتها.

- لقد شق أبنائونا طريقهم في العالم! هكذا أرى القضية، في العالم كله قادمين من كل زاوية فيه وسائرين نحو هدف واحد. إن أظهر الناس قلباً وأروعهم فكراً يتحركون ضد الشر ويدوسون البهتان تحت أقدامهم القوية. إنهم فتیان أصحاء! يصرفون كل قواهم في سبيل تحقيق شيء واحد... العدالة! لقد شقوا طريقهم ليتخلصوا من الألم الإنساني، ليمسحوا البؤس عن وجه الأرض، وليقهروا البشاعة، ولسوف يقهرونها، ليضيئوا شمساً جديدة، كما قال أحدهم! ولسوف يضيئونها؛ ليوحدوا القلوب المكسورة، ولسوف يوحدونها!

واسترجعت الكلمات صلوات منسية انبعثت في صدرها كالشرر، مشعلة إيماناً جديداً.

- إن أبنائنا يسلكون درب الحقيقة والعقل، يحملون المحبة إلى

قلوب الناس، يرونهم سماء جديدة وينرون الأرض بنار جديدة... نار الروح التي لا تنطفئ، ومن لهيبها تنبثق حياة جديدة تولد من محبة أبائنا للجنس البشري كله. مَنْ الذي يستطيع أن يطفئ هذا الحب؟ مَنْ؟ أي قوة تستطيع تدميره؟ أي قوة تستطيع أن تعترضه؟

تنحت جانباً، وقد أنهكتها قوة انفعالها، وجلست وهي تتنفس بصعوبة، وكذلك ابتعدت لودميلا في سكوت وحذر، كأنها تخاف أن تكسر شيئاً ما. راحت تنتقل عبر الغرفة في خفة، ونظرة عينيها الخابيتين العميقة مثبتة أمامها. كانت تبدو كأنها ازدادت طولاً واستقامة ونحولاً، وكان وجهها الصارم الناحل يبدو يعبر عن تفكير عميق، وشفاتها منضمتين في عصبية، وسرعان ما طمأن الصمت المخيم على الغرفة بالأم، فسألت معتذرة وهي تلاحظ انزعاج لودميلا:

- لربما قلت شيئاً ما كان يجدر بي أن أقوله؟

فاستدارت إليها لودميلا تنظر في ذعر، ثم تكلمت بسرعة وهي تمد يدها كأنها تريد أن تبقي شيئاً ما:

- لا، لا، إن الأمر كذلك، ولكننا لن نتكلم عنه أكثر من ذلك، فليبق كما وضعته أنت.

وجاء صوتها أكثر هدوء وهي تضيف قائلة:

- يجب أن تغادري في الحال، فأمامك طريق طويل بعد.

- آه لو تدرकिन مدى سروري فقط! لسوف أحمل إلى الآخرين كلمات ابني... كلمات لحمي ودمي، لكانني أعطي نفسي ذاتها.

وابتسمت وكانت ابتسامتها تنعكس على وجه لودميلا في غموض،
وأحست الأم أن فرحتها تخف بصرامة المرأة الشابة فتمتلئ فجأة برغبة
عنيدة في أن تصب نارها في تلك النفس العابسة؛ لتحمل تلك المرأة على
التجاوب مع نداءات قلب تفجر بالفرح، فأخذت يدي لودميلا، وضغطت
عليهما بشدة، بينما هي تقول:

- يا قلبي العزيز! ما أحسن أن يعلم المرء أن ثمة نورًا يضيء الدرب
لكل البشر، وأن الوقت الذي سيرونه وسيتبعونه فيه بكل قلوبهم سوف
يجيء!

ومرت على وجه الأم الكبير اللطيف رعشة، والتهبت عيناها،
وارتجف من فوقهما حاجباها، كأنهما يظللان إشعاعهما، وتمايل ذهنها
بفعل تلك الأفكار العظيمة التي صبت فيها كيائها بأسره، كل ما عرفته
في حياتها وقاسته. راحت تركز جوهر تلك الأفكار في الكلمات البراقة
الصلبة التي نمت وتضاعفت في قلبها الخريفي، تنيرها قوة شمس الربيع
الخلّاقة المحترقة والمشتعلة هناك ببريق متزايد من اللمعان.

- ذلك أشبه بإله جديد قد ولد للإنسان! كل شيء للجميع... والجميع
لكل واحد! هكذا أرى الأمر. في الحقيقة إننا جميعاً رفاق، نفوس متقاربة،
كلنا أبناء أم واحدة، تلك هي الحقيقة!

وأمسكت بها من جديد موجة انفعال، فتوقفت وأخذت نفساً عميقاً،
وفتحت ذراعيها بوسع وهي تقول:

- وعندما أقول لنفسي كلمة «رفاق» فإنني أستطيع أن أسمعهم
يسيرون في قلبي قدمًا.

لقد فعلت ما أرادت أن تفعله، فتضرج وجه لودميلا وارتجفت شفتاها، وراحت دموع كبيرة مستديرة تندرج على وجنتيها.
واحتوتها الأم بين ذراعيها، وهي تبسم في فرح لانتصار قلبها فرحاً عذّباً.

وبينما هما تفترقان تطلعت لودميلا إلى وجه الأم وقالت بصوت منخفض:

- هل تعرفين إلى أي مدى يطيب للمرء أن يكون معك؟

- ٢٩ -

وعندما خرجت، أطبق عليها الهواء البارد في قسوته، فلذع أنفها، وقطع أنفاسها، فتوقفت ونظرت حولها. كان يقف عند الزاوية سائق عربية يرتدي قبعة ممزقة، وعلى بعد مسافة منه كان يسير رجل محني الظهر، ورأسه غارق بين كتفيه، بينما كان يركض أمامه جندي يفرك أذنيه، ففكرت:

- لا بد أنهم أرسلوا الجندي إلى حانوت.

ومضت في طريقها، مسرورة لسماع الثلج يتكسر بصوت عال تحت أقدامها، فوصلت المحطة قبل موعد القطار، ولكن غرفة الانتظار الخاصة بالدرجة الأولى كانت وسخة يعبقها الدخان، مزدحمة بالناس. كان البرد قد أرغم عمال السكة والحوزيين، وكثيراً من المتعطلين الذين لا بيوت لهم، على اللجوء إليها، وكان فيها عدد من المسافرين، بعض الفلاحين وتاجر بدين يرتدي معطفاً ثقيلاً، وقسيس ترافقه ابنته المجدورة الوجه،

وخمسة أو ستة جنود، وبعض الباعة المضطربين. كان الناس يتحدثون ويدخنون ويحتسون الشاي أو القودكا، وانفجر شخص ما، كان يقف عند المقصف، ضاحكاً بشدة، وأمواج من الدخان تحلق فوق كل شيء، وكان الباب يصير كلما فتح، فإذا ما صفق ارتجف زجاج النوافذ، وفاحت من الغرفة رائحة التبغ والسّمك المملح.

اتخذت الأم مقعداً ظاهراً بالقرب من المدخل، وراحت تنتظر، وكلما فتح الباب كانت تهب عليها موجة من الهواء البارد، فتسر لذلك وتعب من الهواء أنفاساً عميقة في كل مرة. كان غالبية الناس يحملون رزماً كبيرة، فيجدون أنفسهم في مأزق عند المدخل وحيثئذ يسبون وهم يلقون بها إلى الأرض أو فوق المقاعد الخشبية، ويغمغمون وهم ينفضون الثلج عن أكمامهم وياقاتهم ولحاهم وشواربهم.

ودخل من الباب شاب يحمل حقيبة جلدية في يده، ونظر حوله بسرعة، ثم اتجه نحو الأم مباشرة وسألها:

- أذهبة إلى موسكو؟ فأجابت:

- نعم إلى تانيا.

- هاك.

ووضع الحقيبة على المقعد بالقرب منها، وأشعل لفافة تبغ، ورفع قبعته ثم خرج من الباب الآخر. ربتت الأم على جلد الحقيبة البارد ووضعت مرفقها عليها، ثم أخذت تتفحص الناس الذين حولها، وعلى وجهها سيماء الرضى.

وبعد برهة قصيرة نهضت وأخذت مقعداً آخر بالقرب من باب الخروج. كانت تسير مرفوعة الرأس، تنظر إلى الوجوه التي تمر بها، متمهلة، تحمل الحقيبة التي لم تكن ثقيلة جداً.

اصطدم بها شاب يرتدي معطفاً قصيراً مرفوع الياقة، ثم تنحى جانباً في صمت، ورفع يده إلى قبعته، وخيل إليها أن ثمة شيئاً مألوفاً فيه، فنظرت خلفها ورأت إحدى عينيه الشاحبتين تنظر إليها من فوق ياقته. كانت نظرتة المثبتة عليها كطعنة خنجر، فارتجفت يدها التي تحمل الحقيبة باضطراب، وأحست فجأة أن حملها أصبح أكثر ثقلًا، وفكرت:

- لقد رأيته في مكان ما من قبل!؟

وحل محل هذه الفكرة الإحساس الكريه الذي أثارته نظرتة فيها، ورفضت أن تحدد الشعور الذي أخذ يتجمد في قلبها ببطء، ولكن في عناد ينمو ويثور في حلقتها، فيملأ فيها بمرارة جافة، فلم تستطع مقاومة الشعور الذي تملكها ودفعها إلى النظر خلفها مرة أخرى. كان الرجل يقف في المكان ذاته، ينقل ثقله من قدم إلى أخرى، كأنه يحاول حزم أمره لعمل شيء ما، وكانت يده اليسرى في جيبه بينما يده اليمنى كانت مدفوعة بين أزرار معطفه فبدا كتفه الأيمن أعلى من كتفه الأيسر.

اقتربت من المقعد وجلست في ببطء وحذر، كأنها تخاف بلاء في داخل نفسها، ولما كانت تتوقع شرًا مستطيرًا، فقد بحثت في ذاكرتها، حتى عثرت على المناسبتين اللتين رأت فيهما هذا الرجل من قبل:

كانت الأولى في الحقول الخالية، عند حافة المدينة، عندما هرب ريبين، والثانية في المحاكمة، وكان يقف في فناء المحكمة بالقرب من

ضابط البوليس الذي أرسلته في الطريق غير الصحيح، وهو يتعقب ريبين.
أدركت أنها تُطارَد، فما من شك في ذلك، فسألت نفسها:

- هل وقعت في الشرك؟

ثم أجابت مرتجفة:

- ربما لم يحن الوقت بعد.

وأعلنت بعد فترة مرغمة نفسها على مواجهة الحقيقة:

- لقد وقعت في الشرك!

ونظرت حولها دون أن ترى شيئاً، بينما تفتق ذهنها عن أفكار تلمع كالشرر!

- هل أترك الحقيقة وأذهب؟

ثم حلت محل هذه الفكرة فكرة أشد لمعائناً:

- ماذا؟ أتخلى عن كلمات ابني؟ أسلمهم لأيدٍ كهذه؟

وأطبقت على الحقيقة!

- هل أحملها معي؟ وأهرب؟

كانت تلك الأفكار عدوة لها، مملاة عليها من الخارج. كانت تلفح ذهنها وتثقب قلبها كأسلاك ملتهبة، فيخرجها الألم الذي تحس به عن رشدها، ويبعدها عن باطل وكل ما أصبح عزيزاً عليها. شعرت أن قوة عداية تضغط على كتفيها وصدرها، فتكاد تخنقها بتأثير الهلع القاتل، وأخذت عروق صدغيها تنبض بقوة وعنف، وشعرت بالدفع يزحف إلى

جذور شعرها .

وفجأة، صبح عزمها مرة واحدة على تنحية أفكارها جانباً، فطردت كل تلك الشرارات الضئيلة الضعيفة الوضعية، وقالت لنفسها:

- عار عليك!

وشعرت بتحسن في الحال، بل في الواقع أنها امتلأت بالشجاعة، فأضافت تقول:

- لا تجري العار على ابنك، فلست بالخوافة!

ووقعت عيناها على نظرة ذليلة خاملة، والتمع في ذهنها وجه ريبين، وجعلتها تلك الثواني القليلة من التردد أكثر ثباتاً و يقيناً. إن قلبها الآن ينبض بهدوء، وفكرت وهي تنظر حولها:

- ماذا سيحدث الآن؟

نادى الجاسوس أحد حراس المحطة، وهمس شيئاً في أذنه، مشيراً إليها بعينه، فنظر إليها الحارس ثم تراجع، وأتى حارس آخر وأصغى لما قاله الجاسوس وعبس، كان رجلاً هرمًا، طويلاً، أبيض الشعر، غير حليق اللحية... فهز رأسه إلى الجاسوس، وشق طريقه نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه الأم، واختفى الجاسوس!

اقرب الحارس متمهلاً، وهو يحملق فيها عابسًا، فتراجعت الأم في مقعدها وفكرت:

- لو أنهم لا يضربونني!

وتوقف أمامها صامتًا فترة من الوقت ثم سألها أخيرًا:

- إلام تنظرين؟

- لا شيء!

- هكذا؟ أيتها اللصة؟ أتلجئين إلى هذه الحيل في مثل سنك هذه!

لطمتها كلماته، مرة... مرتين! وكان الخبث المتأصل فيها يؤودها،
كما لو كان قد شج وجنتيها، أو اقتلع عينيها.

فصاحت بأعلى صوتها، وقد أخذ كل ما حولها يدور في زوبعة
الغضب الذي احتواها:

- أنا؟ أنا لصة، يا كذاب!

وشدت على الحقيبة ففتحتها، وأخذت تصرخ، وقد نهضت على
قدميها تلوح بالمنشورات فوق رأسها:

- انظروا! انظروا جميعاً!

واستطاعت أن تسمع من خلال الهدير الذي في أذنيها، هتافات الناس
الذين هرعوا من كل صوب:

- ماذا حدث؟

- هناك جاسوس...

- ما هذا؟

- يقولون إنها لصة.

- امرأة محترمة كهذه؟ بنخ... بنخ...

فصاحت الأم بصوت عال وقد هداً روعها لرؤية الناس تتجمع حولها:

- أنا لست لصّة. لقد جرت أمس محاكمة المساجين السياسيين، وكان ابني، بافل فلاسوڤ، ضمنهم، فألقى خطاباً... ها هو، إنني أحمله إلى الشعب، حتى يقرأه ويعرف الحقيقة...

وأخذ أحد الوقوف منها منشوراً في حيلة وحذر، فلوحت بالمنشورات في الهواء، وألقت بها فوق رؤوس الحشد، فقال صوت مدعور:

- سينتقمون منك، من أجل ذلك.

رأتهم الأم يختطفون المنشورات ويدسونها داخل معاطفهم وجيوبهم، فأملها ذلك بعزم جديد، وأخذت تتحدث في هدوء وقوة أكثر، تحس بالفخر والفرح اللذان يجتاحانها. وبينما هي تتكلم كانت تختطف المنشورات من الحقيقة وتلقي بها ذات اليمين وذات اليسار إلى الأيدي التي كانت تتلقفها في لهفة.

- هل تعرفون لِمَ قدموا ابني وأصدقاءه إلى المحاكمة؟ سأخبركم، وستصدقون قلب الأم وشعرها الأبيض. لقد قدموهم إلى المحاكمة لأنهم بكل بساطة، يقولون للجماهير الحقيقة! ووجدت أنا بالأمس أنه ليس هناك من يستطيع نكران هذه الحقيقة... ليس هناك شخص واحد.

ونما الحشد في سكون، وهو يتجمع في شكل حلقة من الأجساد الحية حول المرأة.

- الفقر والجوع والمرض... ذلك ما يصيبه الناس مقابل عملهم! كل شيء ضدنا. نحن نعطي كل حياتنا، يوماً بعد يوم، آخر ذرة من قوانا لعملنا، ونحن دائماً قذرون، نُخدع بينما يجني الغير أرباحاً ومسرة. يقيدوننا في

الجهل كما يقيدون الكلاب بالسلاسل.. إننا لا نعرف شيئاً... يقيدوننا بالخوف... إننا نخاف من كل شيء، فحياتنا أشبه بليل واحد طويل مظلم!

وجاء الجواب المكتئب:

- هذا حق!

- أوقفوا فمها!

ورأت الأم في مؤخرة الحشد الجاسوس وجنديين، فأسرعت توزع آخر ما لديها من المنشورات، ولكن عندما بلغت يدها الحقيقية مست يد أخرى، فقالت وهي تنحني:

- خذها! خذها!

وصاح الجنديان وهما يدفعان الناس جانباً:

- انصرفوا!

أفسح الجميع الطريق مرغمين وهم يضغطون على الجنديين لمنعهما من التقدم، ربما على غير رغبة في ذلك، وجذب الناس بقوة لا تقاوم نحو تلك المرأة ذات الشعر الأبيض والعينين الواسعتين الوديعتين في وجه لطيف وديع، ووجدوا أنفسهم، وهم المنعزلون في الحياة بعضهم عن بعض، قد تجمعوا هنا، يصغون بشعور عميق إلى الكلمات المتأججة التي ربما كانت تبحث عنها منذ زمن بعيد أعداد من تلك القلوب التي آلمها ظلم الحياة. كان أولئك القرييين من الأم صامتين، عيونهم مثبتة على عينها في انتباه متلهف، وكانت هي تحس أنفاسهم الدافئة تلفح وجهها.

- تحركي أيتها المرأة العجوز!

- سيمسكون بك بعد دقيقة!

- يا لقوة أعصابها!

وصاح الجنديان وهما يشقان طريقهما إلى الأمام:

- اخرجوا من هنا! اذهبوا إلى أماكنكم!

تمايل الناس القريبون من الأم وأمسكوا بعضهم بعضاً، وشعرت هي أنهم على استعداد لأن يفهموا ويصدقوها، فأرادت أن تسرع وتقول لهم كل ما تعرفه، كل الأفكار التي جربت قوتها، كانت كلها تنبعث من أعماق قلبها، وتؤلف أغنية، ولكنها أدركت في ألم أنها لن تستطيع غناؤه... كان صوتها مرتجفاً متقطعاً...

- إن كلمات ابني هي كلمات عامل شريف لم يبيع نفسه، في وسعكم أن تعرفوا الكلمات الشريفة من جرأتها.

وكانت هناك عينان، فتيتان مثبتتان عليها في هلع ونشوة.

وضربها شخص ما على صدرها فوقعت على المقعد، وكانت أيدي الجنديين تلوح فوق رؤوس الحشد، تمسك بالياقات والأكتاف، وتدفع الناس جانباً، تنتزع قبعاتهم، وتلقي بهم إلى الجانب الآخر من الغرفة. وتراقص كل شيء أمام عيني الأم، ولكنها استطاعت أن تقاوم ضعفها لتصيح بما تبقى من صوتها:

- اتحدوا أيها الناس الطيبون في قوة واحدة عاتية!

وأمسك بها جندي من ياقتها، وكانت يده ضخمة مكتنزة وهزها قائلاً:

- اخرسي!

فاصطدم رأسها بالحائط، وانبعث في قلبها دخان الخوف اللاذع لفترة قصيرة من الوقت، ولكن تأججت الشجاعة من جديد تبدد ذلك الدخان.

قال الجندي:

- اذهبوا!

- لا تدعوا شيئاً يخيفكم! فليس من شيء يمكن أن يكون أسوأ من الحياة التي تعيشونها...

- قلت لكِ اخرسي!

وأمسك الجندي بذراعها ودفعها، وأمسك الجندي الآخر بذراعها الآخر وقادها معها إلى بعيد.

- أكثر من المرارة التي تأكل قلوبكم وتلتهم أرواحكم كل يوم!

كان الجاسوس يركض أمامها ويلوح بقبضته في وجهها ويصيح:

- اخرسي أيتها العاهرة!

فومضت عينها واتسعت، وارتجفت شفتاها وصاحت وهي تثبت قدميها على الأرض الزلجة:

- لن يستطيعوا قتل روحي... روحي الحية!

- أيتها العاهرة!

وصفعها الجاسوس.

فأتى صوت خبيث:

- إنها لتستحق ذلك... الشمطاء!

وأعمى بصرها لفترة شيء أسود وأحمر، وملأ فمها طعم الدم المالح،
ولكن ضجيجًا من الهتافات القصيرة بعث الحياة فيها!

- إياك أن تمسها!

- هيا أيها الناس!

- إياك أيها الوقح النذل!

- عليكم به!

- إنهم لا يستطيعون أن يسيلوا الدماء من عقولنا أيضًا!

دفعوها من ظهرها، وضربوها على كتفيها ورأسها، فراح كل شيء،
يتراقص ويترنح أمام عينيها في زوبعة من الصياح والعيول والصفير.

وتلقت ضربة قوية مصمة على أذنيها، ملأت حلقها وأطبقت على
رقبتها، فمادت الأرض تحتها، وتراخت ركبناها، وارتجف جسدها تحت
وخزات الألم المتلاحقة، وثقلت وطأته، فترنحت عاجزة مقهورة. لكن
عينيها لم تفقدا بريقهما، لا بل كانتا تتقابلان مع عيون أخرى، تلهب كلها
بتلك النار الجريئة التي تعرفها وتحبها كثيرًا.

ودفعوها من خلال الباب، فانزعت إحدى يديها من قبضة الجندي،
وأمسكت بمصراع الباب وهتفت:

- لن ينفع حتى ولا محيط من الدماء في إغراق الحقيقة!

ضربوها على يدها.

- ليس بوسعكم إلا أن تزيدوا من حقدنا عليكم أيها المغفلون!
وسيعود عليكم هذا كله بالويل والثبور.

وأمسك جندي بعنقها وأخذ يخنقها، فصاحت:

- أيتها المخلوقات البائسة...

وأجابها بعضهم بشهقة عالية...

